الأدب الإسلامي
بين النظرية والتطبيق

دكتور
علي علي صبح

الجزء الثالث

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

نحمدك اللهم ونشكرك حمداً يليق بجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، لا نحصي ثناء عليك ، كما أثنيت أنت سبحانك ، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ، اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، يا أرحم الراحمين .

اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد ﷺ صلاة وتسليما كثيرين عدد كمالات الله عز وجل ، كما يليق بكماله ، صلاة تنير بها قلوبنا ، وتطهر بها نفوسنا ، وتصفي بها أرواحنا ، وترد بها عنا كيد الكائدين ، وتنصرنا على أعداء الدين ، أنت نعم المولى ونعم النصير ، وعلى آله الأطهار ، وأصحابه الأبرار رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ومن تبعهم بإحسان .. وبعد :

فمنذ عام [١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م] طُبع الجزء الأول من كتابي : « الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق » ، وهذا هو الجزء الثالث منه ، يضم أقساما ، تتم به الفصول الباقية من الكتاب ، فالقسم الأول تناولت فيه خصائص التصوير الفني ، والثاني عرضت فيه الأغراض الأدبية وخصائصها الفنية ، والثالث ناقشت قضية التنظير والتطبيق في الأدب الإسلامي ؛ فوضحت نشأته ، وأطواره ومستقبله ، ومعالمه النقدية ، وموقفه من المذاهب الأدبية الحديثة ، وموقفه من العلم والفن ، ثم تحدثت عن فنونه وأجناسه الأدبية ، مع التحليل والتطبيق والدراسة لكثير من النماذج الأدبية ، في فنون الشعر : الغنائي ، والمسرحي ، والملحمي والأناشيد ، والنثر الفني بأنواعه : من المقالة ، والرسالة ، والخطبة ، والقصة والرواية ، والمسرحية ، وفن السيرة الأدبي ، وأدب الرحلات ، وغير ذلك .

أما الجزء الأول من الكتاب فقد تناولت في الفصل الأول منه « حقيقة الأدب الإسلامي » وموقفه من قضايا : التقليد ، والتجديد ، والأصالة ، والعراقة والمعاصرة ، والحداثة ، والالتزام ، والحرية ، والتحرر ، والمناسبة الأدبية .

وفي الفصل الثاني عرضت موضوعات الأدب الإسلامي ، ومصادره ؛ فكان المصدر الأول القرآن الكريم موضحا بعض المظاهر البلاغية للإعجاز في قصتي : « أصحاب الكهف » و« موسى والعبد الصالح عليهما السلام » ، ثم المصدر الثاني في الحديث الشريف موضحاً الخصائص الفنية في جوامع الكلم للنبي ﷺ حديثا وخطبة ورسالة وغيرها ، ثم المصدر الثالث : وهو أدب الصحابة رضي الله عنهم نثراً

وشعراً مع التحليل والدراسة الأدبية لكثير من النماذج المتنوعة لتوضيح القيم الخلقية والفنية .

وأما الجزء الثاني فقد اختص بالأدب الإسلامي في العصر الأموي ؛ فهو تابع للمصدر الثالث من مصادر الأدب الإسلامي ؛ لأنه « أدب التابعين » ؛ لقرب عهده من أدب الرسول ﷺ وأدب الصحابة ﷺ ؛ فقد شرفوا بمخالطة الصحابة والتلقي عنهم مباشرة ، فنالوا شرف « التابعين » لهم ﷺ جميعا لقول الرسول ﷺ : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ... » .

نسأل الله عز وجل أن ينفع به .. والله ولي التوفيق .

القاهرة في رمضان المبارك ١٤١٨هـ
ينـــــاير ١٩٩٨م

علي علي صبح

الفصل الثالث

التصوير الفني في الأدب الإسلامي

التصوير الفني في الأدب الإسلامي ينبغي أن يكون له خصائصه الفنية المتجددة ؛ تحيا وتزدهر بتلاؤم المعاصرة مع الأصالة العربية الإسلامية ؛ فيتميز بها عن الأدب ، الذي لا يهتم بالقيم الخلقية والفنية السامية معاً .

وهذه الخصائص الجديدة العريقة في الأدب الإسلامي تتلائم دائما في روحه وقيمه الخلقية والفنية مع واقعنا العربي الإسلامي ، لا بد من توافرها فيه شعراً ونثراً على النحو التالي :

أولاً : خصائص الكلمة :

١ ـ من خصائص الكلمة الفنية أن تكون صحيحة في اشتقاقها وإعرابها نصيحة ، لا عامية ولا سوقية ، ولا أجنبية ، وأن تكون جزلة فخمة قوية ، سهلة سلسة ، عذبة ، حسب مقتضيات المعاني والأغراض والتجربة والعاطفة .

٢ ـ أن يتعامل الأديب مع الألفاظ ، التي تدل من حين لآخر على مصطلحات الفقه والتفسير والحديث والسير ، والتاريخ الإسلامي وحضارته وعلوم العربية في مجالاتها المختلفة .

٣ ـ أن تأخذ الكلمة مكانها وموقعها من الأسلوب والتصوير ؛ لتوحي من خلاله بمعان كثيرة ، وظلالات تشع فيها الروح الإسلامية ، والمعاني الإنسانية والقيم الأخلاقية ، والعواطف الصادقة والمشاعر القوية .

٤ ـ استعمال الألفاظ والأسماء ، التي تدل على العظماء والزعماء والخلفاء والأعلام والأبطال والقادة والعلماء والمفكرين والمؤرخين والمفسرين والمحدثين ، وأصحاب السير ، وغيرهم ممن شاركوا في بناء حضارة الإسلام وكان لهم دور كبير في نشرها والجهاد في سبيله ، وبناء الأمة وتقدمها ورقيها .

ثانيا : خصائص الأسلوب :

١ ـ أن يكون الأسلوب محكما ، والنظم دقيقا ، على مثال ما جاء في القرآن الكريم من نظم بديع ، وما جاء في الحديث الشريف من روعة البلاغة في جوامع الكلم ، وبهذا تسري روح القرآن الكريم والحديث الشريف في الأسلوب

والنظم ، وأن يتأثر بالنماذج الأدبية للسلف الصالح شعراً ونثراً .

٢ ـ عدم التعقيد والترميز والإلغاز في الأسلوب . حتى لا تحجب المعاني ، ولا تختفي الفكرة ، وإنما ينبغي أن يقوم الأسلوب على النسج الرصين الذي يشف عن وضوح المعنى ، وجلاء الفكرة أو الوحي الدال على المعاني الغزيرة فيزداد الأسلوب عمقا وثراء وحيوية .

٣ ـ الاقتباس في الأسلوب من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وأقوال الصحابة والتابعين ، وأمثال الحكماء ، وعبارات العلماء والمحدثين والفقهاء والمفسرين ، والشعراء والأدباء والنقاد ، وعلماء البلاغة ، والزعماء والقادة والمصلحين والمجددين وغيرهم .

٤ ـ التخلي عن الأسلوب الخطابي في الشعر والقصة ، وفن السيرة الأدبي ، والاهتمام بالأسلوب التصويري ، وتجسيم المعاني وتشخيص الأفكار في صور محسة من الواقع والحياة .

٥ ـ التخلي عن الأسلوب التقريري ، الذي يعتمد صراحة على سوق المقدمات للوصول إلى النتائج والبراهين ، فهذا الأسلوب لا يتفق مع طبيعة الأدب والشعر ؛ فهو يعتمد على الوحي والخيال وروعة التصوير . وحيوية التجسيم والتشخيص ، وبعث الحياة والحركة في المشاهد والأحداث ، والمعاني والأفكار .

٦ ـ التصوير الأدبي النابع من الأسلوب ، الذي يعتمد على الحقيقة لا الخيال ، مما اهتم به « علم المعاني » في صوره الأدبية المتنوعة ، في نسيج من وحي التقديم أو التأخير ، والذكر أو الحذف ، والتعريف أو التنكير ، والاسمية أو الفعلية ، والقصر والتأكيد ، والالتفات ، وأسلوب الحكيم ، والإيجاز والإطناب والمساواة ، ومراعاة مقتضى الحال ، وغيرها مما انتهى إليه علماء البلاغة في « علم المعاني » المعروف .

ثالثا : خصائص الخيال وصوره الأدبية :

١ ـ عدم جموح الخيال ، فلا بد أن يسير الخيال مع العقل في توازن ، حتى لايطغى الخيال على موازين العقل ، ولا تطغى مقاييس العقل على أجنحة الخيال بل يحلق الخيال بأجنحته ليرفرف بصور سابحة ، يضبطها العقل وينظمها ويهذبها ويخرجها في صورة شيقة بديعة ، ولوحة مبتكرة مقبولة في عرف العقل

والخيال والواقع جميعا .

٢ ـ أن يكون الخيال مرتبطا بالفكر الإسلامي ، لينسج منه صوره الأدبية من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية من التراث الإسلامي العريق ، والغني بصوره الأدبية الرائعة في الشعر الإسلامي ؛ وفي مجالات التفسير وشروح الأحاديث ، وفي السيرة والتاريخ وحضارة الإسلام الزاهرة .

٣ ـ ارتباط صور الخيال بالتصوير القرآني المعجز فيقتبس الأديب صور القرآن في أدبه وشعره ، والقصّاص في قصصه ، وينسج صوره على مثال التصوير القرآني البليغ ، لأن إعجاز القرآن الكريم في تصويره أقوى من صور الخيال المجنحة .

وكذلك ارتباط الخيال بالصور الأدبية في الحديث الشريف ؛ فقد خَصَّ الله عز وجل رسوله محمد ﷺ بجوامع الكلم ، وعلى الأديب أن يقتبس الصور البليغة من الحديث الشريف ؛ لتبعث الحيوية والثراء والخصوبة في الأدب والشعر والقصة وغيرها .

٤ ـ أن ينسج الخيال صوره من الغزوات والمعارك الإسلامية ، والبطولات الرائعة فيها ، ومن مظاهر حضارة الإسلام ورقيها في مختلف العصور ؛ فقد جمعت انتصارات الإسلام صوراً رائعة ، تسمو بالشعر والأدب إلى الجودة والإبداع ، تجدها في السيرة العطرة ، وفي الحضارة الإسلامية وأطوارها ، والمعارك المظفرة .

٥ ـ أن يكون الخيال متنوعا ، لا يقتصر على الخيال التقليدي والتراثي المستمد من « علم البيان » كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ، بل يتجاوز ذلك ليشمل أنواعه الجديدة والمبتكرة الأخرى ، كالخيال الابتكاري ، والتأليفي وتصوير الواقع المحس ، وتصوير مظاهر الحياة والطبيعة بدقة واستقصاء وعمق وحيوية ، وكذلك الاعتماد في التصوير على التجسيم والتشخيص ، ثم صور الخيال العلمي ، والخيال الذي يعتمد على البطولات المثيرة والحكاية والمغامرات .

رابعا : عناصر التصوير الأدبي :

عناصر التصوير الأدبي تختلف عن روافده ، وكلاهما لا يستغني عنها

التصوير الأدبي ، بل هما قوامه المؤثر فيها ، وبهما يتحقق الجمال والحيوية والقوة والتأثير والاقناع ، وفي الجوانب الثلاثة السابقة وضحنا فيها روافد الصورة في إيجاز ، وهنا سنقف مع عناصرها بإيجاز أيضا [١] ، وهي على النحو التالي :

١ ـ **الموقع** : لا تخلو منه صورة ، لأنها تستمد عناصرها من مشاهد الطبيعة ومظاهر الحياة ، أو من حدث يثير العواطف والانفعالات ، أو حالة نفسية أو عاطفة إنسانية ، أو معنى ، أو نموذج بشري ، أو انتصار ، أو هزيمة ، أو انحراف وضلال ، أو نجاح وفوز وما أشبه ذلك .

٢ ـ **الحركة** : سواء أكانت حركة سريعة أو بطيئة أو بين ذلك ، فلا تخلو منه صورة ؛ فقد تكون نابعة أو مصدرها المعنى اللغوي والمعجمي للكلمة مثل : « أسرع وجرى ومشى » ، أو من صيغة الكلمة مثل صيغة الفعل المضارع ، الذي يدل على التجدد والاستمرار والحدوث مثل : « يذهب ويخرج ويرتفع » وغيرها أي مستمر في الذهاب والخروج والارتفاع ، أو صيغة المفاعلة ، مثل : « قاتل وتقاتل مقاتلة » وغيرها ، وقد تتنوع الحركة في صيغة واحدة مثل : « يتحرك » فالحركة الأولى من المعنى اللغوي للفعل وهو الحركة وعدم الثبات ، والحركة الثانية من صيغة المضارع التي تدل على التجدد والاستمرار وهكذا ، وقد تكون الحركة نابعة من تصوير الواقع المحس في الطبيعة والحياة .

٣ ـ **الصوت** : سواء أكان نابعا من المعنى اللغوي للكلمة مثل : « صرخ وينادى وقذيفة » أو من مصدرها في مقاطع اللفظ المتنوعة مثل : « وسوس وزلزل » ؛ فتقوم كل منهما على مقطعين صوتيين : « وس ـ وس » ، « زل ـ زل » أو أكثر كما في « يكفيكهم » ، فهنا ثلاثة مقاطع صوتية : « يك ـ في ـ كهم » وهكذا .

٤ ـ **الألوان** : وهي حسية مثل الأخضر والأبيض والأحمر والأزرق وغيرها ، أو معنوية ؛ فالشجاعة والقوة والنصر لونها معجب يزهو به الإنسان والظلام والضباب والظلم والفساد لونها قاتم حزين مفزع ، ينفر منه الإنسان ، ولا يرغب فيه ، وكذلك الجنة والنار ، والصلاح والطلاح ، والحسنة والسيئة ، والثواب

---

(١) انظر كتابي : ١ ـ البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر . ٢ ـ الصورة الأدبية تأريخ ونقد . فقد وضحت فيهما بالتفصيل والتمثيل والتحليل والنقد .

والعقاب ، والنجاح والإخفاق ، والنصر والهزيمة لهـا ألوان معنوية وخلقية وإنسانية .

٥ ـ **الشكل** : يحدد إطار الصورة ؛ فيكون المعنى عميقاً أو دانياً قريبا والمشهد محدوداً ، أو موسعاً وعريضا ، وصغيرا أو كبيرا ، وحقيرا أو جليلاً عظيماً وضخما وهكذا .

٦ ـ **الحجم** : يحدد خفة المعنى أو المشهد أو ثقله ، وتنوع وزنه وقيمته فيكون خفيفاً أو ثقيلا ، أو كثيفا ، أو متراكما متراكبا طبقات بعضها فوق بعض ورفيعا ونحيفا أو ثخينا ، وشبيها أو نظيراً ، وما أشبه ذلك .

٧ ـ **الطعم** : قد يكون حسيا يتذوقه الإنسان كالعسل والماء واللبن والفاكهة وغيرها ، وقد يكون معنويا مثل طعم الفوز والشجاعة والنصر حلو وطعم الإخفاق والجبن والهزيمة مرّ وكريه تعافه النفس ، وتشمئز منه ، وهكذا .

٨ ـ **الرائحة** : قد تكون حسية يمجها الذوق ، وتعافها النفس وتكرهها مثل : الثوم والبصل والخبثُ ، وقد تكون معنوية وخلقية ، فالجنة والثواب والتقوى والطيب رائحتها طيبة زكية تهفو إليها النفس ، وتستريح لها وترغب فيها ، والنار والعذاب والمعاصي والخبيث رائحتها خبيثة كريهة ، تنفر منهـا النفس وتعافهـا وتبتعد عنها ، ولا ترغب فيها ، وهكذا .

وسنوضح هذه العناصر تطبيقا وتمثيلا أثناء التحليل والنقد والموازنة للنماذج الأدبية حينما نتناولها أثناء الدراسة الفنية للأغراض الأدبية ، لنقف على مظاهر الجمال في القيم الخلقية والفنية ، وروعة الروافد والعناصر في بناء الصور الأدبية للأدب الإسلامي .

خامسا : خصائص البناء الفني :

والقالب أو الشكل الفني لأجناس الأدب الإسلامي يختلف حسب تنوع الفنون الأدبية ، لأنها تستمد أصولها وأسسها من مقاييس النقد الأدبي القديم والحديث على السواء ؛ فالقواعد للشكل والقالب في الفنون الأدبية تتفق مع منهج الأدب الإسلامي ؛ لأنه فن أدبي ، ليس علما ، ولا تأريخا ، ولا منطقا أو فلسفة ولا تقنية أو تشريعا ؛ لذلك لا نحتاج إلى بسط القـول ، ولا التفصيل فيـه لوضوحه في مجال الأدب والنقد ، ونكتفي هنا بالإشارة والتنبيه .

لكن الذي ينبغي أن نقف عنده قليلا هو القالب الفني للقصيدة لتحديد خصائصه الفنية بإيجاز :

١ ـ انتقاء الكلمة ذات الجرس القوي العذب والإيقاع السريع أو البطيء والتنغيم الصوتي الخفيف أو الثقيل ، حسب مقتضيات المعاني والأغراض والعواطف والانفعالات .

٢ ـ أن يقوم الأسلوب على النظم ، الذي يتوخى فيه الأديب معاني النحو ؛ فلا يقع في تنافر أو تناقض بين الكلمات أو بين حروفها ، ولا بين الكلمات ومعانيها ، بل لا بد من التلاؤم والتلاحم بين الحروف والكلمات والمعاني والعواطف ، والتوافق والمشاكلة والتوازن والتقابل بينها جميعا ، وهذا ما يطلق عليه مصطلح الإيقاع الداخلي ، والموسيقى الخفية في الأدب شعراً ونثرا .

٣ ـ مراعاة العمود الشعري في الوزن والقافية ، ليستمر الأدب الإسلامي محافظا على التراث والأصالة ؛ فيتخذ الأديب بحور الخليل بن أحمد نظاماً له في شعره ، فلا يخرج عنها إلى ما يدعي بـ « قصيدة النثر » ، و« الشعر الحر » الذي لا يتقيد بوزن ولا قافية ، وغيره مما يخرج على العمود العربي وصور تجديده في موسيقى الشعر متمرداً على الأصالة والتراث العربي الإسلامي .

ولا يتعارض القالب الفني في الأدب الإسلامي مع التجديد في الموسيقى في كل العصور ، أو التجديد للموسيقى في العصر الحديث ، والأدب المعاصر فيتفق مع التجديد في الموسيقى ، ويعتمد على الوزن المتتابع ، والتنوع في الإيقاع ، والتوافق الثري في التنغيم والتوقيع ، لا على الهدم والتدمير أو العبث والضعف ، أو الركاكة والنثرية ، أو الاستغراب والحداثية ، التي تتعارض مع فطرة وموهبة الإنسان العربي المسلم وطبيعته ، ويتمثل هذا التنوع في التجديد والمعاصرة في القصيدة التي تعتمد على بحور الخليل بن أحمد وقافيته ، أو تعتمد على نظام الموشحات ، والمواليا ، والمقطعات ، أو الشعر المرسل التي تنوعت قوافيه ، مع الالتزام بالبحر الواحد أو التنوع في البحور والقوافي بين مقطعات القصيدة الواحدة ، أو تعتمد على وزن وتفعيلة واحدة تتكرر في نظام القصيدة ؛ فلا تختلف في وزنها حتى نهايتها ، وإن اختلفت سطورها قصراً وطولاً حسب الدفقات الشعورية والانفعالات المتنوعة ، وهو ما يسمى حديثاً بشعر « التفعيلة »

وهو عندي أدنى درجات الموسيقى والإيقاع في الشعر ، مما يدل على ضعف الموهبة الشعرية وعدم خصوبتها وجفاف حقلها الفني .

أما قصيدة النثر ، والشعر الحر وغيره مما يخلو من الوزن والتفاعيل والتتابع بينها ، والتوافق بين مقاطعه وبنياته ، فليس قصيدة ولا شعرا في الأدب الإسلامي وإنما يدخل عندنا في فن النثر الأدبي ، ويكون قسيما لفن الشعر والقصيدة ، ولا يضيره ذلك ، فقد تسمو بعض أقسامه وصوره عن الشعر والقصيدة أحيانا ؛ بل قد يكون النثر الفني أكثر تأثيرا في الواقع والحياة مثل القصة والأقصوصة والمسرحية ومثل النثر الفني عند الرافعي ومصطفى لطفي المنفلوطي وأحمد حسن الزيات وسيد قطب وطه حسين والعقاد والمازني وحسن جاد ويوسف خليف وغيرهم .

٤ - وتعتمد الموسيقى في الأقصوصة والقصة والمسرحية ؛ وفن السيرة الأدبي على الحبكة القصصية في نمو الأحداث وتطورها ، فينبع الحدث من الحدث ، وتنمو الحكاية من الحكاية ، في تسلسل واقعي ونمو مطرد ؛ فلا يقدم حدثا على آخر ، بل يوضع كل في موقعه في تلاؤم وتلاحم وانسجام ، وبلا تناقض أو نشاز ، وغيره مما يعين على التنسيق بين الأحداث ؛ فيوحي بالإيقاع الرتيب لهذه الفنون الأدبية في النثر الفني ، ومما يقوي الإيقاع فيها أيضا الحوار القصصي أو انسياب السرد مع الموضوع ، الذي ينمو من خلال الأحداث مما يعد رافدا قويا من روافد الإيقاع الموسيقي ، وغير ذلك من العناصر الفنية في بناء هذه الفنون ، التي انتهى إليها فن الأقصوصة والقصة والرواية وفن السيرة والمسرحية في النقد الأدبي الحديث .

أما الإيقاع والموسيقى في المقال بأنواعه المختلفة ، فيقوم على انسياب التصوير وسلاسته في التعبير ، وقصر الفقرات والجمل وانتقاء الكلمات ، وروعة النظم وانسجامه ، والنسق الفني في الأسلوب ، وغيرها من السمات والعناصر الفنية للمقال مما انتهى إليه النقد الأدبي العربي الحديث .

هذه ملامح الخصائص الفنية وإشارات كالبرق ، التي ينبغي أن يتوافر أكثر منها مما انتهى إليه الأدب العربي ونقده في العصر الحديث ، ليكون أساساً وبنياناً فنيا في فنون الأدب الإسلامي المختلفة من قصيدة ونثر فني وأقصوصة وقصة ورواية ومسرحية ومقال ، وفن السيرة الأدبي ، وأدب الرحالات ، وأدب الأطفال ،

وأدب الخيال العلمي وغيرها من فنون الأدب في العصر الحديث .

وستتحدث عنها بالتفصيل من خلال النماذج والنصوص الأدبية في مجال التطبيق والدراسة والتحليل والموازنة والنقد ، والتقليد والتجديد ، والتأصيل والحداثة ، والعراقة والمعاصرة [1] .

* * *

(١) انظر في الجزء الأول ، فقد اتضحت هذه المصطلحات النقدية في النماذج الأدبية .

الفصل الرابع

الأغراض الأدبية في الأدب الإسلامي

اشتهر الأدب العام ، وخاصة الشعر بأغراض أدبية كالمدح والفخر والوصف والغزل ، والهجاء والاعتذار ، والرثاء والحماسة ، وغيرها ، التي هي ذاتها أغراض للأدب الإسلامي ، لكنها تنفرد بسمات تتميز بها عن الأدب العام فله خصائصه التي يتصف بها كل غرض إسلامي عنه في غيره ، وهذه الأغراض منها ما هو قديم ورد في الشعر الإسلامي القديم والحديث ، مثل : شعر الأخلاق ، والقيم الإسلامية ، وشعر الجهاد والفتوحات الإسلامية ، وشعر الحضارة والدعوة الإسلامية والشعر الوطني ، والمدح والفخر ، والوصف والنسيب والهجاء والاعتذار ، والرثاء والحماسة وغيرها ، وهنا أغراض أخرى جديدة في الأدب الإسلامي تأخذ موقعها في العصر الحديث والأدب المعاصر ، ومن أهمها :

١ ـ شعر التكافل الاجتماعي .

٢ ـ شعر التضامن الإسلامي .

٣ ـ شعر التأمل والطبيعة .

٤ ـ شعر البناء النفسي للفرد والأسرة .

٥ ـ رثاء الزعامة والقدوة الإسلامية .

٦ ـ الأناشيد الإسلامية .

٧ ـ أدب الرحلات .

٨ ـ أدب الأطفال .

٩ ـ فن التأليف وأدب الكتابة .

١٠ ـ شعر الدعوة الإسلامية .

وغيرها مما تقتضيه ظروف العصر وأحوال الأمة الإسلامية ومواجهة أعداء الإسلام الذين يتربصون به الدوائر في كل عصر ، والدعوة إلى بناء الأمة الإسلامية المعاصرة بناء قوياً ؛ لتتحقق لها العزة والمجد ، والرقي والحضارة كما قال الله عز وجل : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ [1] .

وليست هذه الأغراض صالحة للشعر فقط ، بل هي أغراض صالحة أيضا للنثر الأدبي الإسلامي بأنواعه : في النثر الفني كالخطبة والرسالة والمقالة والأقصوصة والقصة والرواية والمسرحية ، وفن السيرة الأدبي ، وأدب الرحلات

---

(١) سورة المنافقون : آية ٨ .

وغيرها ؛ فتوحي القصة مثلا بغرض الجهاد في سبيل الله ، والتضحية بالمال والنفس ، حتى يتم النصر للقدس الشريف ، مثل قصة « رجال في الشمس » لغسان كنفاني وغيرها ، كما توحي الأقصوصة بعدالة الإسلام وسماحته مثل أقصوصة « جريمة » لخالد خليفة ، وغيرهما ، أو يبني الأديب كتابه على « فن السيرة » الأدبي مثل فن العبقريات كعبقرية محمد ﷺ ، وعباقرة الصحابة رضوان الله عليهم للعقاد ، و« حياة محمد » لمحمد حسين هيكل ، و« على هامش السيرة » لطه حسين وغيرها . أو قصص من التاريخ للشيخ على الطنطاوي وكتاب « فأين الله » للأديب محمد حسين الحمصي ، وهو قصص إسلامي من التاريخ يمثل صيحة عبد الله بن عمر في جوف الصحراء ، وقصص عبد الحميد جودة السحار ، وعلي أحمد باكثير ، وغير ذلك من فنون النثر الفني مثل أدب الرافعي والمنفلوطي والزيات ومحمد الغزالي وغيرهم ، مما يقوم على التصوير الأدبي الرائع للفكر الإسلامي .

أما سمات الأغراض الشعرية المألونة في الأدب الإسلامي ، فهي تعتمد على تصوير القيم السامية ، والأخلاق الفاضلة ، والصفات النبيلة ، لتسمو بالإنسان ، وتصفي روحه ، وتهذب نفسه ، فتبنيه بناء قويا وجاداً ، وتكونه تكوينا سويا وصالحا ؛ ليكون مؤمنا عزيزاً ، وعضوا قويا في جسد الأمة الإسلامية .

ولا يختلف غرض الهجاء في ذلك عن الأغراض السابقة كلها في هذه السمات ، لأن الأديب يصور فيه التنفير من الرذائل والقبائح والمساوئ والدنايا والانحراف والشذوذ ، والتجرد من القيم الإنسانية والأخلاقية ، والانسياق مع الشيطان وهوى النفس ، والتردي في مساقط المذاهب الغربية الملحدة ، والمدنية الزائفة ، والمادية المدمرة ، وهو ينشد من خلال ذلك ما يتناسب مع فطرة الإنسان المستقيمة من القيم الأخلاقية السامية ، والمبادئ الإنسانية الفاضلة .

وقد سلك الهجاء في عصر صدر الإسلام هذا المسلك أو قريبا منه فاختار الرسول ﷺ حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحه ﷺ في الدفاع عن الإسلام ، لهجاء المشركين والرد عليهم ، وكان يقوم على تفنيد دعاوي قريش الباطلة ، والتشهير بغدرها وكفرها ، مع ذكر المساوئ والمثالب التي تتنافى مع المناقب والمثل ، ومع ذكر الوقائع والأيام ، ثم يذكر الشاعر صفات

الرسول وأخلاقه ، وأخلاق الصحابة ، وانتصار المسلمين ومآثرهم وأخلاقهم فحينما يهجو حسان بن ثابت رضي الله عنه المشركين ، يذكر صفاتهم القبيحة والذميمة فكان أشد عليهم آنذاك من وقع السهام كما جاء في قصيدته التي يهجو بها أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب منها :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما فداء

وحينما يهجوهم كعب بن مالك يعيرهم بالكفر والضلال ، ويذكر المساوئ والمثالب التي تتنافى مع المناقب والمثل العليا ، فكان ذلك قاسيا عليهم بعد إيمانهم ، مثل هجائه لعبد الله الزبعري كما في قصيدته التي يقول فيها :

فخرت على ابن الزبعري وقد سرى لكم طلب من آخر الليل متبع
فسل عنك في عليا معد وغيرها من الناس أخزى مقاما وأشنع

ولا يتنافى النسيب والحب والغزل أيضا مع السمات السابقة لأغراض الأدب الإسلامي ؛ فيصور الأديب الحب العفيف الطاهر تصويرا روحيا مهذبا يترفع فيه عن ألفاظ الفحش ، وصور القبح والبذاءة ، وعن التعبير الحسي الممجوج ، والتصوير الفاضح المكشوف ، وعن كشف العورات ، التي تهبط بالإنسان إلى البهيمية والشهوة ، وإلى الشذوذ الجنسي الممقوت ؛ بذلك تسمو مشاعره ، ويتحرك قلبه وعاطفته ، ولن يكون رقي الإنسان إلا بهذا الحب ؛ فهو غريزة وخليقة بنفسه وروحه ، تمتزج بلحمه ودمه ، فلا يتخلى عنه ؛ وهو ضروري للإنسان في الحياة كلها ؛ لأنه يحب أهله كما يقول الله عز وجل : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١) ، وقال النبي ﷺ : « إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » ، وقال النبي ﷺ أيضا : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » ، ويحب والديه وأولاده كما يقول الله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ (٢) ، فقدم الزوجات والأبناء في الحب على غيرهما ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم

---

(١) سورة الروم : اية ٢١ . (٢) سورة آل عمران : آية ١٤ .

وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (١) ، فقدم في الحب الآباء والأبناء والإخوان والزوجات على غيرهم ، وكما عبر القرآن عن حب يعقوب لأبنائه عليهم السلام في قوله تعالى : ﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله شيئا إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢) وكما في قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ (٣) ، وقال النبي ﷺ : « إبدأ بنفسك أولا ثم بمن تعول » ، وغيرها من الأحاديث الكثيرة والمعروفة ، وحث الإسلام على محبة الناس ، قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (٤) ، وفي الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وغير ذلك من الآيات والأحاديث الكثيرة .

ويحب الحيوان فيعطف عليه ويرعاه ، والحديث الذي وضح ثواب الرجل العظيم عند الله تعالى . لأنه سقى الكلب الظمآن ؛ فملأ له خفه من البئر وحديث المرأة التي عذبت في هرة حبستها حتى ماتت جوعا ، وغير ذلك كثير ويحب النبات والزرع كما في حديث الرجل يزرع حبا يأكل منه الإنسان والطير والحيوان ، والشيخ الذي يزرع فسيلة لغيره حتى ولو علم أن القيامة حانت ويحب الحجر والجماد ، فيسخره لخدمته ولما هيأه الله تعالى ، وإماطته عن الطريق حتى لا يتأذى غيره منه ، ويحب كل شيء في الوجود ، لأن الله سخره للإنسان لخدمته ، وهذا التسخير إنما هو تسبيح لله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وإن من شيء

---

(١) سورة التوبة : آية ٢٤ .
(٢) سورة يوسف : اية ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) سورة الاسراء : ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) سورة الحجرات : ايات من ١٠ / ١٣ .

إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (١) ، وقد بلغ القرآن أقصى الغاية في التعبير عن الحب الطاهر العفيف بتصوير قرآني معجز ، فقال تعالى : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ (٣) ، وكذلك في الحديث الشريف حين قسم النبي ﷺ بين زوجاته فقال : « اللهم إن هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » وغيرها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، وأدب السلف الصالح في ذلك فالأديب في أدبه يعبر عن الحب كما عبر القرآن الكريم والحديث الشريف في أدب عفيف طاهر .

وأما الأغراض الأخرى التي ينشدها الأدب الإسلامي من الأدباء فهي كثيرة ومتجددة تجدد الأحداث والظروف والأحوال والتطور والتقدم في كل عصر ؛ لأن الإسلام يستجيب في حضارته مع الإنسان في كل العصور والمواقع وجميع الأحوال ، ومن أهم هذه الأغراض :

أولاً : القيم التشريعية والأخلاق :

يصور الأديب في هذا الغرض آثار العبادات والمعاملات والعقود في بناء الأخلاق الفاضلة ، كما يصور المكارم والمحامد والمناقب ، فمادة الأخلاق الفاضلة ، يتسع لها القرآن ، بما يحوي من قيم وعبادات وتشريع ونظام دقيق للحياة كلها ؛ فحينما سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن أخلاق النبي ﷺ قالت : « كان خلقه القرآن الكريم » ، وشعر القيم الأخلاقية وأدبه قديم ، صاحب الإسلام كما رأينا في أدب الصحابة رضي الله عنهم والتابعين ، وكما في أدب عبد الملك ابن صالح وأبي العتاهية وأبي تمام والبحتري والمتنبي والبوصيري وابن الفارض في القديم ، وعند كثير من الشعراء في العصر الحديث مثل البارودي وشوقي وحافظ والرصافي والماحي وعامر بحيري في ملحمته « أمير الأنبياء » وغيرهم .

وخصص الشاعر خير الدين وانلي ديوانا كاملا كبيرا لشعر الأخلاق والقيم التشريعية وسماه : « الحق المبين » ، ومن قصائده : « تجار القرآن » و« دنيا النفاق »

---

(١) سورة الإسراء : آية ٤٤ .　　(٢) سورة البقرة : آية ١٨٧ .
(٣) البقرة : اية ٢٣٧ .

و« المرأة في الإسلام » [١] وغيرها ، والشاعر فؤاد الخطيب في ديوانه [٢] والشاعر عمر بهاء الدين الأميري في ديوان « مع الله » وديوان « ألوان طيف » الذي صور فيهما القيم الإسلامية ، وأخلاق القرآن الكريم ، ومثل ديوان « على باب طه » للشاعر مختار الوكيل ، وديوان « حمام » للشاعر محمد مصطفى حمام وديوان « سر الله » للشاعر محمد عمر الطوانس ، وديوان « لله وللرسول » للشاعر عبد العليم القباني وغيرها .

ثانيا : الحضارة الإسلامية :

وهو الشعر الذي يتناول حضارة الإسلام المعنوية والمادية في القديم والحديث ؛ مثل حضارة المسلمين التي حلت محل الحضارات الزائفة في الروم والفرس ، وفي أسبانيا وبلاد البلقان ، وللشاعر أحمد شوقي شعر في الحضارة الإسلامية مثل ديوان « دول العرب وعظماء الإسلام » وقصيدته « السينية » ، التي صور فيها حضارة المسلمين في الأندلس ، وللشاعر عمر بهاء الدين الأميري شعر كذلك منه قصيدته « غربة الروح » في تصوير الحضارة الأندلسية ، ومثل ديوان « ملحمة السيرة النبوية » للشاعر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، وكذلك ديوان « من وحي النبوة » للشاعر محمد عبد الغني حسن ، وديوان « من إشراقات السيرة الزكية » للشاعر عزيز أباظة .

ومن شعر الحضارة الإسلامية الالتزام باللغة العربية المستقيمة والفصيحة في تصوير أدبي قوي ، والدفاع عنها ، ومقاومة الغزو الفكري المدمر الذي يحاربها بنشر العامية وتشجيعها ، والحث على التأليف فيها ، وفي اللهجات الإقليمية لها ، والتصدي للزحف الشائع من استعمال الألفاظ الأجنبية بالحروف العربية في اللافتات والإعلانات وأسماء المحلات والمؤسسات والشركات وغيرها من الألفاظ التي شاعت على الألسنة واختلطت بالفصيحة ، لتسير مع العامية جنبا إلى جنب في محاربة اللغة الفصيحة لغة القرآن الكريم والتراث الإسلامي .

ثالثا : التكافل الاجتماعي :

ويصور الشاعر أهداف الإسلام من التكافل ؛ فهو ركن من أركان

---

(١) طبع عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م صفحات ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) دار المعارف عام ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .

الاقتصاد الإسلامي السامية ، كما يصور مجالاته الكثيرة في بناء الحياة وتعميرها وإصلاح النفس البشرية وتقويمها من الحرص والبخل عند الغنى ، ومن البغضاء والحسد عند الفقير ، ويصور آثاره البناءة في الاستثمار والإنتاج والعدالة في توزيع الدخل على المسلمين وإتاحة الفرص للعمل والإنتاج ، وتشغيل العاطلين وتقريب الفوارق بين الأفراد ، وإشاعة الأمن والطمأنينة والرخاء في أمة الإسلام وفي هذا شعر كثير ، نظمه الشعراء قديماً وحديثاً .

رابعا : التضامن الإسلامي :

وهو الشعر الذي تجتمع له كلمة المسلمين ، حين يعتصمون بكتاب الله عز وجل ، ويسيرون على هدي الرسول محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ليصير المسلمون أمة واحدة ، وما أحوجنا إلي التضامن والوحدة الإسلامية ، فأعداء الإسلام يتربصون بنا سواء المادية المنحرفة ، أو الإلحادية والوجودية والصهيونية لكي نطهر الإسلام من هؤلاء ، ونرد القدس الشريف ثالث الحرمين إلى الأمجاد الإسلامية ، كما كان في عهد السلف الصالح ، وشعر التضامن الإسلامي والوحدة الإسلامية غزير في أدبنا العربي القديم والحديث مثل ديوان « مجد الإسلام » و« ديوان محرم » للشاعر أحمد محرم ، وديوان « دول العرب وعظماء الإسلام » للشاعر أحمد شوقي ، وديوان « صلوات على الضفاف » للشاعر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي وغيرها .

خامسا : البناء النفسي للفرد المسلم :

والدراسات الحديثة في علم النفس والاجتماع تناولت هذا الجانب لضبط السلوك النفسي ، والإسلام جاء بالتعاليم السمحة والقوية ، التي تبني المسلم بناء قويا صحيحا ، قائما على أساس سليم من العقيدة الصحيحة الخالدة ، لا على أساس نظريات بشرية تتساقط واحدة بعد الأخرى ، مثل نظرية « التطور » ونظرية « التحليل النفسي » وغيرها مما أثبت العلم الحديث فشلها ، لأنها أدت إلى انحرافات وأمراض نفسية تفشت للقضاء على النفس لا لبنائها ، كما كان أصحابها يزعمون ، وهنا يأتي دور الأدب الإسلامي لبناء المسلم بناء صحيحاً وقويا من خلال القيم الإسلامية التي جاءت بها الشريعة ، مثل الشعر الذي يحارب الجنس الفاضح القبيح ، وينفر من الزنا ، والإدمان ، والعنف والإرهاب

والانحلال الخلقي وانحراف السلوك القويم .

سادسا : البناء الاجتماعي للفرد والأسرة :

لم تأت شريعة على مثال شريعة الإسلام ، التي وجهت تعاليمها إلى بناء الروح الاجتماعية في الفرد والتلاحم في الأسرة ؛ ليقوم على أساس راسخ قوي فأعطى للفرد من الرعاية والحفظ والتعليم والغذاء والكساء وحسن التربية والسلوك ، ونمو الغرائز في نفسه منذ الصغر كغريزة الخوف والمراقبة والمحبة والتدبر في ملكوت الله عز وجل ، ثم وضع له التشريع الذي يقيم المجتمع الصغير وهو الأسرة على أروع نظام ، فوضع له الحقوق والواجبات ، وعالج المشاكل ومشاعر الكراهية والنشوز ، وقاوم الغريزة الجنسية بالتعدد والطلاق ، وغير ذلك مما جاء في التشريع الإسلامي لبناء الفرد الاجتماعي ، حتى يكون لبنة طيبة وصالحة في بناء الأسرة والمجتمع ، وهذا الغرض الأدبي ينبغي أن يكون له دوره الكبير في أدبنا الإسلامي الحديث ، ليصحح الشطط والزيف في الدراسات والنظريات الغربية المعادية للإسلام .

سابعا : الدعوة الإسلامية :

وهو غرض أدبي يعرض فيه الشاعر سماحة الإسلام ويسره وإلفه وأنه دين العقل والقلب معا ، ومما يدل على سماحة الإسلام في تشريعاته في العبادات والمعاملات التخفيف والرخص ، ورفع الحرج والضيق ، والنهي عن الضرر وإباحة الضرورات ، وغير ذلك ، مما يدل على يسر الإسلام ، حتى تحول الغزاة الجبابرة من المغول والتتار إلى دعاة مصلحين وحكام مسلمين ، وعلى الأدب الإسلامي الحديث أن يتخذ من هذا الغرض مجالا واسعا لشعر الدعوة إلى العقيدة الإسلامية ونبذ غيرها من المذاهب والاتجاهات المدمرة الهدامة للإنسان في العصر الحديث مثل كثير من قصائد « الديوان الإسلامي » للشاعر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، و« الشوقيات » لأمير الشعراء أحمد شوقي ، وديوان حافظ إبراهيم وديوان أحمد محرم ، ومحمود غنيم ، ومحمود الخفيف ، وغيرهم .

ثامنا : شعر الجهاد في سبيل الله :

وهو الغرض الأدبي الحي الذي يلازم الإسلام منذ البعثة إلى قيام الساعة ما دام له أعداؤه .. والجهاد يكون بالكلمة والمال والنفس والروح والعتاد والسلاح

ولكل منها له مجاله ، الذي شرعه الله عز وجل ، وشعر الجهاد يحفز المسلم أن يجند نفسه وماله ووطنه وأمته ؛ ليتصدى بقوة وعنف لمن يعتدي عليه ، على عرضه ونفسه وكرامته ، وماله وأهله ودينه وعقيدته ، ووطنه وأمته الإسلامية ، في قصائد كثيرة قديما وحديثا ، مثل قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم الذي حارب الروم لاعتدائه ، والشعر في العصر الحديث الذي كان يصور بشاعة الاستعمار في جميع الأقطار الإسلامية ، وهو بطبيعته تتفجر منه العاطفة المتحجرة ، وتنزف منه المشاعر الجامدة .

وقد كان للشعر الحديث أيضا دور كبير في هذا الغرض الأدبي للشعراء مثل : ديوان « من وحي فلسطين » للشاعر عمر بهاء الدين الأميري ، وكذلك له ديوان « ملحمة الجهاد » ، وديوان « ملحمة النصر في ١٠ رمضان » ، وديوان الخطيب شاعر النهضة العربية ، وعند كثير من الشعراء .

تاسعا : الشعر الوطني :

وهذا الغرض الأدبي من الأدب الإسلامي أيضا ، لأن الشاعر فيه يدافع عن قطعة من أمة الإسلام ، ودولة من دوله حينما يتغنى الشاعر بحب الوطن ، ويحن إليه ، ويبذل في سبيله كل غال وثمين ، فإذا ما أحب الإنسان وطنه الصغير ، فإنه بدافع الأخوة الإسلامية يجب أن يدافع عن وطنه الكبير وهو وطن الأمة الإسلامية ، ويعد هذا الغرض جديداً في العصر الحديث حيث اكتملت عناصره في الأدب والشعر الحديث .

عاشرا : التأمل في الطبيعة :

ومظاهر الطبيعة والحياة آيات من آيات الله عز وجل ، تدل على قدرته ووحدانيته ، وعلى الأدباء والشعراء أن يتأملوا فيها ، ويقفوا على أسرارها العجيبة التي تذهل العقول ، وتهز القلوب والأفئدة ، فيزداد المسلم إيمانا على إيمانه ، وقوة في عقيدته على قوته ، وهي مجال خصب للتعرف على الله عز وجل من خلال آياته العجيبة في الكون والحياة ، وهذا الغرض يعطي للأدب الإسلامي عطاء موفورا في شعر قوي وعميق ومؤثر يأخذ بالعواطف والقلوب والألباب .

ومن هذا الشعر ديوان محمود حسن رسماعيل شاعر الكوخ ، وديوان الهمشري شاعر الريف والقرية ، وكثير من القصائد للشاعر عمر بهاء الدين

الأميري ، منها قصيدته « شبح الخريف » يتأمل الشاعر فيها آيات الله في الكون وللشاعر الشابي ، وللشاعر عمر أبي ريشة ، وللشاعر علي محمود طه وغيرهم .

الحادي عشر : رثاء الزعامات :

والمقصود من الرثاء هنا الزعامة الإسلامية ، التي جندت نفسها في سبيل الله للدفاع عن الإسلام ونشره ، ووهبت حياتها في سبيل الحكم والسياسة أو العلم والتعليم في جهاد في سبيله حتى قضت نحبها ، وفي هذا اللون من الأدب حافز كبير لدفع الزعامات السياسية والعلمية إلى أن تبذل ما في وسعها من طاقات في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم ، ومن هذه الزعامات الحديثة التي أدت واجبها على أكمل وجه : مصطفى كامل ، وأحمد عرابي وسعد زغلول ، وعمر المختار ، ومحمد أنور السادات ، والملك عبد العزيز آل سعود ، والملك فيصل ، وغيرهم ممن كان لهم دور كبير في عزة الإسلام والدفاع عنه وحماية مقدساته ، فشهد لهم القاصي والداني ، والمسلم وغير المسلم وكذلك العلماء والمفكرين مثل : محمد بن عبد الوهاب ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ومحمد الغزالي ، وغيرهم .

وفي ذلك شعر كثير أنشده الشعراء من كل قطر إسلامي وكل دولة عربية وإسلامية لتمجيد تلك الزعامة العربية الإسلامية العالمية ، وأصبح الشعراء في هذا الغرض يمجدون القيم الإسلامية لذاتها في شخص الزعيم والعالم والمفكر ، وبهذا تطور الرثاء في معالمه وخصائصه الفنية ، وأصبح فنا أدبيا إسلاميا جديدا له معالمه وخصائصه الجديدة ، وليس مدحا للميت ولا تعديداً لمآثره ومناقبه في حياته وإنما هي تمجيد للقيم الإسلامية ؛ ليحث الشاعر غيره من بعده على الالتزام بها والسير على منهجها ومنوالها ؛ لتعيش هذه الزعامة الصالحة الإسلامية العربية والقيادة العلمية والفكرية معنا في كل جيل وعصر .

الثاني عشر : الأناشيد الإسلامية :

هذا الغرض الإسلامي لا يقل في الأدب الإسلامي عن الأغراض السابقة وخاصة بعد أن انتشر الشعر الغنائي اللاهي والعابث ، وأصبح وأمسى في كل بيت عن طريق أجهزة البث علي الهواء ، وأدوات الإعلام الحديثة ، لأن الأذن والعين أخذت موقعها من العصر الحديث أكثر من القراءة والاطلاع ، وأصبح

السماع للمذياع والرؤية والسماع « للتليفزيون » لهما الصدارة في تثقيف الناس وتوجيههم إلى المقصد الذي تبتغيه الدولة ، وكل دولة حسب اتجاهها السياسي والاقتصادي والمذهبي والفكري والثقافي .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الأناشيد الإسلامية لا بد أن تزاحم أجهزة البث وأدوات الإعلام لتثقف الناشئة في أنحاء العالم عن طريق السماع والرؤية بالقيم الإسلامية ، وأخلاق القرآن والسنة النبوية ، وذلك عن طريق القصيدة الخفيفة والنشيد العذب ، والأغنية الموزونة اللطيفة ، فترسخ هذه القيم بالسماع نائما أو الرؤية هادئا مضطجعا من غير معاناة في القراءة والاطلاع .

والأناشيد الإسلامية أصبح لها دور كبير في آدبنا العربي الإسلامي ، لا يقل شأنا عن دور أجهزة البث والإعلام وقد فطن الشعراء والمحدثون إلى هذا اللون الإعلامي في الأدب ، فأخذوا ينشئون الشعر الخفيف فيه ، ينشده المغنون والمنشدون والمجموعات في الإذاعة والتلفاز .

وسنوضح الخصائص الفنية أثناء تناول الأغراض الأدبية للأدب الإسلامي قديمة كانت أم جديدة ، لتكون مجالا خصبا ، ينطلق منها الأديب للتجديد فيها وفي خصائصها الفنية بما يتلاءم مع مقتضيات الحياة والأجيال والحضارة الإسلامية المتجددة في كل عصر .

* * *

المـــدح

المدح من الأغراض الأدبية في الأدب العربي منذ نشأته ، وفي كل العصور ، اجتمعت فيه كل القيم السامية ، والأخلاق الفاضلة ، والقيم والأخلاق والشيم ، لا تختلف من عصر إلى عصر ، بل تظل حية ثابتة ، يتعامل بها الفضلاء من الناس ؛ فهي لا تتغير ، ولا تتبدل ، ولا تنعكس ، ولا تتناقض ، لكنها قد يضاف إليها قيما جديدة وأخلاقا أو تفسيراً لها أو مفهوماً فيها ، يتناسب مع التشريع السماوي ، المتفق مع الرقي العقلي والسمو الحضاري ، كما حدث في الشريعة الإسلامية ؛ فقد جاءت تامة وكاملة كما قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [1] ، بعث بها سيدنا محمد ﷺ ، ليتمم مكارم الأخلاق كما قال في الحديث الشريف : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، فقد أكملت الشريعة الإسلامية نواقص الشرائع السابقة ؛ فحققت التوازن والاتزان بين الجوانب المادية والجوانب الروحية لتكون صالحة لهذا العالم إلى أن يرث الله عز وجل الأرض وما عليها ؛ فقال ﷺ : « إنما مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله وجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون ما أحسن هذا البيت ؟ وما أجمل هذا البيت ؟ لولا موضع هذه اللبنة وتلك الزاوية ؛ فأنا اللبنة ، وأنا الزاوية ، وأنا خاتم النبيين » .

لذلك أضاف الإسلام قيما جديدة ، وأخلاقا لم تكن من قبل ، أو تفسيراً ومفهوما جديداً لبعض القيم التي كانت قبله ، وخاصة القيم التي تتعلق بالشريعة الإسلامية ، وما يتصل بالإيمان والإحسان فيه مثل خلق : « الإخلاص » ؛ فقد أصبح ابتغاء مرضاة الله تعالى ، لا لمخلوق ، و« الجهاد » فأضحى في سبيل الله ، لا طمعا في متاع الحياة الدنيا ، و « الصبر » و « الحج » و« الصيام » و« الإيمان » و« الإحسان » و « البر » و « الطاعة » و « الإنفاق » و « الزكاة » و « الصدقات » و« الوفاء بالعهد » و « صلة الأرحام » و « المثابرة » و « الإيثار والتضحية » و« الأمانة » و« كظم الغيظ » و« العفو والصفح » و« صون اللسان عن القبائح

---

(١) سورة المائدة : آية .

كالشتم والسباب والغيبة والنميمة والوشاية والفتنة » و« البعد عن اللغو والثرثرة » وغيرها من القيم الخلقية التي أصبح لها مفهوما آخر في ظلال الشريعة الإسلامية .

وتعارف العلماء والنقاد علي قيم المدح قديما وحديثا ، وهي : الشجاعة والإقدام وركوب المخاطر ، والتجلد أمام المكاره والخطوب ، والمروءة والنجدة والشهامة ، ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف ، والدفاع عن الوطن والديار والأهل والعشيرة والأمة الإسلامية ، وعزة النفس وإباء الضيم ، والعفة والوقار والرزانة والحلم ورجاحة العقل والروية ، وطهارة العرض وصون الشرف ، والكرم والسماحة والجود ، والحزم والعزم ، والفصل في الحكم ، وغيرها من القيم التي أقرتها العقول الثاقبة ، والأذواق الإنسانية السامية والرسالات السماوية الحنيفة .

وهذه القيم السامية ، والشمائل والصفات الحميدة يشترك فيها مع غرض « المدح » غرضا « الفخر » و« الرثاء » الأدبيين ، إلا أنها تختلف من حيث التوجه والقصد والمقام :

فتصدر في « المدح »عن تمجيد القيم في ذاتها حينا ، أو عن رغبة في عطاء ، أو طمع في مكافأة أحيانا ، أو رغبة في التملق والنفاق حينا ، أو مجاراة للغير حينا آخر .

وتصدر في « الفخر » عن تمجيد القيم خالصة لذاتها حينا ، أو عن روح المباهاة والمفاخرة ، والتحدي والتعالي والعزة ، والرغبة في إثبات المجد الذاتي والجماعي .

وتصدر في « الرثاء » عن مشاعر الحزن العميق ، والألم الدفين وعن الإحساس بالضياع والخوف بعد ذهاب المرثى .

وسنعرض الشواهد الأدبية لهذه الأغراض الثلاثة التي تعتمد على القيم السابقة .

فأما المدح :

فلا تكاد تخلو قصيدة في المدح من الشعر العربي في أي عصر إسلامي من قيمه الخلقية والفنية سواء اجتمعت فيها كلها ، أو اقتصرت على معظمها أو بعضها عند كل الشعراء والأدباء ؛ لأن الأدب بعامة والشعر بخاصة صدر عن مبدعين عاشوا في ظلال الإسلام ، ينتسب فنهم الأدبي إلى عصور الحضارة

الإسلامية وإلى أدبها ، سواء تطابقت هذه القيم الخلقية مع الممدوح ، فكان يتصف بها كلها أو معظمها أو بعضها ، أو قيلت على سبيل المبالغة والغلو ، أو رغبة في العطاء والمكافأة أو التكسب بالأدب ، وفي كل هذه الحالات فهي لا تنفك عن مضمونه ، لأنها هي عناصر المدح وقوامه ، وبها يتميز غرض المدح عن بقية الأغراض الأدبية ، لذلك سنكتفي ببعض الشواهد التي تدل على المدح في الأدب الإسلامي لكل العصور الإسلامية ، يقول بشار بن برد يمدح عقبة بن سَلْم القائد العربي الإسلامي المظفر في جهاده وانتصاراته ومطلعها [١] :

حيّيا صاحبيَّ أمَّ العــلاء ... واحذرا طَرْفَ عينها الحَوْراء

إلى أن تخلص من الغزل إلى المدح فقال :

هَمُّها أن تَزورَ عُقْبةَ في المُلْـ ... ـــك فَتَرْوَى من بحره بدلاء
مالكيٌّ تنشقُّ عن وجهه الحَرْ ... بُ كما انشقتْ الدُّجَى عن ضياء [٢]
أيّها السَّائلي عَنِ الحزْمِ والنَّجْـ ... ـدَةِ والبأسِ والنَّدى والوفاء
إنَّ تلك الخِلاَلَ عندَ ابْنِ سَلْمٍ ... ومزيداً من مثلها في الغَنَاء
كخراجِ السماء سَيْبُ يَدَيْهِ ... لقَريبٍ ونازحِ الدَّارِ ناء
حَرَّمَ اللهُ أنْ تَرَى كابنِ سَلْمٍ ... عُقْبةَ الخَيْرِ مُطْعِمَ الفقراء
يَسْقُطُ الطَيْرُ حيثُ يَنْتَثِرُ الحَـ ... ـبُّ وتُغْشَى مَنازِلُ الكُرَمَاء
لَيْسَ يُعْطيكَ للرَّجاء ولا الخَوْ ... فِ ولَكنْ يَلَذُّ طَعْمَ العَطَاء
لا ، ولا أنْ يُقالَ شيمَتُهُ الجُو ... دُ ، ولَكنْ طَبائِعُ الآبَاء
إنما لذَّةُ الجَوَاد ابن سَلْمٍ ... في عَطاء ومَرْكب للِّقاء
لاَ يَهَابُ الوَغَى وَلاَ يَعْبُدُ المَا ... لَ ولَكنْ يُهينُهُ للثَّنَاء
أريحيٌّ لَهُ يَدٌ تُمْطِرُ النَّيْـ ... ـلَ وأُخرَى سُمٌّ عَلَى الأعْداء

إلى قوله :

فَجزَى اللهُ عن أخيكَ ابنْ سَلْمٍ ... حينَ قَلَّ المَعْرُوفُ خَيْرَ الجَزَاء

---

(١) ديوان بشار بن برد : لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(٢) نسبة إلى أحد أجداده لأنه ينتسب إلى هناءة بن عمرو بن مالك بطل جواد من أبطال العرب .

صَنَعَتْـي يَـدَاهُ حَتَّـى كَأَنـِّي ذو ثَرَاء مِنْ سِرِّ أَهْلِ الثَّرَاء
لاَ أُبَالِي صَفْحَ اللَّئِيم وَلاَ تَجْـ ـدِي دُمُوعِي عَلَى الْخَئُون الصَّفَاء
وكَفَانِي أَمْرَاً أَبَرَّ عَلَى الْبُخْـ ـلِ بكَفٍّ مَحْمُودَة بَيْضَاء
يَشْتَرِي الْحَمْدَ بِالثَّنَاء وَيَرَى الذَّ مَّ فَظِيعًا كالْحَيَّة الرَّقْشَاء
مَلِكٌ يَفْزَعُ الْمَنَابِرَ بِالْفَصْـ ـلِ ، وَيَسْقِي الدِّمَاءَ يومَ الدِّمَاء
كَمْ لَهُ مِنْ يَد عَلَيْنَا وَفِينَا وَأَيَادٍ بيض عَلَى الأَكْفَاء
أَسَدٌ يَقْضِمُ الرِّجَالَ وَإِنْ شئْـ ـتَ فَغَيْثٌ أَجَشُّ ثَرُّ الْمَاء
قَائِمٌ بِاللِّوَاء يَدْفَعُ بِالْمَوْ تِ رِجَالاً عَنْ حُرْمَةِ الْخُلَفَاء
فَعَلَى عُقْبَةَ السَّلاَمُ مُقِيماً وَإِذَا سَارَ تَحْتَ ظِلِّ اللِّوَاء

القيم الخلقية :

سار الشاعر بشار بن برد على طريقة الشعراء السابقين في مدحه للقائد الإسلامي عقبة بن سلم في اشتمال القصيدة على غير المدح من النسيب ووصف الرحلة والراحلة إلى الممدوح ؛ فقد بدأها بمناجاة صاحبيه ، أن يلقيا التحية إلى محبوبته ؛ ليعيناه على ما يعانيه من لوعة الهوى ، وشقوة الفراق ، وتباريح الشوق الذي هيجه من مكامنه ، وأوقد نار محبته للممدوح واعتزازه بأخلاقه ، وجوده وسماحته وأمجاده وبطولاته وانتصاراته ، فقد سعى إلى جواد كريم في ركب قطع به رحلة شاقة علي فرس قوية ، لا يهمها أي لقاء غير لقاء الممدوح :

قد تَجَشَّمْتُها وللجُنْدُبِ الجَوْ نِ نِدَاءٌ في الصُّبْحِ أوْ كالنِّدَاء
بِسَبُوحِ اليَدَيْنِ عَامِلة الرِّجْـ ـلِ مَرُوحٍ تَغْلُو مِنَ الغُلَوَاء
هَمُّهَا أَنْ تَزُورَ عُقْبَةَ فِي الْمُلْـ ـكِ فَتَرْوَى مِنْ بَحْرِه بِدِلاَء

ثم ينطلق بعد النسيب ووصف الرحلة إلى غرض المدح ؛ ليصور مناقب الممدوح ؛ فيصفه بأنه قائد مظفر ، ومحارب شجاع ، لا تنفك حروبه عن ضرورة الانتصار ، كما لا يختلف تعاقب النهار والصبح والنور على الليل والعتمة والظلام ، فهو بطل الحرب والسلام ؛ يتصف بكثير من مناقب النجدة والبأس ، والحزم ، والسماحة والندى والوفاء ، فهو عقبة الخير ، ومطعم الفقراء ،

لا يرده عن أخلاقه بغض اللئيم ، ولا حقد الخئون ، لا يبتغي من وراء ذلك الشكر والعرفان بالجميل ، ولكنه يصدر عن شيم خلقية ، وطبع مستقيم ، وفطرة أصيلة .

ومن صفاته أيضا أنّه سيد في قومه ، وملك وقائد في عرينه ، وخطيب بليغ ، يهز المنابر بخطابته المصقعة في أسلوب بليغ يأخذ بمجامع العقول والقلوب ، فيقنع بالقول الفصل ، والحكم الثاقب ، قائم باللواء يدافع تحته عن الأمة الإسلامية ، ويذود عن حرمة الخلافة والحكم ، وينفذ بالموت في صدور الأعداء ، ليسود السلام والرخاء بعد الحروب ، وتتواصل المودة والمحبة والإخاء أثناء المقام والاستقرار .

أما القيم الفنية في التصوير الأدبي فقد كان الشاعر موفقا فيها ، حيث تلاءمت التجربة الشعورية للقصيدة في غرضيها مع المعاني والألفاظ والأساليب والصور المستمدة من الحقيقة ، والصور المستمدة من الخيال ، ومع الموسيقى الشعرية الخارجية من الوزن والقافية ، والداخلية من تناسب الألفاظ والصور والمحسنات مع المعاني والعاطفة ، وغير ذلك من عناصر التصوير الأدبي وروافده القوية ، مما يحقق الصدق الفني فيها ، وتعد هذه القصيدة من المدائح القوية في أدبنا الإسلامي والعربي في العصر العباسي .

وتجد هذه القيم السامية في المدح عند غيره من الشعراء في قصيدة أبي تمام التي يمدح فيها الخليفة المعتصم حين لبى نداء الحق في الجهاد والدفاع عن أمة الإسلام ، فتقدم بجيش الإسلام ليرد « عمورية » إلى حوزة المسلمين كما كانت يقول في مطلعها [١] :

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

وقصيدة أبي الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة في انتصار الإسلام على الروم في موقعة « الحدث » عام [٣٤٣هـ] ومطلعها [٢] :

---

(١) انظر كتابي : الأدب العباسي دراسة ونقد لتقف على القيم الخلقية والفنية في المدح ص ١١٥ : ١٤٢ .

(٢) انظر كتابي : الأدب العباسي دراسة ونقد لتقف على القيم الخلقية والفنية في المدح ص ١٨٥ : ١٩٨ .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وقصيدة مروان بن أبي حفصة يمدح فيها الخليفة هارون الرشيد في انتصار الإسلام على الروم ومطلعها :

وسُدَّتْ بهارون الثُّغورَ فَأحْكمَتْ به مِنْ أُمُور المسلمين المَرَائرُ
وما انفك معقوداً بنَصْرِ لوَاؤُه له عَسْكَرٌ عنه تُشَظَّى العساكر
وكلُّ مُلوكِ الرُّومِ أَعطَاه جِزْيَةً على الرَّغْمِ قَسْراً عَنْ يَدٍ وهو صاغرُ (١)

ويقول ابن زيدون يمدح ابن حزم بعلمه وخلقه وتقواه ، منها قوله (٢) :

إلى الله أوابٌ ولله خائفٌ وبالله مُعْتدٌ وفي الله مُشْتَدُّ

ويمدح عبد الله بن سلامه الإدكاوي الإمام العظيم القرشي المطلبي محمد بن إدريس الشافعي ﷺ ، ومطلعها :

لُذْ بالإمَامِ الشّافعي وَانهضْ إليْه وَسَارِعِ

إلى أن قال :

يا ابْنَ الأئمَّة مِنْ قُرَيْـ ـشٍ يَا رَجَاءَ الطَّامعِ
يا صَاحبَ العلم النَّفيـ ـسِ لنَاظرٍ ولسامعِ
يا عُمْدَةَ الإسْلامِ يَا رَبَّ المَقَالِ والنَّافعِ
مَهَّدْتَ دينَ سَمِيِّكَ الـ ـهَادِي بِحُكْمٍ قاطعِ
وَأَقَمْتَ مَذْهَبَكَ المُنيـ ـيرَ لنا كَبَدْرٍ سَاطعِ
شَيَّدْتَـه بِدَلَائـِـلٍ لُسُنِ الخُصُومِ قَواطعِ
فَأمدَّني فَضْلاً بِغَيْـ ـثِ نَوالكَ المُتَّابعِ
بحَياةِ جَدِّكَ ذي المَعَا لي والكَلَامُ الجَامعِ
طَه الرَّسُولُ المُجتَبى مُختار مَوْلى سامعِ
صَلَّى عَلَيْه وَآلِه وصَحَابِـه والتَّابِـعِ

---

(١) مروان بن أبي حفصة وشعره : قحطان رشيد التميمي ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ .
(٢) ديوان ابن زيدون ص ١٩١ دار صادر ـ بيروت .

ما دَامَ تَعْبُدَ رَبَّنَا　　مِنْ سَاجِدٍ أَوْ رَاكِعِ
أَوْ قَائِمٍ أَوْ قَاعِدٍ　　أو جاهد أو هاجِعِ
أو قال عبد الله الأذ　　كاويُّ رَاجِي النَّافِعِ
فيما يُؤَرِّخُ نَاطِقًا　　مُتَوَسِّلاً يَا شَافِعِي (١)

وأما المديح النبوي فهو أسمى صور المدح في الأدب العربي وأصدقه في المشاعر ، وأقوى عاطفة ؛ لأن الشاعر يعبر فيه عن حب صادق ومشاعر روحية فياضة ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، ومحبة في رسوله ﷺ لا طمعا في عطاء أو رغبة في مكافآة ، أو في غرض دنيوي زائل مصداقا لقوله في الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده » وكذلك قوله أيضاً : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود للكفر كما يكره أن يقذف في النار » وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة .

---

(١) ديوان : « بضاعة الأريب من شعر الغريب » مخطوطة بمكتبة الملك فاروق بسوهاج كتبت في عام ١١٨٥ هـ ، وأخرى بمكتبة دار الكتب المصرية برقم ١٩١٨ أدب كتبت في عام [١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م] للشاعر الشيخ عبد الله بن سلامه الإدكاوي المصري الشافعي الشهير بالمؤذن وقيل : عبد الله بن عبد الله بن سلامه الإدكاوي ولد بإدكو قرب رشيد بمحافظة البحيرة عام [١١٠٤ هـ / ١٦٩٢ م] ، وفيها أتم حفظ القرآن الكريم ، ثم التحق بالجامع الأزهر الشريف في القاهرة لطلب العلم ثم كثرت رحلاته إلى رشيد وادكو وفوة والأسكندرية ، وكان ملماً بالفارسية والتركية يقول عنه الجبرتي هو : « الشيخ العمدة الفاضل الكامل الأديب الماهر الناظم الناثر » وله ديوان آخر سماه : « الدر المنتظم في مدح النبي الأعظم » مخطوط بدار الكتب في عام [١١٦٠ هـ] وله أيضا أكثر من خمسة عشر مؤلفا : انظر : تاريخ الجبرتي جـ ٣ ص ٧ ، والأعلام للزركلي جـ ٤ ص ٢٣٤ ، وخطط مبارك جـ ٣ ص ٥١ الطبعة الأولى ، وكتاب : « إقليم البحيرة » تأليف محمد محمود زيتون دار المعارف ١٩٦٢ م ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان جـ ٣ ص ٢٩٨ وغيرها وتوفي في يوم الخميس من جمادي الأولى عام ١١٨٤ هـ وصلى عليه بالأزهر ودفن بالمجاورين قرب تربة الشيخ الحفني وقد رثاه الشيخ الشرقاوي بقوله :

إن الإدكاوي فاقسا　　بفنونه الشعر حده
كان في الفن إماما　　منجزا في الفضل وعده
ولقد مات مؤرخ　　مات أمس الشعر بعده

وقد حث القرآن الكريم على إيثار النبي بالحب على النفس وغيرها في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ، فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » إلى قوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً » (١) ، وقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ، قل أطيعوا الله ورسوله فإن تولوا فإن الله. لايحب الكافرين ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ (٤) .

وسبق أن وقفنا مع الشعراء في صدر الإسلام أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم ،الذين جندوا شعرهم للدفاع عن الاسلام والجهاد في سبيله ، وعن رسول الله ﷺ ومدحه وتصوير أخلاقه وأعماله وجهاده ، وعن أصحابه رضي الله عنهم ، ومن أشهرهم حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحه ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ، وغيرهم رضي الله عنهم ، واشتهرت لامية الأخير التي حظي قائلها كعب بن زهير ببردة المصطفى ﷺ ومطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول　　　متيم إثرها لم يفد مكبول (٥)

واقترنت « بالبردة » عند الشعراء من بعده ، واشتهر بينهم وزنها « البحر

---

(١) سورة النساء : آيات ٦٤ / ٦٩
(٢) سورة آل عمران : اية ٣١ ، ٣٢ .
(٣) سورة التوبة : اية ٢٤ .
(٤) سورة الأحزاب : آية ٦ .
(٥) الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٨٦ وما قبلها ومابعدها .

البسيط » ، ليتخذ عشاق المديح هذا البحر ميدانا للنظم على وزنه ، وإن اختلفت القافية أحيانا ؛ فكان لابن الفارض سلطان العاشقين قصيدة في مديح الرسول ﷺ على هذا البحر والقافية ومطلعها :

هل نار ليلى بدت ليلا بذي سلم   أم بارق لاح في الزوراء فالعلم

واتخذ البوصيري هذا البحر وقافية ابن الفارض ؛ فنظم قصيدته البديعة التي اشتهرت « بالبردة » في المديح النبوي ؛ ثم نظم على مثالها شعراء كثيرون من بعده في الوزن والقافية ، وإن اتصف شعرهم بالصبغ « البديعي » ، والتكلف في المحسنات البديعية ؛ فاطلقوا عليها « البديعيات » ، حتى جاء محمود سامي البارودي رائد البعث والإحياء في الأدب العربي الحديث ، في قصيدته : « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » ، وأمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته : « نهج البردة » وغيرهم .

فأما الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد البوصيري فقد كان في « البردة » مخلصاً في حبه الصادق لسيدنا محمد ﷺ ، شفه الوجد المتيم من قلب عاشق خاشع ، وروح صافية ترتوي من نبع النبوة الفياض ، وتتعطر بالعبق المحمدي الزكي الفواح في أسمى آيات الحب الخالص للمصطفى المختار ، واليقين الصادق لخاتم الأنبياء والمرسلين حبيب الله تعالى والخلق أجمعين يقول في مطلعها :

أَمِنْ تذكُّرِ جيرانٍ بِذِي سَلَمِ   مزجتُ دمعاً جَرَى من مُقْلةٍ بدمِ

ويمضي مع الحب العذري الطاهر يحرك وجدانه الصادق ويفجر ينابيع العواطف الحارة العاشقة فيقول :

نَعَمْ سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي   والحبُّ يَعْتَرِضُ اللّذاتِ بالألَمِ
يا لائمي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذرَةً   منِّي إليْكَ وَلَوْ أنصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

ثم يخاطب النفس فيحذرها من هواها ومن الشيطان والمعاصي والزلات :

والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى   حُبِّ الرَّضَاعِ وَإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
فاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَاذِرْ انْ تُوَلِّيَهُ   إنَّ الهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ
وخَالِفَ النَّفْسَ والشَّيْطانَ واعْصِهِمَا   وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

وبعد أن شفه الحب ، وصفت الروح ، ورقّ الوجد ، وتحركت العاطفة وطهرت النفس من الهوى والمعاصي ، وقاومت الشيطان وانتصرت عليه ، مضى متجرداً طاهراً هائماً في مديح النبي ﷺ :

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أحيا الظلاَمَ إلى ... أن اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرِمِ
وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أحشاءَهُ وطَوَى ... تحت الحجارة كشْحاً مُتْرَفَ الأدَمِ
وَرَاوَدَتْهُ الجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذهَبٍ ... عَنْ نَفْسه فَأراها أيَّمَا شَمَمِ
وأكَدَتْ زُهْدَهُ فيها ضرورةٌ ... إنَّ الضَّرُورَةَ لاتَعْدُو على العِصَمِ
وكَيْفَ تدْعُو إلى الدنيَا ضَرُورتُهُ مَنْ ... لَوْلاهُ لَمْ تُخْرَجِ الدنيا من العَدَمِ
محمدٌ سيد الكونين والثَّقَلَيْـ ... ـنِ والفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ ومَنْ عَجَمِ
نَبِّينا الآمرُ النَّاهي فلا أحَدٌ ... أبَرَّ فِيْ قَوْلِ لاَمِنْهُ ولاَ نَعَمِ
هو الحبيبُ الذي تُرْجَى شفاعَتُهُ ... لكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأهْوَالِ مُقْتَحِمِ
دَعَا إلى الله فالمُسْتمسكون به ... مُسْتَمْسِكُون بِحَبْلٍ غَيْرُ مُنْفَصِمِ
فَاقَ النَّبيين في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... وَلَمْ يُدَانُوه فِي عِلْمٍ وَلاَ كَرَمِ
وكُلُّهم مِنْ رَسُول الله مَلْتَمِسٌ ... غَرْفاً مِّنَ البَحْرِ أوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ
وواقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمُ ... مِنْ نُقْطَةِ العلْمِ أوْ مِنْ شَكْلَةِ الحكمِ
فَهْوَ الذي تَمَّ مَعْنَاهُ وصُورَتُهُ ... ثُمَّ اصطفاه حَبيباً بارِئُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيك في مَحاسنه ... فَجَوْهَرُ الحُسْنَ فيه غَيْرِ مُنْقَسِمِ
دَعْ ما ادَّعَتْه النصارى في نَبِيِّهِمِ ... واحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فيه واحْتَكِمِ
وَانْسُبْ إلى ذاته ماشِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ... وَانْسُبْ إلى قَدْرِه مَا شِئْتَ من عظَمِ
فَإنَّ فَضْلَ رسول الله لَيْسَ لَهُ ... حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ
لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عظَماً ... أحْيَا اسْمُهُ حين يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ
كم يَمْتَحِنَّا بما تَعْيَا العُقُولُ به ... حِرْصاً علينا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ
أعْيَا الوَرَى فَهْمُ معناهُ فَلَيْسَ يُرَى ... في القُرْبِ والبُعْدِ فيه غَيْرُ مُنْفَحِمِ
كالشمس تَظْهَرُ للعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ ... صَغيرةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أمَمِ
وكيف يُدْرِكُ في الدنيا حقيقتَهُ ... قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عنْهُ بالحُلُمِ

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فيه أنَّه بَشَرٌ ... وأنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ الله كُلِّهِمِ
وَكُلُّ آيٍ أتى الرُّسْلُ الكِرام بها ... فإنَّما اتَّصَلَتْ من نُورِه بهمِ
فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كواكِبُها ... يُظْهِرْنَ أنوارَها للنَّاسِ في الظُّلَمِ
أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زانَه خُلُقٌ ... بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ
كالزَّهْرِ في تَرَفٍ والبَدْرُ في شَرَفٍ ... والبَحْرُ في كَرَمٍ والدهْرُ في هِمَمِ
كأنَّهُ وَهْوَ فَرْدٌ من جلالتِه ... في عَسْكَرٍ حينَ تلقاهُ وفي حَشَمِ
كأنَّما اللؤْلُؤُ المكنونُ في صَدَفٍ ... من مَعْدِنَيْ منطقٍ منْهُ ومُبْتَسَمِ
لاطِيبَ يَعْدلُ تُرْباً ضَمَّ أعْظُمَهُ ... طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ منْهُ وَمُلْتَثِمِ

ثم صور مولده الشريف ومعجزاته ﷺ ، وشرف القرآن الكريم ومدحه والإسراء والمعراج ، وجهاده في سبيل الله وانتصاراته على المشركين والكفار ثم التوسل بالنبي ﷺ ، ثم المناجاة وعرض الحاجات ، ثم اختتمها بالصلاة على النبي خير البرية ، في قصيدة طويلة بلغت خمسة عشر ومائتي بيت خلصت للحب المحمدي الطاهر ، وتجردت للمديح النبوي الشريف ؛ في تصوير أخلاق سيدنا محمد ﷺ ، وآل بيته وأصحابه ﵃ ، لينتقل الإمام البوصيري إلى مرحلة جديدة في فن المديح النبوي ، تجرد فيها لهذا الفن وحده ، بعد أن كان موجها توجيها حزبيا سياسيا أو مذهبيا عقديا أو صوفيا قبل ذلك ، كما في مديح المتشيعين لآل البيت دفاعا عن الحزب السياسي الشيعي في العصر الأموي ، أو في مديح الذين ينشدون الخلافة في بيت علي بن أبي طالب ﵁ لا آل العباس كما في المديح النبوي للعلويين والطالبيين في العصر العباسي ، أو في مديح نبوي يعبر عن اتجاه مذهبي عقدي حبا في آل البيت ، أو صوفي في إطار الحب الإلهي كما في مديح ابن الفارض وغيره .

تجرد فن المديح النبويّ على يد الإمام البوصيري من كل هذه التيارات الحزبية : السياسية والمذهبية ، وتحول على يديه المنهج التاريخي في السيرة النبوية ليكون فنا شعريا في السيرة الأدبية ، ويصير رائداً له في الشعر ، يتتلمذ على يديه كثير من الشعراء في العصر الحديث مثل البارودي ، وشوقي ، وأحمد محرم ومحمد عبد الغني حسن ، وعامر بحيري ، ومحمد عبد المنعم خفاجي وغيرهم في قصائدهم وملاحمهم ، وينطلق منه أيضا الأدباء في العصر الحديث ؛ فيكتبوا

في فن السيرة الأدبي ، في مجال النثر الأدبي مثل محمد حسين هيكل في « حياة محمد » ، وطه حسين في « على هامش السيرة » ، والعقاد في « عبقرياته » وغيرهم .

فأما محمود سامي البارودي فيسير على نهج البوصيري ، وينظم « ملحمة » كما يقول العقاد يعارض فيها قصيدة البردة المشهورة للبوصيري بقصيدته : « كشف الغمة في مدح سيد الأمة »[(١)] طالت أكثر منه حتى بلغت سبعة وأربعين وأربعمائة بيت ، جاءت على بحر « البسيط » والقافية نفسها يقول في مقدمتها بعد الحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ « وبعد فهذه قصيدة ضمنتها سيرة النبي ﷺ من حين مولده الكريم إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه وقد بنيتها على سيرة ابن هشام وسميتها : « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » ورغبتي إلى الله أن تكون لي ذريعة أَمُتُّ بها يوم المعاد ، وسلّماً إلى النجاة من هول المحشر ، اللهم فحقق رغبتي إليك ، واكسها بفضلك رونق القبول ، آمين » . ومطلعها :

يَارَائدَ البَرْقِ يَمِّمْ دَارَةَ العَلَمِ ... وَاحْدُ الغَمَامَ إلَى حَيٍّ بِذِي سَلَمِ

وحين بناها كما يقول البارودي على سيرة ابن هشام غلب عليها الترتيب التاريخي ، وترتب الأحداث بعضها على بعض ، كما في سيرة ابن هشام على خلاف مافعل البوصيري وشوقي اللذان استجابا للخواطر الشعرية بدون ترتيب تاريخي ، أو اتباع لمنهج ابن هشام في سيرته ، وهو ما أشار إليه زكي مبارك بقوله :[(٢)] « وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب ؛ لأنه ساير الحوادث وفقا لما قصه ابن هشام ، ولا كذلك شوقي والبوصيري ، فقد أطاعا الخواطر الطارئة ، وقدّما بعض الحوادث على بعض ، وتكلما عن النبي ﷺ وعن معجزاته مثلا قبل أن يذكرا الميلاد . ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت بابا لضعف الشعر في أكثر القصيدة ؛ فأصبحت بذلك « منظومة » كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون ، ثم يقول ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودي يغلب

---

(١) مهرجان البارودي : المجلس الأعلي لرعاية الفنون والآداب . دار المعارف ١٩٥٨ .

(٢) الموازنة بين الشعراء : د. زكي مبارك دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٩٣٦ ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ .

فيها النظم عند سرد الحوادث ، ويغلب فيها الشعر عند الوصف وعند مناجاة الوجدان » .

وإن كنت أرى أن الترتيب التاريخي عند البارودي تعد حسنة من حسنات القصيدة ، لأن سياق الترابط والتنامي وتطور الأحداث بعضها من بعض في ترابط ونمو كالشأن في الفن القصصي ، الذي يختلف عن المنهج التاريخي في سرد الحقائق وعن الشعر الغنائي في التعبير عن ذات الشاعر لا عن موضوع قصصي معين من خلال مشاعره ووجدانه كما عند البارودي في هذه القصيدة ؛ فلم تكن قصيدته تأريخا ، ولا شعراً غنائياً ؛ بل كانت فنا شعريا في السيرة الأدبي ، يعتمد على موضوع قصصي في السيرة ، لا ذاتي مجرد من كل ذلك .

ويختم البارودي مطولته في المديح النّبوي ، وفن السّيره الأدبي في الشعر بقوله :

ولي بحُبِّ رسولِ الله منْزِلَةٌ ... أَرْجُو بها الصَّفْحَ يومَ الدين عَنْ جُرْمي
لاَ أدَّعي عصْمة لكنْ يديَ عَلِقَتْ ... بسَيِّد مَنْ يَرِدْ مَرْعَاتَهُ يسُم
خَدَمْتُهُ بمَديحي فاعْتَلَوْتُ عَلَيَ ... هَام السِّمَاك وصَارَ السَّعْدُ منْ خدَمي
وكيفَ أَرْهَبُ ضَيْماً بعد خدْمَته ... وخَادمُ السَّادَة الأجْوَاد لم يُضَم
أم كيفَ يُخذُلُني منْ بَعْد تَسْميَتي ... باسْم لَهُ في سَمَاء العرش مُحْتَرم
أبْكَاني الدَّهْرُ حتى إذَا لَجئْتُ به ... حَنَا عَلَيَّ وَأَبْدَى ثَغْرَ مُبْتَسِم
فَهُوَ الَّذي يَمْنَحُ العَافينَ مَا سَأَلوا ... فَضْلاً ويَشْفَعُ يوْم الدِّين في الأُمَم
نُورٌ لمُقْتَبِس ، ذُخْرٌ لمُلْتَمس ... حرزٌ لمُبْتَئِس كهفٌ لمُعْتَصم
بَثَ الرَّدَى والنَّدَى شَطرَيْن فانبعثا ... فيمَنْ غَوَى وَهَدَى بالبُؤْس والنِّعم
فالكفرُ منْ بَأسه المَشْهُور في حَرَب ... والدِّينُ منْ عَدْله المأثور في حَرَم
هذا ثَنائي وإنْ قصَّرْتُ فيه فَلي ... عُذْرٌ وأيْنَ السُّهَا منْ كَفِّ مُسْتَلم
هَيْهاتَ أَبْلُغُ بالأشْعَار مدْحَتَهُ ... وإنْ سَلَكْتُ سَبيلَ القالة القُدُم
ماذا عَسَى أن يقولَ المادحون وقَدْ ... أَثْنَى عليه بفَضْلٍ مُنْزِلُ الكَلِم
فَهَا كَهَا يارَسُولَ الله زاهـرَةً ... تُهْدي إلَى النَّفْس ريّا الآسى وَالبَرَم
وَسُمْتُها باسْمكَ العالي فَأَلْبَسَها ... ثَوْباً منَ الفَخْرِ لاَ يَبْلَى على القدَم

غَرِيبَةٌ في إسارَ البَيْنِ لَوْ أنسَتْ ... بنَظْرة منكَ لاَ ستَغْنَتْ عَنِ النَّسم
لَمْ الْتَزِمْ نَظْمَ حَبَّاتِ البديع بها ... إذ كانَ صَوْغُ المعَاني الغُرَّ مُلتَزَمي
وإنَّما هي أبْيَاتٌ رَجَوْتُ بها ... نَيْلَ المُنَى يَوْمَ نَحيا بَذَّةُ الرِّمَم
نَثَرْتُ فيها فريدَ المدْحِ فانْتظَمَتْ ... أحْسِنْ بِمُنْتَثرٍ منها ومُنْتَظِم
صَدَّرْتُها بنَسيب شَفَّ باطنُه ... عنْ عفَة لَمْ يَشِنْها قَوْلُ مُتَّهِم
لَمْ أتخذْهُ جُزَافاً بَلْ سلكت به ... في القَوْلِ مَسْلَكَ أقْوَامٍ ذَوِي قدم
تابَعْتُ كَعْباً وحَسَّانا ولِي بهمَا ... في القَوْلِ أسْوَةُ بَرٍّ غَيْرِ مُتَّهَم

ثم يعارض أمير الشعراء أحمد شوقي « بردة » البوصيري بقصيدته التي أطلق عليها « نهج البردة » يلتزم فيها بحرها وقافيتها ومنهجها فيبدؤها بالنسيب على عادة الشعراء الذين بدأوا المديح النبوي بالنسيب منذ كعب بن زهير ؛ فيقول شوقي في مطلعها :

رِيمٌ عَلَى القاعِ بيْنَ البَانِ وَالعلَمِ ... أحَلَّ سَفْكَ دَمي في الأشْهُرِ الحُرُمِ

ويمضي في تصوير السيرة النبوية منفعلا مع بعض المشاهد والأحداث من غير ترتيب ؛ أو استقصاء لها ، فتتحرك مشاعره الفياضة ، التي يمزجها بخواطره العميقة ، وثقافته المتنوعة ، في مقارنة بين القيم التشريعية ، والأخلاق الإسلامية وحضاراته السامية ، وبين حضارات الأمم والشعوب قديما وحديثا ؛ فيشيد بقيم الإسلام وحضارته ، التي تسمو على الحضارات في القديم والحديث ؛ فحينما يصور حضارة الإسلام يقول :

شَرِيعَةٌ لك فجَّرْتَ العُقُولَ بها ... عنْ زاخرٍ بصُنُوفِ العلْمِ مُلْتَطِم
يلوحُ حولَ سنَا التوحيد جَوْهَرُها ... كالحَلْيِ للسَّيْفِ أو كالوشْيِ للعَلَم
غَرَّاءُ حَامَتْ عليها أنْفُسٌ ونُهىً ... وَمَنْ يَجِدْ سَلْسَلاً من حكْمَة يَحم
نُورُ السَّبيل يُساسُ العالمونَ به ... تَكفَّلَتْ بشَبابِ الدَّهْرِ والهَرَم
يَجْرِي الزَّمَانُ وأحكَامُ الزَّمَانِ عَلَى ... حُكمٍ لها نَافذٌ في الخلق مُرْتَسِم
لمَّا اعْتلتْ دولةُ الإسلامِ واتَّسعَتْ ... مَشَتْ ممالكُه في نُورِها التَّمم
وعَلَّمَتْ أُمَّةً بالقفْرِ نازلةً ... رَعَى القياصِرَ بَعْدَ الشَّاءِ والنَّعَم
كمْ شَيَّدَ المصلِحونَ العاملون بِهـا ... في الشرق والغرب مُلكاً باذخ العظَم

للعلمِ والعَدْلِ والتَمْدين ما عَزَمُوا   منَ الأُمُورِ وَمَا شَدُّوا من الحُزُم
سَرْعَانَ مافَتَحُوا الدنيا لِملَّتِهِمْ   وأَنْهَلُوا الناس من سَلْسَالِها الشَّبِم
سَارُوا عليها هُدَاةَ النَّاسِ فَهِي بهم   إلى الفَلاَحِ طَرِيقٌ وَاضِحُ العظِمِ
لايهدَمْ الدَّهرُ رُكْناً شَادَ عَدْ لَهُمُ   وحَائطَ البَغْي إنْ تَلْمَسْهُ يَنْهَدِمِ
نَالوا السَّعَادَةَ في الدَّارَيْنِ واجْتَمعوا   على عَمِيمٍ مِنَ الرِضْوَانُ مُقْتَسَمِ
دَعْ عَنْكَ رُومَا « وآثينا » وَمَاحَوَتَا   كلُّ اليواقيتِ في « بغداد » والتُّوم
وَخَلِّ كسْرَى « وإيواناً » يُدلُّ به   هَوى على أثر النيران والأيمَ
واترك « رعمسيسَ » إنْ الملكَ مُظْهَرُهُ   في نَهْضَةِ العَدْلِ لا في نَهضةِ الهَرَمِ
دارُ الشرائع « روما » كُلَّمَا ذُكِرَتْ   دَارُ السَّلام لها أَلقَتْ يَدَ السَّلَم
مَاضَارَعَتْها بياناً عِنْدَ مُلْتَأمٍ   وَلاَ حَاكَتْها قَضَاءَ عند مُخْتَصَم
وَلاَ احْتَوَتْ في طِرازٍ مِنْ قياصرها   على « رشيدِ » « ومأمونٍ » « ومعتَصِمِ »
مِنَ الذين إذا سَارتْ كتائبُهم   تَصَرَّفوا بحدودِ الأرضِ والتُّخَمِ
ويجْلسون إلى علمٍ ومَعْرِفَةٍ   فَلاَ يُدانُون في عَقْلٍ وَلا فَهَمِ
يُطَاطِئُ العلماءُ والهَامَ إنْ نَبَسُوا   مِنْ هَيْبَةِ العلمِ لا مِنْ هَيْبَةِ الحُكَمِ
ويُمطرون فَما بالأرضِ من مَحَلٍ   ولا بِمَنْ باتَ فوق الأرضِ من عُدُمِ
خَلائفُ الله جَلُّوا عَنْ موازنةٍ   فَلا تَقِيسَنَّ أَمْلاَكَ الورى بهم (١)

وأما الشاعرعامر محمد بحيري (٢) فقد نظم قصيدته البائية ، أطلق عليها « نهج البردة » في المديح النبوي ، تختلف في قافيتها عن « بردة » البوصيري وذلك في تسعة وعشرين ومائة بيت ، كما اختلفت في مطلعها ؛ فلم

(١) التمم : التام ، الحزم : جمع حزام ، سرعان : بمعنى السرعة ، النهل : أول الشرب ، الشبم : البارد ، التوم : حبات الفضة كالدرر ، الأيم : الدخان ، دار السلام : بغداد ، السلم : التسليم ملتأم : مجتمع ، مختصم : الخصومة ، الطراز : الجيد ، التخم : الحدود ونهاية الموقع ، محل : الجدب والفقر . من ديوان الشوقيات .

(٢) من شعراء مدرسة أبولو ، نظم الشعر في أربعة وخمسين عاما كما ذكر ذلك في مقدمة ديوانه يحافظ فيه على عمود الشعر . ويسير مع المجددين له خمسة عشر ديوانا وثلاث مسرحيات شعرية ، وست ملاحم شعرية وعشر مسرحيات مترجمة انظر أعماله الكاملة .

يبدأها بالنسيب كالبوصيري والبارودي وشوقي ، بل كان مطلعها في ثلاثة وعشرين بيتاً ، يصور الشاعر فيها مناجاته وأشواقه وحبه الواله للنبي محمد ﷺ حين استقبل المدينة المنورة ، والمسجد النبوي الشريف ، كما تمنى على الله عز وجل أن يشرف بصحبة الرسول لله في الدنيا والآخرة كما شرف بهذه الصفة أصحابه ﷺ ؛ فيتناجى بهذا الشوق الحار ، والحب الصادق فيقول :

لاحتْ لَكَ القُبَّةُ الخَضْراءُ فاقْتربْ ... وَجُدْ بِدَمْعٍ على الخدَّيْن مُنْسَرِبِ
واذكر عهوداً بهذا الحي قد سلفت ... بلغتَ فيهن ما أمَّلتَ من رَغَبِ
تَسْعى إليه إذْ الأيامُ غافلةٌ ... إلا عيون الهوى يَشْهدْنَ عن كَثَبِ
أسْمى المحبِّين مَنْ أخفى لواعجه ... فَالثَّغْرِ مُبْتَسِمُ والقلبُ في لهَبِ
يزوره الطيفُ دوماً لا يفارقه ... في يَقْظة ومَنَامٍ عنه لَمْ يَغبِ
سهامُه في شغاف القلب صائبةٌ ... يظنها غافل مرَّتْ ولم تُصبِ
أنا المريضُ وَهَذا البُرْءُ في يده ... ياحَامِلَ البُرْءِ أسْعِفْ حاملَ الوَصَبِ
هو الحبيبُ الذي شارفتُ منزله ... اجُوزُ في الوَهْدِ اوْ أسْمو إلى الهُضُبِ
مدينةَ المصطفى لاحَتْ منائرُها ... في الأفْق فَلْتَبْهج ياقلبُ ولْتَطِبِ

وهكذا حتى ينتقل إلى صفاته الجسدية كما وردت في الأثر الشريف فقد بلغت الغاية في جمال الحسب والنسب وصفات الجسد كما بلغت الغاية في أخلاقه السامية فيقول :

محمدُ صفْوةُ الدنيا وبَهْجَتُها ... وأشرفُ الخلقِ في علمٍ وفي نَسبِ
ألْقَى الجمال عليه من مهابته ... فايُّ قَلْب من رُؤْياه لم يجب
أخلاقُه المُثُل العليا لأمَّته ... لما احتَذَوْه فكانُوا أنْجب النُّجُبِ

ويستمر في تصوير صفاته الجسدية ، لينتقل بعد ذلك إلى وصف أخلاقه السامية من خلال أسمائه وهي « محمد ، والماحي ، والعاقب ، والحاشر ، والشفيع » وغيرها ، منها قوله :

محمدٌ . غيرُ مسبوقٍ بمحمدةٍ ... ولابَمكرُمَة في اسْمٍ ولا لَقَبِ
ماحٍ مَحَا الكفرَ ربُّ العالمين به ... وعاقبٌ . ماله في الرسْل من عَقَبِ

وهكذا يمضي في تصوير أسمائه تصويراً أخلاقياً سامياً ، لينتقل إلى خلقه

العظيم كما وصفه ربه سبحانه وتعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ من الهدي والبلاغة والشجاعة والظفر بالرعب والعدل والكرم والحلم والعلم وغيرها :

هذا نَبيُّ الهُدى أدَّى رسالتَه إلى العبادِ والْقى أبْلَغَ الخُطَبِ

ويستمر في تصويرها ، ثم ينتقل إلى معجزاته الكثيرة واحدة بعد الأخرى ويقف وقفه طويلة مع المعجزة الكبرى ، وهي القرآن الكريم في ثمانية عشر بيتا منها قوله :

محمدٌ . . الصادقُ الأميُّ . . يَغمرُهُ وَحْيُ السماء بِمُنْهَلٍ ومُنْسَكِبِ
يَغشى حراءَ فيغشاهُ به مَلَكٌ يُلقي عليه الهُدَى في ثوبه القُشُبَ
مُسَطَّراً في قديم اللوحِ أنزله مُنَجماً جاء عن علمٍ وعنْ طَلَبِ

ثم انتقل إلى انتشار الإسلام بعد فتح مكة وانتصار حنين ليحض المسلمين في العصر الحديث على أن يحافظوا على هذ النصر ، ويدافعوا عن الإسلام ويكونوا أوفياء في حمل هذه الأمانة ، وخاصة بعد أن تعددت الجبهات والتيارات من الملاحدة والمشركين والصليبيين وغيرهم ، ممن جمعتهم عداوتهم للإسلام وحقدهم عليه وعلى المسلمين الذين تفرقوا شيعا وأحزابا ، وانصرفوا إلى اللهو والعبث لا إلى بناء أمجاد الأمة ، والحفاظ على عزتها كما كانت ، منها قوله :

حِصْنُ النُّبُوَّةِ يأتي العالمون له مِنَ الجِهاتِ وأنتمْ منْهُ في العَتَبِ
هذا هو الشَّرفُ الباقي فلاسبَبٌ أقوى لمتَّصلٍ من ذلك السَّبَبِ
جعلتُ مقْصِدِي في كل نائبَةٍ مِنْ بَعْد ماهَدَّني حُزني وبرَّح بِيَ

إلى قوله :

والمُلحدون وأهلُ الشرْكِ في عملٍ والمسلمون وأهلُ الصِّدْقِ في لَعِبِ
ولسْتُ أظلمُ أهلَ الصدقِ إنَّهُمُ لقلَّةٌ زَحَمَتْها عُصْبَةُ الكَذِبِ

ثم تنتهي القصيدة بمناجاة للرسول ﷺ ، واستغاثة به مما حل بالمسلمين من بلاء ، وما أصابهم من وهن وضعف وتمزق وإقبال على المجون والعبث وانصراف عن الجد والعمل ، فيحث المسلمين على الاقتداء بالرسول ﷺ في أخلاقه وصفاته ، وجهاده ودفاعه عن الإسلام ، والعمل بشريعته والحفاظ على هذه الأمانة ، وعلى حضارة الإسلام ؛ ليؤدوا دورهم في

بنائها وسموها ، كما أدى ذلك السلف الصالح في عزة وإباء وكرامة ، ومجد وسؤدد ، منها قوله :

لبيك ، لبيك . . يامَنْ بتُّ أسْمعُه   منادياً ، وأراه غيرَ مُحْتَجِبِ

إلى قوله :

دعوت قومَك في أقصَى البلادِ لمَا   يَحْمي حضارتَهم فيها من العَطَبِ
فلايُجارون عن جهلٍ ذوي سفه   ولا يدينون من ضَعْفٍ لمُغْتَصِبِ
دينُ السّلام بأيْدي المسلمين غداً   بعد الزيادة في نقصٍ وفي تَبَبِ
بالأمْسِ كانتْ لهمْ ذخراً فَضَائلُهُ   واليومَ أبْدَوا لها إعْراضَ مُجْتَنَبِ
قالوا تأخَّر هذا الشَّعبُ قلتُ لهم   الخيرُ في أنْ نراه غيرَ مُنْشَعِبِ
يُجانبُ الباطلَ المرْذُولَ منطقُهُ   ويَطْلُبُ الحق في جدٍّ وفي دَأَبِ

ثم يختم قصيدته بقوله :

هذي القصيدةُ من آثارِ بردته   عقدٌ من الدرِّ أوْ وَشْيٌ من القَصَبِ
لما احتذيتُ كبارَ المادحين لَهُ   ابدَعتُها حلْيَةً للشعرِ والأدب
مَنْسُوجةً بمعانٍ لايُفَصِّلُها   إلا مُحبٌّ ، ولم تُوهَبْ لغيرِ نَبي
وهبتُها راجياً فيها شفاعتَه   وَقَدْ دَعَوْتُك يامَوْلاي فَاسْتَجِبِ (١)

وعارض أحمد شوقي بهمزيته همزية البوصيري وهما متفقتان في المجرى والروى لكنهما مختلفتان في الوزن والبحر ؛ فهمزية شوقي من البحر الكامل ، وهمزية البوصيري من البحر الخفيف ، ويختلفان في عدد الأبيات ؛ فعند شوقي أحد وثلاثون ومائة بيت ، وعند البوصيري ستة وخمسون وأربعمائة بيت يقول البوصيري :

ليلة المولد الذي كان للدين   سرور بيومه وازدهاء (٢)

ويقول شوقي :

ولدَ الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء (٣)

---

(١) ديوان عامر : المجموعة الكاملة ص ٤٦٧ / ٤٧٤ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ م .
(٢) شرح الهمزية : محمد شلبي ص ١٠ .
(٣) الشوقيات : ١ / ٢٢ .

وللشاعر أحمد شوقي قصيدة ابتدعها ولم يعارض أحداً بها وهي قصيدة « ذكرى المولد » في واحد وسبعين بيتا تجمع خمسة أغراض من النسيب ووصف الدنيا ، والحكمة ومدح الرسول والتوسل به ، يقول في مطلعها :

سلو قلبي غداة سلا وتابا   لعل على الجمال له عتابا (١)

ومن المديح النبوي قصيدة لشاعر من شعراء العروبة والإسلام المعاصرين تعبر عن قلب مفعم بالحب السامي ، أسمى أنواع الحب الروحي للنبي ﷺ في شوق حار ، ومناجاة صادقة وفي تجربة شعرية ذاتيه ، يتغني فيها بأخلاق الرسول وأنواره وتشريعه السامي ، وحضارة الإسلام البناءة ، في تصوير شعري رائع ، وفي عاطفة صادقة قوية ، تثير مشاعر الآخرين ، وتحرك عواطفهم الحميمة ، وتثري خواطرهم بالخلق العظيم ، وتهذب نفوسهم بآيات الحب والجمال ، وتصفي أرواحهم بالإشراقات الروحية الربانية ، يقول فيها الشاعر إبراهيم على بديوي في قصيدته : « ياسيد الخلق » (٢) .

رفقاً بقلبي كفاني منكَ هجرَانَا   وارحمْ فجفني يبيتُ الليلَ يقظانَا
أتيتُ والحبُّ يدْعُوني ويدفَعُني   والشوقُ بينَ ضُلُوعي شَبَّ نيرانا
وجئتُ والدمْعُ منْهلٌ ومُنْهَمِلٌ   ينسابُ من جَفْنِيَ المقْروحَ طَرْفَانا
فارحمْ دُموعي لاتطرد شفاعتها   فَالدَّمْعُ يَشْفَعَ للعشّاق أحْيانا
يَسْلو المحبون أحياناً إذا يَئِسُوا   وقد يَئِسْتُ فما حَاوَلْتُ سُلوانا
حُبِّي لِطَهَ عجيب في تصرفه   إنْ زادَ يَأسِي زَادَ القلبُ تحنانا

ياسيِّدَ الخلقِ : صِلْني واشفِ منْ ظَمَئي   واسْأل اللهَ لي عَفْواً وغُفْرانا
هَذي ذَنوبي جلَّتْ لسْتُ أذْكُرُها   إلاَّ استَبدَّتْ بيَ الأحْزَان ألوانا
مَوْلايَ ياخَيْرَ مَنْ تُرْجَى شَفاعَتَه   إذا شَفَعْتَ فَذَنْبِي كُلُّه هانا
فَاشْفَعْ فَأَنْتَ شَفيعُ الناسِ قاطبةً   ولَمْ يَشفع سِوَاك اللهُ إنسانا

---

(١) الشوقيات : ١ / ٥٩ .
(٢) تخرج من كلية اللغة العربية ، عمل بالتدريس في المعاهد الدينية حتى صار شيخا لمعهد دمنهور ثم شيخا لمعهد دسوق ، ثم مستشارا دينيا لمحافظة البحيرة ، وله ديوان شعر من جزأين ، أسماه : « بديويات » .

أعطَاك ربُّكَ مَالَمْ يُعطه احداً ... علماً وحلماً وإخلاصاً وإيماناً
وانتَ أعظمُ خَلْقِ الله مكْرُمةً ... وأَنْتَ اطهرهم حساً ووُجْدانا
أتيْتَ والكوْن أعمى حائرٌ قلقٌ ... والناسُ كانوا به صُمّاً وعميانا
فَشاع نورُك يَجْلُو كلَّ مظلمة ... وفَاضَ هَدْيُك بَهَدْيِ الإنْسِ والجانا
أتيْتَ والناسُ أجْناسٌ ممزقة ... فاضَتْ قلوبهم بغياً وعدوانا
فرُحْتَ تَمحُو فُروقَ الجنْسِ بينهمُ ... حتى جَعَلْتَهم في الله إخوانا
أتَيْتَ والناس في أدْيانهم عجبٌ ... حَيْران قلَّدَ في الإشراك حيرانا
فقمت تدعو إلهاً واحداً أحداً ... رَبَّ السماء وربَّ الأرض رحمانا
دَعَوْتَهم يعبُدون اللهَ فامْتثلوا ... حقداً وزادُوا على الكُفْران كُفْرانا
فلم يروِعُك سْيفُ الكُفْر مُنصَلتاً ... ولمْ يُخِفْكَ عدوُّ الله غَضْبانا
ومَدَّكَ اللهُ بالآيات عاجلةً ... فَجاءَ يَسْعَى إليكَ النَّصْرُ عَجْلانا
واقْبَل الفتحُ وانسابَتْ مواكبُه ... ودان لله مَنْ لَوْلاكَ مادَانا
وآمَنَ الناسُ بالرحمنِ وامتثلوا ... وعَزّ بالله والإسلام مَنْ هَانا

أتَيْتَ والعربُ البادون قَدْ مَلكُوا ... أعِنَّةُ القول واقْتادُوه فُرسانا
إنْ يَنْظم،ا سَحَرُوا أو ينثروا بهروا ... هم الفصاحُ جلوا قساً وسَحْبانا
فجاءك الله بالقرآن معجـــزة ... تحدَّتْ الُلسَّنَ تجويداً وإتقانا
قالوا هي الشعر أين الشعرُ من سور ... تهدي الحياتين دُنْيانا وأخرانا
تجري الحقائق في القرآن مُرْسلةً ... والشعر يجري خيالات وأوزانا
قالوا هي السحر أيْن السحْرُ من غرر ... ضاءَتْ فكانتْ يواقيتاً وعقيانا
السحرُ يجْري ضلالات مزورةً ... وتلك تَجْري هدايات وفُرْقانا
الله أنزلهــا بالحـق بيِّنــةً ... فَبانَ منها جبينُ الحقِّ وازدانا

واللهُ أنْزلها آياً مُفَصَّلةً ... فَفَصَّلَتْ لرؤوسِ القَوْل تيجَانا
مولايَ جئْتَ إلى الدنيا بمعجزة ... كانتْ ومابرِحَتْ للحق عُنْوانا

يَاسَيِّدي كلُّ شيء كان يُعوزُهُ ... ميزانه فأتى القرآن ميزانا
موسى أتى بالعصا تَنساب لاقفةً ... مَاخُيِّلَ السِّحْرُ ثعبانا فثعبانا
وَجَاءَ عِيسى يداوي كلَّ ذي سقم ... ويرْجعُ الميْتُ حياً مثلما كانا
المرسلون أتى كلٌّ بمعجزةٍ ... كانَتْ تبِينُ عن الدنيا إذا بانا
وأنت جئتَ إلى الدنيا بباقيةٍ ... حَسْنَاء كانتْ لعيْنِ الخلد إنْسانا
نقلت للملأ الأعلى ومانتئت ... تُحيِى وتُنْشئُ أجْيالا وأزْمَانا

مولايَ ياسيِّدَ الدنيا وصفوتها ... أدْرِكْ فقد غرقتْ في السَّرِّ دنيانا
عاد الزمانُ إلى ماكان مُرتكساً ... في الجاهلية خدَّاعاً وخوَّانا
والناس أمْسَوْا كما أمسى زمانهم ... صرعى الرذائل أرواحاً وأبدانا
قدْ عاوَدوا الظلْمَ واسْتَحلُّوا مراتعهُ ... وباتَ عادلُهم بالعدْلِ غَصّانا
وعاقروا الخمْرَ لمْ أنْظرْ لمجتمع ... إلاَّ رأيْت سَكْرَى وسكرانا
وَطفَّفُوا الكيلَ إن كالوا وإنْ وَزَنوا ... رأيتهم مَلَئُوا الميزانَ خُسْرانا
حتى الأمانات مابَالوا بها فإذا ... أنتَ ائتمنْتَ أميناً منهمُ خانا
مولاي إنَّا ارتكبْنا كلَّ معْصيَةٍ ... حتى مَلأنا كتابَ العُمْرِ عصيانا
إنَّا ارتكبْنا خطايانا بلا خَجَلٍ ... حتى لقد خَجِلَتْ منَّا خطايانا
فاشفعْ لنا واسْألِ الرَّحمن مغفرةً ... أنت الشَّفيعُ لأولانا وأُخرانا (١)

كان الشاعر إبراهيم بديوي في تصويره الأدبي متمكنا بموهبته الشعرية من أدوات الفن الشعري ، من حيث التجربة الشعورية العميقة والثرية والوجدان الحميم الواعي الدافئ ، والعاطفة الروحية الصادقة ، والموسيقى القوية الجذابة ، تنساب في أوزانها وإيقاعاتها مع حرارة الشوق وصدق الحب ، والحقل الفكري غني بكل : ١ - القيم الخلقية ، ٢ - والروحية . ٣ - والوجدانية ، فقد يجمع البيت الواحد بينها جميعا ؛ فترى مثلا : القيمة الخلقية في أخلاق الرفق والرحمة والتهجد بالليل والناس نيام

---

(١) بديويات : للاستاذ الشيخ إبراهيم علي بديوي .

وترى الجانب الروحي في طاعة عبودية الشاعر لرسوله ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله : ﴿ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ وترى الجانب الوجداني في حب الشاعر الصادق واليقظة لا الهجران والنوم والغفلة .

وهكذا لو تأملت جميع الأبيات لوجدت هذه القيم الثلاث ، لايخلو منها بيت حتى نهاية القصيدة في ترابط قوي ، يحقق الوحدة الفنية بجميع جزئياتها من حيث التلاؤم بين التجربة الشعورية والعاطفة وبين روافد التصوير الأدبي وعناصره في كل صورة ، وفي كل بيت ؛ فقد تحقق التلاؤم بين التجربة والعاطفة وبين الألفاظ ، والأساليب والمعاني ، والحقائق ، والخيال بصوره ، والمشاعر والأحاسيس والموسيقى الخارجية ، والموسيقى الداخلية والإيقاع الخفي وغيرها من روافد التصوير الأدبي ، كما تحقق التلاؤم بينها وبين عناصر التصوير الأدبي من الصوت ، واللون ، والحركة ، والشكل ، والحجم ، والطعم ، والرائحة وغيرها .

وهذه القصيدة الغنية بكل القيم الفنية والخلقية تتحدى الذين يدعون افتراء بأن الأدب الاسلامي وعظٌ خطابي وتقارير علمية ، وتقنية تجريبيه وغير ذلك من دعاوي باطله ، تبرأ منها هذه القصيدة وذلك الشعر الشاعر ، فهذا هو الأدب الإسلامي في تصويره الفني الرائع ، ولمسانه الأنيقة الرشيقة ، وهمساته الموحية المثيرة وإيحاءاته المتنوعة الظليلة .

لأن القيم الخلقية لاتهبط بالقيم الفنية كما يدعون ، بل هي تزينها ، وتسمو بها ؛ ليجتمع في النص الأدبي مايرتقي بالأجيال في قيمه وأخلاقه وإنسانيته ومايهذب لسانه وذوقه ويسمو بمشاعره ويرقى بأحاسيسه ، وعواطفه الصادقه ويثري وجدانه العامر بالإنسانية ، والواعي بركائز البناء والاصلاح لا الهدم ولا التدمير .

مولاي إنا ارتكبْنا كل معصية حتى ملأنا كتاب العمر عصيانا
إنا ارتكبنا خطايانا بلا خجل حتى لقد خجلت منا خطايانا

وأما شاعر العروبة والإسلام علي الجارم ؛ فله قصائد كثيرة في مديح الرسول محمد ﷺ منها قصيدة « أبو الزهراء » ، جادت بها قريحة الشاعر

العصماء في ذكرى المولد النبوي الكريم عام ١٩٤٨ م يقول فيها [١] .

أطلَّتْ على سُحب الظلام ذُكاءُ ... وفُجِّرَ من صخرِ التُّنوفة ماءُ
وخُبِّرت الأوثانُ أنَّ زمانَها ... تولَّى ، وراح الجهلُ والجهلاء
فما سجدتْ إلاَّ لذي العرش جبهةٌ ... ولم يَرْتفع إلا إليه دُعَاءُ
تَبَسَّم ثَغْرُ الصُّبحْ عَنْ مولد الهدى ... فللأرض إشْراقٌ به وزُهَاء
وعادَتْ به الصحراءُ وهي جديبةٌ ... عليها مِنَ الدِّين الجَديد رُواء
ونافَسَتْ الأرضُ السماءَ بكوكب ... وَضيء المحيَّا ماحَوَتْهُ سَماء
له الحقُّ والإيمانُ بالله هالةٌ ... وفي كلِّ أجواء العقول فَضاء
تألَّقَ في الدنيا يُزيحُ ظلامَها ... فزال عمًى مِنْ حوله وعَماء
كلامٌ هو السحرُ المبين وإنْ يكنْ ... له إلفٌ مثلُ الكلامِ وَباء
عجيبٌ من الأميِّ علمٌ وحكمةٌ ... تضاءَل عنْ مَرْمَاهُما العلماء
ومَنْ يَصطَفِ الرحمنُ فالكون عبده ... ودُهم الليالي أين سار إمام

نَبيُّ الهدَى قد حرَّق الأنفسَ الصدَى ... ونحن لفيض مِنْ يديكَ ظماء
أفضْها علينا نَفْحَةً هاشميَّةً ... يُلَمُّ بها جُرحٌ ويَبْرأُ داءُ
فَلَيْس لنَا إلاَّ رِضاك وسيلةً ... وليْسَ لنا إلا حماكَ رَجاء
حنَنَّا إلى مجد العروبةِ سامقاً ... ومانحنُ في ساحاته غُرباء
زمانُ لواء العُرْب يُزْهى بقومه ... ومَا طالَه في العالمين لواء
زمانٌ لنا فوقَ الممالك دولةٌ ... وفي الدهرِ حكمٌ نافذٌ وقَضاء
يُنادي جريُ الأصْغريْنَ بدعوة ... أكَبَّ لها الأصنامُ والزُّعماءُ
دَعَاهم لربٌ واحد جَلَّ شأنُهُ ... له الأمرَ يولي الأمرَ كيف يشاء
دعاهم إلى دينٍ مِنَ النُّور والهُدَى ... سماحٌ ورفْقٌ شاملٌ ووَفَاء
دعاهمْ إلى نَبْذِ الفَخَارِ وأنهم ... أمامَ إلهِ العَالمين سَواء

---

(١) ديوان علي الجارم ١٧ : ٢٠ / ١ .

دعاهم إلى أن ينهضوا بعُفاتهم ... كراماً فطاحَ الفقرُ والفقراء
دعاهم إلى أن يفتحوا القلبَ كي ترى ... بصيرتُه مايُبْصرُ البُصَرَاء
دعاهم إلى القرآن نوراً وحكمةً ... وفيه لأدواء الصُّدورِ شفاء
دعاهمْ إلى أن يَهزموا الشركَ طاغياً ... تَسيلُ نفوسٌ حولَه ودماء
دعاهم إلى أن يَبْتَنُوا الملكَ راسخاً ... له العدلُ أسٌّ والطموحُ بناء
دعاهم إلى أنَّ الفتى صنْع نفسه ... وليَس له مِنْ قومِه شُفعاء
دعاهم إلى أنْ يملكوا الأرضَ عنوةً ... مساميحَ لاكبرٌ ولاَ خُيَلاء
فلبّاه من عليًا معدٍّ غَضافرٌ ... كُماةٌ إذا اشتدَّ الوَغَى شُهداء
أشداءُ ما بَاهى الجهادُ بمثلهمْ ... وهمْ بينَهمْ في أمرهم رُحَماء
أسَاءُوا إلى الأسْياف حتى تحطَّمتْ ... ومامرَّةً للمستجيرِ أساءُوا
وقدْ حمَلوا أرواحَهم في أكفِّهمْ ... ولَيْس لهمْ إلاَّ الخلودِ جزاء
إذا حكموا في أمَّة لاَنَ حكمُهم ... فما هي أنعامٌ ولاَ هيَ شَاء
فهل تعلمْ الصحراءُ أنَّ رُعاءَها ... حُمَاةٌ بآفاق البلاد رعَاء
وأنهم إنْ زاولُوا الحكمَ سَاسةٌ ... وإنْ أرسلوا أحكامهم فقُهَاء
وَرَدَّ إلى العُرْبِ الحياة وقدْ مَضَى ... عليهم زمانٌ والأمامُ وراء
حجابٌ طوَى الأحداث والناسُ دونَهمْ ... فاظهرَ ماتَجْلو العيونَ خفاء
بَنَتْ أممٌ صَرْحَ الحضارة حَوْلهم ... واقنعهمْ إبْلٌ لهم وحُدَاء
عقولٌ منَ الأحجارِ هامتْ بمثلها ... وكلٌّ بكيم للبكيم كِفَاءُ
فكمْ كانَ للرُّومان والفرس صَوْلةٌ ... وهم في بوادي أرضهم سجناء
عِراكٌ وأحقاد يُشُبُّ أوارُها ... جحيماً وكِبْرٌ أجْوَفٌ وغَباءُ
عَجبتُ لأمر القومِ يحمُون ناقةً ... وسادتُهم من أجْلها قُتُلاء

بَدَا في دُجَى الصحراء نورُ محمد ... وجَلْجَلَ في الصحراء منْهُ نداء
نبيٌّ بهِ ازدانَتْ أباطحُ مكةً ... وَعَزَّبه ثَوْرٌ وتَاهَ حراء
لقد شربوا من منهل الدين نغبةً ... مطهرةً فالظامئون رواء

وقد لمحُوا من نورِ طَه شُعَاعَةً ... فكل ظلام في الوجودِ ضياء
نَبيٌّ منَ الطهرِ المَصَفَّى نجارهِ ... سماحة نفس حُرَّةٍ وصفاء
وصبرٌ على اللأواء ما لان عوده ... ولامسَّهُ في المُعْضلات عَناء
وزهدٌ له الدنيا جناحُ بعوضة ... وكل الذي تحت الهبَاءِ هَبَاء
تراه لدى المحرابِ نُسْكا وخشْيةً ... وتلقاهُ في الميدانِ وهو مَضَاءُ
إذا صال لم يترك مصالاً لصائلٍ ... وإن قال ألقت سمعَها البُلغاء
كَلامٌ منَ الله المُهيمنُ رُوحَهُ ... ومنْ حُللِ الفُصَحى عليه رداء
كلام أرادته المقاويل فالتوى ... عَلَيْها وضَلَّتْ طُرُقَهُ الحُكماء
فيارب هيِّئْ للرشاد سبيلَنَا ... إذا جَارَ خَطْبٌ أوَ ألمَّ بلاء
ونَصْراً وهَدْياً إن طغى السيلُ جارفاً ... وفَاضَ بما يَحوى الإناء إناء
تناجيك هذى راية العرب فاحمها ... فَمنْ حولها أجنادُك البُسَلاء
رمينا بكف أنتَ سدَّدت رميها ... فَما طاش سَهْمٌ أو أخَلَّ رِمَاء
أعِرْنا بحقِّ المصطفى منك قوةً ... فَلَيْس لغَيْرِ الأقوياء بقاء
وأسْبِغْ علينا درعَ لُطْفك إنها ... لنا في قتام الحادثات وفاء

إليكَ أبا الزَهْراء سارت مواكبي ... مواكبُ شعرْ ساقَهُنَّ حَياء
وأنَّى لمثلي أن يُصوِّر لمحةً ... كِبَادُونَ أدنىً وصفها الشُعراء
ولكنها جُهْد المحبّ فهل لها ... بقُدسك من حَظٍّ القبول لقاء
ولي نَسبٌ يُنمي لبيتك صَانَني ... وَصانَتْهُ مثِّي عِزَّةٌ وإباء
عليك سلامُ الله مَاذَرَّ شارِقٌ ... وماعطَّر الدنيا عليك ثَناء(١)

---

(١) ذكاء : الشمس ، صخر التونة : صحراء الحجاز ، رواء : حسن المنظر ، دهم الليل : سواده عماء : الظلال ، ظماء : عطش ، الأصغرين : القلب واللسان ، أكب : سقط ، عفاة : طلاب المعروف ، غضافر : أسود شجعان ، كماة : رماة ، رعاءها : الولاء ، رعاء : غطاء. حداء : سوق الإبل ، أباطح: مسيل واسع ، تاه : اختال ، نقبه : جرعة ، نجاره : أصله ، اللأواء : الشدة ، حلل الفصحى : أشكال البلاغة ، المعضلات : الشدات ، مضاء : نفاذ ، أرادته المقاويل : حاكته وجارته لتأتي على مثاله ، التوى : صعب ، أعرنا : مدنا ، أسبغ : أتمم ، قتام : غبار ، نسب : انتماء ==

القيم الخلقية في القصيدة :

١ - تحطيم الأصنام والأوثان ، التي تعبد من دون الله بالباطل ؛ فالله سبحانه أحق بالتقديس ؛ لأنه هو الذي خلقها وخلق عباده .

٢ - قضى الإسلام على الجهل ، وانتهى به عصر الجاهلية .

٣ - لايخضع الإنسان لغير الله تعالى ؛ لأن الخضوع لله عز وجل .

٤ - الدعاء لايكون إلا لله ، والاستغاثة والاستعانة بالله وحده .

٥ - ميلاد النبي بدد الظلام ، وأشرقت الدنيا بنور الإسلام .

٦ - الرسول محمد ﷺ نور ، قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ .

٧ - جاء الإسلام بالحق فزهق الباطل : ﴿ قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ .

٨ - شريعة الإسلام يتحقق بها الايمان القوي الصادق .

٩ - أقر الإسلام حق العقل في الإنسان ، من التدبر وحرية التفكير والرأي .

١٠ - أرشد الإسلام العاصين إلى الهدى والرشاد ، وهدى الأعمى إلى الحق والنور .

١١ - القرآن الكريم كلام الله المعجز ، وكتابه التشريعي المقدس .

١٢ - القرآن أية الرسول الهادي ودليل على نبوته ورسالته وصدق دعوته .

١٣ - أن الله اصطفى محمدا رسولا نبيا من بين خلقه ؛ فبدد به الظلام وحرر العبيد والمظلومين .

١٤ - حاجة البشرية ضرورية إلى شريعة تهديها إلى الرشاد والإصلاح .

١٥ - جاءت الشريعة لإصلاح المجتمع وتحريره من الفساد والشر والباطل .

١٦ - محبة الرسول ﷺ هي الطريق المستقيم للإيمان الصحيح .

١٧ - صلاحية العروبة من بين البشر جميعاً لاستقبال الإسلام

== وقرابة ، ذر : طار ، شارق : ناحية الشرق ، صان : حفظ .

والدفاع عنه ، ونشره في بقاع العالم ، لأن بني إسرائيل لاتصلح له ؛ فقد كانوا أكثر الشعوب غدراً وقتلا للأنبياء ، وتبديلا للكتب السماوية .

١٨ - انتصر الإسلام على الممالك والحضارات الزائفة ، لأنه دين ودولة يقوم على العدل والحق والخير ؛ فينشر الحضارة السامية .

١٩ - خاطب الاسلام العقول بكل مستوياتها في مختلف الأجناس والشعوب ، والألسنة مهما اختلفت لهجاتها ولغاتها .

٢٠ - دعوة التوحيد لله عز وجل هو الدين الحق ، والفطرة المستقيمة الصادقة ، وماعدا ذلك فهو شرك وباطل ، لايتفق مع الفطرة الإنسانية .

٢١ - الناس في الإسلام سواسية أمام الله ؛ فلا يصح أن يفتخر أحد على آخر من جنسه ، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ؛ فكلكم لآدم ، وآدم من تراب .

٢٢ - الإسلام دين التضامن والتكافل ، يتعاون به الأغنياء مع الفقراء في سفينة الحياة وتعمير الكون وإسعاد البشرية .

٢٣ - يخاطب الإسلام القلب ويهز العاطفة ، ويحرك المشاعر والأحاسيس ، كما خاطب العقل وتجاوب معه .

٢٤ - حث الإسلام على السماحة ، والحرية ، والطهر والصفاء ، والصبر والزهد ، كما حث على الخشية والخوف من الله والشجاعة في ميادين الجهاد .

٢٥ - تحدث عن إعجاز القرآن الكريم في بلاغته وتشريعه ؛ فقد حير العلماء والحكماء .

٢٦ - يحث الشاعر أمته المعاصرة على الانتصار بالتغلب على المصاعب والمآزق والمشاكل والعدوان ، وذلك باستخدام القوة والتحلي بالتقوى ، التي تعينهم على النصر المبين .

٢٧ - وتنتهي القصيدة بالمناجاة للرسول ﷺ ، فهو المحب له ، وينتمي إليه في نسبه الشريف ، ثم يصلي ويسلم عليه ؛ لكي يرد عليه السلام ، كما ورد في الحديث الشريف .

وغيرها من القيم السامية ، والأخلاق الإسلامية الفاضلة ، التي لايخلو منها بيت ، ولاتنفك عنها الصورة الأدبية ، فقد عرضها الشاعر في تصوير شعري ،

توفرت له روافده المتنوعة ، وعناصره المختلفة من خلال تجربة شعورية قوية وناضجة ، وعاطفة صادقة ، اجتمعت لها أدوات البناء الفني والأدبي بكل المقاييس النقدية الأصيلة كما سيتضح ذلك في عرض الصورة الشعرية في شعر الجارم عامة ، وفي هذه القصيدة خاصة .

* * *

الصورة الشعرية في شعر الجارم

بين غادة رشيد وفارس العربية والعروبة والإسلام :

كانت أسرة علي الجارم من أبطال « رشيد » الذين قهروا الانجليز وهزموهم بالعزيمة الصادقة ، والشجاعة الخارقة ، بلا سلاح ولا عتاد ؛ فكانت معركتهم ملحمة الأبطال التي سجلها التاريخ في لوحة الشرف والفخار ، ينسج منها الجارم قصة البطولة في تجربة شعورية تتجسم على مثال « أبولو » رمز الجمال والشعر عند الإغريق ، أطلق عليها هو كذلك : « غادة رشيد » في قصته المشهورة ملحمة البطولة والفروسية في كفاح شعب رشيد .

وإذا كانت أسرة الجارم من أبطال رشيد في الحماسة والدفاع عن الوطن والانتصار للعروبة والعربية ؛ فلقد كان القاضي الشرعي محمد صالح الجارم والعالم اللغوي . والأديب الشاعر ، هو والد الشاعر علي الجارم ، الذي كان مع والده بطلان من أبطال اللغة العربية ومن فرسان العروبة والإسلام ، فينمي في ابنه وهو حدث صغير فطرة الإسلام والعروبة ويرطب لسانه بالعربية ، فيدفع به إلى كتاتيب تحفيظ القرآن ؛ ليحفظ القرآن الكريم ويتعلم اللغة العربية في صفاء وفطرة داخل رشيد ثم يلتحق بالأزهر الشريف قلعة الإسلام واللغة العربية والعروبة ، ثم بدار العلوم طالبا ؛ ليكون بعد ذلك مفتشا ، ثم كبيرا للمفتشين في وزارة المعارف ، ثم عضوا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة مع خمسة عشر عضوا من قمم العربية والمستشرقين ، حينما افتتح « المجمع اللغوي » لأول مرة في التاريخ عام ١٩٣٢ م ، وأخيرا كان عميدا في كلية دار العلوم ، وبعد العمادة يتفرغ لرسالته فارسا للدفاع عن العربية والعروبة والإسلام ، حتى وافته المنية في [٨ من فبراير عام ١٩٤٨ م] في حفل كان نجله الشاعر بدر الدين علي الجارم يلقي قصيدة أبيه في تأبين ذكرى الأربعين للنقراشي صديقه الحميم مساءً ، في الجمعية الجغرافية ؛ ففاضت روحه إلى بارئها ، وهو يستمع إلى آخر قصائده رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

شعر الجارم سجل العروبة والعربية والإسلام :

شعر الجارم سجل حافل بصور البطولة للدفاع عن الإسلام وعن العربية والعروبة ، بل صورة صادقة وعميقة ، وتجربة شعورية أمينة حافلة بكل ذلك

فكثيراً ماتغني الجارم بالصورة الشعرية عن دول العروبة والإسلام في قصائده الكثيرة عن مصر ولبنان الثائر ، والسودان الشقيق ، وبغداد والعراق ، وفلسطين الجريحة وعن العروبة المستهدفة من أعدائها ، وكذلك قصائد كثيرة في الدفاع عن الإسلام ومحاربة أعدائه مثل : قصيدة « رسول الإسلام » ، وقصيدة « أبو الزهراء » ، وقصيدة « يوم السلام » وغيرها ، وقصائد كثيرة أيضا عن اللغة العربية ، وعن دار العلوم ، وأعلام المجمع ، وعن الجامعة العربية ، والمجمع اللغوي ، وعن الأستاذ الإمام محمد عبده ، وعن شيخه عبد العزيز جاويش .

ولم تقتصر سمات البطولة والدفاع عن العروبة والعربية والإسلام على صوره الشعرية فحسب ، بل تجاوزت إلى مؤلفاته في العربية التي اشتملت على النحو المبسط ، والنحو الواضح والبلاغة العربية ثم إبداعاته الأدبية مثل « فارس بني حمدان » و « فارس ملك » و « مسرح الوليد » و « سيدة القصور » و« الشاعر الطموح » و « خاتمة المطاف » و « قصة العرب في أسبانيا » و « هاتف من الأندلس » .

ولقد كان العقاد عميقا ودقيقا عندما جعل من الجارم « مدرسة » مستقلة لها خصائصها وسماتها المتميزة ، التي تنفرد بها عن « مدرسة البارودي » ، وعن « مدرسة حافظ وشوقي » ، وإنما كانت مدرسته سلفية « درعمية » تجمع في منهجها بين مناهج المعاهد السلفية والمدارس الافرنجية : أي بين منهج المحافظة والتجديد ومنهج الابتداع والتقليد ، ومن رواد هذه المدرسة أيضا الشاعر حفني ناصف ، والشاعر محمد عبد المطلب ، وان تمايزوا فيما بينهم في اتجاهاتهم وملامحهم الشخصية .

وتجلت بطولة الجارم وحمايته للعروبة والعربية والإسلام في معركة الأصالة والعراقة والحفاظ على التراث العربي والإسلامي على مسرح المجمع اللغوي عام ١٩٤٦ م ، التي دارت بينه وبين عبد العزيز فهمي عضو المجمع اللغوي آنذاك حين نادى باستخدام الحروف اللاتينية لكتابة العربية ، فدوت صرخات الجارم وصيحاته مستنكرة وثائرة في جنبات المجمع اللغوي ؛ لترتد هذه الدعوة المسمومة في صدور أعداء العربية والإسلام ، وينتصر للعروبة والعربية والإسلام قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

وكان الجارم بحق بطلا من أبطال العربية والعروبة والاسلام فيه حماسة المخلصين للضاد ، وصدق المجاهدين للدفاع عن العرب ، والذائدين عن أمجاد السلف الصالح من فرسان التراث الإسلامي والبيان العربي ؛ لأنه كان وليد أبنائه في ملحمة الأبطال مع الانجليز أعداء العالم العربي والإسلامي في معركة رشيد الباسلة .

ولما كانت قصة هذه الملحمة « غادة رشيد » رمزا للبطولة والانتصار كان الجارم أيضا رمزا خالدا للعروبة والعربية والإسلام .

الصورة الشعرية في شعره :

لغة الشعر تجمع بين الإحساس والخواطر ، والعاطفة والفكر ، والوجدان والمشاعر ، وهذه تختلف من إنسان لآخر ، ومن شاعر لشاعر ، واختلافها لايظهر إلا في الصورة الشعرية التي يعبر بها الشاعر عن تجاربه الشعورية بصدق وعمق وبراعة .

ومفهوم الصورة الشعرية وضحته من خلال دراساتي وبحوثي عنها منذ عام ١٩٦٨ هي :

« التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر من خلال خواطره ومشاعره وعواطفه وذلك من عالم المحسات ليكشف عن المعنى أو الفكرة أو المشاعر أو الحادثة أو المشهد في إطار قوي نام محس مؤثر يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين » .

لذلك كان لابد من التمييز بين منابع الصورة الشعرية وبين عناصرها ورحم الله تعالى الإمام عبد القاهر الجرجاني حين فرق وميّز بين المعنى ، ومعنى المعنى ، فالمعنى عنده يكمن في القالب الأسلوبي الذي يحتوي على اللفظ والتركيب ، ومايحمل من مضمون ومعنى لغوي تعارف عليه علماء اللغة مستمدين ذلك من الفطرة العربية الأصيلة عند العرب الأقحاح ، وهذا هو عينه ما أطلقت عليه « منابع الصورة » في مجال الصورة الشعرية وهو ما أسماه الإمام عبد القاهر « المعنى » . أما « معنى المعنى » وهو المعاني الثانية التي تنبع من القالب الأسلوبي لتتراسل منه الايحاءات والأضواء ، فتزداد الصورة عمقا وثراء ، وفكرا ومشاعرا ؛ فتتولد منها المعاني والأخيلة ، وتزخرُ بالأحاسيس والمشاعر ، وتفيض

عن العواطف الشعورية والوجدانية وهو نفسه ما أطلقت عليه : « عناصر التصوير الشعري » لتميز عن منابعه السابقة وأسماء الإمام « معنى المعنى » .

وهذه المنابع والعناصر للصورة الشعرية سنراها مجسدة وحية متحركة في شعر الجارم ، ذلك الشاعر المصور في تجديده الشعري المحافظ ؛ فهو لايعترف إلا بالشعر المصور القوي ، ولايعترف مطلقا بالشعر الرديئ أو الهابط ، ولا بالشعر الوسط الذي هو بين الرديئ والجيد يقول الجارم :

إن الشعــر عــلى كثـرتــــه ... لاترى فيه سوى إحدى اثنتين
نـفحـة قدسيــة أو هــذر ... ليس في الشعر كلام بين بين

فالشعر عنده كما جاء في مقدمة ديوانه : هو التصوير الرائع الذي يملك الجنان ويعقل اللسان وكما يقول : « إن جمال الشعر في جرسه ورنينه وفي انتقاء ألفاظه وتجانسها ، وفي ترتيب هذه الألفاظ ترتيبا يبرز المعنى في أروع صورة وأبدعها ، وفي اختيار الأسلوب الذي يليق بالمعنى ويليق به ؛ فمرة يكون إخباراً ومرة يكون استفهاما ، ومرة يكرن استنكارا ، ومرة يكون نفيا ، ومرة يكون تعجبا ... ثم المعاني وابتكارها أو توليدها من القديم في صورة جديدة رائعة ، ثم الخيال وحسن تصويره والتزام الذوق العربي فيه ، ثم في إحكام القافية والتمهيد إليها ، ثم في انتقاء البحر الذي يلائم موضوع القصيد ، ثم التنقل في القصيد في فنون شتى من القول ، مع المحافظة على الوحدة الشعرية ، ثم في روح الشاعر وخفة ظله وانسياقه مع الطبع ، وتعمده لمس مواطن الشعور .

ولايكون جمال الشعر دائما بالمجاز ، ولا التشبيه وضروب التزويق اللفظي على أي صورة كان ، وفي أي ثوب يكون » .

في هذا النص نرى أن الجارم قد فهم الصورة الشعرية على نحو جديد لم يكن عند معظم النقاد القدامى والمحدثين الذين قصروا الصورة الشعرية على ألوان البيان المختلفة من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية واستعارة مكنية وحسن تعليل ومطابقة وحسن ازدواج أو تجنيس ومشاكلة ، وإنما فهم الجارم الصورة على النحو السابق الذي يمثل تفسيرا جديدا في تعريف الصورة الشعرية وتحديد معالمها ؛ فهي عندي لاترتبط بهذه الوسائل ولابتلك الأسباب ، وإنما تعتمد عليها وعلى غيرها

من عناصر التصوير الأدبي ؛ فقد تنبع الصورة من الحقيقة والواقع والتصوير الدقيق والعميق كما تنبع من الخيال بصوره البيانية والأسطورية والرمزية ، فقد تخلو القصيدة الرائعة من ألوان الخيال السابق ، وتعتمد على المعاني البديعة والمشاعر العميقة والعواطف الصادقة من حقل الحقيقة والواقع ، فتكون في تصويرها الشعري أقوى من الصورة الخيالية السابقة وغير ذلك مما انتهيت إليه . ولازال إعجاز القرآن الكريم بحقائقه وتشريعاته في تصوير قرآني بديع ، وعلى ذلك فليس من الضروري في الصورة الشعرية أن تعتمد على وسائل الخيال والرمز فقط(١) .

ومن الصور الشعرية البديعة التي تجردت من ألوان الخيال ، يقول الجارم في الشيخ المتصابي :

لنا شيخ تولى أطباه ... يهيم بحب ربات القدود
يغازل إذا يغازل من قيام ... وإن صلى يصلي من قعود

ويقول في أبي الزهراء ﷺ :(٢)

نبي من الطهر المصفى نجاره ... سماحة نفس حرة وصفاء
وصبر على اللأواء مالان عوده ... ولامسه في المعضلات عناء
وزهد له الدنيا جناح بعوضة ... وكل الذي تحت الهَباء هباء
تراه لدى المحراب نسكا وخشية ... وتلقاه في الميدان وهو مضاء
إذا صال لم يترك مصالا لصائل ... وإن قال ألفت سمعها البلغاء

منابع التصوير الشعري عند الجارم في شعره :

ومنابع التصوير الشعري نجدها في عناصر الأسلوب الأدبي الرفيع وفي أركان التصوير الشعري البارع ، وفي جوانبه الدقيقة ، التي تقوم على اللفظ والأسلوب والنظم والخيال والحقيقة ، ووسائل البيان ، وألوان المحسنات والموسيقى والإيقاع والشعور والعاطفة ، فكل واحد من هذه يعد ركنا من أركان الصورة

---

(١) انظر كتابي البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر : دار التراث الأزهرية ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ ، وكتابي الصورة الأدبية تاريخ ونقد . مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٨٤ .

(٢) ديوان الجارم : ١٩ / ١ دار الشروق ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .

ورافدا قويا لها ، ونبعا فياضـا للمعاني والخواطر والعواطف والأحاسيس .

فترى في صوره الشعرية اللفظ الصحيح في إعرابه ، والأسلوب البليغ في بيانه ، والنظم العريق في أصالته وجزالته وفخامته يقول الجارم حين يحتفي بالجامعة المصرية عام ١٩٣٢ م :

زهينا على الدنيا بجامعة غدت ... حديثا بأذن الشرق حُلوا مُرَدَّدا
ترد الشباب الغض حزما وحكمة ... وتصقله صقل القيون المهنّدا
غدت دوحة فينانة حلوة الجنى ... بعيدة مدِّ الظل فيَّاحة المدى
غرستْ وهذا فضل ماغَرسْته ... وهذا هو الغصّن الذي كان أملدا(١)

ويقول في الأستاذ الإمام محمد عبده :

المجد فوق متون الضُمَّر القودِ ... تطوي الفلا بين إيجاف وتوخيد
إذا رمتْ عُرضَ صَهْيودِ مناسمُهاَ ... رمتْ إليها الليالي كلَّ مقصود
أو مزقت طيلسان الليل من خبب ... كست خيال الأماني ثوب موجود(٢)

ويقول في قصيدة « أبو الزهراء » :

كلام هو السحر المبين وإن يكن ... له إلف مثل الكلام وباء
عجيب من الأمي علم وحكمة ... تضاءل عن مرماهما العلماء
ومن يصطف الرحمن فالكون عبده ... ودهم الليالي أين سار إماء

ومن الصور الشعرية التي تعتمد على الخيال بوسائله البيانية المختلفة ؛ فمنها ما جاء على النهج السلفي في تراثنا الأدبي القديم ، مثل قول الجارم في رثاء زغلول :

سعد وحسبك من ثلاثة أحرف ... وافي البرية من نهى وكمال
ومن السيوف إرادة مصقولة ... طبعت ليوم كريهة ونزال
ومن السوابغ حكمة سعدية ... تُزري بوقع أسنة ونبال
ومن الحصون فؤاد كل مصابر ... جهم العزيمة ضاحك الآمال

---

(١) الديوان جـ١ ص ٧٩ .

(٢) الديوان جـ ٢ ص ٣٨٠ .

فكأنه سيف المهند خالد   وكأن دعوته أذان بلال
ماراعه نفي ولا لعبت بـه   في حب مصر زعازع الأوجال
ويرى الحتوف وقد ملأن طريقه   نار الحباحب أو وميض الآل(١)

ويقول في قصيدة « أبو الزهراء » :

أطلت على سحب الظلام ذكاء   وفجر من صخر التنوفة ماء
وخبرت الأوثان أن زمانهـا   تولى وراح الجهل والجهلاء
تبسم ثغر الصبح عن مولد الهدى   فللأرض إشراق به وزهاء
وعادت به الصحراء وهي جديبة   عليها من الدين الجديد رواء

فانظر إلى صور الخيال في « أطلت ذكاء ، وسحب الظلام ، وصخر التنوفة ، وخبرت الأوثان ، وزمانها تولى ، وراح الجهل ، تبسم ثغر الصبح والأرض تزهو وتشرق ، ومولد الهدى » وغير ذلك .

ومن الصور الشعرية البديعة التي تعتمد على الخيال البكر والصور الجديدة المبتكرة . التي تصور عصره ، وتتجاوب مع أصداء الحياة ، وتتلاحق مع مخترعات العصر وانطلاقاته الخيالية والعلمية في آفاق التقدم والرقي والحضارة ، يقول الجارم في رؤى شعرية محلقة ، حين يصور حرب الطائرات في الحرب العالمية الثانية أوائل مايو ١٩٤٥ م .

طائرات ترمي الصواعق لاتخـــ   ـشى إلاهـًا ولاتخاف عبيدا
أجهدتْ في السرى خوافق عِزْ ريــ   ــلَ فرقَتْ من خلفهن وئيدا
كلما حلقتْ بأفق مكـــان   تركتْ فيه كل شيءٍ حصيدا
كم سمعنا عزيفها من قريب   فغدا الرأي والسداد بعيدا

ويقول في قصيدة : « أبو الزهراء » :

حننا إلى مجد العروبة سامقا   وما نحن في ساحاته غرباء
زمان لواء العرب يزهى به   وما طاله في العالمين لواء
زمان لنا فوق الممالك دولة   وفي الدّهر حكم نافذ وقضاء

---

(١) الديوان جـ١ ص ٣٥ .

ومن الصور الشعرية الرائعة التي تعتمد على النسق الإيقاعي الراقص والموسيقى المتدفقة . تهتز لها الأعماق ، وتتفتح لها منافذ الإدراك المختلفة من العقل والعاطفة والمشاعر والوجدان كما في صورة رشيد حينما تحيى مليكها فاروق آنذاك فيقول الجارم :

أغدق عليها سحابا ... واملأ مداها شبابا
وافتح على الناس فيها ... للخير بابا فبابا
اليمن يحدو ذهابا ... والسعد يشدو إيابا
والنخل ماست ومالت ... تشوقا واجتذابا
قد هزها الشوق حتى ... كادت تجاري الركابا
والبحر يدنو ويعلو ... تطلعا وارتقابا
لَمّا تلقاك قلنا ... لاقى العباب العبابا
فاروقُ أعظم نفساً ... منه وأسخى جنابا
يزجي السحاب ثقالا ... وأنت تزجي الرغابا
والنيل ينساب فيها ... بين المروج انسيابا
كالخود ضمت ثيابا ... عجبا وأرخت ثيابا
صفا لجيننا نقيا ... وماج تبرا مذابا(١)

ويقول في قصيدة « أبو الزهراء » :

إليك أبا الزهراء سارت مواكبي ... مواكب شعر ساقهن حياء
ولي نسب ينمي لبيتك صانني ... وصانته مني عزة وإباء
عليك سلام الله ماذرّ شارق ... وماعطّر الدنيا عليك ثناء

فانظر إلى التشخيص في : « سارت المواكب ، مواكب شعر ، ساقهن حياء ، نسب صانني ، وصانته عزة وإباء ، وعطر الثناء » وغير ذلك من تلك الموسيقى العذبة التي تنساب رقة في أوزانها وقافيتها ، والإيقاعات الداخلية والخفية ، التي تتناغم مع أصوات الحروف والكلمات الهامسة الرقيقة بما يتلاءم مع

---

(١) الديوان جـ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

عاطفة الحب الصادقة للنبي ﷺ ومعانيه الروحية الصافية ، ليتألف منه لحن روحي تخشع له القلوب ، وتخضع له النفوس في نجوى الدعاء التي تتفتح له أبواب السماء . .وغير ذلك من الصور الشعرية ، التي تأخذ فيها منابع التصوير الأدبي مأخذا دقيقا وعميقا ؛ فتحيا قوية بالمشاعر والعواطف والمحسنات البديعية التي ترد عفو الخاطر ، وتتجاوب مع القريحة الصافية ، وتموج معانيها أيضا بالحياة في شتى نواحيها ، وينبض التجريد فيها بحيوية التشخيص وروعة التجسيم ؛ فترى في المعاني المجردة أشخاصاً تتحدث ، وتتعاطف ، وتتبادل مع الأحياء في تعاطف وتجاوب ومودة .

عناصر الصورة الشعرية عند الجارم :

أما عناصر التصوير الشعري فهي تختلف عن منابعها السابقة فهي كما أشار إليها النقاد القدامى لا تتأتى في معنى اللفظ المباشر، بل تتوارد في معنى المعنى ، وتتولد من وراء الفكرة والمضمون في إيحاءه وتتراسل من منابع التصوير الشعري ، ولقد أشار العقاد إلى بعض هذه العناصر مثل عنصري الحركة واللون التقت معها عناصر أخرى تعتمد فيها الصورة الشعرية على الموقع والحجم والشكل والصوت والطعم والرائحة ، وبذلك تتكامل معالم الصورة بكل منابعها وعناصرها .

والصورة الشعرية عند الجارم حافلة بعناصر التصوير الأدبي ؛ فترى الألوان أحيانا زاهية ، تأخذ بالعقل ، وتستولى على الحواس حين يصور الطبيعة الفاتنة فيقول في رشيد :

النيل والبحر الخضم يحوطه ... والباسقات على الطريق قيام
والتوت والصنصاف يهتف طيره ... فتردد الكثبان والآكام
والزهر في جيد الرياض قلائد ... والنهر في خضر الرياض حزام
والموج كالخيل الجوامح أطلقت ... وانحل عنها مقود ولجام
تجري السفائن فوقها وكأنها ... والريح تدفع بالشراع حمام
ومناظر يعيا القريض بوصفها ... ويضل في ألوانها الرسام[1]

---

(١) الديوان جـ١ ص ٣١٠ .

ويقول في قصيدته : « أبو الزهراء » :

وقد لمحوا من نُورِ طه شعاعة فكل ظلام في الوجود ضياء
نبيٌّ من الطهر المصفى نجاره سماحة نفس حرة وصفاء

فما أزهى من نورطه وشعاعه الذي ملأ الوجود كله ، فبدد ضياؤه الظلام والإلحاد ، وما أنقى من الطهر المصفى والصفاء ؟ وما أنصع من السماحة والحرية وأرق منها نضارة وضياء ونورا ؟ .

ومن الألوان القاتمة في صوره الشعرية قوله في مصر الوالهة :

جللٌ هز كل ركن وهداً ومصاب رمى القلوب فأردى
كل صدر به أنين ووجد مرسل خلفه أنينا ووجدا
عبراتٌ من ساكب ليس ترقا ووجيب من خافق ليس يهدا
ونشيج أقضّ من مضجع الليل وماجت له الكواكب سهدا(١)

ويقول في قصيدته : « أبو الزهراء » :

عقول من الأحجار هامت بمثلها وكل بكيم للبكيم كفاء
فكم كان للرومان والفرس صولة وهم في بوادي أرضهم سجناء
عراك وأحقاد يشب أوارها جحيماً وكبر أجوف وغباء

انظر إلى : « القتام والدكنة والظلام في : « الأحجار ، وبكيم وبكم ، والسجناء ، والعراك ، والأحقاد والإوار ، والجحيم ، والكبر الأجوف ، والغباء » وغير ذلك من الألوان القاتمة المعنوية والحسية .

وعنصر الحركة في الصورة الشعرية عند الجارم يبعث الحياة في الجمادات ويبث الروح في المعاني والمجردات ، يقول الشاعر في حنين طائر :

طائر يشدو على فنن جدد الذكرى لذي شجن
قام والأكوان صامتة ونسيم الصبح في وهن
هاج في نفسي وقد هدأت لوعة لولاه لم تكن
هزه شوق إلى سكن فبكى للأهل والسكن

---

(١) الديوان جـ١ ص ٣٧٣ .

قد يراك الصبح في حلب ... ويراك الليل في عدن
أنت في خضراء ضاحكة ... من بكاء العارض الهَتِنِ
أنت في شجراءَ وارفة ... تارك غصْنا إلى غُصُنَ
عابث بالزهر مغتبط ... ناعم في الحل والظعن
في ظلال حولها نهر ... غير مسنون ولا أُسن
في يديك الريح ترسلها ... كيفما تهوى بلا رَسَن(١)

ويقول في قصيدته : « أبو الزهراء » :

فلباه من عليا معد غضافر ... كماة إذا اشتد الوغى شهداء
أشداء مابامى الجهاد بمثلهم ... وهم بينهم في أمرهم رحماء
أساءوا إلى الأسياف حتى تحطمت ... وما مرة للمستجير أساءوا
وقد حملوا أرواحهم في أكفهم ... وليس لهم إلا الخلود جزاء

وتلك الحركات السريعة المتوثبة في ميادين القتال ، إنها لحركة عنيفة تجدها في التلبية ومن أعلى لا من أسفل ، وفي الجهاد الذي لا يعرف الراحة وخاصة من الشجعان والشهداء إذا اشتدت الحرب ، وفي قوله : « تحطمت » ، وصيغه المفاعلة في « باهي » ، وفي حركة المستجير اللاهثة ، وفي حمل الأرواح على الأكف » وغيرها كثير .

ومن عناصر التصوير في شعره عنصر الطعم وعنصر الرائحة ، والطعوم والروائح في الأدب منها ماهو حسي ، يتذوق باللسان ، ويشم بالفم وذلك فيما إذا كانت الصور الشعرية تصويراً للطبيعة أو لألوان الطعام والشراب مثل « الجنة » ؛ فهي محسوسة ، طعمها حلو ، وريحها عبير ومسك ، ومنها ماهو معنوي ، يتذوقه القلب ؛ فيشم نفحاته وروحانياته ، وهو ما يوحى به « الخلد » فطعمه حلو لامُرّ ، ورائحته الريحان والحب ، لاسموم وغدر ، والجنة والخلد وغيرهما كثير في قصيدة الجارم « رشيد » التي يقول فيها :

أرشيد وأنت جنة خلد ... لو أتاح الإله في الأرض خلدا
حين سموك وردة زُهيَ الحسـ ... ـن وودَّ الخدود لو كن وردا

---

(١) الديوان جـ١ ص٣٣٦ .

توجّتْ رأسَك الرمال بتبر ... وجرى النيل تحت رجليك شهدا
وأحاطت بك الخمائل زُهراً ... كل قد فيها يعانق قداً
والنخيل النخيل أرخت شعورا ... مُرْسلات ومدت الظل مداً
كالعذارى يدنو بها الشوق قربا ... ثم تنأى مخافة اللوم بعدا
حول أجيادها عقود عقيق ... ونُضار صفاؤه ليس يَصْدَا (١)

ويقول في قصيدته : « أبو الزهراء » :

نبيُّ الهدى قد حرق الأنفس الصدى ... ونحن بفيض من يديك ظماء
أفَضْتَها علينا نفحة هاشمية ... يلم بها جرح ويبرأ دَاءُ
فليس لنا إلا رضاك وسيلة ... وليس لنا إلا حماك رجاء

ما أعذب طعم الهدى ، والفيض . وشرب الظامي ، والنفحة الهاشمية ؟ التي يبرأ بها الجرح وتداوي المريض ، والرضا ، والوسيلة والحمى ، والرجاء ؟ وما أطيب رائحة ذلك كله ؟ إنها حديقة وارفة غنية بأعذب الطعوم وأطيب الروائح إنها جنة المصطفى ﷺ في الفردوس الأعلى مع الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود ، الذي وعده به ربه ، ووعده الحق : « اللهم آت سيدنا محمد الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته » .

وأما عنصر الشكل في التصوير الشعري عند الجارم فتجده في تحديد الإطار العام للموقع والمشهد في القصيدة أو في تحديد المعنى في شكل فلسفي أو تأملي أو تاريخي أو تحليلي أو واقعي أو غير ذلك ، ودوائر الشكل في إطار الفتنة والجمال لفاتنة رشيد التي أصابتها الحمى ؛ ليغار منها البدر والأزاهر والغصون ويحار فيها العقل ، وتبكيه العيون وهذا واضح في قول الجارم :

ولكم تلمح العيون فتاة ... مثل بدر السماء لما تبدي
هي من نغمة البشائر أحلى ... وهي من نضرة الأزاهر أندى
تتمنى الغصون لو كن قدًّا ... حين ماست والورد لو كان خدا
حومت حولها القلوب فراشا ... ومشت خلفها الصواحب جندا
وارتدت بالخمار فاختبأ الحسـ ... ـن يثير الشجون لما تردّى

---

(١) الديوان جـ١ ص ٥٠ .

لعبت بالنهى فأصبح غيّا — كل رشد وأصبح الغي رشدا
حسد الدهر حسنها فرماها — بسهام من الكوارث عمدا
طرقتها الحمى الخبيثة ترمي — بشواظ يزيده الليل وقدا
روضة من محاسن غالها الإعـ — ـصار حتى غدت خمائل جردا
حل داء الفيل العضال برجليـ — ـها وألقى أثقالها واستبدا
كم بكت أمها عليها فما أغنـ — ـى نُواحٌ ولا التحسر أجدى
ويحها أين سحرها أين صارت — أين ولي جمالها أين ندا ؟
أين أين ابتسامها ذهب الأنـ — ـس ومال الزمان عنها وصدا ؟
أين فتك العيون ؟ لم يترك الدهـ — ـر سيوفا لها ولم يبق غمدا ؟
أين خلخالها لقد خلعته — وهي تبكي أسى وتنفث صهدا ؟
طار خطابها فلم يبق فرد — وتولى حشد يحذر حشدا(١)

وهذه الفاتنة بعد أن أثقلتها المفاتن ، ومظاهر السحر والجمال ؛ فصار حجمها هزيلا ، اعتصرتها الحمى بنزيفها في قوله :

كم بكت أمها عليها فما أغنـ — ـى نواح ولا التحسر أجدى ؟

ويقول في قصيدته : « أبو الزهراء » :

إذا حكموا في أمة لان حكمهم — فما هي أنعام ولا هي شاء
فهل تعلم الصحراء أن رعاءها — حماة بآفاق البلاد رعاء
وأنهم إن زاولوا الحكم ساسة — وإن أرسلوا أحكامهم فقهاء
ورد إلى العرب الحياة وقد مضى — عليهم زمان والأمام وراء
حجاب طوى الأحداث والناس دونهـ — ـم فأظهروا ماتجلو العيون خفاء

حكومة الإسلام التي تنشر العدل ، وتقضي على الفساد والظلم ، وحضارته الزاهية التي تبدد ظلام الكون ، وينقشع أمامها قتام الشر والباطل ، تمنح العالم الإسلامي ثقلا قويا في حجمهاالكبير بين الدول الأخرى ، وتتخذ له شكلا يملأ الأفق ، وإطاراً ضخما واسعا لايترك فيه موضع قدم لغيرها ، لأنها تتلاشى أمامها

---

(١) الديوان جـ١ ص ٥٢ ، ٥٣ .

كل الحجوم والأشكال ، إنها حكومة الإسلام وحضارتـه القوية الراقية ، والعامة الشاملة .

والجارم كان على صلة وثيقة بشعراء عصره يتجاوب معهم في روعة التجديد والإبداع في التصوير ؛ فترى شوقي حين يبدع في التصوير بما لم يكن موجودا في تراثنا العربي والأدبي القديم ، يجعل السفينة ابنة اليم ؛ فكان أول من أبدع هذه الصورة في أدبنا العربي الحديث ؛ فيتجاوب معها الجارم ليبدع فيها هو أيضا على نحو آخر ، تتولد من الصورة السابقة ؛ فيجعل رشيد هي ابنة اليم والنيل ، فتصير كل المدن الجاثمة على ضفافه من بنات النيل وأبنائه ، يقول الجارم في إبداعه التصويري مخاطبا رشيد :

يـا ابنـة اليـم لاتـراعي فإنـي ... قـد رأيت الأمـور جـزراً ومـدّا
قد يعود الزمـان صفـوا كما كـا ... ن ويمسي وعيده المـر وعـدا
كنـتِ مذ كنـتِ والليـالي حـواريـ ... ـك وكـان الزمـان حـولك عبـدا

وحين يناجي الجارم مصر من بين دول النيل يقول :

أنت يامصـر بسمة في فم الحسـ ... ـن ودمع الحنان فوق الخدود
أنت في القفـر وردة حولها الشو ... ك وفي الشـوك عزة للـورود
يلثم البحر منـك طيـب ثغـور ... بين عـذب اللمي وبين بـرود
يا ابنـة النيل أنت أحلى من الحب ... وأزهـى من ضـاحكـات الـوعـود
نثر النيل فيـك تبراً وأوهـى ... لينـه من قسـاوة الجلمـود
فتن الأولين حتى أشاروا ... نحـو قدسيٍّ مائه بالسـجود(١)

ويقول في موطن آخر :

وبنـات الـوادي يمْسْنَ اختيـالا ... ويحيين بين دُفٍّ وعـود
ابن عمـرو فتى العروبـة والإقـدام ... أوفى مجـاهـد بـالعقـود

فالصورة الشعرية عند الجارم تعبر عما في نفسه من خواطر وأحاسيس بطرق عديدة آثرها الشاعر في تجاربه الأدبية ؛ فآثر التعبير عنها بالمحسات من

---

(١) الديوان جـ١ ص ٢١ .

الواقع ، وبالوحي والتخييل وبالتجسيم والتشخيص ، وعن طريق الوجدان المنفعل بالموقف والأصداء ؛ لذلك كان يصور الحقائق والواقع في صورة حية ، ونمط روحي ؛ لأنها صدرت من معامل تجاربه الإنسانية ؛ فكانت مولوده الحي الذي فيه بقاء شخصه ؛ فقد مرت من خلال نفس نابضة بالحياة تموج بالمشاعر والخواطر ، والأحاسيس والعواطف ، فأصبحت منابع الصورة وعناصرها ومادتها ليست من الواقع وحده ؛ بل أصبحت من نفس الشاعر ودمه ، وعقله وروحه .

لأن الصورة تعمق المحسوسات ، وتبعث الحياة في الجمادات ، وتبث الروح في كل مايتناوله الشاعر من مظاهر .الحياة والواقع ، فتتعانق هذه الظواهر كلها بعضها مع بعض في تعاطف وتجاوب ؛ فهي وسيلة للتعرف على أسرار الحياة وعلى العلاقة التي تربط الإنسان بغيره من المخلوقات . فتراها في الصورة حية نابضة استودعها الشاعر روحا مثل روح الإنسان ، وإن كانت تختلف عنها في النوع والمظهر لكنها تلتقي معها في اللب والجوهر .

لذلك فالصورة الشعرية تدفع إلى الإثارة والشعور باللذة ؛ فتحقق السعادة التي ينشدها الإنسان ، وكم من شاعر أحس بفقدان السعادة بين البشر ؛ فوجدها في أحضان الطبيعة والواقع ، التي همست بها صوره الشعرية ، حين يعانيها في تجاربه الشعورية الصادقة ، وفي المعاناة الصادقة شعور غامر بالرضا والسعادة .

وكان الجارم رحمه الله تعالى يعرف منزلة الشعر ورسالته في الحياة لاينهض بها إلا أصحاب المواهب الشعرية ، خصهم الله تعالى بهذا الفن الرفيع يقول الجارم عن الشعر :

« إنما هو شعاع يضعه الله في قلب من يشاء ، وهبة يمنحها لمن يشاء وحاسة معنوية يزيدها في خلق نفر من عباده ، يحسون بها ما لايحسه كثير من الناس ، فيترجمونه بياناً ساحراً وقولا مبينا ، والشعر طريق معبدة بين عالم الأجسام وعالم الأرواح ، ينقل إلى المادة الفانية نفحات الروح الخالدة ، ويرسل إلى ظلمات الحياة نوراً قدسيا يبدد غيوم الغموم ، ويكشف السبيل للأمل الحائر .

فليس الشعر الوزن وحده ، ولا القافية وحدها ، ولا الكلمات التي تملأ فراغ التفاعيل ، وإن عذبت ولطفت ، وإنما الشعر ماوراء كل بيت من ضوء

روحاني وَجَدَ لَهُ بين ألفاظه منفذا ، ومن سحر سماوي زحزح البيت دونه طرف الستار » (١).

وقد أبدع الشاعر عبد الله شمس الدين « قيثارة التوحيد » قصيدة في المديح النبوي بعنوان علي الجارم مع اختلاف يسير وهو : « إليك يا أبا الزهراء » ولعله تأثر به في عنوانه يقول فيها : (١)

على بابِ هذا الكونِ دقّتْ يمينُه ... صَبَاحٌ بنورِ الغَيْبِ عَزَّ جبينُهْ
لقد طَالَ ليلُ الصَّابرينَ على الضّنَى ... وهذَا أذَانُ النُّورِ قَدْ حَانَ حينُهْ
فيادَهْر بَشّرْ كلَّ عانٍ ومُوجَعٍ ... وكلَّ ضَعِيفٍ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعينُهْ
أتاكمْ حمَى المُسْتَضْعَفين محمدٌ ... يُهَدْهِدُ مَنْ جارتْ علَيه شجُونُه
ويَهْدِي حَيَارَى الفكْرِ في ظلّ هَدْيه ... ويُنْقِذُ بَحَّاثاً دَهَتْهُ ظُنُونُهْ
بِشَهْرِ ربيعٍ صَافَحَ الكوْنَ نورُهُ ... ربيعُ سلامٍ صَافَحَتْنا عُيُونُهْ
أزاهيرُهُ عَدْلٌ وهدي ورحْمَةٌ ... بخُضْرِ صَحْرَاءِ العقَائِد دينُهْ
عليْكَ سلامُ الصَّادقينَ أبا الهُدَى ... ومَنْطِقاً للعَدْلِ جَلَّتْ مُتُونُهْ
منَ البلدِ الأمينِ جئْتَ رِسالةً ... تُطيحُ بعَرْشِ الظُّلْمِ طَالَتْ قُرُونُهْ
وَساويْتَ بينَ النَّاسِ عَدْلاً وحكْمَةً ... وأَرْسَيْتَ ديناً لاتُنالُ حصُونُهْ
وغَيَّرتَ وجهَ الأرضِ غرْباً وشرْقاً ... فمزَّقَ ليلاً كمْ دَهَتْها دُجُونُهْ
حكمتَ بلا جاهٍ سِوى الحقِّ ناصراً ... وحسبُكَ توحيدٌ حَماكَ يقينُهْ
وعَمَّتْ سَماءَ المَشْرقين هِـدايةً ... وسِلمُكَ إسْلامٌ بحَقٍّ تَصُونَه

---

(١) مقدمة ديوان الجارم .

(٢) ولد في ١٧ / ١٠ / ١٩٢٣ وتوفى في ١٣ / ٣ / ١٩٧٧ ، تنقل في مراحل التعليم في الأزهر الشريف حتى تخرج من كلية اللغة العربية ، وعمل رئيسا في قسم التصحيح بمطبعة السكة الحديد ، وكان عضوا بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، ومستشارا بالمجلس الأعلى للشبان المسلمين ومقررا للجنة الثقافية بها ، وحصل على وسام الفنون والآداب من الطبقة الأولى في عام ١٩٥٦ عقب نشيد النصر في معركة ١٩٥٦ الذي رددته الدنيا كلها . ومطلعه «الله أكبر فوق كيد المعتدي ... الله للمظلوم خير مؤيدي » ، أصدر ديوان : « أصداء الحرية » عام ١٩٥٤ ثم « وحي النور » عام ١٩٥٩ ثم « الله اكبر » عام ١٩٦٨ وله أيضا « الشفق الغارب » ، ونوقشت رسالة ماجستير في شعره في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر للباحث مصطفى عبد القادر فريد .

وَعَزَّتْ جباهُ المُسْلمينَ علَى المَدَى ... بنور كتاب لايضلُّ قرينُهُ
إليْكَ أبَا الزَّهراء تَفْزَعُ في أسيً ... وأنتَ نَبيُّ الحقِّ أنت أمينُهُ
بربِّكَ فاشْفعْ يامحمدُ علَّنَا ... نَعُودُ لمجد أنْتَ فينا ضَمينُه
عَليكَ سلامُ الله ياخَيْرَ مَلْجأ ... وخيرَ شفيعٍ عزَّ بالحَقِّ دينُهُ(١)

وهناك قصيدة أخرى في المديح النبوي بالعنوان السابق وهو : « أبا الزهراء إن الأرض شاهت » لشاعر السويس محمد فضل إسماعيل يقول في مطلعها:(٢)

أطَلْتُ الصَّمْتَ فاتَّهِمُوا بَيَاني ... وعفْتُ اللَّغْوَ فاتَّهمُوا لِسَاني
وغالَبْتُ الشُّجونَ فَقِيلَ ماتتْ ... عواطفُهُ وعَاشَ بلا جنان
فأَخْفَيْتُ الهَوَى وكتمتُ حُبِّي ... وَطَاوَعْتُ السُّكون فَما عَصَاني
وكمْ في الصَّمْتِ مِنْ آيٍ فِصاحٍ ... وكمْ فِي الصَّمْتِ مِنْ بِكْرِ المَعَاني

إلى أن قال :

مجدٌ أنْتَ للدُّنيا ضِياءٌ ... وأنتْ مثالُها في كلِّ آن
وأنْتَ كما أرادَ الله نورٌ ... وروحٌ ليسَ يَيْأسُ منه عَانٍ
خُلِقْتَ فكنتَ للرَّحمُوت ظِلاً ... ورُكْناً للهِدَايَة والأمان
بعثْتَ بدينٍ حيثُ تَبْني ... صُرُوحَ الحقِّ فيمَا أنْتَ بَانِ(٣)

وهكذا يمضي في مديح النبي ﷺ ، حتى نهاية القصيدة أكثر من ستين بيتا ، وله قصائد كثيرة في المديح النبوي في قسم مستقل من ديوانه .

---

(١) قيثارة التوحيد : للشاعر عبد الله شمس الدين ١٢٥ ، ١٢٦ تحقيق عبد العليم المهدي مطبعة التقدم بالقاهرة ١٩٨٢ م .

(٢) ولد في بلدة فاقوس بمحافظة الشرقية في ٢٤ / ١١ / ١٨٩٨ وحفظ القرآن حتى حصل على شهادة المعلمين ليعمل مدرسا في مدارس السويس حيث يقيم والده ، وتوفى في يوم الأثنين ٦ / ١٠ / ١٩٦٩ وله ديوان كبير نشره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عام ١٩٧٢ قدم له وأعده : أحمد مصطفى حافظ .

(٣) ديوان محمد فضل اسماعيل ص ٦٣ / ٦٥ أعده أحمد مصطفى حافظ ١٩٧٢ .

الفخر

سبق أن تحدثنا عن معاني المدح والثناء من الشجاعة والجود والنجدة والشهامة وغيرها ، وأنها معان مشتركة بينه وبين غرضي الفخر والرثاء ؛ لكن الأمر يختلف بينها في القصد والتناول ؛ فوجدنا أن الفخر يصدر عن روح الاعتزاز والمفاخرة والمباهاة ، ونزعة التحدي والتعالي والعزة ، والرغبة في تحقيق المجد الذاتي للفرد أو الجماعة أو للقبيلة أو للأمة كلها ، ولكنه في الأدب الإسلامي يدخل في مجال اعتزاز الأديب المسلم بنفسه أو أمته أمام أعداء الإسلام ؛ ليظل عزيزا قويا ، وأمته في عزة ومنعه ، ومجد وقوة يخشاها العدو ويعرف خطورتها مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ، وقد حث النبي أصحابه في غزوة الحديبية وفي عمرة القضاء وفي فتح مكة أن يُظهر الانسان قوته وإعجابه بنفسه ، وأن يختال بها أمام عدوه ، فالله سبحانه وتعالى لايحب أن يرى عبده المؤمن على هذه الصفة إلا في مثل هذه المواقف .

لهذا يكون الفخر مقبولا في الأدب الإسلامي لأنه يستخدم في غاية نبيلة وهدف شريف سام ، لا للتعالي ، ولا للزهو ، ولا للخيلاء ، ولا لإعجاب المرء بنفسه ؛ فهذا كله مرفوض في الإسلام ، وبالتالي في أدبه الإسلامي أيضا ، وينبغي أيضا أن تكون هذه الصفات في القائل أو في الأمة التي يفخر بها ، فلا يصور ذلك على سبيل الغلو والمبالغة ؛ فهذا أيضا مرفوض في الأدب الإسلامي .

ومن القصائد التي يفتخر فيها أبو العلاء بصفات ومفاخر يصف بها نفسه كالنبوغ والعفة والجرأة والشجاعة والحزم والعزم وغيرها مما ورثه عن آبائه وأجداده يقول (١) :

ألا في سبيل المجْد ما أنا فاعلٌ ... عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
أعنْديَ وقد مارسْتُ كل خَفيَّة ... يُصدَّقُ واسٍ أو يُخيَّبُ سائلُ
أَقَلُّ صُدودي أنَّني لكَ مُبْغِضٌ ... وأيْسر هَجْري أنني عنك راحل

(١) شروح سقط الزند ٥١٩ / ٢ تحقيق عبد السلام هارون مع آخرين .

إذا هبّتْ النّكْبـاءُ بيني وبينكم ... فَأهونُ شيءٍ ماتقولُ العواذل
تُعَدُّ ذنوبي عندَ قوم كبيرةً ... ولا ذنبَ لي إلاَّ العُلا والفواضِل
كأنّي إذا طُلْت الزمانَ وأهلَهُ ... رجَعْتُ وعندي للأنام طوائـل
وقد سارَ ذكْري في البلاد فمَنْ لهم ... بإخفاء شَمْسٍ ضَوْءُها مُتكامِلُ
وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانهُ ... لآتٍ بما لمْ تستَطعْهُ الأوائلُ
فواعجباً كمْ يدَّعي الفضلَ ناقصٌ ... ووا أسَفاً كمْ يُظهرُ النقْصَ فاضِل
ينافِسُ يومي فيَّ أمْسي تَشرُّفاً ... وتحسُدُ أسْحاري عَليَّ الأصائل
وطالَ اعترافي بالزمان وصرْفه ... فلَسْتُ أبالي مَنْ تَغُولُ الغوائل

وهكذا إلى آخر القصيدة يصور فيها اعتزازه بنفسه ، تصويرا لأخلاقه وصفاته ، ويفتخر الشريف المرتضى أيضا في قصيدة شرحتها في كتاب آخر شرحا وافيا ومطلعها : (١)

قل للذين أرادوا مثل مفخرتي ... أني لكم مثل عزتيّ وأوضاحي

وقد وضحت فيها القيم الخلقية والقيم الفنية في هذه القصيدة ، وصدق التجربة الشعورية فيها ، وتحقيق قيم الفخر في نفس الشريف المرتضي في الواقع والحقيقة ، ولم تصدر منه على سبيل المبالغة .

كما وضحت قصيدة أخيه الشريف الرضي في الفخر ، التي يفتخر فيها بالعروبة والإسلام حين مرّ بالمدائن ؛ فنظر إلى ديوان كسرى فأخذته العزة والفخر بالماضي العربي العظيم الذي تحقق بانتصار الإسلام على الفرس ، وذلك في ذي الحجة عام ٣٩٧ هـ يقول في مطلعها :

سل بقوم نزل الدهرُ بهم ... فأساء الليثُ فيهم والجوارا
لم تكن علياؤهم منحولةً ... أبَدَ الدهْرِ ولا المجدُ معَارا
ضرب المجد عليهم بيْتَه ... وغَدَوْا دون حمى المجد إطارا

وهكذا إلى نهاية القصيدة (٢)

ويتذكرفؤاد الخطيب مجد العرب ؛ فيدعوهم إلى استعادته بوحدتهم

---

(١) انظر كتابي من الأدب العباسي دراسة ونقد : ص ٢٠٧ / ٢١٥ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢١٢ وفي ديوان الشريف الرضي ١ / ٣٧٣ .

وقوتهم ، وتمسكهم بلغة القرآن وشريعته ، فقد أطلق عليه النقاد شاعر العروبة أو القومية العربية ، أو النهضة العربية ، يقول فؤاد حسن الخطيب : (١)

ذكرتُ له أيامنَا فتنهَّدَا ... وقالَ أيرضَى الدهرُ أنْ تتجدَّدَا
ولاحَ له (المأمونَ) يهفو حيالَه ... (وبغدادَ) تزهو فيه مجداً وسُؤددَا
ففاضتْ دموعُ العيْن منه وقدْ أبَى ... عليه رسيسُ الذكْرِ أن يتجلّدا
وبادره منّي نشيجٌ أمدَّني ... به نفَسٌ قد كان بي متردِّدا
وبتنا وما من مَقْوِلٍ جالَ في فم ... يكون لنا في غمْرة الحزْن مُسْعدا
كلانَا به وجْدٌ يريدُ لنارِه ... خموداً ولاتزدادُ إلاَّ توقّدَا
فيا قومِ هل للعُرْبِ في الشرق نهضةٌ ... فإنّي اخشى أن تُجاوزَنا غدَا
وهل لعيوني قبل موْتى أن نرى ... فتىً عربيًا يأنفُ الذُّلَّ مقْعدا
يردُّ على (أمِّ اللغات) جلالها ... ويجْعلُ للمَجْد الطريق مُعبَّدا
ولي أمّةٌ حاولتُ ضم شتَاتها ... فلمْ يُردْ الأحزابُ إلاَّ تمرُّدا
أهبْتُ بهم أن يرفقُوا فتفرقوا ... وقد ضربُوا لي ليْلةَ الحشْرِ موْعدا
أرى العُرْبَ شعْباً كلما غالَبَ الكرى ... سَقتْهُ دهاقينُ السياسة مُوقدا
هتفْنا فما أبْدى حراكاً وإنمَّا ... من اليأسِ أمْسَى لا منَ اليأسِ جُلمُدَا
خُذُوا لُغةَ القرآنِ جامعةً فإن ... فعلتم جمعتُمُ شملَ أحمدا
وكانتْ لهم في الشرق والغرب هيبةٌ ... تخرُّ لها شمُّ الممالك سُجَّدا
ولا تأمنوا غدرَ الزمان فإنه ... وإنْ لآنَ فلنْ يبرحْ لنا مُترصِّدا
نطقتُ بما أوْحَى الضميرُ ولم أكنْ ... أريد سوَى مَحْضِ النصيحة مقصدا
فإن تفعلوا خيراً فللشرق كلّه ... وإلا هدمتم فيه مُلْكاً مشيدا
فلا تفتحوا بابَ الخلافِ وسارعوا ... إلى السَّعْيِ إنْ الشَّرْقَ قد طابَ معهدا

---

(٣) ولد في قرية « شحيم » من أعمال جبل لبنان مابين ١٨٨٠ : ١٨٨٤ م على خلاف منحه ملك الأردن لقب الباشا عام ١٩٣٠ وتنقل مابين لبنان وتركيا ومصر والسودان ثم إلى شريف مكة وعينه وزيرا للخارجية عام ١٩١٧ ثم قام بعمل مستشار الملك عبد الله بالأردن عام ١٩٢٦ ثم مستشارا للملك عبد العزيز بالسعودية عام ١٩٤٥ ، ثم وزيرا مفوضا في بلاد الأفغان عشر سنوات حتى توفى في ١٥ من رمضان ١٣٧٦ هـ الموافق ١٥ / ٤ / ١٩٥٧ .

عُدِمْتُ البيانَ الحرَّ إن كنتُ مُنْشِداً　　مِنَ الشِّعْرِ إلاَّ مايكون مُخلَّدا
أذُودُ بِه عَنْ حَوْضِ قوْمِي فكلما　　بَدَا غرضٌ أطلقتُ سَهْماً مُسدَّدا

القيم الخلقية : يفتخر بأمجاد العرب ، ويعتز بحضارته القوية الزاهرة ويتعالى على المجتمع المعاصر بما حققه السلف الصالح من مفاخر وأمجاد ومناقب ، هزت عروش الدنيا كلها ، وأخمدت أكبر حضارتين قديما ، وقامت عليها الحضارة الحديثة مستمدة أصولها منها ، إنه لحفى أن يفخر بأمته الإسلامية فذكر في قصيدته قيما كثيرة معتزا بها . وهو يحث هذه الأمة أن تواصل جهادها ، ويدعو شبابها إلى استعادة أمجادهم ومفاخرهم ، حتى يؤدوا دورهم في أمانة وصدق وإخلاص ، كما أداها السلف الصالح ؛ فتظل أمة الاسلام قوية عزيزة الجانب . ومن هذه القيم الخلقية :

١ ـ مشاركة الشاعر ودوره في المجتمع الإسلامي وهو أكثر إحساسا ورقة بما تعانيه الأمة من هزات ومخاطر على حد قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ (٣) . وقوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ، وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٤) وقوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » وقوله أيضا : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ؛ فهذه المشاعر الصادقة هي قيمة أخلاقه إيجابيه ، يشارك بها المسلم وجوبا نحو أمته الإسلامية .

٢ ـ يُذَكِّر الشاعر الخطيبُ المسلمين المعاصرين بأمجاد المسلمين وحضارتهم العريقة للسلف الصالح ، وذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر « الخليفة المأمون » وغيره .

---

(١) الديوان : قصيدة أيها الترك والعرب ص ٣١ .　(٢) سورة الحجرات : آية ١٠
(٣) سورة المؤمنون : آية ٥٢ .　(٤) سورة التوبة : آية ٧١ ، ٧٢ .

٣ - يحث الشباب على أداء واجبهم نحو حضارتهم الإسلامية ليظل مفتخرا بأمجاد أمته، ومعتزا بنفسه. فيرى فيها الشباب الذين يأبون الذل ويأنفون عن الضعة والهوان.

٤ - الحفاظ على لغة القرآن الكريم والتراث العربي الإسلامي. فالدفاع عنها جهاد كبير في سبيل الله؛ ليظل الإسلام عزيزا، والمسلمون في منعه ومجد وقوة.

٥ - الدعوة إلى وحدة الصف العربي، فهي السبيل لتحقيق العزة والمجد والقوة؛ فبها يعتزون ويفتخرون ويتعالون، فقد رأى أن مقاومة التمزق والتفرقة والتخاذل الذي دب في جسد الأمة، يجعلها بعيدة المنال كبعد يوم المحشر، وإن قاوم اليأس بعد ذلك فنصح الترك والعرب بأن يعودوا إلى لغة القرآن؛ فهي الجامعة التي تجمع بين أحزابهم المدمرة، وتقضي على التمزق والتفرقة، ترفرف عليهم راية أحمد ﷺ.

٦ - ثم يختم قصيدته بالإخلاص ليعبر عما يكنه للشرق والغرب الإسلامي من خالص النصح. ومايرجوه من لهم من مجد وعزة.

ويفتخر الشاعر إبراهيم محمد نجا بالوحدة بين مصر وسوريا، ليصب نهر النيل ونهر بردي في بحر الاعتصام العميق في قصيدته «الوحدة الخالدة» التي يقول فيها: [1]

أقْبل النصرُ ناشراً أعلامَه   فشدا البِشْرُ مُرْسلاً أنغَامَه

---

(١) ولد في دمنهور في ١١ / ٢ / ١٩١٩، كان والده صاحب وابور الطحين ومصنع الثلج وجهه إلى حفظ القرآن، ثم التحق بمعهد الأسكندرية حتى تخرج من كلية اللغة العربية وكان ينشر شعره وهو طالب في مجلة الأمام ومجلة الرسالة، والبعكوكة التي شارك فيها. وعمل مدرسا في الأسكندرية ثم في دمنهور ثم ألحقه طه حسين بالعمل في مجلة «الكاتب المصري» لينشر فيها شعره وفي يوم السبت توفي في الخامس عشر من ربيع الأول ١٣٨٩ هـ الموافق ٣١ / ٥ / ١٩٦٩ وله دواوين: «أيام من عمري» نال عليه جائزة الشعر من المجمع اللغوي الأولى في عام ١٩٥٢ ونشرته دار المعرفة ١٩٦٢ في ١٣٩ صفحة والثاني «الحب الحياة» دار الآداب بيروت ١٩٦٦ في ٢٢٢ صفحة. والثالث «أغنيات للحب» دار الكتاب العربي ١٩٦٨ في ١٣١ صفحة، وله ديوان رابع تحت الطبع، كتب عن «شعر إبراهيم محمد نجا تحليل ونقد» الدكتور محمد أحمد سلامة مطبعة الأمانة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م.

وَبَدَا النِّيلُ في الضفاف سعيداً　　حينما نالَ في الحياة مَرامَه
بَرَدَى في ضفافه الخُضْر أبْدى　　شَوْقَهُ نَحْوَهُ وأبدى سَلامَه
نحن شعبٌ عربيٌ بَنَى من المجد صَرْحاً　　بـاذخَ الرُكْنِ مُسْتَقِـرَّ الدَّعامَـه
وسَيُعْلـي البنـاءَ حتـى يَـراهُ　　يَعْجزُ النَّجمُ أنْ يَقومَ مَقامَـه
عـربـيٌّ فـي سِلْـمه عَـرَبـيٌّ　　حينَ يَسْتَلُّ للنِّضـال حُسَامَـه
هـذه دولـةٌ الخـلـود فـأبْشِـرْ　　أنت بالموت جانَبَكَ السَّلامَه(١)

ومـن قصائد الفخر في العصر الحديث مطولة على نظام المقطعات في أربعة وخمسين ومائة بيت يشيد فيها الشاعر بأمجاد العروبة والاسلام في حـروب المسلمين مـع الصليبية والتتـار في عهـد البطل صـلاح الدين الأيوبي ، وماحققه من عزة ومجـد للإسلام والمسلمين فـي قصيدة « فـارس وفارس » للشاعر محمود الخفيف :(١)

بنـي الشرق أيـام أبطالكـم　　شـدوت أحـدُث أخبـارهـا
أغني لكـم لحـن قيثـارة　　تهـز البطـولات أوتـارهـا
واسمعكـم مـن حديث الخلود　　أغـاني الليـالي وأسمـارهـا

بنـو السيف نحن بناة العـلا　　ركبْنـا الرمالَ وخُضْنـا البحـارا
شرعْنـا على الديـن منهـا جَنـا　　وسِرنـا إلى حيث شئنـَا اقْتدارا
وأخـلاقُنـا ... كـم بأخـلاقنـا　　ركزنـا صوًى ورفعنـا منـاراً
وكـم أفق في سمـاَء العقـول　　شأوْنَـا بَني الأرض فيـه ابتكـارا

---

(١) مجلة الأزهر : ١٠٠٧ / ٣١ .

(٢) ولد في الشهداء بالمنوفية في ٣ / ١ / ١٩٠٩ وحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل في مراحل التعليم حتى حصل على الثانوية ثم المعلمين ، وتخرج منها عام ١٩٣١ ، ثم عمل مدرسا للتاريخ بالثانوية في شبرا القاهرة ، وتنقل بين مدارسها إلى أن عمل مديراً بمدرسة الأبراهيمية الثانوية حتى توفي في ٢٩ / ١٠ / ١٩٦١ ، وله مؤلفات كثيرة في التاريخ والأدب ، وله شعر غزير نشره في المجلات قام بجمعه الدكتور محمد العباسي متولي في رسالته الجامعية « محمود الخفيف حياته وشعره » ١٤٠٨ / ١٩٨٨ ولم ينشر ديوانه حتى الآن .

إلى فتيةِ الشرقِ هذا النشيد ... تقارعِ فيه القنا واشتجرْ
وقعقعت البيض بين الصفوف ... وغال الكماة الرَّدَى واستعرْ
وحمحمت الخيل تحت الغبار ... أضاءت جوانبه بالشررْ

سما بابن أيوبَ ملكٌ بناه ... فأعلى على السيف هذا البناءَ
أخو الخيل والسيف والبيد والليـ ... ـل يمضي فيزجي الردى كيف شاءَ
فتى كان في الشرق بعد الظلام ... الضياءَ وكان بمصر الرجاءَ
كريمُ الخصومة عفٌّ الحسام ... يريك التقى ويريك المضاء

فتى العُربِ إفرندُه فيصَلٌ ... به الملك في ظلّه يحتمي
له لقبٌ فوق تاج الملوك ... به بات يُقْرنُ بالضيْغم
على الماء كرسيه قائم ... وذروته في ذرى الأنجم(١)

الرثاء

عناصر الرثاء ومعانيه لاتختلف عن معاني المدح والفخر من الصفات الفاضلة والقيم السامية ، والشيم النبيله ، والأخلاق الحميدة ؛ فالأغراض الثلاثة تشترك فيها جميعا ، إلا أن الفارق بينها في التناول والقصد ، فالرثاء يصدر عن عاطفة الحزن ، ومشاعر الألم ، وعن الإحساس بالضياع ، والحث على اتخاذ المرثى قدوة حسنة يسير على نهجها ، ويتصف بما اشتهر به من الخلق والقيم ، كما في رثاء الأفراد والزعامات ، ويستنهض الهمم لإعادة الأمجاد للأمم الذاهبة ، ويحفز الإرادة في عزيمة قوية صادقة في استمرار الحضارة الاسلامية في الأقاليم والمدن المستعمرة والذاهبة ؛ ليعود إليها المجد والعزة كما كانت من قبل ، كما في فن رثاء الدول والممالك .

فالأدب الإسلامي لايتعارض مع هذا الفن ، بل يتخذ منه غرضا أدبيا على النحو السابق ؛ لأن الرسول ﷺ حين مات ابنه إبراهيم رثاه بكلمات تعبر عن مشاعر الأبوة فقال بعد أن أنكر عليه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حزنه ودموعه

---

(١) مجلة الرسالة : ص ٢٤٠ : ٢٤٧ / عدد ٤٠٠ في ٣ مارس ١٩٤١ .

فقال : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وإنا لفراقك ياإبراهيم لمحزونون ، ولانقول إلا مايرضي ربنا » فالإشارة بالقيم النبيلة للمرثى بعد موته ، أو بأمجاد الحضارة لدولة ذاهبة ، تدفع الأحياء على أن يتخذوا المرثى قدوة حسنة في الصفات والشيم ، أو يحفزوا الهمم ، ويجاهدوا في سبيل الله لإعادة الحضارة والمجد لتلك الدولة الذاهبة .

ولقد رثى شعراء الرسول ﷺ الرسول وسيدنا حمزه بن عبد المطلب ﷺ وغيرهم من الشهداء في عصره ، ولم ينكر عليهم ذلك الصنيع ، فالرثاء أحد الوسائل « للعرفان بالجميل » والوفاء بحق العظماء والمخلصين والقادة المحسنين في حياتهم ؛ فكان الشعر أحيانا سجلا حافلا بهذه الأمجاد استمد منه التاريخ روافده وحقائقه .

وأرى أن هذا الفن الأدبي ينبغي أن يتخذ أشكالا متنوعة في الأدب الإسلامي بعد أن وضحت حقيقته وعناصره وأهدافه وهذه الأشكال هي :

أولا : رثاء الأفراد المتميزين كالآباء والأبناء والإخوة والأخوات والأمهات والزوجات ، والأصدقاء والخلان وما أشبه ذلك ، ونماذجه كثيرة في الأدب العربي والإسلامي قديما وحديثا .

ثانياً : رثاء الزعامات والحكام والخلفاء والملوك والقادة والعلماء والمفكرين والأدباء والنقاد والفلاسفة والحكماء والمؤرخين وما أشبه ذلك ، ونماذجه كثيرة في الأدب العربي والإسلامي قديما وحديثا .

ثالثاً : رثاء الممالك والدول الذاهبة والمدن المدمرة الخربة بعد ازدهارها بالحضارة والعلم والمدنية والتقدم والرقي ، ونماذجه الأدبية قد نضجت فنا أدبيا متميزا في العصر العباسي على يد شاعرين هما ابن الرومي والبحتري (١) وظل الشعراء ينشدون فيه في كل العصور ، ولازالوا ينشدون ، وسنوضح ذلك كله من خلال بعض النماذج الشعرية التي تدل على بقيتها في أدبنا الإسلامي والعربي .

---

(١) انظر كتابي من الأدب العباسي دراسة ونقد فصلت القول في رثاء الحضارات وأثبت أن رائد هذا الفن ابن الرومي وليس البحتري كما هو مشهور في الأدب العربي ونقده وإن رأي الدكتور محمد رجب البيومي خلاف ذلك كما سيأتي .

وحين يرثى شاعر الغواني مسلم بن الوليد زوجته ، وقرينة حياته ورفيقة صباه يقول : (١)

حنينٌ ويأسٌ كيف يتفقان مقيلا هما في القلب مختلفان
غدت والذي أولى بها من وليها إلى منزل ناء لعينك داني
فلا وجدٌ حتى تنزف العين ماءَها وتعترف الأحشاء بالخفقان

ورثى أبو الطيب المتنبي أخت سيف الدولة ، ورثى أبو العلاء المعري أباه وأمه(٢). وابن الرومي ابنه من فرائد الرثاء العربي (٣) ورثى حسن جاد حسن ابنه في قصيدته « لحن الوداع أو الأمل الضائع » يقول في مطلعها :

ودعت فيك صفاءَ العيش ياولدي ياطولَ هَمّي وياحُزْني وياكَمدي
لم يَبْقَ بعدَك طعم للحياة ولم يَعُدْ بها أملٌ أحيَا به لغَد
مَنْ شَاقَهُ المالُ والجاهُ العريضُ فقدْ عَزَفْتُ عن جاهها أوْ مَالَها اللُّبَد

إلى قوله :

قالوا : اصطبْر لقضاء الله مُحْتَسِباً وكفكف الدَّمْعَ من عينيكَ واقْتصد
نقلتُ ماحيلتي في الدمع يغلبُني وفي فؤاد بنار الوجْد مُتّقد ؟
هبنا أفدنا ثواباً فيه أو عوضا ماذنبه يافعاً أَوْدَى ولم يَفِد ؟
فقد الأحبة أقْسَى ما نكابدُه من الحياة ، فيا وَيْلي من الكبَد
وللفراق تباريح وأفْدَحُه نَوَى حبيب بجوف الأرض مُفْتَأد
ضاقت عليَّ رحاب الأرض وانشَعَبَتْ إلى طرائق شتَّى في الأسى قِدَد

---

(١) العمدة : ابن رشيق ص ١٥١ . (٢) سقط الزند : ٢ / ٦٠٧ .
(٣) كتاب « البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر » شرحت قصيدته شرحا كاملا .
(٤) هو أ . د . حسن جاد حسن عطا الله ولد في ١٣ / ١ / ١٩١٤ بقرية منشأة الجمال مركز دكرنس دقهلية ، وكان أبوه شيخا للقرية يتولى شئونها يحفظ القرآن الكريم ، توفى وهو في الخامسة من عمرة فكفلته أمه وأدخلته كتاب القرية ثم التحق بمعهد دمياط عام ١٩٢٦ وزامله المفتى الشيخ محمد خاطر ، ثم انتقل إلى المعهد الأزهري الثانوي بالزقازيق وزامله الإمام الداعية الشيخ محمد متولي الشعراوي والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، ومحمد الطيب النجار وفي عام ١٩٣٩ حصل على الإجازه العالية من كلية اللغة العربية وكان ترتيبه الثاني ونال جائزة الملك فؤاد وكان يتردد على الندوات مع الشعراء : سيد قطب ، ومحمود حسن إسماعيل ==

مصيبةٌ لَوْ عَلَى ثَهْلانَ قد وقَعَتْ لبـات من هَوْلها يشكو إلى أُحُدِ
صَمَّاءُ ليس بها للصبر نافذةٌ سوَى رجاء بلُطْفِ الله مُنْعَقِد
أكاد أقتل نفسي حين أذكـره لولا يقيني وإيماني ومعتقـدي
آمنتُ بالله والآجال قدَّرهـــا إذا انتهى العمرُ لم يَنْقُصْ ولم يزدِ
وكل حيٍّ لورد الموت مرتحلٌ يسعى ، متي مايَصِلْه رَحْلُه يردِ
مما يُعَزِّي فؤادي حين أودِعُهُ بَطْنَ الثرى ثقتي في الواحد الأحد
وأنَّ من كان في قلبي وفي بَصري جاراً غَدًا في جوار الوارث الصَّمد
يارَبُّ قدَّرتَ فالْطُف ، وابتليت فكن عَوْني على حَمْلَ البَلْوى وكُنْ عَضُدي
فيما قضيتَ علينا حكمةٌ خفيتْ على العقول وإنْ جلَّتْ عن الفَنَد
لي عندك اليومَ في خَطْبي ومحنته جاهٌ عريضٌ ، فكن جاهي ومُلْتَحدي
إني فقدْتُ رشادي في بُنَيَّ ، ومَنْ سواكَ يارَبُّ يهديني إلي الرَّشَد ؟
كل المصائب في الدنيا لِتَعْزِيَة إلا المصيبة ياربَّاهُ في الوَلَدِ(١)

ومن قصائد الرثاء المشهورة مرثية أبي تمام لمحمد أبي نصر بن حميد الطوسي(٢) ومطلعها :

== وطاهر أبو فاشا وأحمد فتحي ، وأحمد مخيمر والعوضي الوكيل وأحمد الزين والأسمر والهراوي ومحمد فهمي عبد اللطيف وحسن القاياتي وغيرهم ، وحصل على العالمية « الدكتوراه » في البلاغة والأدب عام ١٩٤٦ ، ونال جوائز كثيره في شعره ، عمل مدرسا بالكلية عام ١٩٤٦ وتدرج حتى عين عميدا لها في عام ١٩٧٨ م وعضوا بلجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب ١٩٧٦ واختير عميدا للأدب العربي في مهرجان شعري عام ١٩٧٨ لكنه رفض هذا مدعيا بأنه ليس أهلا لها وأحدث ذلك ضجة كبرى في الصحافه ومنح وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في عام ١٤٠١ في ٣٠ / ٣ / ١٩٨١ ، وله مؤلفات كثيرة وديوان شعر مخطوط جمعه الباحث محمد عبد الرحمن إبراهيم في رسالة ماجستير نوقشت عام ١٤٠٤ - ١٩٨٤ . وتوفي رحمه الله تعالى في ١٣ / ١١ / ١٩٩٥ .

(١) هذه المرثية منشورة في كتيب وهي موجودة في الديوان المخطوط بكلية اللغة العربية معاني المفردات عزفت : أعرضت ، اللبد : الكثير ، أودى : مات ، لم يفد : لم يستفد وينتفع ، يافعاً : حديث السن : الكبد : المشقه ، التباريح : الشدائد ، مفتأد : أصيب في فؤاده ، قدد : طرائف متنوعة في الحزن ، ثهلان وأحد : جبلان ، الفند : الخطأ .

(٢) ديوان أبي تمام : ص ٢١٨ .

كذا فيجل الخطبُ وليفدحْ الأمرُ فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عذر

ومرثية أبي العلاء المعري في رثاء الفقيه الحنفي أبي حمزة ومطلعها :(١)

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باكٍ ولاترنّم شادي

ورثى الحسين بن مطير البطل المغوار معن بن زائدة ، فقد تبارى الشعراء في مدحه أثناء حياته وفي رثائه بعد مماته يقول (٢) .

ألمّا على معن وقولا لقبره سقتك الغوادي مربعا ثُمّ مربعا
فيا قبر معن كنت أول حفرة من الأرض خُطَّتْ للسماحة مضجعا
وياقَبْرَ مَعْنٍ كيف واريت جوده وقد كان من البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتى عيش في معروفه بعد موته ولو كان بعد السيل مجراه مُتْرعا
ولما قضى معن مضي الجود وانقضى وأصبح عرنين المكارم أجدعا

ويشيد الشاعر محمد مصطفى حمام بالصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه صاحب خطة النصر المبين بالخندق في غزوة الأحزاب ، الذي قال فيه النبي ﷺ : « سلمان منا » وذلك في قصيدة يصور فيها مناقبه العظيمة بعد رحيله مع السابقين الأولين من المهاجرين والانصار رضي الله عنهم جميعا يقول في ذلك : (٣)

ما أنبل الشعر إن أوحاه وجدان وأخبث الشعرِ إنْ أملاه شيطان
إن قيل أعذبُ مافي الشعر أكذبُهُ فقولةٌ كلها زورٌ وبُهتان
ماضَرَّنا لو جعلنا الشعرَ مدرسةً مدادٌ أقلامُها صدقٌ ووجدان

---

(١) شرح سقط الزند : ٩٧١ / ٣ .
(٢) زهر الآداب : للحصري ٧٩٤ / ٢ .
(٣) ولد في فارسكور بالدقهلية في ١٨ / ٨ / ١٩٠٦ توفي والده وهو في سن الرابعة وأهداه السلطان حسين كامل ساعة ذهبية وتولى الانفاق عليه في التعليم لشاعريته ونبوغه وتخلى عنه حينما اشترك في ثورة ١٩١٩ وتقلب في وظائف الدولة حتى تفرغ للأدب عام ١٩٥٢ وعمل محررا في عدة مجلات وتوفي في ٢٣ / ٣ / ١٩٦٤ وأصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب ديوانه عام ١٩٧٤ .

رسالة الحق وافانــا الأمين بهــا ... وصانهــا راحمٌ بالنــاس رَحْمَانُ
أمانــة كان كفئاً حين حُمِّلهــا ... وآزرته صناديد وشجعــان
أقصُّ للناس من ابنائهم قصصاً ... فيــه اذكارٌ وتبصيرٌ وتبيان
وماحديثي أبو بكرٍ ولا عمرٌ ... ولاَ عَلى وذُو النُّورين عثمان
هديةٌ من ربوعِ الفرسِ غاليةٌ ... عزَّتْ بها دون ملك الفرسِ عدنان
عاف المجوسَ ولم يصدعْ بأمْرِ اب ... إلهه حَطبٌ ونارٌ ونيران
ولم يزلزله عن إيمانه عنتٌ ... ولاوعيدٌ ولاسِجْنٌ وسَجَّان
ولازم الدير لمَّا أن أتاح لــه ... تسبيحُ خالقه ديــرٌ ورُهبــان
حتى إذا صدَّ عن ذكر وعن نُسُك ... تلقَّفته مفازاتُ ووديــان
أوى إلى الله فالدنيا بما رحبت ... مأوىً وكل بلادِ الله أوطـان
وكان علم النصارى عنده فحوى ... علم اليهود وإن عقوا وإن خانوا
رأى الإلَهَ بعَيْنٍ مِنْ بصيرته ... وقومه عن جمال الله عُمْيان
حتى إذا حضنَتْهُ يثربُ وجَلاَ ... سمعيه صوتُ من الإسلام رَنان
مضى ينهل المورد الأصفي فكان له ... من سيد الرسل تكريمٌ وإحسان
صبَّه الله فوقَ الشركِ صاعقةً ... فصدَّعَتْ من صروح الشرك أركان
ولم تَزلْ غزْوةُ الأحزاب شاهدةً ... بأنَّهُ في فنونِ الحرْبِ « فَنَّانُ »
من وحيه « الخندق » الجبّار فهو أذىً ... للشرك وهو لجنْد الحقِّ رُجحان
وحَسْبُه مِنْ جزاءٍ أنْ يزكِّيَهُ ... مَنْ آمَنَتْ بهداه الإنْسُ والجان
« سلمان منا » كذا قال النبي فما ... أبهى وساما بـه يزدان سلمان

فأما ماقاله الشعراء في العصر الحديث في رثاء الزعماء والقادة : مصطفى كامل ، وأحمد عرابي ، وسعد زغلول ، ومحمد فريد وغيرهم ، فقد قالوا قصائد كثيرة ، للشعراء : حافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي ، ومحمد عبد المطلب ، والجارم وغيرهم .

وكذلك في رثاء الزعيم جمال عبد الناصر ، وبطل النصر في العاشر من رمضان الزعيم محمد أنور السادات ؛ فمعظم الشعراء المعاصرين أشادوا بالسادات

في شعرهم في حياته وبعد موته ، بل كل ما قيل من شعر في احتفال كل عام بإنتصار رمضان وبعد موته يُعَد رثاء وإشادة بالزعيم السادات ؛ الذي تحقق في عهده تحرير سيناء العزيزة ، يقول الشاعر عزت شندي مشيداً بالسادات بطل مصر والعروبة والإسلام : (١)

ياسليل السادات أحـرزت نصراً	ثم قدمته وسـامـا لمصـرا
وقهـرت الأعداء في أرض سينـاء	وخلصتهـا مـن السلـب قهـرا
كانت العرب قبل نصرك يمشـون	خفاض الرؤوس في الغـرب خسـرا
ثم جاء العبـور فتحـا فساروا	رافعين الرؤوس في الغرب نصرا
إذ سرى النصر في ربى الشرق موسيقى	وفي الغرب رن في الأذن وقراً
ياحبيب القلوب قد عشت للشعب	فباتت لك القلـوب مقراً
مارأت مثلك البـلاد عظيما	لا ولاجاء في الزمان ومـراً
سيرة أنت قد طبعت عليها	سنـة الراشدين تستاف عطرا

وكذلك الشعر الذي قيل في رثاء الملك عبد العزيز ال سعود مؤسس المملكة العربية السعودية في دولة إسلامية عزيزة الجانب لها ثقلها العظيم في العالم كله يقول حفيده الأمير عبد الله الفيصل : (٢)

أيهـا الصـرح يـامنـارة علـم	حملت راية الإمـام العظيم
هـو عبد العزيـز خيـر مـلك	حصَّن الملكَ بالسلوك الحكيم
جامع الخير والبطولة والإقـ	ـدام بالخلق والفـؤاد الرحيم
زادك الله منعـة وازدهـاراً	وشمـولا لكل خلق قويـم

وكذلك الشعر الذي قيل في رثاء الشهيد الملك فيصل زعيم العروبة والإسلام لمواقفه البطولية المذهلة في معارك نصر رمضان المبارك ؛ فقد رثاه كثير من الشعراء المعاصرين فقد جمع عبد العزيز أحمد شكري مراثي كثيره له في كتابه « الثلاثاء الحزيـن » ذلك اليوم الذي استشهـد فيـه الملك فيصل ، نشره عـام

---

(١) ديوان مواكب الحياة : دكتور عزت شندي ص ٨٩ : ٩٦ قصيدة طويله .

(٢) ديوان حديث قلب : ص ٣٧ وله ديوان وحي الحرمان وشعر كثير من أشهر شعراء الوجدان في المملكة العربية السعودية وشعره غنى بالموسيقي الساحرة يترنم الشادون به .

[١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م] .

ومن رثاء الزعامات الإسلامية والقادة رثاء المجاهد الكبير الشهيد « عمر المختار » عام ١٩٣١ م محررُ ليبيا من الاستعمار الإيطالي ، يشيد به أمير الشعراء أحمد شوقي في مرثية يصور فيها أمجاده وبطولته وبسالته وجهاده ؛ ليكون مثلا مشرفا وقدوة مضيئة للمكافحين المجاهدين الشرفاء ، الذين يستبسلون دفاعا عن دينهم وأوطانهم وأعراضهم وأموالهم يقول أمير الشعراء في مطلعها :

ركَزُوا رُفاتَك في الرِّمال لِواءً   يستنهض الوادي صباح مساءَ
ياوَيْحَهم نصبوا مناراً من دمٍ   يُوحي إلى جيل الغَد البغْضاءَ
ماضَرَّ لَوْ جَعلوا العلاقة في غد   بين الشعوب مودة وإخاءَ
جُرْحٌ يصيح على المدى وضحيَّةٌ   تتلمَّسُ الحريـة الحمراء
يا أيها السيف المجرد بالفلا   يكسو السيوفَ على الزمان مَضَاءَ

إلى أن يقول :

إني رأيت يد الحضارة أولعتْ   بالحق هَدْماً تارةً وبناءَ
شرعت حقوق الناس في أوطانهمْ   إلا أباة الضيم والضعفاءَ
يا أيها الشعب القريب . أسَامعٌ ؟   فاصوغ من عمر الشهيد رثاءَ
ذهب الزعيمُ وأنتَ باقٍ خالدٌ   فانْقُدْ رجالَكَ ، واختر الزُّعماءَ
وأرِحْ شيوخك من تكاليفِ الوغى   واحْمِلْ على فتيانك الأعْباءَ[1]

ومن رثاء وتمجيد الخلفاء الراشدين ، الذين كانوا نبراسا حيا للحكام وسراجا وهاجا للملوك والرؤساء في حكم الرعية ، وتوجيه القادة والجيوش رثاء سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ الخليفة الثاني أمير المؤمنين ، أعدل أهل الأرض بعد رسول الله ﷺ يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم في مطولته : « عمر بن الخطاب » : [2]

حسب القوافي وحسبي حين ألقيها   أنّي إلى ساحة (الفاروق) أهديها

وقسمها إلى موضوعات وفصول بعد المطلع ، وهي : مقتل عمر ، وإسلام

---

(١) الشوقيات : ١٧ / ٣ .   (٢) ديوان حافظ ربراهيم : ٧٧ : ٩٧ / ١ .

عمر ، عمر وبيعة أبي بكر ، عمر وعلي ، عمر وجبلة بن الأيهم ، وعمر وأبو سفيان ، وعمر وخالد بن الوليد ، وعمر مع عمرو بن العاص ، عمر وولده عبد الله ، عمر ونصر بن حجاج ، عمر ورسول كسرى ، عمر والشورى ، زهد عمر ، ورحمة عمر ، تقشف عمر وورعه ، وهيبته ، ورجوعه إلى الحق ، وعمر وشجرة الرضوان ، ثم الخاتمة ، في قصيدة بلغَتْ سبعة وثمانين ومائة بيت .

أما رثاء الممالك الزائلة والحضارات الإسلامية في الأقاليم والمدن المتهاوية والمتردية ؛ فقد بدأها الشاعر الأموي عبد الله بن عمر حين رثا دولة بني أمية الذاهبة بعد أن تولى الخلافة العباسيون بقصيدة مطلها :

تقول أمامة لما رأت ... نشوزي عن المضجع الأنفس

ورثا دولة بني أمية أيضا شاعر آخر وهو أبو العباس الأعمى المكي بقصيدة مطلعها :[1]

ليت شعري أفاح رائحة المسك ... وما إن إخال بالخيف إنسي

وكانت هناك قصيدة لم يرد لها ذكر في كتب الأدب بل غاصت في كتب التاريخ في رثاء بغداد حينما خربها وزراء العباسيين في عهد المأمون وقبل ابن الرومي والبحتري ، وهي لشاعر مغمور ، هو أبو يعقوب الخزيمي أظن أنها منحولة على العصر لعدم شهرتها منها قوله :[2]

يابؤس بغداد دار مملكة ... دارت علي أهلها دوائرها

ثم جاء ابن الرومي ليتم هذا الفن ويتكامل على يديه في قصيدته المشهورة « البصرة » ومطلعها :

زاد عن مقتلي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام

وبعد أربعة عشر عاما يأتي البحتري ليقول في رثاء الممالك والحضارات الفارسية ، والتي أذهبتها حضارة الأسلام وحلت محلها بسينيته التي اشتهرت عند النقاد ، ثم عارضها أحمد شوقي بسينيته . يقول البحتري :

---

(١) الأغاني : للأصفهاني . ص ٢٩٧ / ١٦ .

(٢) الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر د . محمد رجب البيومي ٢١٤ .

صنت نفسي عمـا يدنس نفسـي   وترفعت عـن جدا كل جبـس [١]

ثم تتابعت الشعراء بعد ذلك يصورون هذا الفن في كل العصور ومع الدول والحضارات التي انتكست في الشرق والغرب ؛ فهذا هو الشاعر عمارة اليمني يرثي الدولة الفاطمية بمصر بعد زوالها بلاميته المشهورة التي قال عنها ابن سعد : « إنه لم يسمع في رثاء دولة بعد زوالها أحسن منها » ووصفها ابن واصل بالحسن المفرط يقول عمارة في مطلعها : [٢]

رميت يادهـرُ كفَّ المجد بالشلل   وجيدَهُ بعد حُسْن الحليَ بالعطلِ
لهفي ولهف بني الآمـال قاطبـة   على فجيعتها في أكرمِ الدول
قَدِمْتُ مصرُ فـاولتني خـلائقها   من المكـارمِ ما أربَى علي أملِي
ونلْتُ منْ عُظماء الجيش تكرُمَةً   وخدْمةً حرستْ من عارض الخَللِ
ياعاذلي في هوى أبناء فاطمـة   لكَ الملامةُ إن قصَّرتْ في عَذْلي
بالله زر ساحة القصرين وابكِ مَعيَ   عليهمـا لا على صِفِّينَ والجملِ
وقل لأهلها والله ما الْتأَمَتْ   فيكم جروجي ولاقرحي بمُنْدَملِ [٣]

ويبكي الشاعر سعيد القاص دولة بني طولون على ضياعها فيقول :[٤]

جرى دمعه مابين سحر إلى نحـر   ولم يجـر حتى أسلمتـه يـد الصبر

وكذلك المعتمد بن عباد وابن اللبانه لدولة ابن عباد وابن عبدون . ثم اشتهر أبو البقاء الرندي بالنونية في رثاء الأندلس ومطلعها : [٥]

---

(١) انظر كتابي : « الأدب العباسي دراسة ونقد » تحدثت عن ذلك في ص ١٧ : ٥٠ منشور في القاهرة عام ١٩٨٤ .

(٢) ولد في مدينة مرطان باليمن وتنقل بين مكة واليمن ومصر ثم استقر في مصر خالط الفاطميين والأيوبيين ومدحهم وله ديوان كبير ومؤلفات منها أخبار اليمن ، والنكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ومصنف في الفرائض وتوفي عام (٥٦٩ هـ) .

(٣) ديوان عمارة اليمني : ص ١٤٨ تحقيق د . ذو النون المصري - النهضة المصرية .

(٤) الشعر المصري من الفتح الاسلامي إلى مطلع العصر الحديث د محمد احمد سلامه ١١٤ .

(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب للمقري - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ص ٤٨٦ / ٤ .

لكل شئ إذا ماتم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دول من سَرَّهُ زمن ساءته أزمانُ
وهذه الدار لاتبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شانُ

ويأتي الشعراء في العصر الحديث يشاركون من قبلهم متأثرين بهم ومعارضين أحيانا لشعرهم من هؤلاء الشعراء الذين رثوا المدن والممالك والحضارات الشاعر اللبناني الفضل بن الوليد إلياس عبد الله طعمه في رثاء الأندلس بقوله : [١]

يا أرض أندلُس الخضراء حيينا لعل روحا من الحمراء تحيينا

ورثا حافظ إبراهيم « أيا صوفيا » حين سقطت على أيدي الحلفاء في الحرب العالمية الأولى فقال : [٢]

أيا صوفيا حان التفرق فاذكري عهود كرام فيك صلوا وسلموا
إذْ عُدْتِ يوما للصليب وأهلهِ وحل نواحيك المسيح ومريمُ

وأما شوقي فقد رثا « أدرنة » في تركيا الإسلامية حين سقطت على أيدي الحلفاء في قصيدة من روائع شعره يقول فيها :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلامُ
نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العاملين ظلام
خلت القرون كليلة وتصدعت دول الفتوح كأنها أحلام
والدهر لا يألو الممالك منذرا فإذا غفلن فما عليه ملام
أخذ المدائن والقرى بخناقها جيش من المتحالفين لهام

ويقول أحمد رفيق المهدوي الشاعر الليبي قصيدة في الإمام محمد ابن علي السنوسي بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته عام (١٩٥٦ م) في

(١) الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية : شكيب ارسلان ٥٥٠ / ٣ ، ولد الشاعر الفضل بن الوليد في أوائل آب ١٨٨٩ م في قرية « قرنة الحمراء » بلبنان ، وتنقل بين الدول العربية فأنعم عليه الأمير عبد الله بن الحسين بلقب « شيخ واستقبله الملك فيصل الأول عام ١٩٢٥ في بغداد ، وله روايات ودواوين منها « رياض الأرواح » ، « السباعيات » وغيرها وتوفي آخر نيسان ١٩٤١ م وأطلق عليه الجندي المجهول .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم .

مطلعها : (١)

خلدوا ذكرى إمـام المصلحين ... سيـد المجتهديـن العـارفيـن
الإمــام ابن السنـوسي الذي ... فـاق صنف العلماء العاملين
عبقري قـد تسـامى للعـلا ... بجـلال العلم والدين المتين
وبإصلاح نـرى آثـاره ... لم تـزل تهـدي على مـر السنين
نشـر الديـن بعـزم صـارم ... وجهـاد كجهـاد المـرسلين
وهـدى قومـا على غير هـدى ... بين جهـل وضـلال عـائشين
في صحـارى يلفـح القيظ بهـا ... كشواهـد النـار فيهـا الساكنين
وبـلاد في غمـار مطبـق ... بظـلام البـؤس والضيـم المشين
عمهـا دينـا ودنيـا فغـدا ... أهلهـا مـن علمـاء المسلمين
وبني فيهـا زوايـا أصبحت ... مَنْهلاً عذْباً لـورد الظـامئيـن
ومنـارات تشع العلم مـن ... قابس عـن نـور رب العالميـن(٢)

* * *

(١)ولد الشاعر الليبي عام (١٣١٨ هـ - ١٨٩٨ م) في بلده « فساطو) وتعلم في « نالوت » وفي « مصراته » ودرس الفرنسية ثم اكمل تعليمه في الأسكندرية عام ١٩١٠ ثم رجع إلى « بني غازي » عام ١٩٢١ لينضم مع الأحرار في جهاد العدو المحتل ، وتردد بين تركيا وليبيا ، حتي استقر في وطنه عام ١٩٤٦ ، ثم عين عضوا بمجلس الشيوخ عام ١٩٥١ وظل به حتى توفى في يوليو عام ١٩٦١ وقد طبع شعره « ديوان رفيق » مرتين .

(٢) قصة الأدب في ليبيا : د . محمد عبد المنعم خفاجي ص ٨ / ٢ دار الكتاب الليبي عام ١٩٦٨ .

الحضارة الإسلامية

حرّر الإسلام العالم من الوثنية ، والجهل والظلم والفساد ، والشر والباطل وحث على توحيد الخالق وطاعته ، والترغيب في العلم والحب والخير ، والسماحة ونشر العدل والحق ، وكل القيم السامية ، التي تعد روافد للحضارة الإسلامية ، أرساها السلف الصالح ونشروها بين ربوع العالم ، وصورها الأدب قديما غير مستقلة بقصائد غالبا ، فجاءت من خلال الأغراض الأدبية كالمدح والفخر والرثاء والوصف والاعتذار والنسيب والهجاء وغيرها ، وإن وقعت مستقلة في القصيدة في الشعر التعليمي وشعر الزهد والتصوف ، لكنها خضعت لهذا الاتجاه المذهبي في التعليم والوعظ أو الزهد والتصوف .

فالإسلام يتعامل مع الإنسان بالحسنى مهما اختلفت عقيدته ، أو تنوعت أجناسه ، يقول البحتري يصور تعامله مع غير المسلم وغير العربي :

وأراني بعد أكلف بالأشراف طرًا من كل سنخ وأسٍّ

ويقول المتنبي مصورا العزيمة والكرم عامة :

وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

ويقول أبو العلاء المعري في الحث على فعل الخير وترك الشر :

وإن عجزت عن الخيرات تفعلها فلا يكن دون ترك الشر إعجاز

وأما الأدب في العصر الحديث ؛ فقد تختص قصيدة فيه ومقطوعة بتصوير بعض قيم الحضارة الإسلامية ، كالتأمل في الكون للتعرف على الله عز وجل مبدعه وخالقه ، أو الحث على البر والتعاون والتكافل ، وعلى التعليم وبناء المدارس والمعاهد والجامعات والمؤسسات العلمية والبحثية وأثر ذلك في رقي الأمة وحضارتها ، كما يحث الأدب على السماحة والأخلاق الكريمة ، والعمل ، وبناء الفرد والأسرة بناء قويا وصالحا ، فصلاح الأفراد ، وتماسك الأسر ، وترابط المجتمع ، هو الأساس في تقدم الأمة ورقيها وحضارتها .

مع الله عز وجل : فالإسلام يدعو الإنسان إلى التأمل في مظاهر الكون ؛ ليستدل به على خالقه ؛ فيزداد إيمانا ، لا إلحادا ، ولا اتحاداً ، ولا عدما وغير ذلك مما تهتم به الفلسفات المدمرة ، يصور ذلك الشاعر عمر بهاء الدين

الأميري في ديوانه : « مع الله » يقول في قصيدة :

مع الله في مدلهمِّ الدُّجى ... مع الله عند انبلاج السحر
مع الله في لألأت النجوم ... وحبْك الغيوم وضوء القمرْ
مع الله والشمس الدُّنا ... مع الله والشهب كرٌّ وفرْ
مع الله عند هزيم الرعودْ ... ولمع البروق ودفع المطرْ
مع الله في الفلك المستطيرْ ... وفي الشمس تجري إلى مستقرْ
مع الله في تأملات الوجود ... مع الله في كل ما فطرْ (١)

والشاعر يقول ذلك وهو متأثر بقول الله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ .

ويقول الشاعر محمد علي السنوسي في قصيدة " « نور القلوب » :

ياخليلي « الدين » نور القلوب ... وطبيب الحياة أي طبيب
لاتدع للأسى إلى قلبك الشفاف ... دَرْباً ولاتلن للخطوب
كم رأينا وكم سمعنا فدع قلبك ... يرتاح من عناء عجيب
ودع الفلسفات واستلهم الايمان ... وانضح به جفاف النضوب

أرأيت الزهور من غير ماء ... كيف تذوي وتنتهي للفناء ؟
أرأيت الحياة من غير نور ... كيف تغدو في ظلمة عمياء ؟
هكذا الدين إنه شعلة القلب ... ونبع الظلماء في الصحراء

---

(١) ديوان « مع الله » دار الفتح ١٩٦ م ، دمشق ، والشاعر عمر بهاء الدين الأميري ولد وتعلم في حلب ودرس الأدب وفقه اللغة في « السوربون » ومارس المحاماة ، ثم كان مديرا للمعهد العربي الاسلامي في دمشق ، تقلد الوزارة في سوريا ثم سفيرا لها في باكستان والمملكة العربية السعودية وله مؤلفات في الدراسات السياسية والأدبية والحضارية وله عدد كبير من الدواوين الشعريه منها : « مع الله » ، « أمي » ، « أب » ، « ألوان طيف » ، « « أشواق وإشراق » ، وديوان « ملحمة النصر من وحي الجهاد المؤمن في رمضان المبارك ١٣٩٤ هـ » وغيرها من الدواوين .

فاتخذه ركيزة وعمادا وضمادا لكل جرح وداء [١]

وفي هذا الغرض الأدبي التي يعد أساسا للحضارة الإسلامية تعددت فيه دواوين الشعراء ، غير القصائد المتفرقة في دواوين أخرى ، ومن هذه الدواوين التي انفردت في هذا الاتجاه : « سر الله » للشاعر محمد عمر الطوانسي ، وديوان « مع الله ورسوله » للشاعر عزت شندي موسى ، وديوان « قيثارة التوحيد » للشاعر عبد الله شمس الدين ، وديوان « مزامير الايمان » للشاعر محمود جبر يقول مخاطبا ربه عز وجل :

حسبي أحوم في حماك مغرداً فتذيع ألحاني هناك طيور
أنا أسعد السعداء ممن حوموا من حول نورك والفراش كثير
عطلت تفكيري فما لي حاجة بالعيش في كون ثمته شرور
أنا في الرياض مع الرياح نسائم ومع البديع من الزهور عطور[١]

وكذلك الشاعر محمود حسن إسماعيل من ألمع الشعراء المبدعين المعاصرين في شعر التأمل الاسلامي ، بل كان رائدا في إبداعه الشعري في العصر الحديث ، اهتم في شعره بالصورة الأدبية المحسة وبالتجسيم والتشخيص ، وبالرمز والإيحاء ؛ لأنه كان يجمع بين الموهبة والعبقرية الشعرية ، وبين ثراء اللغة وخصوبتها وهيام بالطبيعة وسبر لأغوارها ، والتعاطف مع أسرار الوجود فيها [٣] .

ولهذا أتيحت له عناصر الإبداع وهي : العبقرية ، وخصوبة الأداة وعمق روافدها المحسة ، حين نبعت الألفاظ والأدوات والصور من واقعها المحسوس وتلك موهبة لاتتاح إلا لأصحاب المواهب .

وحينما يحلق بوجوده الفكري والشعوري معا مجرداً من عالم المحسات

---

(١) ديوان الينابيع : ص ٢٦ ، ٢٧ انظر ترجمة الشاعر في كتابي المذاهب الأدبية في شعر جنوب المملكة العربية السعودية ، جدة ١٩٨٣ م .

(٢) مزامير الإيمان : ص ٣ .

(٣) ولد في النخيلة بمحافظة أسيوط في ٢ / ٦ / ١٩١٠ ، وتوفي في جمادي الأولى ١٣٩٧ الموافق ٢٥ / ٤ / ١٩٧٧ م وعمل بالإذاعة .

حوله ؛ ليلتقي مع عالم الأرواح ، ويتعرف على أسرار الوجود وألغاز الحياة يتمكن من معرفة حقيقة ما في الواقع والحياة ، ويكشف عن العلاقات بين أجزاء المحس أو المعنى المجرد أو الصراع النفسي أو الحالة الإنسانية أو العاطفة ، وبذلك الكشف تسري في المجردات الحيوية والحركة وينمو المعنى ، وتحيا الحالة النفسية . . وحينئذ يتحول كل ذلك إلى خلية حية تحمل في ذاتها وجودها المطلق من خلال التصوير الأدبي ؛ لتصير الكلمة كائنا حيا في ذاتها وروحها من موقعها الملائم لطبيعتها في الصورة ، حينما تتعلق بثانية ، وثانية بثالثة ، وهكذا مما يوحي بالإبداع الفني .

لذلك قال عنه الدكتور مندور : إنه عاصفة في طاقته الشعرية الفريدة ، وقال عنه الدكتور محمد خفاجي : عاش لا يقلد أحدا ولايحب أن يعيش تحت ظلال مذهب معين أو مدرسة فنية ؛ لأنه لايريد أن يخضع لقالب خاص ، ولا لمدرسة مجردة ، بل الشعر عنده هو الوجود كله وأبعد حدود الآفاق عامة » .

لهذا كان الشاعر فريداً في مذهبه الشعري فكانت له فلسفته الإسلامية في إبداعه الفني ، تلك الفلسفة الإسلامية التي لازال ينبض بها شعره في لفظه ومعناه ، وخياله ومشاعره ، وصوره وعناوين دواوينه .

فترى الفلسفة الإسلامية في اختياره لعناوين الدواوين الغزيرة فتمتد روافدها إلى فلسفة الشريعة وروح القرآن الكريم : فمن « قاب قوسين » إلى « نار وأصفاد » إلى « هدير البرزخ » إلى « صلاة ورفض » إلى « السلام الذي أعرفه » إلى « نهر الحقيقة » إلى « موسيقى من الجنائز » إلى « موسيقى من السر » إلى « أين المفر » إلى « ولابد » ومن « أغاني الكوخ » ومن « ديوان الحب » وهكذا .

ومذهبه في الشعر يختلف عن مذاهب اليوم . فهو صدى لألحانه وإلهاماته ، وهو فيض من روحه ، مستمد من شريعة الله وفلسفتها الإسلامية وفيه أصالة العربي المسلم ، والروح التراثية الشرقية ، فلا هي ماركسية ولاهي وجودية مادية . يقول :

مذهبي لا مذهب اليو م سوى أصداء لحني
إن تسل في الشعر عني هكذا كنت أغني
هكذا يخفق نايي بين إلهامي وبيني
يُلهم الله فيمضي وترُ الروح يغني
مزهري نشوان لاتو قِظُه ضجة كوني

مـذهبي لامـذهـبَ اليـو م سوى أصـداء لحني
قـد وَهَـبْـتُ الفـن عمـري ووهبـت الشـرق فنـي

فالشاعر هنا صوفي غارق في روحانياته ، لاتوقظه ضجة الكون ، ولا تيارات الغرب ومذاهبه ، بل يَغْمُر قلبُه بروحانيات الشرق وأصداء لحنه .

والشعر عنده ليس نشيداً للغناء فحسب ؛ بل فلسفة روحية يغوص في طريقه إلى أسرار الوجود البعيدة ؛ فهو مخلوق سخره الله لينفذ في أغوار الحياة ويستلهم أعماق الكون ، فمهما أشرف السلف الصالح على أسرار الحقائق فلن يتوقف لحظة في البحث عنها ؛ بل سيظل سائرا خلفها ، لأنه على ثقة في كل جديد مع حضارة الإسلام المتجددة فيضيف هو جديداً إلى تراثه الخالد يقول :

فإن الغناء طريقي إلى كل سر بعيد
خلقت لأرتـاد روح الحيـاة
وأستـل أعماقهـا للوجـود
ومهما سري قبلي السائرون
فإني على كل خطو جديـد

إنه لايعرف اليأس ولايعتريه السأم ، ولايرهب الموت والأجل لأنه للحقيقة أمل ، فهو يجعل الموت حياة ، ويبعث الروح في الماضي فيجلّي ظلام الحقيقة ويبدد غيوم الأسرار ، فتزهو في ظهر وصفاء :

وجودي أمـل
وعمـري أمـل
وكل حياتي أمل
ومهما تكن خافيـات الأجـل
فإنـي أمـل
خلقت لأنسج من كل موت حيـاه
ومن كل أمس غـداً وانبا في خطـاه
ومن كل ليل ضياء
ومن كل دمع صفاء

وسري صفاء « بحيرة النسيان » في دم الشاعر وفي روحه معاً ، حتى جفت بحيرة النسيان ، فغاب هو عن ذاته وحسه ، وزمانه ولهوه ، حتى نسي النسيان ، صار همسه وحيا في خواطره المجرده ، فصارت روحه زورقا تسبح في أسرار الوجود ، وهي في غيبة عن ضجيج الناس وصَخب الحياة ، يقول في فلسفته الإسلامية الشفافة :

رقرقتْ في دمي ورقت على الرو ... ح وذابت بحيرة النسيان
عندما قد نسيت ذاتي وحسي ... وزماني وعيشه ومكاني
ونسيت النسيان حتى كأني ... همسة في خواطر الأكفان
فاحضني يابحيرتي زورق الرو ... ح وغيبي عن ضجة الأكوان

إنه يحطم كل حواجز الحس ، ويهتك أستار الظلام ، ويكسّر الأغلال والقيود ؛ لينفذ إلى حقائق الأنوار الإلهية أو يكاد ، أو قاب قوسين أو أدنى فيصور ذلك الشاعر في ثورة على الجمود وفي حرية التفكير من خلال النور الإلهي ورقابة الضمير الإسلامي :

قاب قوسين من النور فسيري ... واهتِكي كل لثامٍ في الضمير
وادحري كل ظلام راسب ... أنشبته فيه أغلال الدهور

وفي « قصة الكوخ » وهو رمزه لمعبد التأمل ، ومحرابه لفلسفة الروح يقول فيه :

غـن للأحـرار للشعب الـذي رد الحيـاء
ومحا من أرضه الحرة أوهام الطغاء
ومضى في مواكب الزحف إلى كل اتجاه
لبناء الحق والعدل كما سن الإله

ويحلق الشاعر الصوفي في روحانية شفافية ، وهو يتعاطف مع فراشته ليبحث معها عن الحقيقة ويسبر أغوار الوجود في جنة نائية بعيداً عن المجتمع وعن أحزان الناس على متاع الحياة الذاهب ، وعن قضاياهم وشكواهم وعن صخبهم وأشباحهم ، وبعيدا أيضا عن فتنة الأزهار وأريجها الفواح الساحر وبعيدا عن أعاصير المساء وأصدائها المثيرة ، بعيداً عن كل هذا ؛ ليسعد معها

بأسرار الحياة ، وريحان الجنات يقول في « راهبة الضحى » :

تعالي نَطِرْ في سماء الخيال ونَهفُ بجنته النائيه
بعيدا عن الكون حيث المني ترف بأظلاله هانيه
هنالك لا أدمع ثرةٌ تهاوي ولا مهجة شاكيه
ولا عالمَ بالأذى صاخبٌ ودنيا بأشباحها زاريه
ولا زهرة تنتشي في الصباح بكأس الندى الحلوة الصافيه
ويأتي المساء بأندائه فتسقي أعاصيره السافيه

وليست الفراشة وحدها تتأمل معه في فلسفة الحياة والوجود ، ولكن مظاهر الطبيعة تتجاوب هي الأخرى معه في فلسفته الروحية وتأملاته الإسلامية في سكون الليل وصمت الظلام ، فإن غرفت السنابل النائمة في سبحاتها وأحلامها فلن ينام القمر ، فالأضواء ساهرة تبدد غياهب الحقيقة ؛ فينتشي بها النسيم في لهفة ، حتى يكادَ في تأمله أن ينفطر ، والسنا يخر ساجداً أمامها في همس روحي ، والنخلة راكعة كالزاهد تتدبر أسرار الوجود ، وذوائبها تضطرب مرعوشة كرعشة الكبير ، ومن خلفها ظل خافت ضنّ به سكون الليل . . إن مشاهد الطبيعة تسبح معه بحمد الله تعالى في طهر وتقي وتفكر وزهد ، وعبادة ووحي ونور وإيمان « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » يقول في « حصاد القمر » :

سيانُ في جفنه الإغفاء والسهرُ نامت سنابله واستيقظ القمرُ
نعسانُ يحلم والأضواءُ ساهرةٌ قلبُ النسيم لها ولهانُ ينفطرُ
مال السنا جاسياً يُلْقي بمسمعه همساً من الوحي لايَدْري له خَبرُ
وأدركت نخلة قامت بتلعته كأنها زاهدٌ في الله يَفْتكرُ
إن هف النسيم بها خُيلت ذوائبُها أناملاً مرْعشاتٍ هزَّها الكبر
كأنما ظلها في الحفل مضطهد صمت السكون إليه جاء يعتذر

وحين تحترق الظلال بسعير الشمس ، وقيظ لظاها ، تطل كالأفعى من شأبيب الحواجز ، فتلهب الظل بسمومها الفتاكة ، وتصير أشعتها في الظلال لظى كسياط الجلاد ، أو مثل وهج النيران حين ينفخ الحداد بكيره ، فتتقد جمراتها ،

حينئذ يلتهب الظل ناراً ، فيصير كالضمير المذبوح بالثري والخراب .

جاء ذلك من خلال صورة بديعة وفريدة من نوعها ، تفيض عن فلسفة إسلامية امتدت جذورها في القرآن الكريم من قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴾ .

تلك الصورة الأدبية الرائعة من أغاني الكوخ في « وصف القيظ » يقول فيها :

وأفعى على السور قيظ رأيته ... يطل بوجهه الحانق المتندم
يلوي كجلاد الظلال وهذه ... سياط اللَّظَي منه طوال التضرم
يكدن يحلن الظل وهما وغصنه ... تهافت مفزوع عميق التوهم
وينفخ كالحداد ناراً شرارها ... تناهش خزي في ضمير مذمم

إنه الشاعر المبدع والفيلسوف المسلم في سبحاته الروحية الشفافة وشطاحته الصوفية النفاذة . في عفة وطهاره ، وصفاء ونور يسمو به مع الخالدين الذين عشقوا الروح وتجردوا عن أثقال المادة ومتاع الحياة الذاهب فمضوا مع السالكين ، الذين تركوا تراثا إسلاميا وفكريا وأدبيا ضخماً وخالداً يحمل في ذاته قيما نبيلة وأخلاقا سامية لجدير بأن يكون إنسانيا رفيعا وأدبا إسلاميا خالدا .

ويخاطب الشاعر إبراهيم بدبوي ربه الذي علم الإنسان وهداه إلى علم الذرة النووي ،فاجتاز به الفضاء في مطولته « الشعر مع الله والذرة » يقول فيها : (١)

علمته من علمك النووي ما ... علمته فإذا بـه عاداكا
ما كاد يطلق للعلا صاروخـه ... حتى أشاح بوجهه وقلاكا
واغتر حتى ظن أن الكون في ... يُمني بني الانسان لايمناكا
أو ما دري الإنسان أنَّ جميع ما ... وصلت إليه يداه من نعماكا ؟
أو مادري الإنسان أنك لو أردْ ... ت لظلّتْ الذراتُ في مخباكا ؟
لو شئت ياربي هوى صاروخُـه ... أو لو أردْت لما استطاع حراكا

---

(١) ديوان البديويات : للشاعر إبراهيم علي بديوي .

إن النّـواةَ « ولِكْتُرونات » التي تجري براها الله حين براكا
ماكنت تقوى أن تفتت ذرةً منهن لولا الله قد قوّاكا
كل العجائب صَنْعَةَ العقل الذي هو صنعة الله الذي سواكا
يا أيها الإنسان مهلا ما الذي بالله جل جلاله أغراكا ؟
حاذر إذا تغزو الفضاء فربما ثار الفضاءُ لنفسه فغزاكا ؟
أُغْزُ الفضاءَ ولا تكن مستعمراً أو مستغلا باغيا سفاكا
إياك أن ترقى بالاستعمار في حرم السموات العلا إياكا
إن السموات العلا حرمٌ طهو ر يحرق المستعمر الأفّاكا
اغز الفضاء ودع كواكبه سوا بح إن في تعويقهن هلاكا !
إن الكواكب سوف تفقد رشدها وتحطم الأبراج والأفلاكا
والجاذبية سوف يفسد أمرهـا وتسيء عقباها إلى عقباكا
ولسوف تعلم أن في هذا قيـا م الساعة الكبرى هنا وهناكا
أنا لا أثبط من جهود العلم أو أنا في طريقك أغرس الأشواكا
لكنني لك ناصح فالعلم إن أخطأت في تسخيره أفنـاكا
سخر نشاط العلم في حقل الرخا ء يُصغْ من الذهب النظار ثراكا
سخرْهُ يملأ بالسلام وبالتعا ون عالماً متناحِـراً سفاكا
وادفع به شر الحياة وسوءها وامسح بنعمي نوره بؤساكا
العلم إحياء وإنشاء وليـ ـس العلم تدميرا ولا إهلاكا
فإذا أردت العلم منحرفا فما أشقي الحياة به وما أشقاكا

وهكذا يمضي الشاعر يصور النظرة الحضارية للإسلام في العلم الحديث في مائة بيت من الشعر الإسلامي .

* * *

الرصافي والحضارة الإسلامية

نشأة الشاعر وحياته :

حمل معروف الرصافي لواء التجديد في الشعر على ضفاف دجلة من غير منازع[1] وقد أثرت العربية بما أفاض عليها من المعاني البكر ومن طرافة أشعاره وجدتها [2].

ولد عام (١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥ م) في بغداد ، وحفظ القرآن ، وقال الشعر وهو في السادسة عشرة من عمرة . [3]

ثم دخل المدرسة الحربية ، فأكسبته روح الجندية الدفاع عن الإسلام والعروبة في شعره ثم تركها ودخل المدرسة الدينية ، وتتلمذ على أستاذه محمود شكري الألوسي صاحب كتاب « نهاية الأرب في معرفة أحوال كلام العرب » وروضه شيخه على الخطابه ، وحفظ على يديه ألفية ابن مالك ، وقرأ لها عدة شروح ، وكان مولعاً بحفظ الشواهد النحوية ؛ فلقبه أستاذه « بالشواهدي » [4].

وكان أديباً عالماً ، نشر شعره في مختلف الصحف والمجلات في العالم الإسلامي والعربي وتركيا ، وترجم بعض الأشعار والروايات من التركية إلى العربية مما يدل على إجادته للغة التركية [5].

واشتهر الرصافي بثقافته الواسعة ورحلاته الكثيرة ، فرحل إلى الأستانة وظل بها مدة تتسلط حوله الأضواء لثقافته ، ثم عاد إلى بغداد عام ١٩٢٣ ، وأصدر الجزء الأول من ديوانه قبل ذلك بكثير عام ١٩١٠ م ، وتوثقت صلاته بزعماء العالم العربي وبأدبائه وشعرائه ومفكريه ، فكان من أصدقائه إسعاف النشاشيبي ، وخليل السكاكيني ، وفي سوريا الأمير شكيب إرسلان ، ومحمد كرد علي [6].

وفي مصر عبد العزيز جاويش ، والشيخ محمد رشيد رضا ، وطه حسين[7].

---

(١) ذكرى الرصافي الرشودي ، ص ١٠ . (٢) عبقرية الرصافي : خلوصي ، ص ١٠ .
(٣) ذكرى الرصافي : الرشودي ، ص ٦ . (٤) المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .
(٥) مجلة العالم الإسلامي ، ص ٣١ ، عدد أكتوبر ، ١٩١٦ م .
(٦) الرصافي ، مصطفى علي ، ص ١٠٢ . (٧) المرجع السابق : ١٠٤ .

وفي تونس الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، والشيخ صالح الشريف وغيرهم [١] .

وبعد عودته إلى العراق شغل منصب رئيس لجنة التأليف والترجمة ، ثم اشتغل بالصحافة ، والتدريس ، وأخيراً انتخب نائباً لرئيس المجلس النيابي ثم ترك الوظائف ، وظل ينشر الشعر على العالم العربي ، حتى توفي عام (١٣٦٥ هـ - ١٩٤٥ م) في السبعين من عمره ، بعد أن خلد حياته في شعره الإنساني والاجتماعي والإسلامي والوطني . [٢]

عوامل شاعريته :

١ - تربيته العسكرية التي غرست في نفسه روح الجندية ، فدافع بشعره وقلمه عن الوطن وعن الإسلام والعروبة .

٢ - حفظه القرآن الكريم نمى في نفسه ملكة الحفظ ، ورتابة الإيقاع الموسيقي في الكلام ، فأعانه ذلك على نظم الشعر الموزون المقفى .

٣ - تأثر بأستاذه محمود شكري الألوسي ، الذي كان يلقبه بالشواهدي لكثرة محفوظاته من الشواهد الشعرية ، مما أحيا فيه ملكة النظم وموهبة الشعر .

٤ - ثقافته الواسعة ورحلاته الكثيرة التي عمقت فكره ووسعت مداركه لذلك كان شعره عميقاً ، يهتم فيه بالمعنى ، ويثور على اللفظ وخاصة في المرحلة الثانية من عمره ، ولذلك جعله النقاد من المجددين في المعنى وفي الأغراض الأدبية ، مثل الشعر الإنساني ، والاجتماعي والوطني والقصصي والفلسفي .

٥ - تأثر بحافظ إبراهيم في نقاوة ألفاظه وصدق تراكيبه ، وفضل المعنى عند أحمد شوقي فتأثر به في ذلك .

٦ - كان ولوعاً مغرماً بشعر النابغة الذبياني ، فقد رأى في شعره أقصى ماوصل إليه الكلام من بلاغة . [٣] ،

٧ - تأثر بأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري ، وقال : لم أر شاعرية تعلو على شاعرية المتنبي ، ولأن المعري كان أمه وحده بفلسفته العليا وحكمته

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .   (٢) ذكرى الرصافي : الرشودي .

(٣) دروس من تاريخ الأدب : الرصافي ، ص ٢٠ .

الناصعة ، وقال فيه : إنه شاعر البشر . (١)

٨ـ شجعه ذيوع شعره واشتهار أدبه على نظم الشعر والتكثر منه وصقله وتهذيبه .

٩ ـ تقدير أهل عصره لشعره والاهتمام به ، فعده رئيس المجمع العلمي منير القاضي شاعر العرب الأوحد والأكبر (٢) ، فكان ذلك دافعاً قوياً لتهذيب شعره وصقله .

١٠ ـ اشتغاله في منصب هيئة التأليف والترجمة ثم الصحافة مكنه من التفوق الشعري لاطلاعه على المنشور والمؤلفات وتحليلها ونقدها ، مما يربي فيه ذوق الأديب والناقد البصير .

يقولون

للشاعر العراقي الرصافي (٣)

١ ـ يقولون في الإسلام ظلماً بأنه ... يَصُدُّ ذَويهِ عن طَرِيقِ التقدُّمِ
٢ ـ فإن كان ذا حق فكيف تقدَّمتْ ... أوائلُه في عهدِها المتقدِّمِ
٣ ـ وإن كان ذنبُ المُسلِمِ اليومَ جهلُهُ ... فماذا على الإسلامِ من جهلِ مسلِمِ
٤ ـ هل العلم في الإسلام إلا فريضةٌ ... وهل أمةٌ سادت بغير التعلم
٥ ـ لقد أيقظ الاسلامُ للمجدِ والعُلا ... بصائرَ أقوام عن المجد نُوَّمِ
٦ ـ وحلَّتْ له الأيامُ عند قيامه ... جباهاً وأبدتْ منظرَ المتبسِّمِ
٧ ـ فأشرقَ نورُ العلمِ من حُجُراته ... على وجه عصرٍ بالجَهالَة مُظْلِمِ
٨ ـ ودكَّ حصونَ الجاهلية بالهدى ... وَقَوَّضَ أطنابَ الضلال المُخيِّمَ
٩ ـ وأنشطَ بالعلمِ العَوالِمَ وابْتَنى ... لأهله مجداً ليسَ بالمُتهدِّمِ
١٠ ـ وأطلَقَ أذهانَ الورَى من قيودها ... فَطَارَتْ بأفكارٍ على المجْدَ حُوَّمَ

---

(١) الرصافي : مصطفى علي ، ص ٢١٨ . (٢) مجلة الوادي العراقية ، عدد ١٤ مارس ، ١٩٥٩ م . (٣) ديوان الرصافي : ص ١٢٨ / ٩١٠ .

١١ - وفكّ إسارَ القومِ حتى تحفّزُوا ... نُهوضاً إلى العَلْياءِ من كلِّ مَجْثم
١٢ - فخلُّوا طريقاً للبداوة مَجْهَلاً ... وساروُا بِنَهْجٍ للحضارة مَعْلَم
١٣ - فَدَوّتْ بمتنِ العُلا نهضاتُهمْ ... كزَعْزَعِ ريح أو كتيّارِ عَلْم
١٤ - وعما قليل طَبّقَ الأرضَ حكمُهمْ ... بأسرع من رفعِ اليدين إلى الفَم
١٥ - وقدحا كّتْ الأفكارُ عند اصدامها ... تَلألُؤَ برْقِ العارضِ المتهَوِّم
١٦ - ولاحت تباشرُ الحقائق فانجْلتْ ... بها عن بَني الدنيا شكوكُ التوهُّم
١٨ - فليس لِمُثْرٍ نقصَهُ حَقّ مُعدَم ... ولا عربيٌّ بَخسه فضْلُ أعجم
١٩ - ولا فخرَ للإنسانِ إلا بسَعْيِه ... ولا فضلَ إلا بالتُّقى والتكرُّم
٢٠ - وليس التُّقى في الدينِ مقصورةٌ على ... صلاة مُصَلٍّ أو على صَوْمِ صُيَّم
٢١ - ولكنها تركُ القبيحِ وفعلُ ما ... يؤدّي من الحُسْنَى إلى نَيْلِ مَغْنَم
٢٢ - فتقوى الفتى مسعاهُ في طلب العلا ... وما خُصِّتْ التقوى بترك المحرَّم
٢٣ - فهل مثل هذا الأمر يا أولى النُهى ... يكون عثاراً في طريق التقدم
٢٤ - وإن لم يكنْ هذا إلى المجد سلَّماً ... فأيُّ ارتقاء بَعْدُ أَمْ أيّ سُلَّم
٢٥ - ألا قلْ لمن جاروا علينا بحكمهمْ ... رويداً فقد فارقتُم كلَّ مأثم
٢٦ - فلا تنكروا شمسَ الحقيقة إنها ... لأظهَرُ من هذا الحديثِ المرجَّم
٢٧ - عَلَوْنا وكنتم سافلين فلم نَكُنْ ... لنبدي إليكم جفوةَ المتهكِّم
٢٨ - ولم نترك الحسنى أوَانَ جدالكم ... وتلك لَعَمري شيمةُ المُتَحلِّم(١)

---

(١) معاني المفردات : يعيد : يمنع ، بصائر : قلوب والمراد العقيدة ، حجراته : دوره ومعاهده ، دك : هدم ، حصون : مايتحصن به ، أطناب : الحبال والمراد الأستحكام ، الضلال : الحيرة ، المخيم : المبنى ، حوم : حلق ، إسار : الحبس والشدة ، تحفزوا : اندفعوا ، المجثم : الثابت ، معلم : ظاهر ، نهج : طريق وهو المنهج ، خلوا : تركوا ، مجهلا : غير معروف ، دوى : ارتفع ، المتن : المرتفع ، زعزع ريح : الريح الشديدة والمراد سرعة انتشار النهضة ، تيار عيلم : تيار البحر ، والمراد العمق ، العارض المتهوم : الكثير المطر ، أولى النهى : أصحاب العقول ، عثارا : معوقا ، مأتم : مجتمع للحزن أو الفرح والمراد الثاني ، المرجم : الكذب الملفق ، جفوة المتهكم : قسوة المستهزئ ، شيمة : خليقة ، أوان : وقت ، المتحلم : الحليم .

معاني الأبيات :

١ ـ ٣ : كذب أعداء الإسلام حينما يفترون عليه ظلماً ؛ فيرمونه بالجمود والتخلف بالعجز والرجعية ؛ فهو لايدفع المسلمين إلى ماوصل إليه الغرب من حضارة ونهضة ، وهذا بهتان عظيم ودعوى باطلة ، وإلا كيف تقدم المسلمون الأوائل ، فأشرق نور الإسلام على العالم ، وشكلت حضارته الشرق والغرب فالعجز اليوم ليس سببه الإسلام ، فهو دين المعرفة والحضارة ، ولكن العجز والتخلف إنما هو في المسلمين أنفسهم ، الذين لم يطبقوا تعاليمه ، لذلك تخلفوا عن ركب الحضارة ، ولو عملوا بها لأعادوا إلى أنفسهم أمجاد الأوائل وحضارة الإسلام الكامنة في رسالته .

٤ ـ ٧ : وإذا كان أعداء الإسلام يعتقدون أن العلم هو أساس حضارتهم وبه ثارت أوربا على الكنيسة المتزمته ، وبددت ظلامهـا ، فإن هذا من دين الإسلام ؟ الذي جعل العلم فريضة على كل مسلم ، وماسادت أمة الإسلام إلا بالمعرفة والعلم ، الذي أيقظ أمة غابت في الجهل ، وغرقت في الضلال والظلام فاستنارت بصيرتهم ، وسموا إلى مدارج المجد وقمم العلا ، أعزة لا أذلة كما كانوا ، شامخة هاماتهم ، مشرقة وجوههم ، مستبشرة نفوسهم ، لأن نور العلم أشرق في معاهد الإسلام وجامعاته ، فبدد ظلام الجهل وأذهب عصوره القاتمة ، لتسير مواكب النُور والحضارة والنهضة في الحياة الجديدة .

٨ ـ ١١ : وحضارة الإسلام في القديم دكت حصون التخلف والجاهلية وبددت معاقل الجمود والظلام ، وهدمت جحافل الضلال الذي خيم على العالم بالدمار ، وبعلومه هبت العزائم من ثباتها ورقدتها ، لتصنع التاريخ والمجد ، وتبني حضارة شامخة ، لا يتطاول إليها أحد ، وبنور هدايته حرر العقائد من الخرافات والأوثان ، وأطلق العقول من الجمود والتخلف ، فسمت الإنسانية بعقيدة قويمة طهرت النفوس ، وبفكر مستقيم حلق بهم في سماء المجد ، وبحرية الإسلام انفكت قيود العبودية وأغلال الظلم ، لينهض العالم من كبوته إلى منازل العلا .

١٢ ـ ١٦ : وبذلك انتقل العالم من جمود التخلف ، وظلام التقاليد المزمنة إلى نور العلم والحضارة ؛ التي أشرقت على الدنيا كلها ، وأضاءت جنباتها في قدرة عجيبة وسرعة فائقة ، تحطم الجمود أياً كان موقعه ، وتبدد الظلام أينما

حل ، مثل العواصف التي لاتقف دونها العوائق ، ومثل البحر الخضم الذي تتحطم تحت أمواجه الصخور .

وبهذه السرعة الفائقة لحضارة الإسلام وعدالة تعاليمه ساد أهله ، وأنزلوا الدنيا على حكمهم ، وذلك في فترة وجيزة ، وحينما يحل نورها في كل موقع يخطف بالأبصار ، ويأخذ بالعقول والأفكار إلى مواطن الحق والخير مثل البرق الخاطف الذي يعقبه المطر الغزير ، فتهتز له الأرض بالخير والحياة ، ليعلم الناس حقيقة الإسلام بأنه دين الإنسانية ومصدر الحضارة ، فقد قضى على الزيف والضلال ، وبدد ظلام الجهل ، وفساد الجمود والعقائد .

١٧ ـ ١٩ : الإسلام دين الحضارة ؛ لأنه حفظ على الفرد إنسانيته وحقق له كرامته فالناس سواسية لا فضل لأحد على الآخر ، فكلهم من آدم ، فلا ينتقص حقُّ الفقير من مال الغني بشيء ، ولاينزله فقره عن المنزلة التي نالها بالإيمان مع الغني على السواء ، ولاينقص فضل الأعجمي من مكانة العربي شيئاً ، فلا فضل لأعجمي على عربي إلا بالعمل والجهاد ولا لإنسان على آخر إلا بالتقوى وكرم الأخلاق .

٢٠ ـ ٢٤ : ومن مظاهر حضارة الإسلام أن التقوى في شريعته لا تقتصر على الصلاة والصوم وسائر الأركان ، بل تكون بها وبغيرها من ترك الفحشاء وهجر القبيح والقيام بالأعمال الصالحة والأفعال الحسنة ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، التي ترتقي بالإنسان إلى منازل الإعجاب والتقدير .

فالتقوى تسمو بصحابها من وهاد الذل والتخلف إلى العمل الذي يحقق له العزة والكرامة ، وإلى السعي في طلب العلا ، حتى يحقق المجد لنفسه .

وهذه هي حقيقة التقوى التي افترى عليها أعداء الإسلام ، فقصروها على ترك الحرام ، عجباً لهم . . ؟ يا أصحاب العقول النيرة ، كيف يكون الإسلام بهذه التعاليم الصالحة جامداً ؟ لايدفع أهله إلى الحضارة ، وكيف يصير بهذا التشريع البناء صخرة في طريق التقدم ؟ يتحطم على جنباتها ، ولن تكون مثل هذه التعاليم والتشريعات سبباً في التخلف والجمود ، بل هي جديرة بصنع الحضارة وبالترقي في سلم المجد ، وليس بعد ذلك من رقي أو تقدم أو حضارة ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً ﴾ .

٢٥ ـ ٢٨ : وهذه الحقيقة تضطر القائل إلى أن يرفع صوته في وجه الأعداء الجائرين على الإسلام ، ويقول لهم : مهلاً فقد أخطأتم في زعمكم ولن تستطيعوا حينئذ أن تنكروا حقيقة الإسلام ، فهي كالشمس في وضوحها لاتخفي على أحد ، على العكس من الحديث المفتري عليه ؛ فهو خفي لايظهر لأحد ، لأنه منكم هبط بكم سافلين ، وسمت بنا الحقيقة إلى العلا ، فعاملناكم بالحسنى ، وأنتم لا تستحقون ، وهذا هو خلق الإسلام يعامل أهل الكتاب بالحسنى وقت الجدال . ﴿ ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ وتلك صفة المسلم وشيمة الحليم ، التي يتعامل مع خصمه اللدود ، وهي أيضاً من أمجاد الإسلام وحضارته .

الغرض من القصيدة :

هذه القصيدة بعنوان « يقولون » وهو موضوع يحمل في ذاته غرضاً من الأغراض الشعرية القديمة ، وهو الدفاع عن الإسلام والذود في سبيله .

ونشأ هذا الغرض الأدبي على يد إمامه ورائده الأول حسان بن ثابت الأنصاري ، ﷺ ، وكان من الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الجاهلية والإسلام ، فقد جند شعره بعد إيمانه للدفاع عن النبي ﷺ ، وعن أصحابه ﷺ ، وللذود عن الإسلام ، فسماه رسول الله ﷺ شاعر الإسلام . وقال : كيف تهجو قومي وأنا منهم . فقال حسان : أسلك كما أسل الشعر من العجين . ومن أشهر قصائده ، قصيدته التي وجهها إلى أبي سفيان بن حرب حيث قال في مطلعها :

الا أبلغ أبـا سفيـان عـني   فأنت مجوف نخب هـواء[1]

وله شعر كثير في الدفاع عن الإسلام ، وبيان فضائله ، وتشريعاته وأخلاقه الفاضلة ، وآدابه الحسنة ، وشاركه في ذلك عبد الله بن رواحه وكعب بن مالك وغيرهم ﷺ .

وسار الرصافي في قصيدته على هذا النهج للدفاع عن الإسلام وبيان محاسنه وفضله على البشرية ، ولكنه كان يتناول هذا الغرض من زاوية أخرى

---

(١) ديوان حسان بن ثابت .

يتكئ فيها على عمق ثقافة عصره ، وتنسيق فكره ، لتمجيد القيم الإسلامية الحضارية ، والمبادئ التشريعية الإنسانية ،ومن غير مدح لأفراد بذاتهم ، أو ثناء صريح لشخصهم ، وبذلك ظهر الغرض في ثوب جديد يشتمل على فكر منظم ، نسري فيه روح الحضارة والرقي والتقدم ، بما يتناسب مع عصره الذي يعيش فيه ، ويختلف عن حياة البساطة والقرب وعدم التعقيد ، الذي كان يعيشها الرسول ﷺ .

ونظهر الخصوبة والعمق في تناول الرصافي لأثر التشريع الحنيف في بناء الحضارة الإسلامية ، التي بلغت بالأوائل المجد والرفعة والرقي ، وتلك لمحة جديدة لم تكن في شعر الأوائل لهذا الغرض في صدر الإسلام .

وليس هذا العرض من قبيل الموازنة بين الشاعرين ، لأن الموازنة لا تصلح بين شاعرين في عصرين مختلفين تماماً ، فكل واحد منهما يمثل عصره في الشعر أصدق تمثيل ، وإنما هو من قبيل الموازنة التي توضح تطور هذا الغرض الشعري ودرجة ازدهاره ورقيه فقط ، وحسب الشاعرين هذا الغرض بالشكل الذي يتناسب مع عصريهما .

وفي شعر الرصافي ظهر هذا الغرض في شعر إنساني يصور به الشاعر مظاهر الحضارة الإنسانية في معناها النبيل ، وبالأفق الواسع الذي يشمل حق الإنسان من الرقي والتقدم والحضارة ، إذا تمسك بالعقيدة الإسلامية الصحيحة والمبادئ الشرعية السامية ، وهي أسس الحضارة الإسلامية .

* * *

الخصائص الفنية

أولاً : خصائص الموضوع :

ظهر أن الموضوع في قصيدة الرصافي هو حضارة الإسلام ، واستقامة تشريعاته ، لبناء المجتمع الفاضل في أسمى مواطن التقدم والرقي من غير إفراط أو انحراف عن الجادة ، وتضمن موضوعها عدة أفكار رئيسة وعناصر إنسانية بنيت عليها القصيدة وهي بإيجاز :

١ ـ رد الفرية التي طعن بها أعداء الإسلام في وجهه المشرق ، ودحضها بالحجة القاطعة ، والبرهان الساطع ، مما يجعل العدو يعرف كذبه وافتراءه على الإسلام ، وذلك في الأبيات الثلاثة الأولى .

٢ ـ أصالة العلم في التشريع الإسلامي وعلو منزلته ، فهو أساس التشريع في الدين ، حيث كان فريضة على المسلمين ، بينما كان العلم عند أعداء الإسلام ليس من شريعتهم ولا عقيدتهم ، بل كان هو في ذاته ثورة على العقيدة ، والتزمت الديني في الكنيسة ، ولولا ثورتهم العلمية على دينهم لما حققوا هذه النهضة الحديثة ، وهم على العكس من شريعة الإسلام المفتري عليه ، فكان العلم فيه هو أساس التشريع ، وشتان بين حضارة زائفة نابعة من علم ثارت به أوربا على عقيدتهم المتزمتة وبين حضارة كان العلم فيها أساساً من أسس التشريع الإسلامي الحنيف ، وذلك في البيت الرابع ، حتى نهاية البيت السادس عشر .

٣ ـ أساس الحضارة في الإسلام هو الحرية ، فلن تبلغ أمة مجداً ولا عزاً إلا بفضل التحرر من ربقة العبودية ، كما في البيت السابع عشر .

٤ ـ محاربة الفقر والبذل للمحتاجين هما أساس الحضارة والتقدم في شريعة الإسلام كما في البيت الثامن عشر .

٥ ـ والحضارة في الإسلام قامت على أساس المساواة بين الناس جميعاً ، لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح ، كما في البيت التاسع عشر .

٦ ـ التقدم ومحاربة الجمود والاستبداد هو الجوهر في حضارة الإسلام فليست حضارته محصورة في أركانه ومحرماته وترك الفحش والقبائح فقط ؛ بل

حقيقة التقوى في بناء الحضارة الإسلامية تكون في الجد والاجتهاد ، وبالسعي في طلب المجد وتحقيق المعالي ، كما في البيت العشرين إلى البيت السادس والعشرين .

٧ ـ الحلم والسماحة هما من شيم المتحضرين وخلق المسلمين الذين ارتفع بهم الإسلام ؛ ليعفوا ويصفحوا عن المسيئين ، ولو كانوا أعداء الإسلام ويتعاملوا بالحسنى مع المجادلين من أهل الكتاب ، وهذا مظهر من مظاهر حضارة الإسلام .

خصائص الأفكار في القصيدة :

١ ـ كانت الأفكار في قصيدة الرصافي واضحة جلية لاتخفي على القارئ الذي يعرف شيئاً من التشريع الإسلامي وحضارته الأصيلة .

٢ - الأفكار مع وضوحها فهي دقيقة وعميقة ، اشتملت على أسس الحضارة والتفوق للأمة ، التي تعتنق الإسلام ، وتعمل بتشريعاته .

٣ ـ الأفكار هادئة تقيم مجتمعاً صالحاً ، وتسمو بالأمة التي تسعى إلى المجد ، وترد كيد الحاقدين وافتراء الأعداء .

٤ ـ إن المعاني مشفوعة بالأدلة العقلية كما في الأبيات الأربعة الأولى ومشفوعة بالأدلة الواقعية كما في الأبيات التي تليها مباشرة .

٥ ـ الترابط الوثيق بين المعاني والأفكار ، التي لاتخرج عن موضوع القصيدة ، وعلى هذا فقد تحققت بها الوحدة الموضوعية ، فكانت المعاني متآخية متآزرة ، تشد بعضها بعضاً ؛ لتسير في اتجاه الغرض من القصيدة ، وهي حضارة الإسلام والدفاع عنه .

إلا أنني آخذ على الشاعر التكرار في المعاني ؛ فأحدث ذلك اضراباً في تماسك الوحدة الموضوعية ، ومزق وجهها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

التكرار في البيت الثاني ، فكرر المعنى فيه وهو بيت واحد ، فقوله في عهدها المتقدم هو نفس قوله : فكيف تقدمت أو اتله ، ولعل فقر الرصافي في القافية هنا اضطره إلى التكرار في لفظ « المتقدم » .

وكذلك الأمر في البيت الثالث حيث بنى القافية من (جهل مسلم) وقد سبق المعنى في البيت بقوله : ذنب المسلم اليوم جهله .

وكرر المعنى في البيت الخامس فكان من المُمكن الاستغناء بلفظ « أيقظ » في أول البيت عن لفظه « نوم » في قافيته ، ومرد ذلك إلى جفاف حقل القافية عند الشاعر في هذا البيت .

وأعاد الشاعر في البيتين التاسع والعاشر المعنى الذي ورد في البيت الخامس ، وهذا يدل على ثغرة في التجربة الشعورية عند الشاعر .

وكذلك أعجاز الأبيات الأربعة من التاسع إلى الثاني عشر كلها تدور حول معنى واحد ، وهو بناء المجد وظهور الحضارة ، وهذا التكرار الواضح يدل على عدم التمكن من التجربة الشعرية وعدم التحكم في ترتيبها وتنسيقها .

ثانيا : خصائص التصوير الأدبي :

١ ـ خصائص الألفاظ والأساليب :

الألفاظ في القصيدة تدل على شخصية الشاعر الفنية واستقلاله في اختيارها ، فنرى من خصائص اللفظ فيها هي : السهولة ، والعذوبة ، والوضوح والقرب ، وغيرها من الخصائص التي تشبه الكلمات المنشورة في الصحف العامة على الناس ولا تحتاج إلى روية وتأمل في الفهم والإدراك ؛ فليست فخمة ولاضخمة ، إلا قليلاً منها ورد في هذه القصيدة مثل : قوض أطناب ، وإسار ومجثم ، ومتن : وزعزع ، وعيلم ، والعارض المتهوم .

وتظهر السهولة والقرب في معظم ألفاظ القصيدة مثل : يقولون ـ يصد ذويه ـ عن طريق التقدم ـ وإن كان ذا حق ـ في عهدها المتقدم . وهكذا حتى آخر القصيدة .

وكذلك الأمر في الأسلوب ، فجاءت القصيدة في تراكيب سهلة ونظم دان من النفس ، وعبارات مألوفة لاتحتاج إلى روية ولا تأمل ، بل تقف النفس على معانيها للمرة الأولى من القراءة ، حتى صارت هذه السهولة هي اللغة الشعرية الخاصة بشعره ، وسمة بارزة في أسلوبه مثل قوله في القصيدة :

وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله　　فماذا على الإسلام من ذنب مسلم
وهل للعلم في الإسلام إلا فريضة　　وهل أمة سادت بغير التعلم

وقوله : أيقظ الإسلام بصائر أقوام ، وهكذا يسير الأسلوب على هذا

النحو من السهولة والقرب والوضوح .

والقصيدة هذه تمثل استقلال الشاعر بشخصيته الفنية في الطور الثاني من أطوار حياته [١] حين نضجت شاعريته ، وأصبح مستقلاً في نظم الشعر غير خاضعة لتقليد القدماء ، وذلك بعد عودته من الأستانة عام ١٩٢٣ م [٢] يقول في قصيدته : « ذكرى الخالصي » : [٣]

لست بالشاعر الذي يرسل اللفـ ـظ جزافاً لكي يصيب جناسه
أنا لا أبتغي من اللفظ إلاّ ما جرى في سهولة وسلاسه
إنما غايتي من الشعر معنى واضح يأمن اللبيب التباسه

أما الطور الأول فقد كان الرصافي فيه مقلداً للشعراء القدامى في الألفاظ والأساليب تميل إلى الجزالة والفخامة ، والإحكام في التعبير والرصانة في التركيب وبكاء الديار والوقوف على الأطلال . [٤]

مآخذ على الأسلوب في القصيدة :

١ ـ التكرار في الألفاظ : فالتقدم ، وتقدمت ، والمقدم ، كلها بمعنى واحد في البيتين الأول والثاني ، ويتفق معها كلمة الأوائل أيضاً .

٢ ـ جاءت كلمة « نوم » في البيت الخامس حشواً ، لاتفيد معنى زائداً عما أفادته كلمة « أيقظ » ، فاليقظة إنما تكون من نوم ، والشاعر نفى الحشو عن نفسه حين وصف شعره في قوله :

طابقت لفظي بالمعنى فطابقه خلواً من الحشو من العبر

٣ ـ جاء بالكلمتان « طارت وحوم » حشواً أيضاً من غير فائدة زائدة في المعنى ، فقد أغنت عنهما كلمة « أطلق من قيودها » وذلك في البيت العاشر .

٤ ـ لم يوفق الشاعر كل التوفيق في قوله : ولا عربي بخسه فضل أعجمي ، ولعل الوزن والقافية اضطراه إلى ذلك . فهذه العبارة توهم إثبات

---

(١) الأدب العربي الحديث ومذاهبه : الدكتور محمد خفاجي ، ١ / ١٥٧ .

(٢) ذكرى الرصافي : الرشودي ، ص ٢٩ . (٣) الديوان ، ص ٣١٢ .

(٤) مجلة الثقافة آذار ، ١٩٥٩ م في مقال بعنوان (الرصافي والابداع الفني) ، إبراهيم السامرائي .

الفضل للأعجمي ونفيه عن العربي ، الذي ارتقى إلى منزلة الأعجمي بشرف الإسلام ، فقد نفي البخس عن العربي ، ولم ينف الفضل عن الأعجمي بل أثبته له ، لأن النفي لم يتسلط عليه ، وإنما تسلط النفي على العربي لينفي البخس عنه فقط ، والقاعدة البلاغية في تسلط النفي في التعبير هي : إذا تسلط النفي في عبارة انصب على اللفظ القريب المباشر لا اللفظ البعيد . مثل لفظ « ولا عربي » في بيت الرصافي ولم يتسلط هذا النفي على « فضل أعجمي » .

وكان الأولى في دفع هذا الإيهام أن يكرر الشاعر النفي مع اللفظين كما عبر النبي ﷺ لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أعجمي على عربي إلا بالتقوى .

وبصفة عامة في شعره يأخذ السامرائي على الشاعر مآخذ لغوية في شعره (١) وهذه وتلك لاتنزل من قدر الرصافي في مجال الأدب والشعر ، ولا تحط من منزلته بين الشعراء المعاصرين ، فلكل جواد كبوة ، ولكل فارس نبوة كما قالوا .

٢ - خصائص الخيال :

والخيال في هذه القصيدة دان قريب على عادة الشعراء القدامى في خيالهم وصورهم كالتشبيهات والاستعارات والكنايات ، وهي مأخوذة من أشعارهم لسلكها في قصائده على مثالهم يقول السامرائي :

« بأن المحافظة في لغة الرصافي تظهر في عرضه للصور القديمة كأن يقف على الأطلال ، أو يبكي الديار ، أو ينصرف إلى هموم يستعين عليها بالشعر » (٢) .

ومن الصور الخيالية القديمة في هذه القصيدة هي :

لقد أيقظ الإسلام بصائر أقوام ، وحلت الأيام جباها ، فأشرق نور العلم ودك حصون الجاهلية ، وقوض أطناب الضلال المخيم ، وهكذا بقية الصور في الأبيات : التاسع والعاشر والحادي عشر ، والثالث عشر والرابع عشر والخامس

---

(١) مجلة الثقافة : آذار ١٩٥٩ من مقال السامرائي « الرصافي والابداع الفني » .
(٢) مجلة الثقافة الجديدة : آذار ، ١٩٥٩ م ، ص ٢٦ .

عشر والسادس عشر . . . . إلخ القصيدة :

مآخذ الخيال :

وآخذ على الرصافي هذه الصورة من صور الخيال في البيت الثالث عشر وهي : كزعزع ريح أو كتيار عيلم ، حيث شبه انتشار حضارة الإسلام في جميع بقاع الأرض بعواصف الرياح وطغيان أمواج البحر الهادر ، ولا تقارب في المعنى بين طرفي التشبيه حتى يصح وجه الشبه بينهما .

لأن انتشار الحضارة وشيوعها بناء واستقرار حياة هانئة ، وعواصف الرياح وطغيان التيار الهادر في البحر ضياع وتدمير وفناء .

ولا تلاقي بين المعنيين على هذا التفسير ، بل شتان بينهما .

٣ ـ عناصر التصوير الأدبي :

وأما عناصر التصوير الأدبي فقد اكتملت في هذه القصيدة ؛ فحركة التقدم تبدو في فترات القصيدة وأجزائها ؛ فترى الحركة في تقدم الأوائل ويقظة البصائر وإقامة الحياة ، وإطلاق الأذهان من قيودها ، وطيران الأفكار ، والتحضر والنهوض والسير ، وعواصف الرياح ، وأمواج البحر ، وسرعة رفع اليدين ، وهكذا إلى آخر القصيدة .

ونرى اللون في نور العلم ، وضوء الإسلام والبصائر ، ومنظر المبتسم والهدى ، وإشراق النور ، ونرى النور في تباشير الحقائق التي لاحت إلخ القصيدة .

ونرى شكل الحضارة في بنائها على العلم والحرية والمساواة والمؤاخاة والتسامح والعطف .

ونرى حجمها في أنها تسود الدنيا ، وتملأ الإنسانية بنورها وفضلها .

ونرى طعم التقدم ، ولذة العلم والمعرفة ، وحلاوة الحرية والعدالة .

وتشم رائحة التقوى وطيب التكرم والفضائل وريحان الحسنى والحلم .

وهكذا نجد أن عناصر التصوير تتلاءم تماماً مع الموضوع من القصيدة وهي روعة الحضارة ، وجلال مبادئها الإنسانية .

منزلة الشاعر عند النقاد :

لقب العراق الرصافي بشاعر العراق الأكبر [١] ولقبوه بشاعر العرب الأكبر [٢] . قال منير القاضي رئيس المجمع العلمي بالعراق عن الرصافي :

مكانة شاعر العراق الأوحد في عصره ، بل شاعر العروبة الأوحد في وقته في الذروة ، فهو المجلي بين شعراء عصره ، ومكانته بينهم مكانة المتنبي من شعراء عصره [٣]

ولقد ملأ شعره الآفاق العربية ، وحملته إلى العالم الصحف والمجلات والدواوين فكان من الشعراء المشهورين في عصرنا ، نشرت له القصائد في صحف تركيا ، وترجمت بعضها إلى التركية . [٤]

اتصل بكثير من الأدباء والشعراء والمفكرين مما جعله من الشعراء المجددين في الشعر الحديث ، وحامل لواء التجديد في الشعر على ضفاف دجلة ، وقريحته معروفة بالابتداع والابتكار .

يقول صلاح خالص : استطاع الرصافي أن يخطو خطوات واسعة في تجديد موضوعات القصيدة وأفكارها ، فقد وضع في هذه القوالب التقليدية تفكير الجيل الحديث ومثله العليا . [٥]

ويقول يوسف عز الدين : كان الرصافي شاعراً مجدداً . . . إنه كان شاعراً مصلحاً ثائراً على تقاليد المجتمع ، فشعره مزاج من فيض الشعور ومن ثقافة عميقة . [٦]

ويقول داود سلوم : لم يكن الرصافي شاعراً مجيداً فقط ، بل كان مفكراً اجتماعياً مجيداً . [٧]

ويقول رؤوف الواعظ : إن مجال التجديد عند الرصافي لم يشمل إلا الأغراض والمعاني فحسب ، أما شكل القصيدة العام ، فقد كان حريصاً على أن

---

(١) ذكرى الرصافي : البدري ، ص ٣٣ . (٢) من كلام طه الراوي ، المرجع السابق ، ص ح .
(٣) مجلة الوادي العراقية : عدد ١٤ / ٣ / ١٩٥٩ م .
(٤) مجلة العالم الإسلامي ، ص ٤١ ، اكتوبر ١٩١٦ م .
(٥) الرصافي والابداع الفني ، محمد شراره . (٦) ذكرى الرصافي : البدري ، ص ٤٩ .
(٧) تطور الفكرة في الأدب والأسلوب : دار سلوم ، ص ٩٢ .

يحافظ عليه (١).

ولقد جدد الرصافي في محتوى القصيدة ، فأنشأ في الشعر القصة الشعرية كما في قصيدته « الفقر السقام » ويقول داود سلوم : إن القصة الشعرية من أهم أبواب الشعر عند الرصافي (٢).

وجدد في الشعر الفلسفي والعلمي مثل قصيدة « خواطر شاعر » . وجدد في الشعر الاجتماعي والاختراعات الحديثة مثل قصائد « معترك الحياة » . وفي مشهد الكائنات والعالم وغيرها .

وجدد في الشعر الإنساني ، فعالج البؤس والشقاء ، والرصافي من شعراء المدرسة المجددة على نمط الشعراء المعاصرين مثل شوقي وحافظ والكاظمي والزهاوي ، وغيرهم ، فالرصافي من مدرسة المحافظين لا من مدرسة الثائرين المجددين .

ويحتفي الشاعر حسن جاد حسن بالأزهر الشريف في قصيدته : « الأزهر في عيده الألفي » يصور فيها دور الأزهر الشريف في حضارة الأمة الإسلامية قديما وحديثا وفي كل العصور ، يقول : (٣)

أرَأيْتَ كيف طوى القرونَ الأزهرُ ... وأدَال عُمْرَ الدهْرِ وهو مُعَمَّرُ
مرَّتْ عليه الألف لم توهن له ... عَزْماً ولا اوهتْ قواه الأعْصُرُ
وأشابَ ناصيةَ الزَّمانِ ولَمْ يَزَلْ ... وإهَابُه غَضُّ الشبابِ مُنَضَّرُ
اللهُ ناطَ به الكِتابَ وهَدْيَهُ ... حِفْظاً فَلا يَبْلَى ولاَ يَتَغَيَّرُ
وحَبَـا كَنَانتَهُ بــه فَأحَلَّهـا ... شَرفاً تطولُ به السَّماكَ وتَظْهَرُ
هَـرَمٌ مِـنَ الأهْـرَامِ إلاَّ أنَّـهُ ... حَرَمٌ يلوذُ به الحجيجُ ومَشْعَر
أبداً تُشَدُّ لـه الرحالُ حَثِيثَةً ... ويُؤَمُّ بعد المسجدين ويُؤْثَرُ
لاتغْتَرِرْ يَوْماً بِصَرْحٍ شادَهُ ... وَهُمْ عَلَى عقلِ البُناة مُسَيْطرُ
لَيْس الذي يَبْني الحجَارَةَ مثل مَنْ ... يَبْني العقولَ النَّيِّرات ويَعْمُرُ
ماَ شَادَ بَانٍ في الكنانةِ مثلما ... شَادَ المعزُّ الفاطميُّ وجوهر

---

(١) الرصافي : بدوي طبانه . (٢) تطور الفكرة والأسلوب في الأدب ، ص ٩٣ .
(٣) ديوان الدكتور حسن جاد حسن المخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة من ٩٩ / ١٠٢ .

يامعهداً عمَّ المشارقَ نــورُه ... فَمَشَى على أضوائه المُتَحيِّرُ
واستنهضَ الدنيا فرجّعَ شرقُها ... عنه وجاوبَ غربُها المُتحضِّرُ
ووعى علومَ الدين والدنيا معاً ... متوثِّبُ الخطوات لايتعثر
وحَمَى الشريعةَ وهو حصنُ كتابها ... وبه يفيض نَميرُهـا المتفَجِّرُ
وتعهد الفصحى فكان لسانهـا ... وعليه أوليةُ البلاغــة تُنشر
كَمْ أطلعَتْ آفاقهُ مِنْ أنجُمٍ ... زُهرٍ وكم تنْساب منه الأبْحر
من كل ركن في الشريعة يستبي ... في العلم أفذاذَ العقول ويَسْحَرُ
من كان يلتمسُ الحقيقة حُــرَّةً ... فلديه جوهر لبها المتخيِّر
كمْ في رحابِ الأرض من طلاَّبها ... حَجُّوا إليْه خاشين وكبـروا

ماضَرَّ لو سَلك الشبابُ سبيلَه ... في الحق واستهدوا به واستبصروا
طلبوا الهدى من غيره فتطرفوا ... وتخبطوا في الوهم حتى كفَّروا
ولو استبانوا الرشد لم يَتَشَدَّدُوا ... فالدين أسمح في الأمور وأيْسَرُ
علل النفوس خطيرة لكنــما ... علل التدين والعقيدة أخطر
من ذا سواه يروض جمح نفوسهم ... بهداه وهو على الرِّياضة أقدر ؟
كمْ ذا رَمَاهُ بالتأخر مغرض ... فهل الأصالة رجعةٌ وتأخر ؟ !
حسبوا الحفاظ على التراث تحجُّراً ... فهل الحفاظُ على التُّراث تَحجُّر ؟
إفكٌ توَرَّطَ فيه كلُّ مُضَلَّلٌ ... لـمَّا تولى كِبْـره المستعمـر
من لَمْ يُؤسِّسْ بالقديم جديدَهُ ... فجديدُه واهِي الأساسِ مُزَوَّر

مرت عليه الحادثاتُ فَجازَهَا ... مُتجلِّداً حيناً وحينـاً يَزْأرُ
كم قاد ثورات النضال وشبّها ... ناراً على المستعمرين تُسعَّر
وجرى زكيّاً من بواكيه دمٌ ... عَبِقٌ بأنفاس الخلود مُعطَّر
وإذا استُضيم الشعبُ أو رِيعَ الحمى ... صرَخَتْ مآذنُـه وضجَّ المِنْبر

(١) ديوان الدكتور حسن جاد حسن المخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة من ٩٩ / ١٠٢ .

من أشعَل الحريّة الحمْراء في | سَاحاته نُوراً وناراً تَصْهَر ؟
وملاحماً يجْتُولها تاريخه | غُرّاً بأقلام الخلود تُسطَّر
مَنْ بَثَّ رُوحَ الوغيَ حرّاً لم يَزَلْ | يلدُ البطولاتِ التي لاتقهر ؟
إنَّ الموكَّلَ بالحنيف وهديه | أحرى وأخلق بالجهاد وأجدر

يا أزهَر الماضي المجيد تَحيَّةً | النَّدُّ فَوْحُ أريجها والعَنْبر
غَرّاءَ يوجبُها الوَفاءُ وذِمَّةٌ | ترْعى الحقوقَ ومنّةٌ لك تُشكر
أنا مِنْ غراس يَدَيْكَ فَرْعُ خَميلة | كَرُمتْ منابتُها وطَابَ العنصر
يَجْري البيان الحق في أعْراقها | عذْباً فتُطلع نابهيه وتثمرُ
تتفيأ الفصحى ظليل ظلالها | وغصونها للعبقريـة مزهر
ماض عليه من الجـلال مهابةٌ | يحنو لها المختال والمَتجبّـر
إني لأذكره فيُبهَر خاطري | والمجد حقا مايَروع ويَبْهر

لبيك شيخَ الجامعات وَمَنْ به | مصرٌ على الدنيا تتيهُ وتَفْخَر
كنتَ السماء منارة ومكانـة | طلع الشيوخُ بها نجوماً تَزْهر
كانوا ملوكاً للملوك وكلُّهم | في وجه طغيان الملوك غضنفر
لمْ يُغْرهم جاهٌ وَلا أزْرَتْ بهم | دُنْيا وَلاَ استَهْوَاهُمُوا مايُنْكر
من مدَّ في وجْه الخديوي رَجْلَهُ | زهداً وضمْ يديه وهو المقتر ؟(١)
من صيّر الأمراءَ في سُوق الحمىَ | سلعاً تَقَوَّم قَبْلَ أنْ يتامَّروا(٢)
والراسخُ الإيمانِ ليس يُخيفُهُ | من دهره إلا العليّ الأكبر
والعلم كان مناهلا يَرْوي الصَّدَى | ظمآنه منْها وعَنْها يَصدُر
حلقاته الغَرّاء حول شيوخه | هالاتُ أقمَارٍ سَنَاها أقْمر

---

(١) هو الشيخ الباجوري الذي لم يحفل بالخديوي حين زار حلقته وكان يمدُّ رجليه فلم يضمها ثم أنه لم يقبل هدية الخديوي التي بعث بها إليه مع فقره .

(٢) هو العز بن عبد السلام سلطان العلماء الذي أفتى ببيع أمراء المماليك واعتبرهم من مال بيت المسلمين .

كانت خلايا النّحل عند دويّها ... وبهاجِذَاها الحريقُ السكر
وبساحها شتى المذاهب تَلْتَقِي ... فالسّاحُ حشدٌ والأئمةُ حُضَّر
تغشى مجالستها الملائكُ خُشَّعاً ... ويَحُفُّها مدد السماء النيّر
وتعمُّها النفحات من أنفاسها ... وكأنها المسْكُ الفتيقُ الأزْفر
فالعلمُ قَصْدُ الطالبين لذاته ... لايُبْتَغي جاهٌ به أو مظهر
مابالهُ أضحى غثاء تجارة ... تَلْغُو بها سوقٌ ويلهُو متْجر
عَمَّتْ معاهدَهُ المدائن والقُرى ... أتُرى كمظهرها يسرُّ المخْبَرُ ؟
وتَرى بكلِّ مدينة كليةً ... أتُرى كمنظرها يَروقُ الجوهر ؟
يُلْقَى إلى القطط السّمانَ زمامُها ... فيَسُومها (الدلأل) و « الشهْبَنْدَرُ »
يتقاسمون الغُنْمَ فيما بينهم ... فالرِّبْح وَفْرٌ والجَهالةُ أوْفَرُ
من كلِّ نهازٍ تَسَلقَّ للذُّرَا ... وضميرُهُ بِثَري الحَضيضَ مُعَفَّرُ
ومُهرِّج يعلو مناكب عصبة ... تَحميه وَهو الأحْمق المتهوِّر
يَنْهيَ ويأمُر باسمها مُتَبجِّحا ... وكذاك يَنهَى (العُصْبجي) ويأمرُ
أشلاء مَجْد مزقته مخالبٌ ... خرقاءُ في سمت التقى تتستَّر
وتراثُ أسلافٍ قد انفردوا به ... في النَّهْب دون تحرّج واستأثروا
وقْفٌ على الجبناء من أذنابهم ... أما الأبيُّ العبقريُّ فمهدَّر
لكنّما حُرِّيتي وتَرفُّعي ... وكرامتي أغْلَى الكنوز وأنْدر
حَسْبي مِنَ الدُّنيا غِنَايَ بها وَإِنْ ... كانتْ ذُنوباً عندهَم لاتُغْفَرُ

قالوا التَّطوّرَ قلتُ صِبْغٌ حائلٌ ... إنَّ الأصيلَ الحرَّ لايتطور
أَمِنْ القُشور الهامشية يُرْتجَى ... عِلْمٌ سَوِيٌّ أوْسُلوكُ خَيِّر ؟
لايخدعَنْك بها كتاَبٌ أبيضٌ ... من بعد ماهُجر الكتابُ الأصفرُ

يا أزْهَرَ الماضي وكَمْ في النَّفْس مِنْ ... ذكرى يُؤَجِّجُها أسىً وتَحسُّر
عذراً إذا شط اليراع فَأَنْتَ مَن ... يعفو إذا شط اليراعُ ويعذر
عَقَدتْ لِسانك عُجْمةٌ وَلَطَا لَما ... قد كان باللّغة الفصيحة يَهدُرُ

مَنْ أهملَ القرآنَ حفظا غَالَهُ عِيٌّ اللسَّانِ الأعجميُّ فيُحصَرُ
جيلٌ لعمرك مَايُصححُ آيةً حتى غَدَتْ منه المنابرُ تسْخَرُ
نفثات أشجْانٍ زَحَمْنَ مشَاعري ومن الشجون مقيّدٌ ومُحَرَّرُ
أشْدو وفي عيْني وبينَ جوانحي دَمْعٌ يجولُ ومُهْجَةٌ تتفطّرُ
لكنني في عيدك الألفي لا أنسى الرجاء فربَّ كسْرٍ يُجْبَرُ
مهما نظمتُ لك الوفاءَ وصُغْتُهُ دررًا فإنني في الوفاء مقصِّرُ
يكفيك أنك أنت مصرُ ومجدها يوم الفخار وأنّ مصرَ الأزهرُ

القيم الخلقية في التصوير الشعري :

١ ـ يحتفي الشاعر الدكتور حسن جاد حسن « عميد كلية اللغة العربية » بالأزهر الشريف أقدم جامعة علمية في العالم ؛ لمرور ألف عام عليه آنذاك ، وهو يؤدي دوراً تاريخيا نضاليا ، وحضاريا خالدا ، في تنوير العالم ، والحفاظ على القرآن الكريم ، ولغته وشريعته ، ورسالته السامية ، التي لازالت تجوب العالم شرقا وغربا .

٢ ـ الأزهر الشريف أعرق الجامعات ، جاب القرون ، وهو يطوي ألف عام من صفحات التاريخ المشرقة ؛ ليظل شامخا يواصل أداء رسالته .

٣ ـ خصه الله عز وجل بالحفاظ على كتابه العزيز ؛ فسمت به مصر وحدها من بين العالم بالمجد والعزة والشرف ؛ فأصبحت الدنيا كلها تردد نشيدا مشهوراً : « مصر الأزهر » : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

٤ ـ الأزهر الشريف قمة الجامعات ، وهرمها العظيم ؛ لأنه جمع بين علوم الدنيا والدين ، يؤمه العلماء من جميع أنحاء العالم كالمساجد الثلاثة في قداستها وجلالها ، كما في الحديث الشريف : « لاتشد الرجال إلا لثلاثة مساجد ؛ المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » ، وكما يؤدي المسلمون فريضة الحج ومشاعره إيمانا وخشوعا ، وهو يستوحي في تصويره الشعري المصطلحات الإسلامية بمشاعره النياضة ، وعاطفته الصادقة نحو الحرم ومشاعره ، والمساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال .

٥ ـ هناك فرق كبير بين قمم الدنيا وعجائبها السبع – كما يقولون –

فالأزهر الشريف قمة القمم ، وأعجب العجائب في الدنيا ، لأنه يبني العقول ويشيد بالحضارات الإنسانية الراقية ، بينما العجائب الأخرى ، ومنها الأهرامات اقتصرت على هندسة الحجارة ، وفن البناء .

٦ - شيده في « مصر الكنانة » أبطال الإسلام وهم كثيرون ، منهم القائد المسلم « جوهر الصقلي » ، والحكام المسلمون ، ومنهم المعز لدين الله الفاطمي ثم صلاح الدين الأيوبي وغيرهم .

٧ - أبدعت موهبة الشاعر القيم الخلقية السابقة في تصوير فني حَيٍّ ينبض بالقوة والحيوية ، يعتمد على التشخيص للقيم والمعاني ؛ فصور الشاعر الأزهر الشريف جَيْشاً إسلاميا قويا يستمد أسلحته من القيم الإسلامية السامية ، يجوب القرون ، ويديل العمر والسنين لايخرب أو يدمر ، وإنما يعمرّ الحياة ، ويشيدها بالقيم والعلم والحضارة ، حتى شابت نواصي الزمان ، ولازال هو غض الشباب نضر الإهاب ، يحافظ على كتاب الله المقدس ؛ فيزداد كل يوم نضارة وشبابا وقوة فلا يبلي ولايتغير ؛ بل رفع الأزهر من شأن مصر الكنانة شرفا وقدراً ، وجعل منها هرما مقدسا آخر غير أهرامات الفراعنة ، يؤمه العلماء كالحجيج الذين يؤدون مشاعر الحج ، أو كالمساجد الثلاثة التي تشد اليها الرجال .

إنها صورة كلية لجيش الأزهر الشريف مكتملة الروافد والعناصر في تشخيص حي غني بالظلال والألوان ، وخصيب بالجيشان والحركة ، تعاونت من خلالها الصورة الجزئية المستمدة من الحقيقة ، والصور الخيالية المستمدة من ألوان البيان من تشبيه واستعارة وكناية ، وتجسيم ، والصور الموحية من دلالات الألفاظ ومردودات الصور ، ووحي الإيقاع والوزن والموسيقى الخفية .

٨ - وينتقل إلى لوحة فنية أخرى ، في صورة كلية ثانية ، تعتمد على « التشخيص »أيضا ؛ يصور فيها الأزهر الشريف في صورة عالم بصير من الجهابذة ، قد وعي علوم الدين والدنيا ، وحمى الشريعة الإسلامية ، وتعهد الفصحى ، وحافظ على بلاغتها ، وقاوم العامية المتسللة ، والتركية الحاكمة واللاتينية الغازية المستغربة في معارك شرسة ، تظهر من حين لآخر .

٩ - ثم يحافظ على الحق والحقيقة ، ويدافع عنهما ؛ فينتصر على الزيف والباطل ، ويقاوم الجهل والضلال .

١٠ ـ يحث شباب اليوم أن يسلكوا سبيله في الحق والحقيقة ، على مثال سلفهم الصالح من رجالات الأزهر وأعلامه .

١١ ـ فإذا طلب الشباب الحق والحقيقة والهدى من غير الأزهر ، انحرفوا عنها ، وتخبطوا في التيه والجهل والضلال ، حتى خرجوا عن الإسلام ، أو اتهموا غيرهم بالكفر والإلحاد بالباطل ، ولو رجعوا إلى ترشيده وتعاليمه ، أو إلى منهجه في السماحة الإسلامية وفي يسره ، لما أصابهم التطرف والتخبط ، ولما اتصفوا بالكفر .

١٢ ـ رماه الأعداء المستعمرون ، وأذنابهم من المستغربين من العرب بالتأخر والرجعية والتحجر ، وهو إفك مفترى ؛ لأن ذلك يختلف عن الأصالة والحفاظ على تراث الأمة الإسلامية ، ووصل الحاضر بالماضي وعدم بتره عن أساسه ، وشتان مابين الغربة والحقيقة ، وكذلك مابين الزبد وغثائه والأصالة والعراقة وأيضاً مابين الزور والحق .

١٤ ـ تصدى الأزهر الشريف للأحداث والنائبات والفتن ؛ فانتصر عليها كالأسد الهصور ، يحطم أعدائه ، ويقضي على الفتن .

١٥ ـ انطلقت من ساحاته ثورات الحرية ، يشبها ناراً على المستعمرين يكتوون بلهيبها ، بعد أن غاصت بواكيه بدماء الشهداء الزكية ، التي تعطرت بريحان الشهادة والخلود .

١٦ ـ إذا أصيب المسلمون بالضيم ، أو استبيح حماهم ، صرخت مآذن الأزهر الشريف بدعوى الجهاد ، لدفع الظلم ، والحفاظ على عزة الإسلام والمسلمين .

١٧ ـ يفجر الأزهر الحرية الحمراء ، وهي مغموسة بدماء الشهداء يصطلي بنارها الأعداء ؛ فيعم نوره على العالم الإسلامي ، فكم خرّجت أعمدته من الأبطال والزعماء ؟ وكم نسجت أقلامه الملاحم والبطولات المظفرة ؟ وهو يحمل راية الجهاد ، وينشر العلم ، ويتحمل مسئولية الدفاع عن الدين الحنيف ومحاربة الجهل .

١٨ ـ إنه العرفان بالجميل ، وأخلاق الإسلام ، التي لاينكر المعروف ، بل يرده إلى أهله وصانعيه ؛ فالشاعر الدكتور حسن جاد لبنة من لبناته ، وزهرة يانعة

من بستانه ، تخرج منه ناثرا وعالماً وأديبا وشاعرا وناقدا ، فأصبح له في ذمته الشكر والثناء ، والعرفان بالجميل ، يخشع لله تعالى في محرابه تحية وإعزازاً وإجلالا وتقديراً ، ووقاراً ومهابة .

١٩ - يلبي الشاعر شيخ الجامعات ، وأقدمها قاطبة وهو يناجي الأزهر الشريف ، فقد شرفت به « مصر الكنانة » عزا وفخرا ، بلغت به عنان السماء فازدانت بشيوخه وأعلامه نجوما متألقة زاهرة .

٢٠ - كان شيوخه وعلماؤه ملوك الملوك كالأسود ، لايهابون في الحق أحداً ، ولايخافون لومة لائم ، فها هو الشيخ الباجوري يمد رجليه في حلقة التدريس ، فلايحفل بالخديوي ويضم رجليه ، بل يظل على حاله لايلقي له بالا ، ورد إليه هديته حينما أرسلها الخديوي ، مع أنه الفقير إلى مثلها . . إنها عزة العلماء .

أما سلطان العلماء العز بن عبد السلام يقلب سلعة السلاطين المماليك في سوق النخاسين ، حتى يتحرروا من رقهم ، فتصح منهم الولاية والإمارة ؛ لأن الحاكم والسلطان في شريعة الإسلام لايكون رقا مملوكا ، بل حرا عزيزا .

٢١ - تعددت المذاهب الفقهية في ساحاته كالمالكية والشافعية والحنبلية والحنيفية ، وغيرها ، وكذلك الاتجاهات العلمية والفكرية ؛ وفي علوم التوحيد والتفسير والحديث ، والنحو واللغة والأدب .

٢٢ - تتميز حلقات العلم في ساحات الأزهر بالإخلاص في تحصيله ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، فلم يكن وسيلة للربح أو التجارة ، بل كان العالم منهم لايتكسب بعلمه ، ولايتخذه حرفة ينفق منها على نفسه وأهله ، وإنما كانت له حرفة أخرى غير العلم والتعليم ، يقتات منها .

٢٣ - انتشرت معاهد الأزهر وكلياته في أنحاء البلاد بين القرى والمدن غربا وشرقا .

٢٤ - تغيرت الأحوال في الأزهر الشريف ، واختلفت المناهج ، وتنوعت العلوم ، فاتخذ أبناؤه زيا آخر ، غير ما كان عليه أسلافهم في العلم والعطاء والعمل والأداء .

٢٥ ـ لازال الشاعر يشيد في مطولته بالقيم الخلقية السامية من الحرية والترفع ، والإباء والكرامة ؛ لأنها أغلى مايعتز به العلماء ، والركائز القوية التي تنهض بها الأمة الإسلامية .

٢٦ ـ في مناجاة تفيض بها التجربة الشعورية الصادقة في ختام المطوله يعتذر الشاعر لشيخه وإمامه « الأزهر الشريف » عن زلات اللسان والقلم ، التي لايتحرز عنها « هيمان الشاعر » ، كما أنه يعتذر عن العجمة التي عقدت الألسنة عن الفصحى في عيّ وعجز ؛ لأنها لم تلهج بالقرآن الكريم وتخلت عن حفظه فغدت المنابر تشتكي من اللحن ، وتسخر من الخطباء اللاحنين ، ولعل تصوير هذه الحقائق في القصيدة مايشفع للشاعر بحق الوفاء للأزهر الشريف ، وإن ظهر أنه مقصر ؛ فيكفي مصر كلها فخرا ، أنها « مصر الأزهر » .

وتحدث عن حضارة الأزهر الشريف ، وعن دوره الحضاري الرائد بين جامعات العالم ، تحدث كثير من الشعراء في أدبهم الإسلامي ، ومن هؤلاء الشعراء أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد محرم ، وإبراهيم نجا ، ومحمود غنيم ، وعزت شندي موسى ، ومحمد عبد المنعم وأحمد عمر هاشم وغيرهم ، أما عبد السلام سرحان ، فقد أنشد مطولة أطلق عليها « ملحمة الأزهر » في أربعمائة بيت يختمها بقوله :[1]

٣٩٧ ـ وقد يَسُرُّ « جمالا » أنْ « أزهرنا » طوقٌ من المجد حلَّتْ مصرُ معناهُ
٣٩٨ ـ فَفَاضَ مع نيلها بالخير مُضْطَلِعاً بالعبء في نشوةٍ واللهُ وَالآهُ
٣٩٩ ـ وشعَّ إسلامنا بالنور منتشراً على البسيطة حيث ارْتادَ دنياه
٤٠٠ ـ وليس مثل و « جمالٍ » في قيادته من يقدرُ الأمْرَ إن مسَّتَه كفَّاه[2]

---

(١) ولد الدكتور عبد السلام سرحان في قرية دموه مركز دكرنس بالدقهلية ، وتعلم هو وأخواه الدكتور محمد سرحان وعبد اللطيف في مراحل الأزهر ، وعملوا جميعا في كلية اللغة العربية وتوفي الدكتور عبد اللطيف وكان أستاذا في اللغويات عام ١٩٦٤ وكان أصغرهم ، وتوفي الدكتور محمد أكبرهم في عام ١٩٧٤ وكان استاذا في الأدب والنقد هو والدكتور عبد السلام الذي أحيل على المعاش وتوفى هو كذلك رحمه الله تعالى .

(٢) ديوان ملحمة الأزهر : للدكتور عبد السلام سرحان الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

التربية الأخلاقية والتعليم

اهتم الأدب الإسلامي في جميع عصوره منذ أنعم الله عز وجل على هذه الأمة بنعمة الإسلام ، وما أجلها من نعمه جليله ؟ هي أجل النعم على الإطلاق « إن الدين عند الله الإسلام » ، « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، لأنّ غاية تعاليمه التشريعية هي الحث على التربية وغرس القيم الأخلاقية بكل الوسائل أعلاها وأجلها التعليم ؛ فكانت أول آيات نزلت على رسوله الأمين سيدنا محمد ﷺ تحث على القراءة والعلم والالتزام بالدين وأخلاقه كما جاء في سورة العلق ، ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ، كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . . . . إلى آخر السورة ﴾ وقوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

لهذا سار الأدب الإسلامي في منهجه معتمداً في مضمونه وشكله على القرآن الكريم والسنة الشريفة ، يدعو إلى أخلاق الإسلام وتربيته القويمة للفرد والأسرة والمجتمع ، وإلى التعليم والتثقيف ؛ فكان الأدب شعراً ونثرا يصور هذه القيم الإسلامية الأخلاقية والتربوية والتعليمية في عصوره المختلفة ، كما ظهر ذلك من خلال النماذج الأدبية في أجزاء هذا الكتاب ، وفي كتابي : « من الأدب العباسي دراسة ونقد » و « الأدب الإسلامي الصوفي حتى نهاية القرن الرابع الهجري » .

لـذلك سنكتفي بعرض بعض النماذج الأدبية في العصر الحديث للوقوف مـع الأديب في بعض قضايا التربية الأخلاقية والتعليم مع الإشارة إلى بقيتها فـي مواطنها . وقد اهتم بهذه القضايا الساعاتي والبارودي وشوقي فكتب علي النجدي ناصف كتابا « عن الدين والأخلاق في شعر شـوقي » [1] وكتب غيـره عـن كثيـر مـن الشعراء في العصر الحديث يتناول القضايا المختلفة ، وخص حافظ إبراهيم بابا في ديوانه بعنوان الاجتماعيات ، فتناول رعاية الأطفال والأسرة والثناء على الجمعيات الخيرية التي تهتم بذلك ، والحث على التعليم وغرس

---

(١) مكتبة نهضة مصر الطبعة الثانية عام ١٩٦٤ .

القيم الأخلاقية السامية والاهتمام بالمدارس والجامعات [١] يقول في قصيدة « رعاية الأطفال » منها قوله في الختام : [٢]

لله در السائلين على الألى سهروا من الأوجاع والأوجالِ
القائمين بخيرِ ماجاءت به مدنية الأديان والأجيال
فتسابقوا الخيرات فهي أمامكم ميدان سبق للجواد النال
والمحسنون لهم في إحسانهم يوم الإثابة عشرةُ الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن عن عدٍّ وعن وزنٍ وعن مكيال

وله شعر كثير في محاربة الفساد والانحرافات والخرافات والبدع في المجتمع ، فيحث الشباب على التمسك بدينهم والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، يقول في قصيدة « غلاء الأسعار » منها قوله : [٣]

أيها المصلحون ضاق بنا العيـ ـشُ ولم تحسنوا عليه القياما
عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جُساما
وغدا القوت في يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما

وله قصائد كثيرة في الحث علي التعليم في جميع المراحل ، وعلى بناء الجامعات منها « إلى رجال الدنيا الجديدة » وقصيدة « مدرسة مصطفى كامل » وقصيدة « الحث على مشروع الجامعة » ، « الحث على تعضيد مشروع الجامعة » وقصيدة « مدرسة البنات ببور سعيد » ، وقصيدة « اللغة العربية » التي سنفصل القول فيها .[٤]

ويهتم عبد الرحمن شكري بالعلم والعمل فهما السبيل إلى تحقيق المجد للأمة ؛ فتظل قوية عزيزة الجانب يقول : [٥]

بعض العلوم إلى الأعمال منتسب وأحسن العلم مايحدي به العمل
هذا السلاح الذي يدحو لهم سبلا في مجدهم لا القنا الخطية الذبل

---

(١) انظر الديوان الجزء الأول من ٢٥٠ إلى آخره .
(٢) انظر الديوان جـ١ ص ٢٧٥ ومابعدها فهي قصيدة طويلة .
(٣) المرجع السابق جـ١ ٣١٦ . (٤) الديوان الجزء الأول .
(٥) ديوان شكري الجامع ص ٤١٦ .

والعلم مثل عصا السحار يبسطها فيصبح الحال قد ضاقت به السبل

والعلم والمال مقرونان في قرن لايجتني المال حتي يصدق العمل

وينادي العقاد باشتراكية العلم ؛ فلن تنهض الدولة إلا بتعليم الشباب وتربيتهم ، لافرق بين غني وفقير يقول : (١)

صونوا لمصر تراثها من أوائلها وثروة من ثراها الحر تدخر

وعلموا علمها من ينفعون به سيان في العلم ذو مال ومفتقر

ويدعو المازني الشباب إلى التأمل وإعمال الفكر ، ومواصلة التعليم فإنه هو السبيل إلى الحياة الكريمة ؛ فيدعوهم إلى العمل الجاد لتحقيق ما بناه السلف الصالح يقول : (٢)

واسعوا سعيهم وإن علينا بعدهم أن نواصل الإسراء

لوقنعنا بسعي ماسبقونا ورأينا بما أفادوا اجتراء

لغدا خلُق كل هذي البرايا سرفاً بل سفاها وهراء

ويحث الشاعر كيلاني سند على العمل لترفرف السعادة على وجوه الناس وينعمون بالحياة يقول في قصيدته : « أغنية العمل » (٣) .

سنتعب يومين يا إخوتي وبعد سوف نجني الثمر

فترتفع الأفؤس المرهفات لنجعل صحراءنا تزدهر

ويَهمس من بينهم واحد . غرسنا ولم نجن غير الضرر

فيكزه آخر خلفه . . لقد كان والشعب في المنحدر

ولكننا حطمنا القيود ، فأصبحت حرا . . فأصبحت حر

وتسمع من خلفنا أغنيات ترددها حنجرات أخر

سنجني الثمر . . سنجني الثمر (٤)

---

(١) ديوان العقاد : المجموعة ص ٤٣٣ . (٢) ديوان المازني ص ٢٧٦ .

(٣) ديوان في العاصفة - ص ٦٦ عالم الكتب .

(٤) من مواليد محافظة أسيوط عاش مابين [١٩٢٥ - أول نوفمبر ١٩٧٩] حصل على درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية عام ١٩٧٤ ، وتحدث عن شعره د . محمد غنيمي هلال وله==

ويخصُّ الشاعر عزت شندي موسى الشباب على العلم واحترام العلماء وتشييد الحياة بالعلم والأخلاق ، يقول في قصيدته « المعلم » [١]

تقدَّمْ باحناء وحيي المعلما ... وكبِّرْ وعظمْ وَالْقَهُ مُتحشِّما
وأقبل على الكف الطهور مقبلا ... فحق علينا أن يُحَبَّ ويُلثما
ويكفيه من مجدٍ يتوج رأسه ... قيام رسول الله فينا معلمـا
ألاكل فَذٍّ في البلاد ونابهٍ ... مدين لمن أعطى الدروس وأفهما
وكل أريب أو أديب وشاعرٍ ... أسيرٌ لمن نمَّى الفنون وعلّما
وكل غني بالفضائل والحجى ... فقير لمن ربىّ النفوس وقوّما
وكل أمير أو وزير مصعّر ... أمام كبيركم للقيـاء ملعثما
تعهد فكر النشء حتى أناره ... وقد كان وهماً في دُجَى الليل مظلما
وروَّى بترياق المعارف موطنا ... وغذى بزاد العلم شعّاً وأطعما
وجاهد في نشر العلوم مثابرا ... وفنّ عقول الجيل صقْلا وغنما
وشيد بالأخلاق صرحا محصّناً ... وأسس بالفكر البناء ودعّما[٢]

إلى آخر القصيدة وهي طويلة تحث على الأخلاق الفاضلة والحرص على التعليم ، وبناء الحياة وتقدمها على أسس الأخلاق والعلم والعمل ، ويصور الشاعر محمود غنيم العاملين بكفاح وشرف وعرق على أرض مصر الخصيبة ؛ لينشروا الرخـاء بين ربـوعها ؛ فيصور الفـلاح في قصيـدة « راهـب الحقل » يقول في آخرها : [٣]

== مؤلفات في الأدب والنقد ودواوينه . « قصائد في القتال » و « في العاصفة » و « قبل ما تسقط الأمطار » و « في انتظار المطر »

(٢) مواكب الحياة : المجلس الأعلى للثقافة ص ١٩٧ / ٢٠٤ .

(٢) الدكتور الطبيب عزت شندي موسى رئيس نادي شعراء العروبة له دواوين منها : « مواكب الحياة » وديوان : « رحلة العمر » ، وديوان « مع الله ورسوله » الذي قدم له الدكتور عبد المنعم النمر وزير الأوقاف ، وديوان « مع الحيوان » وتحدث عن شعره النقاد .

(٣) ديوان رجع الصدى : محمود غنيم من ص ١٢٢ : ١٢٨ دار الشعب ١٣٩٩ / ١٩٧٩ وسنفصّل الحديث عن الشاعر وشعره .

بسط الراهب البتول يديه ... ودعا الله دعوة مستجابه
فإذا ثورة على الظلم إلى أن ... بعث الله من يرد اغترابه
راكع قائم على الأرض جاث ... فوقها في تبتل وإنابه
صلوات تحول الترب تبراً ... أجزل الله للمصلي ثوابه

ويقول في معجزة السد العالي الذي عم خيره علي البلاد طوال السنوات الماضية فلم تشكو مصر بعده ظمأ ولاجدبا ، بل ستظل ثرية غنية بمائها يقول في قصيدة : « معجزة السد » : (١)

هات ياشعر سحر هاروت هات ... صنع السد صانع المعجزات
كم رأى الناسُ من جمالٍ فعالا ... كلها من خوارق العادات
أيها السد ماعهدناك إلا ... مصدر اليمن مصدر البركات
مصر أم الفنون من سالف الدهـ ... ـر أروني كمصرَ في الأمهات
مابنت سدها بصخرٍ ومرو ... بل بنته بصادق العزمات
بجهود تحول التربَ تبراً ... وتبث الحياة في الفلوات
وتشيع الرخاء في كل واد ... وتصبب الفتى بكل الجهات
نسلنا من أكبادنا فلذاتٌ ... نحن نبني لهذه الفلذات
نحن نبني لنا ثراءً ومجداً ... ولأجيال بعدنا قادمات

وقد اهتم الشاعر محمد الهراوي بشعر الطفولة ، يحث فيه الآباء والأمهات علي تربيتهم تربية فاضلة ، تقوم على الخلق الكريم ، وهو يتتبع مراحلها ؛ فيعطي لكل مرحلة ما يتلائم معها من التربية والتعليم متأثرا بتعاليم الإسلام ، وخلق القرآن الكريم والسنة الشريفة ، والسيرة النبوية العطرة ، وذلك من خلال قصص شعري يتناسب مع عقل الطفل وعاطفته في مراحل نموه المختلفة (٢) .

---

(١) ديوان رجع الصدى : محمود غنيم من ص ١٢٢ : ١٢٨ دار الشعب ١٣٩٩ / ١٩٧٩ وسنفصّل الحديث عن الشاعر وشعره .

(٢) انظر كتاب الطفولة في شعر محمد الهراوي . دكتورة نادية أحمد مسعد المطبعه الإسلامية القاهرة ١٤١٥ / ١٩٩٥ .

وهاجم الشعر الحديث تبرج المرأة وسفورها ، ودعاها إلى الاحتشام وارتداء ثوب الحياء والعفة ، وان تحافظ على كبريائها وكرامتها بزينة الحجاب الذي يزيدها جمالا ووقاراً ؛ فقد حث القرآن الكريم على ذلك في سورة النور : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ ، فالخطاب عام موجه لنساء النبي ﷺ ولجميع المؤمنات ، وليس كما فسره أصحاب دعوى السفور والعري في تأويل بعيد عما يهدف إليه الإسلام من تكريم المرأة والحفاظ عليها من انحرافات المجتمع وسوء أخلاقه فقال شوقي : (١)

إن الحجاب سماحة ويسارة   لولا وحوش في الرجال ضواري
جهلوا حقيقته وحكمة حكمه   فتجاوزوه إلى أذى وضرار

وينكر الشاعر محمد عبد المطلب سفور المرأة ، ويدعو إلى الحجاب صونا لها وحفاظا على كرامتها يقول : (٢)

أهي التي فـرض الحجـا   ب لصونهـا شـرعُ الرسـول
جعـل الحجـاب معـاذهـا   مـن ذلك الـداء الوبيـل
يامنـزل القـرآن نـو   رٌ للبصـائـر والعقـول
عميت بصـائـر أهـل وا   دى النيـل عـن وضـح السبيـل

ويعارض الشاعر أحمد محرم السفور معارضة قوية فيقول : (٣)

إذا رأى الرأي لم تنكص غريمته   خوف الملام ولم يقعد به اللدد
رمى الحجاب فلولا الله يمسكه   لانشق أوطّارَ أوخرتْ به العمد
لتلك خطة سوء لست أحمدها   منه وإن رضي الجهال أو حكموا
كيف السلامة والأخلاق واهية   والجهل منتشر والشر متقد ؟
إنا نعيش بواد غير مؤتمن   تنزو القلوب به ذعراً وترتعد
تعدو الذئاب به والويل إن غفلت   عين الربيئة أو أغفى به الرصد

---

(١) الشوقيات ٤٧٠ / ٢ .   (٢) ديوان عبد المطلب : ص ١٨٤ .
(٣) ديوان أحمد محرم : ٦٤ / ٢

لو كان من قومنا شعب ملائكة ... قلنا أصبت فلا لومٌ ولا حرد
لم يبغ حين رمى شراً بأمته ... وإنما خانه رأي ومعتقد

ويرى الشاعر عبد الحليم المصري أن حجاب المرأة لايتعارض مع العلم ، ولايمنع من تلقيه ، فتتلقى العلم في قاعة المحاضرات مع زميلاتها وهي محجبة وفي بيتها يقول الشاعر : (١)

جعل الحجاب على الجهالة عذرها ... أكذا الحجاب على الذكاء بلاء ؟
ماخبرها لو عُلِّمَتْ في خدرها ... كم في الخُدُور مواهب وذكاء
والأمهات إذا تعلمت اهتدت ... أبناؤها وارتاحت الآبـاء

ويؤيد الشاعر أحمد الزين حجاب المرأة فيقول : (٢)

ليس الحجاب يعوق عن طلب العلا ... فيما أرى لكنها أوهام
قالوا السفور فقلت شعب جاهل ... والناس ماجهلوا فهم أنعام
إن السفور مع الجهالة محنة ... هل يدفع الأسد الهصور سوام
ها علموها وافعلوا ماشئتمُ ... فالعلم حصن لايكاد يرام
إما الحجاب أو السفور أردتُمُ ... والخير فيما اختاره الإسلام(٣)

وعارض الشاعر محمد الأسمر السفور مؤيدا الحجاب في قصيدته : « أين الزوجة » (٤) وكذلك الشاعر حسن القاياتي في قصيدته « تبرج النساء » (٥) ، وكانت الشاعرة ملك حفني أكثر محافظة على أنوثة المرأة ، فرأت أنها لاتخرج من بيتها ؛ لكي تحسن تربية أولادها في المنزل وهو دور كبير في بناء مجتمع قوي وصالح تقول :

مجـد الفتـاة مقـامهـا ... في البيـت لا في العمـل
والمـرء يعمـل في الحقـول ... وعرسـه في المنـزل

---

(١) ديوان عبد الحليم المصري : ٢٢ / ٢ .
(٢) ديوان الشاعر أحمد الزين ص ٢٨ .
(٣) ولد الشاعر أحمد أبو المعاطي الزين وعاش مابين عامي [١٣١٨ هـ / ١٩٠٠م - ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م] بقرية ميت نابت بمركز السنطة غربية وكان كفيفا حصل شهادة العالمية من الأزهر عام ١٩٢٤ عمل بالمحاماة ثم بدار الكتاب حتى توفي في التاسعة والأربعين من عمره جمعت دواوينه بعد وفاته على يد عبد الغني المنشاوي وبه ثماني عشرة أرجوزه في الاخلاق .
(٤) ديوانه : ص ٤٧٣ .
(٥) ديوانه : ص ٨ .

من للوليد يعينه في لبسه والمأكل
ويميط عنه أذى الهوى بتلطف وتجمل [١]

ويشيد هاشم الرفاعي بالأخلاق والقيم التي ينبغي أن يتحلى بها الشباب فيقول في قصيدته « شباب الإسلام » منها قوله : [٢]

ملكنا هذه الدنيا قرونا وأخضعها جدود خالدونا
شباب لم تحطمه الليالي ولم يسلم إلى الخصم العرينا
وماعرفوا الأغاني مائعات ولكن العلا صيغت لحونا
وقد دانوا بأعظمهم نضالا وعلما لابأجرئهم عيونا
فيتحدون أخلاقا عذابا ويأتلفون مجتمعا رزينا
فما عرف الخلاعة في بنات ولاعرف التخنث في بنينا [٣]

ويصور الشاعر محمد عبد الغني حسن مبادئ الإسلام التي يتمسك بها كل الأجيال فيقول في قصيدته « مبادئ ومبادئ » ، منها قوله : [٤]

بانت تباشير الصباح المنجلي ألق الستار على الظلام وأسدل
سارت مبادئهم وسارت خلفها أفعالهم في موكب متمثل
ليست مبادئهم حديث منمّق زيف اللسان ولا كلام مجمّل

وهكذا يمضي في عرض مبادئ الاسلام واحدة بعد الأخرى حتى نهاية القصيدة ، ومن مظاهر التصوير الشعري للحضارة الاسلامية الدفاع عن اللغة العربية لغة القرآن الكريم والشريعة الإسلامية والتراث الإسلامي والعربي الخالد ، وخاصة حينما بدأ الغزو الفكري في محاربتها بصور مختلفة ، مرة باللهجات العامية للأقاليم المختلفة في العالم الإسلامي ، حتى أنشأ أعداء الإسلام في الغرب

---

(١) آثار باحثة البادية : ص ٢٩٩ .

(٢) تعلم الرفاعي في الأزهر ثم التحق بدار العلوم لكنه قتل قبل أن يتخرج ولم يعرف قاتله وذلك في عام ١٩٥٩ جمع شعره في مجموعة كاملة وحققه الاستاذ محمد حسن بريغش .

(٢) المجموعة الكاملة لشعر هاشم الرفاعي ص ٣٨٣ .

(٤) ولد الشاعر بمدينة المنصورة عام ١٩٠٧ تخرج من دار العلوم عام ١٩٣٢ وتدرج في الوظائف حتى صار مفتشا عاما للّغة العربية بالمدارس الأجنبية وهو شاعر الأهرام وعضو مجمع اللغة العربية وله شعر كثير وتوفي في ٢٢ / ١ / ١٩٨٥ م .

والشرق معاهد لتدريس الهجات العامية في الشرق الإسلامي ، وألفوا كتبا في ذلك ، ومرة بالدعوة إلى إحلال اللغة التركية محل العربية ، ومرة بإحلال اللاتينية ومرة بخلط الألفاظ الأجنبية في الاستعمال مع العربية في الحياة اليومية ، ومرة في كتابة القصة والمسرحية وغيرها من الأجناس الأدبية المنشورة في الصحافة والمجلات والكتب العامة بدعوى الواقعية .

لهذا هب الشعراء والعلماء والنقاد يدافعون عن اللغة العربية ، ويهاجمون التيارات الهدامة للفصحى في جميع أنحاء العالم العربي ؛ فهذا هو الشاعر المغربي علال الفاسي في أقصى الغرب من العالم العربي ، يدافع عن فصاحة اللغة العربية في قصيدته : « المغرب واللغة الفصحى » يقول :(١)

إلى متى لغة القرآن تُضطهدُ ... ويستبيح حماها الأهل والولدُ
أما دروا أنها في الدهر عدتهم ... ومالهم دونها في الكون ملتحد
ولن تقوم لهم في الناس قائمة ... أو يستقيم لهم في العيش مانشدوا
إن لم تَتِمَّ لهم بالضاد معرفةٌ ... أو يكتمل لهم في الضاد مُعْتَقَدُ
وكيف يصوغون للأعداء تذكُرُها ... وأصل ماوصفوه الحقد والحَسَدُ
والقاذفون لها بالعجز ماجهلوا ... بأنها فوق ماظنوا وما اعتقدوا
تآمروا وأعدوا كل مدرسة ... بها قواعدُ الاستعمار تُقْتَعَدُ

إلى أن قال :

من ذا يُتَرجِمُ آيات الكتاب كما ... أدَّته ؟ هل لغةٌ في الأرض تُعْتَمدُ ؟
والضادُ تفخر أن أعيت مُعارِضها ... فكيف تُعجزها الآلات والعُدَدُ
وأنها البحر زخار بباطنه ... من الجواهر مايزهو به الأبد
أنى تضيق بمعنىً أو تنوءُ بها ... مرافقٌ أظهرتْها الأعصرُ الجدُدُ
هيوا بني الوطن الأسمى إلى عمل ... من شأنه الفوز للأوطان والرَّغد
وناصروا الضاد في كل المواقف إذْ ... من فوزها غايةُ التحرير تُمْتَهَدُ

---

(١) هو المجاهد المغربي علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال ورئيس المجلس التأسيسي توفي عام ١٩٧٤ والقصيدة من « المختار من شعر علال الفاسي » ص ١٣٣ .

وللشيخ محمد الخضر حسين ثلاث قصائد في اللغة العربية ، تصور ثورته على أعدائها حين وصفوها بالقصور والجمود يقول في قصيدة بعنوان : « فضل اللغة العربية » منها : [١]

فما أهوى سوى لغة سقاها ... قريش من براعتهم شهادا
أداروا من سلالتها رحيقا ... وهزوا من جزالتها صعادا
وطوقوها كتاب الله مجدا ... وزاد سنا بلاغتها اتقادا
تصيد بسحر منطقها قلوبا ... تحاذر كالجآذر أن تصادا
وهذا مجمع يحمي تلادا ... ويبني طارفا يحكي التلادا
كأن عكاظ عاد بها اشتياقا ... إلى الفصحى فكان لها معادا

ومن القصيدة الثانية منها قوله :

منيت بلحن واللسان ملحّن ... مالم ترضه علومها بلجام

وله قصيدة ثالثة أيضا في ديوانه « خواطر الحياة » كما أن للشاعر أحمد الزين قصيدة في اللغة العربية ، يتوجه بها إلى مجمع اللغة العربية وعنوانها : « تحية للمجمع اللغوي » منها قوله : [٢]

اليوم تبعث من أجداثها العرب ... ويزدهي مثل ماضي عهده الأدب
وتشرق الشمس في البيداء صافية ... من بعد ماطمست أنوارها السحب
لايخجلون حياء إن هم لحنوا ... فيها وفي سواها اللحن يجتنب
ماقصرت لغة القرآن عن غرض ... ولم يسوّد سواها كل مايجب
كم في معاجمها من طرفة عجزت ... عنها لغات الورى لو تكشف الحجب

ولشاعر العروبة والاسلام عضو مجمع اللغة العربية علي الجارم مطولة في اللغة العربية أطول القصائد التي قيلت فيها ، وإن كانت قد جاءت بعد قصيدة

---

(١)هو شيخ الأزهر في (١٣٧١ : ١٣٧٣ هـ) ولد في نفطة بتونس ١٨٧٤ وعمل بالتدريس فيها حتى رحل إلى مصر لاجئاً سياسيا عام ١٩٢٢ وعمل بالأزهر حتى صار شيخاً له واستقال من المشيخه عام ١٩٥٢ وتوفي في ١٣ رجب ١٣٧٧ الموافق ٢٢ / ٢ / ١٩٥٨ وله مؤلفات كثيره ، وشعر قوي كثير منها ديوانه « خواطر الحياة » التي منه هذه القصائد ص ١٣٦ ومابعدها .

(٢) ديوان أحمد الزين : ص ٢١ .

حافظ إبراهيم التي سنقف عندها بالدراسة الفنية ، وقد أنشدها الجارم في افتتاح دورة الانعقاد الثالث لمجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤ ، وهي بعنوان : « اللغة العربية » ومطلعها : (١)

ماذا طَحَا بك ياصنَّاجةَ الأدب ... هلا شدوْت بأمداح ابْنة العَرب
أطارَ نَوْمَكَ أحداثٌ وجَمْتَ لها ... فَبتَّ تَنْفَخُ بين الهمِّ والوَصَب
واليعربية أندى مابَعَثْتَ به ... شَجْواً من الحزن أو شدْواً من الطَّرَب
روحٌ من الله أحيتْ كلَّ نازعة ... من البيان وآنَتْ كلَّ مُطَّلَب
أزهى منْ الأمل البسَّام موقعُهاً ... وَجَرْسِ ألفاظها أحْلى من الطَّرب

إلى أنْ قال :

أنترك العربيَّ السمْحَ مَنْطقَهُ ... إلى دخيلٍ من الألفاظ مُغتَرب
وفي المعاجم كنزٌ لانفاذَ له ... لمن يميِّز بين الدرِّ والسُّخُبَ
كم لفظة جُهِدَتْ مما نكرِّرها ... حتى لقد لهثتْ من شدة التعب
ولفظة سجِنَتْ من جوف مظلمة ... لم تنظر الشمسُ منها عينُ مُرتقب
ياشيخة الضاد والذكرى مخلدةٌ ... هنا يُؤَسَّسُ ماتبْنون للعَقِب
هنَا تخطُّون مجداً ماجرى قلمٌ ... بمثله في مدى الأدهار والحقب

وهكذا حتى نهاية القصيدة التي بلغت أربعة ومائة بيت في بلاغة اللغة العربية ، وللجارم قصيدة أخرى عن اللغة العربية أهداها الشاعر إلى صحيفة دار العلوم في عام ١٩٣٤ لتنشر في أول جزء من أجزائها وعنوانها : « اللغة العربية ودار العلوم » منها قوله : (٢)

يا ابنة السابقين من قحطانِ ... وتراث الأمجاد من عدنان
أنتِ علمتِني البيان فما لي ... كلما لُحْتِ حار فيك بياني
رب حُسْنٍ يعوق عن وصف حُسْنٍ ... وجمالٍ يُنْسَى جمال المعاني
وأصوغ الشعر الذي يُفْزِع النَّجْمَ ... وتُصغِي لجرسه الشِّعْرَيان

---

(١) ديوان علي الجارم : ص ٣٢٧ : ٣٣٥ / ٢ .
(٢) ديوان علي الجارم : ٧٠ : ٧٦ / ١ .

يا ابنة الضاد أنت سرٌ من الحسـ ـن تجلّى على بني الإنسان
لغةَ الفن أنت والسحر والشعر ونور الحِجـا ووحي الجَنان

ويمضي الشاعر إلى نهاية القصيدة التي بلغت أكثر من ثمانين بيتا يصور فيها فصاحة اللغة العربية ، لغة الضاد والقرآن الكريم . وفي الاحتفال بتكريم الشاعر عزيز أباظه بمناسبة منحه جائزة الدولة التقديرية يقف الشاعر محمود غنيم يحييه ويهنئه على تقدير الدولة لبلاغة اللغة العربية في شعره ؛ فهي التي جعلته يستحق الجائزة في قصيدة بعنوان : « ناصر الفصحى » منها قوله :[1]

جاءتك مطرقة من شدة الخجل حذرا لها إن تكن جاءَتْ على مَهَلِ
عذراً لها أنها كانتْ مهرولةً لكن تكاثرت الأحجارُ في السُّبل
إن كان قلبك لم يخفق لمقدمها فقلبها خافق من شدة الجذل
أكرمْ بها في مجال الفخر جائزةً قد نالها بطلٌ من راحتي بطل
يا رافعاً أية الفصحى وباعثهـا من وحشة البدْو في زاه من الحُلَلِ
دعوت باللغة الفصحى إلى اللغة الـ ـفصحى فأيّدت قولَ الحق بالعمل
كأنما كان أوصاك الخليل علي تراثه أو نماك الأسود الدؤلي
إن الذي يشنأ الفصحى وينكرها يدعو على لغة القرآن بالشلل
هيهات تجمع يوما شملَنا لغةٌ بلا قواعد تحميها من الخلل
ماوحّد العُرْب كالفصحى فإن وَهَنَتْ فبشر القوم بالخذلان والفشل
إذا تكلف قول الشعر قائله فالشعر عندك طبعٌ غير مفتعل
هيهات ينضب نبعُ الشعر مابقيتْ حسناءُ توحي إلى العشاق بالغزل

ولأمير الشعراء أحمد شـوقي شعر في اللغة العربية والحفاظ على فصاحتها . جاء في ديوانه وملحمته « دول العرب وعظماء الإسلام » ولغيرهم .

---

(١) ديوان رجع الصدى : للشاعر محمود غنيم ص ١٧٨ : ١٧٩ مطابع الشعب القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها

لشاعر النيل «حافظ إبراهيم»

رَجعْتُ لنفسي فاتَّهمْتُ حصَاتي ... ونادَيْتُ قومي فاحْتَسبْتُ حيَاتي
رَمَوني بعُقْمٍ في الشباب وليتني ... عَقِمْتُ فلَمْ أجزَعْ لقول عُداتي
وَلَدْتُ ولما لم أجدْ لعَرائسي ... رجالاً وأكفاءً وَأَدْتُ بَناتي
وسعْتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً ... وما ضِقْتُ عَنْ آيٍ به وعظات
فكيف أضيقُ اليومَ عَنْ وَصفِ آلة ... وتَنْسيق أسماء لمُخْتَرَعات
أنَا البَحْرُ في أحْشائه الدُّرُّ كامنٌ ... فهلْ سألُوا الغوّاصَ عَنْ صدَفَاتي
فَيَا وَيحكُمْ أبْلَى وتَبْلَى محاسِني ... ومنكُمْ وإنْ عزَّ الدَّواءُ أساتي
فلا تَكِلُوني للزمـــان فإنّني ... أخافُ عليْكم أنْ تَحِينَ وَفَاتي
أرَى لرجالِ الغَرْبِ عِزاً ومَنْعةً ... وكَمْ عزَّ أقوامٌ بعِزِّ لُغَات
أتَوْا أهلَهم بالمعجزات تَفَنُّناً ... فيا لَيْتَكُمْ تأتُونَ بالكَلِمَات
أَيُطرِبُكم منْ جَانِب الغَرْبِ نَاعِبٌ ... يُنادي بوَأدي في رَبيعِ حَيَاتي
وَلَوْ تَزْجُرُونَ الطيْرَ يوماً عَلِمْتُمْ ... بما تحتَه من عَثْرة وشَتَات
سَقَى اللهُ في بَطْنِ الجزيرة أعظُماً ... يَعِزُّ عليها أنْ تَلِينَ قَنَاتي
حَفِظْنَ وِدادي في البِلَى وحَفِظْتُه ... لهنَّ بقَلْبٍ دائمِ الحَسَرَات
وفاخَرْتُ أهْلَ الغربِ والشرقُ مُطرِقٌ ... حياءً بتلكَ الأعظُمِ النَّخِرَات
أرَى كلَّ يومٍ بالجرائد مَزْلَقاً ... منَ القبرِ يُدْنيني بغَيرِ أناة
وأسْمعُ للكُتّابِ في مصرَ ضَجَّةً ... فأَعْلَمُ أنَّ الصَّائحين نُعاتي
أيَهجرُني قَوْمي عَفَى اللهُ عَنْهُمُ ... إلى لغة لَمْ تَتَّصِلْ برُوَاة
سَرَتْ لُوثةُ الافرنج فيها كما سَرَى ... لُعابُ الأفاعي في مَسِيلِ فُرات
فجاءتْ كثَوْبٍ ضَمَّ سبعين رُقْعةً ... مُشَكَّلةَ الألوان مُختَلِفات
إلى مَعْشَرِ الكُتّابِ والجمعُ حافلٌ ... بَسَطْتُ رجائي بَعْدَ بَسْطِ شكَاتي
فإمّا حَيَاةٌ تَبْعَثُ الميتَ في البِلَى ... وتُنْبِتُ في تلكَ الرُّمُوسِ رُفاتي

وإما مماتٌ لاقيامةَ بَعْدَه   مماتٌ لَعَمْري لمْ يُقَسْ بِمَمَات (١)

ترجمة تاريخية عن الشاعر حافظ إبراهيم :

في ديروط إحدى المراكز التابعة لمحافظة أسيوط بمصر ، ولد حافظ إبراهيم في ٤ من فبراير عام (١٨٧٢ م - ١٢٨٨ هـ) من أب كان يعمل مهندساً ، ولم يطل عمره ، حتى وافته المنية تاركاً ابنه ، يناهز العامين من ولادته ، ثم رحلت أمه به إلى طنطا ؛ فاتصل بطلاب معهد طنطا الديني الذين عشقوا الأدب ، فتدارس معهم الشعر والأدب ، وحفظ الكثير من التراث الأدبي لشعر الفحول .

ثم التحق بالمدرسة الحربية ، حيث تخرج ضابطاً منها ؛ ليعمل في الجيش ويسافر مع الجيش المصري إلى السودان ، يجاهد في سبيل الوطن العربي والإسلامي للدفاع عن السودان .

ثم عاد إلى مصر ؛ ولكنه لم يمكث طويلاً بعد عودته ، حتى أحيل إلى المعاش ؛ ليتمكن من العمل الذي يتفق مع ميوله الأدبية ، ليعمل محرراً في جريدة « الأهرام » ، التي يسرت له نشر قصائده الشعرية ونثره الأدبي ، فعم ذكره وذاع صيته ، واتسع جمهوره ؛ فكان ذلك دافعاً قوياً لهذا التفوق ، ولقب (بشاعر

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ٢٥٣ : ٢٥٥ / ١ ، شرح المفردات : حصاتي : أحصى عقل عقلا ، احتسبت حياتي : جعلتها فداء ، رموني : أصابوني ، بعقم : يبس الرحم فلا ينجب والمراد لغة جافة لاحياة فيها وعقمت : انتهت واندثرت ، عرائس : جميلات والمراد بلاغة اللغة ، وأدت : دفنت حية ، وسعت كتاب الله : اتسعت له فأصبحت به معجزة خالدة ، لفظا : بلاغة ، غاية : تشريعا وأخلاقا ، لا أضيق : لا أتسع فهي جامدة لاتنقاد لألفاظ المخترعات الحديثة ، أحشائه : ما احتواه الجوف والمراد أعماق اللغة ، الدر : الثمين والمراد البليغ ، الغواص السباح وهو الخبير باللغة ، صدفاتي : المعادن الثمينة وهو بلاغة القول وسحره ، ويحكم : كلمة استرحام وهو الانقاذ من الهلاك ، أبلى : أفنى ، عز الدواء : قل فلايوجد من يحمي اللغة ، أساة : أطباة وهو المدافع عنها ، تكلوني : تهملوني ، أيطربكم : أيعجبكم ، ناعب : نذير شر ، تزجرون الطير : وهي التكهن والمراد التشاؤم من هدم اللغة ، سقى الله : دعاء بالحفاظ عليها ، أعظما : رفاة الأجداد الذين صانوها ، تلين قناتي : ضعف اللغة ، ودادي : تعاطفي ، النخرات : الباليات ، مزلقا : مهوى تموت فيه ، بغير أناة : بسرعة ، لم تتصل براوة : انقطعت صلتها بالتراث ، لوثه : خلط وحمق وهو ضعف اللسان عن الافصاح ، سيل فرات : موضع الماء العذب ، ثوب مرقع : مهلهل ، شكاني : استغاثني ، الرموس : القبور ، الرفات : جسد بلا روح والمراد غير بليغة . نشرت القصيدة عام ١٩٠٣ .

النيل) وهو يعمل في حقل الصحافة والأدب ، وكان لها شأن كبير في عصره ، حيث خرجت أعلاماً في الفكر والعلم والأدب .

لذلك كان حافظ يلتقي بكبار الشعراء والأدباء والنقاد والمفكرين في عصره ؛ ويغشى مجالسهم ، منهم الشيخ محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وعبد العزيز البشري ، وخليل مطران ، وعبد الوهاب النجار ، وأحمد شوقي ، وعباس محمود العقاد ، وإبراهيم المازني ، وعبد الرحمن شكري وغيرهم .

قال المازني : « كنا نلتقي بحافظ من حين إلى حين في مقهى أمام دار الكتب ، ونتحدث في المذهب الجديد في الشعر ، وأن الأدب فرع من شجر الحياة ، وأن التقليد يفسده ، وأن الأديب يجب أن ينظر بعينيه ، ويفكر بعقله ويحس بقلبه ، وأن يكون ـ قبل كل شيء . . . وفوق كل شيء ـ مخلصاً إلى آخر هذا ؛ فيوافقنا حافظ » .

ويقول أيضاً ولم يكن لحافظ من الثقافة المدرسية . . . حظ كبير ؛ لأنه كما عرفت تعلم في المدارس الابتدائية ، ثم في المدرسة الحربية ، أما المدارس الثانوية ؛ فلم تطل بها إقامته ، على أن المناهج وقتئذ لم تكن مهذبة كفيلة بتخريج الرجل المثقف ، غير أنه كان يغشى مجالس العلماء والأدباء والشعراء » .

واتخذ حافظ محمود سامي البارودي رائداً له في الشعر وقدوة يقتدي به في ديباجة الشعر ، وروعة الأسلوب ، وفخامة اللفظ ، لكن حافظاً يتميز عنه بأنه كان ملماً باللغة الفرنسية ، التي مكنته من الإطلاع على الأدب الفرنسي ومعرفة فنونه ، ومن آثار ذلك كتاب (البؤساء) الذي ترجمه إلى العربية للكاتب الفرنسي فيكتور هوجو ، هذا بالإضافة إلى ديوانه في الشعر العربي المعروف باسمه .

واختتم حياته بالعمل في دار الكتب المصرية رئيساً للقسم الأدبي فيها (عام ١٣٢٩ هـ ـ ١٩١١ م) وظل يعمل بها إحدى وعشرين سنة تقريباً ،حتى وافته المنية (عام ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م) رحمه الله تعالى وجزاه عن العربية والإسلام خير الجزاء .

عوامل شاعريته :

١ ـ نشأ حافظ يتيماً بائساً ، تركه أبوه وهو في سن الثانية من عمره فأحس بالبؤس والحرمان ، مما فجر شاعريته ؛ فصور البؤس في أقسى مظاهره ، ودعا إلى العطف على البائسين والبر بهم ، ونظم القصائد في ذلك مثل : إغاثة المكفوفين والدعوة إلى البر والإحسان ، وفي رعاية الطفل ، وفي الجمعية الخيرية الإسلامية وسواها في تصوير البؤساء والعطف عليهم .

٢ ـ كان حافظ من طبقة الشعب الذي ذاق حلو الحياة ومرها ، على العكس من الشاعر أحمد شوقي ، الذي كان ربيب الخديوي ومترف القصر يتقلب في النعيم ، لذلك لقب حافظ بشاعر الوطنية وشاعر الشعب ، وشاعر السياسة وشاعر المجتمع ، وكان يلوم المصريين على تخاذلهم أمام العدو الجاثم على صدر الوطن العربي .

بل شمل شعره الإسلامي الشرق كله ، وذلك في قصائد : سورية ومصرية وسودانية الخ وقصيدة نهضة الخلافة الإسلامية ، وقصيدة وحدة الشرق وتعاونه (١).

٣ ـ ويرجع اصطباغ شعره عن الأمة والوطن إلى نشأته العسكرية ؛ فقد كان جندياً في الجيش يدافع عن الشعب بالسلاح وبالقلم والشعر جميعاً ، لذلك غلب على شعره الدفاع عن قضايا الأمة الاجتماعية والسياسية والقومية ؛ فظهرت على يديه أغراض لبست ثوباً جديداً ، وأغراض مستحدثة مثل الشعر السياسي ، والشعر الاجتماعي والشعر الوطني .

٤ ـ كان لثقافته الفرنسية أثر في تكوين فكره وثقافته ، وإن لم تظهر في المضمون ولا في الشكل ظهوراً مباشراً كما في شعر زميله الشاعر أحمد شوقي أمير الشعراء .

٥ ـ عكوفه على التراث الأدبي القديم ، فحفظ الكثير من أشعاره ، ثم جاري الفحول من الشعراء القدامى في الألفاظ والأساليب والصياغة والنسج ، مثل بشار وأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء المعري وسواهم .

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٥ ، ٦ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٥٣ ، ٦٦ ، ٨٩ ، ٩٧ وغيرها .

٦ ـ كان حافظ معجباً بالبارودي وإسماعيل صبري ، وذكر فضل البارودي عليه وعلى الأدب الحديث ، فاختار الجندية كما اختار البارودي وآثر الجزالة والفحولة كما آثرها ، وثار على الحكم كما تمرد البارودي قبله .

٧ ـ اشتغاله بالتحرير في صحيفة الأهرام التي يسرت له ذيوع شعره ونشره فشجعه ذلك على تهذيب شعره والتكثّر منه .

٨ ـ إشرافه على القسم الأدبي في دار الكتب المصرية ، الذي مكنه من التخصص في الشعر والأدب ، ومن التفرغ لفنه الأدبي ، ومن الاتصال بالأدباء والشعراء والمفكرين .

شـرح الأبيــــات :

البيت الأول : جرد الشاعر من اللغة العربية نفساً تتحدث عن شخصها وتنعي حظها وترثي حالها .

تقول : حينما تخرت العامية في أعصابي ، وفسدت الألسنة بأخلاط اللغات الغربية ، وتبدلت الفصاحة المشرقة بالعي الداكن ، فتشت عن الأسباب في نفسي ، فاتهمت عقلي بالتقصير والسقوط ، وهنا تستغيث بالأمة وتقول : وكيف أكون كذلك ، وقد جعلت حياتي لخدمة الأمة ابتغاء مرضاة الله عز وجل .

من ٢ ـ ٦ : إنهم رموني ظلماً بالجمهود والتحجر ، مع أنني دائماً أزهو بين اللغات بالفصاحة والبلاغة والمرونة ، وياليتني لغة ميتة جامدة لكي لا أحزن من شماتة الأعداء التي تلاحقني في كل عصر ، وعلى الرغم من ذلك فإنني مع كل يوم يظهر سحر من سحري وسر من أسراري ، يحتاج إلى رجال يحفظونه وأكفاء ينزلونه قدره ، ولما لم أجد واحداً من ذلك انطفأ بريق سحري ، واختفت أسراري الجميلة فيهم ، لتظل باقية حية في كتاب الله عز وجل ، الذي اتسع لألفاظ من بحري الغزير فسلكها في أسلوب معجز ، يحمل بين طياته أهدافاً سامية وغاية نبيلة ، ونسقها في نظم بديع ، يضم في حواشيه تشريعاً محكماً وأخلاقاً فاضلة ، ولم تجف ينابيعي الثرة مع الذي خلقني سبحانه وتعالى .

فكيف اليوم أضيق بصنع المخلوقين ، الذين عجزوا عن تطويع كلماتي لمخترعاتهم وآلاتهم ، ولو فتشوا عن العلماء والبلغاء ، وبحثوا في التراث القديم ، لوجدوا في أعماقه مايحتاجه العصر من مصطلحات وأساليب وصور

تتناسب مع كل جديد طارئ وحديث مبتكر .

من ٧ ـ ١٠ : وتستغيث اللغة العربية بقومها ، وتسترحم الناطقين بالضاد وتستجلب عطفهم ؛ لأنها أخذت تذوي بينهم شيئاً فشيئاً ، حتى فنيت محاسنها وذهب بريق سحرها ، ومهما أدلهم الخطب ؛ فلن يكون ذلك ؛ لأنها تعيش بين حماتها وحملة لوائها ، والمدافعون عن الدين التي أفصحت عنه بألفاظها ، وإلا عبث الزمان بها . وتصرف فيها بحوادثه ، وحينئذ تموت ، وتتجمد الألسنة ويذهب أصحابها ، ويندثر تراثهم ، لتقوم على أنقاضه لغة الغرب ، وتسيطر بها على الشعوب ، الذين دفنوا لغتهم بأيديهم وحينئذ يكون لرجالها عزاً ومنعة كيف لا ؟ وعزة الأمم في لغتها وتراثها .

لقد حقق الغرب بلغتهم وتراثهم المعجزات ، بينما عجزت الأمة العربية في هذا العصر عن مواكبتها في النهضة ، بل عجزت عن مجاراتها بلغتها العربية الفصيحة .

من ١١ ـ ١٢ : لقد خدعكم الغرب بالعسل المسموم ، حين أضفى على لغته السحر والحيوية والمعاصرة ، لكي يدفن لغتكم الحية ، ويغبر وجهها المشرق بالتراب ، إنها صيحة تنذر بالشر ، وتهدد بالدمار ، وإن لم تصدقوا فاجزروا الطير ، فإنه مع عجمته ، سيفصح لكم عن سم الأفاعي الذي ينخر في أعصاب الأمة ، ويشتت شملها ويقضي على لغتها ، فتذل وتنهار ، بينما أهل الغرب يعتزون بلغتهم ويحيون بتراثهم .

من ١٣ ـ ١٥ : أين أنتم اليوم من آبائكم وأجدادكم بالأمس ، أظلّهم الله بسحائب رحمته ، وفجر عليهم بطن الأرض برضوانه ، فقد جاهدوا خلط اللسان ، وضعف التعبير ، فحفظوا لغة تراثهم ، وبلاغة لسانهم عشقاً وحباً لذلك حفظتهم اللغة ، وحفظت لهم جهودهم وكفاحهم وهي تتمنى اليوم في حسرة وألم أن يبعثوا مرة ثانية ؛ ليعيدوا إليها مجدها القديم ، وعزها التليد .

وبهؤلاء الحماة تفاخر اليوم الغرب والشرق ، وهم تحت التراب وتنحني لهم إجلالاً وتقديراً ، وهم عظام نخرات .

من ١٦ ـ ١٧ : تستيقظ اللغة العربية مفجوعة كل صباح ، لتلك الأخطاء الفادحة في الصحف والمجلات ، فتهوي بسرعة إلى الفناء والدمار ، ولاتسمع من

النقاد والكتاب إلا ضجة جوفاء ، تودعها في حزن وأسى إلى مقرها الأخير .

من ١٨ ـ ٢٠ : عفا الله عن العرب الذين هجروا لغتهم إلى لغات أخرى تتنافى مع أذواقهم العربية ، وتتجافى مع أصالتهم العريقة ، وتصطدم مع فطرتهم السليمة ، لأنها سرت فيها لكنه العجم ، وأخلاط الغرب وذهبت ببريقها وأفسدت بلاغتها ، كما أذهب سم الأفاعي عذوبتها فكان غصة في الحلق .

أصبحت لغة العرب التي اختلطت بغيرها مهلهلة ضعيفة كالثوب المخروق المرقع ، الذي ضم أشتات الرقع من هنا وهناك ، لتذهب بنسجه المتلاحم ، وتبدد تنسيقه المتجانس .

من ٢١ : ٢٣ : ثم تضرع اللغة العربية إلى الله تعالى وتستغيث به ، بعد أن ضجت بالشكوى ، ونعت حظها ، وهي تناجي الكتاب ، وترجو النقاد أن يحفظوا بهاءها ، وأن يصونوا جمالها ، ليبعثوا فيها الحياة بعد أن فنيت ، ويبثوا الروح في رفاتها بعد أن بليت ؛ فإن حياة الأمة في حياتها وعز القوم ومجدهم في عزها ومجدها ، وإلا لماتت ، والويل لهم ، فإنهم سيذلوا إذا ماتت ، ولن تقوم لهم قائمة ، لأن موتها مرير يفني به عز القوم وتراثهم المجيد ، ولن تموت اللغة العربية أبداً لأن الله خلدها بالقرآن الكريم :

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ . . .

الغرض من القصيدة :

تناولت هذه القصيدة غرضاً شعرياً من أغراض الشعر العربي القديم وهو الرثاء ، ولاشك أن هذا الغرض قديم قدم الشعر ، حين وقف بجوار الأغراض الأخرى من المدح والفخر والحماسة والغزل وغيرها ، ولكنه مر بأطوار مختلفة يلبس في كل طور زياً يختلف عن سابقه .

فقد كان الرثاء قبل ابن الرومي والبحتري ، يضم مفاخر الميت ومآثره وأمجاده في حياته بأفعال ماضية وماشاكلها ، تدل على أن صاحبها قد ذهب بالأمس وانطوت صفحات حياته ، فالرثاء على هذا المنهج مدح شخصي لفرد معين ذهب وانتهى أمره .

أما ابن الرومي ومن معه فقد ألبس الرثاء ثوباً جديداً حين نقله من المدح لأفراد ماتوا والثناء على أشخاص ذهبوا ، إلى تمجيد تراث لأمة ذهبت وحضارة

ولّى أصحابها ، ومازالت آثارها باقية على صفحات الزمن ، وبين طيات التاريخ بعد أن تخلص في القصيدة من المطالع والمقدمات التي تصدرت المرثية القديمة وظهرت هذه اللمسات الجديدة في مرثية البصرة لابن الرومي وسينية البحتري التي رثى بها حضارة الفرس الذاهبة ، وعارضها الشاعر أحمد شوقي بسينية أخرى في حضارة العرب بالأندلس .

وأما قصيدة حافظ إبراهيم التي معنا فقد نهج فيها الشاعر منهج الشاعرين في رثائهما للحضارات ، فقد رثى حافظ اللغة العربية التي تموت بين حماتها وينزف لسان القوم دماً وهم يفزعون لهولها ؛ فهي تدخل في فن الحضارة الإسلامية والتمجيد بتراث الأمة وأصالته ، وعلى ذلك فهي غرض من أغراض الأدب الإسلامي الحديثه : « الحضارة الإسلامية » .

لكن رثاءه مع هذا التوافق والإنسجام يختلف مع رثاء الشاعرين ، ويأخذ مأخذاً جديداً من زوايا أخرى تلبسه نوعاً من الجدة وهو أن حافظاً تحدث عن حضارة اللغة العربية وهي باقية ، ومازال حماتها باقون وسيزالون وإن أصابهم ضعف أو وهن في عصر ، فسيعودون إلى مجدهم في بقية العصور ؛ لأن حضارة اللغة والإسلام ستظل باقية إلى قيام الساعة ، لأنها تقوم على تشريع من قبل الله عز وجل ، وهذا هو سر الخلود ، أما حضارة الفرس فقد ولت وذهبت ، لأنها لم تقم على أسس سليمة من العقائد الصحيحة ، وهذا سر فنائها ؛ فلم يبق منها إلا آثار باقية مصورة على جدران إيوان كسرى .

كما أن حافظاً جرد من اللغة العربية إنساناً يتحدث عن نفسه ، ويدافع عن شخصه ، ويذود عن حماه ، ليقاوم اللغة في الشرق وفي الغرب بينما كان صنيع البحتري مختلفاً عن ذلك فتحدث الشاعر بنفسه عن حضارة الفرس ، وبهذا قد لبس هذا الغرض عند حافظ ثوباً جديداً ، فاصبح غرضا من أغراض الشعر الإسلامي ، وهو فن « الحضارة الاسلامية » .

مدرسة حافظ إبراهيم الفنية :

أدت حركة البعث الشعري في العصر الحديث إلى نشأة مدارس فنية كثيرة تختلف في اتجاهاتها وخصائصها وأهدافها ، وتميزت مدرستان كبيرتان ، وهما :

أولاً : مدرسة المحافظين :

وهم الذين حافظوا على الجزالة العربية ، والرصانة في التعبير وإحكام النسج ، وفحولة الألفاظ ، ومعاودة الأغراض الشعرية القديمة ، والخيال التقليدي بصورة الجزئية المألوفة في أزهى عصور الأدب القديمة ، وتقصد من ذلك أن تعود بالشعر بعد الضعف الذي أصابه إلى رقة البحتري ومهيار الديلمي وفحولة أبي تمام والمتنبي وابن الرومي وأبي العلاء المعري .

وهذه المدرسة أخذت اتجاهين متمايزين :

أ- الإتباعية القديمة :

وعكف الشعراء فيها على التراث الأدبي والنقدي القديم في أزهى عصور الشعر العربي ، فقلدوا بشاراً ، وأبا نواس ، وأبا تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومي ، والمتنبي ، ومهياراً ، وأبا العلاء المعري ، والشريف الرضي وسواهم ، وذلك في الأغراض والموضوعات والأساليب والصور والخيالات .

ومن أشهر الشعراء في هذا الاتجاه من العراق عبد الغفار الأخرس (١٢٢٠ ـ ١٢٩١ هـ) ، ومحمد سعيد الحبوبي النجفي (١٢٦٦ ـ ١١٨٢ هـ) وحيدر الحلي (١٢٤٦ ـ ١٣٢٣ هـ) .

ومن المملكة العربية السعودية البيتي (١١١٠ ـ ١١٨٢ هـ) وجميل حسن مقادمي (١٣٢٢ ـ ١٣٤٨ هـ) ، وحامد دمنهوري (١٣٤٠ هـ) . وحامد كعكي (١٣٢٣ ـ ١٣٧٩ هـ) وسواهم .

وفي مصر الساعاتي والغاياتي والعطار والبارودي ومحمد عبد المطلب والرافعي وإسماعيل صبري وسواهم .

ب- الإتباعية الجديدة :

وهي التي حافظت على الألفاظ والأساليب والديباجة الشعرية والوزن والقافية على النحو القديم ، ولكنها جددت في الموضوعات والأغراض ، والفن الشعري كالشعر القصصي والمسرحي ، ثم تصرفوا في معاني العصر وأخيلته الجديدة وصوره المبتكرة .

وذلك مثل الزهاوي والرصافي والصافي النجفي ، ومحمد رضا الشبيبي من العراق .

ومثل أحمد إبراهيم الغزاوي ، وعبد الوهاب آشيء ، وحسين سرحان وحسن عبد الله القرشي وغيرهم من المملكة العربية السعودية .

ومثل حافظ وشوقي ومحرم وعلي الجارم وغيرهم من مصر والشام وبلاد المغرب .

ثانيا : مدرسة المجددين :

وهم الذين ثاروا على منهج القصيدة التقليدية ، فجددوا في المنهج والمضمون والشكل ، والقيم الفنية الجديدة .

وفي مقدمة هؤلاء جبران خليل جبران والريحاني وأبو ماضي من المهجر وخليل مطران وعمر أبو ريشه وسواهما من الشام .

وحسين عرب ، ومحمد حسن عواد ، ومحمد حسن فقي ، وإبراهيم فلالي ، وأحمد جمال ، وعزيز ضياء وسواهم من السعودية .

والعقاد والمازني وشكري وأبو شادي وابراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود غنيم وإبراهيم نجا والأسمر والزين وسواهم من مصر .

« الخصائص الفنية في القصيدة »

أولاً : التصوير الأدبي :

- الألفاظ والأساليب :

سار حافظ إبراهيم على نهج البارودي في أسلوب القصيدة واختيار ألفاظها بعد أن استظهر كثيراً من الشعر العربي القديم ، وتأثر بما حفظه من الشعر الرصين .

فكانت ألفاظ شعره تتسم بالجزالة والفحولة والقوة مع العذوبة والرشاقة والمواءمة بين اللفظ والمعنى ، ثم فصاحة الكلمة وسلامة إعرابها واشتقاقها اللغوي ، وقربها من العقل والذوق معاً ، ولو استعرضت ألفاظ القصيدة لوجدتها كذلك في الغالب مثل اتهمت ـ حصاتي ـ احتسبت ، رموني ـ بعقم ـ أجزع ـ عرائس ـ وأدت ، وهكذا في كل بيت حتى آخر القصيدة .

وإن كان حافظ قد تردى في بعض الأخطاء التي كان ينبغي أن يترفع عنها ، وهو من أشعر شعراء العصر الحديث ، منها كلمة (الجرائد) فإنها تتنافى

مع غرضه من القصيدة وهو الحفاظ على الفصحى ، فليست كلمة عربية بل غريبة عليها دخيلة تشوه وجه الفصحى والقصيدة معا ، وكان من الممكن أن يأتي بمثل معناها في اللغة وهي كلمة صحيفة ، وكذلك كلمة (الإفرنج) فهي كلمة غريبة عن لغة العرب الفصحى ، وخاصة في هذا المقام ولها بديل في لغتنا الغنية مثل كلمة الغرب ، أو الأجنبي ، أو أعداء العرب إلخ وكذلك كلمة المعجزات التي هي من صنع البشر فهذه مبالغة ، فليس ما حققه من نظريات بمعجزة ، إن النظريات تقوم بعضها على بعض يهدم الجديد منها ماسبق من أخواتها والمخترعات متغيرة من حال إلى حال ، وليست بمعجزة ، لأن المعجزة خالدة لاتتغير ولاتتبدل .

وأما الأسلوب فيأتي تبعاً للكلمات فترى في قصيدته أسلوباً محكماً وعبارات رشيقة ، ونظماً رائقا ، وتراكيب رصينة وصدقاً في الفطرة ، وسلامة في التعبير ، وصحة في الإعراب ، وذلك في مثل قوله ، ، ، فاتهمت حصاتي واحتسبت حياتي ، رموني بعقم الشباب ، ولما لم أجد لعرائس ، وأدت بناتي ، أنا البحر في أحشائه الدر كامن ، وهكذا في كل بيت غالباً . . .

ولكني آخذ عليه بعض هنات في أسلوب القصيدة أيضاً منها :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ، والصحيح أن كتاب الله هو الذي اتسع لها حتى أخذت بسببه منزلة عالية وشريفة ، فلولا كتاب الله المعجز لما خلدت هذه اللغة بالصورة التي هي عليها ، كما أن اللغة إن اتسعت للقرآن لفظاً فلا تتسع له غاية وتشريعاً ، لأن التشريع والأخلاق في القرآن الكريم ليس من طبيعة اللغة جدة وحيوية ومرونة في الاستعمال والتطويع للمعاني والأغراض الجديدة .

وكذلك قوله : وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرقاً حياء بالنصب ، فإن الفخر يقتضي أن يكون الإنسان مرفوع الرأس لا مطرقاً ، شامخ الهامة لا منكساً ، فلا مكان للإطراق والحياء هنا بل عزة وترفع وإباء وشموخ وتطاول إلى عنان السماء بمفاخرنا وأمجادنا ، الذين حفظوا لنا تراثنا المجيد ولغتنا العزيزة الخالدة . اللهم إن كان الشاعر قد رفع الشرق على الاستئناف[1] ومطرق خبر له

---

(١) حيث جاءت مطرق مرفوعة في نسخة أحمد أمين ومن معه جـ ١ ص ٢٥٤ .

(والشرق مطرقٌ) ويكون المعنى جائزاً ، والتقدير : أن اللغة فاخرت أهل الغرب أما الشرق فهو مطرق خجلاً من تقصيره نحوها وتهوينه من شأنها ، وهذا المعنى جائزاً والتقدير : وإن كان بعيداً لأن مفاخرة اللغة لاتقتصر على الغرب دون الشرق ، بل ينبغي أن يكون الفخر أمام الغرب . . والشرق على السواء .

الصور الأدبيـــة :

حلق الشاعر بخياله مع القدماء في خيالهم ، فقد استمد صوره الجزئية من الخيال العربي القديم والأصيل ، فترى التشبيهات القديمة في قوله : أنا البحر وسرت لوثة الإفرنج كما سرى لعاب الأفاعي في مياه فرات ، وجاءت كثوب ضم سبعين رقعة .

والاستعارات القديمة مثل قوله : فاتهمت حصاتي - رموني بعقم ، ولم أجد لعرائس ، وأدت بناتي ، في أحشائه الدر كامن ، عن صدفاتي ، ينادي بوأدي في ربيع حياتي ، سقى الله أعظما ، تلين قناتي ، ، ، وهي صور حزينة قاتمة تتناسب مع الحزن والألم كما ترى .

ولاتجد في الخيال جديداً إلا في جانب واحد فقط ، وهو التشخيص الذي أعطى للقصيدة جدة وابتكاراً ، حيث جرد من اللغة إنساناً يتحدث عن نفسه وينعي حظه ، ويرثي أحواله في مرارة وأسى ، ويظهر ذلك في مطلع القصيدة :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي   وناديت قومي فاحتسبت حياتي

فقد رجعت اللغة تبحث عن أسباب ضعفها ، فاتهمت عقلها ، واستغاثت بقومها ، واحتسبت أجرها عند الله تعالى .

ثم ولدت عرائس اللغة ووأدت بناتها ، ووسعت كتاب الله ، وحفظت للقدماء الوداد لهم بقلب دائم الحسرات ، وفاخرت الغرب والشرق في حياء ، ورأت الأخطاء في الصحف كل يوم ، وسمعت ضجة الكتاب وصيحاتهم وأخيراً بسطت إليهم إليهم كف الرجاء والأمل في أن يحافظوا عليها ، ويصونوا تراثها .

التصوير الموسيقي :

اختـار الشاعر بحـراً طويـلاً ممتداً يتناسب مع معاني الحضارة الإسلامية تفصيلا ورحابة وإطنـابا في التعبير ، ودل على هذا كثرة حـروف اللين التي شاعـت بين ألفـاظ القصيدة مثـل (نفسي - حصائـي - قومـي - حياتـي - رمـونـي - وليتني - عداتـي - عرائسي - بنـاتي - كتـاب الله - وغـايـة ، آي وعظات . .) وهكذا فـلا يخـلو بيت من ثلاثة حروف على الأقل ، وهذا يؤكد لك مدى الحـزن العميق الـذي يشتمل عـلى الآهـات والأنـات ، وإذا أضفت إلى هذا امتداد القافية - حيث طال النفس فيها ، فاشتملت لوحدها على حرفي لين يتضـح لك مـدى الأسى والحزن العميق مثل : « حياتي . . . » وأنك لتجد في المطلع من التقسيم الموسيقي مايهز المشاعر ، ويحرك الوجدان ، ويفتح مغالق النفس لتستقبل معاني القصيدة وهي متلهفة ، حتى تأتي على آخرها ؛ لذلك كان حافظاً يتميز بحسن المطالع ، فاستهوى بذلك جمهوره وقراءه وكثيراً ماكانوا يسمعون منه الشعر في ندواته ومحاضراته ، انظر إلى هذا التقسيم في المطلع في قوله :

رجعت لنفسي - فاتهمت حصاتي - يقابلها على نفس النسق والتقسيم الصوتي :

وناديت قومي . . . . واحتسبت حياتي

عناصر التصوير الأدبي :

تلاءمت عناصر التصوير الأدبي مع معاني الرثاء في القصيدة . فترى الحركة بطيئة حزينة متثاقلة الخطى كالشأن فيمن يتأملون ويحزنون ، في كثرة حروف اللين ، والشدات ، والتنوين وهو نون زائدة ، يصور لك مدى البطء في الحركة والتثاقل فيها ، وذلك في طول النطق لحرف اللين والتوقف في الشدات والتأخر عن العجلة بسبب النون الزائدة في التنوين .

وترى اللون القاتم في القصيدة ، وذلك في « قسوة الاتهام والعقم والجزع والوأد والضيق - والبلى والأسى والوفاة ولعاب الأفاعي » وهكذا الخ .

وترى القتام في « الأحشاء ، وكامن ، والغواص ، والدواء ، وناعب ،

والزجر والعثرة وبطن الجزيرة والحسرات والحياء والإطراق والثوب المرقع وشكل الألوان والشكوى » وهكذا .

وتشعر بالطعم القاتل في مرارة « السم ، والبلى ، والرفات ، والموت ، وتشم رائحة العرس ، والدواء والرموس » .

وهكذا نجد عناصر الصورة الأدبية أعطت للتصوير الأدبي جدة وحيوية تحرك العاطفة وتأخذ بمجامع القلب ، وتلاءمت مع الألفاظ والمعاني والصور والأخيلة مما يحقق في القصيدة الوحدة الفنية .

المعاني في القصيدة :

وأما المعاني في القصيدة فتراها واضحة قوية تتسابق إلى الذهن من غير كد أو طول تأمل ، ذلك لوضوح الفكرة عند الشاعر ، وقد استمد معانيه من حقل الشعر القديم « فاتهام الحصاة ، ووأد البنات ، وسم الأفاعي في مسيل الفرات » وسواها من المعاني تسير على النهج القديم .

لكن الجدير بالذكر أن القصيدة قد دارت معانيها من أول بيت فيها حتى آخر بيت حول الموضوع من القصيدة في توافق وترابط .

ولو نظرت إلى شرح معاني الأبيات السابقة لوجدت أن المعاني فيها واضحة ومتلائمة ، تسير في اتجاه واحد حتى آخر القصيدة ، ثم ينتهي إلى الحكم في النهاية على الفكرة السابقة حيث يقول :

فإما حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإما ممات لا قيامة بعده ممات لعمري لم يقس بممات

وعلى هذا فقد تحققت في القصيدة الوحدة الموضوعية لا العضوية ، لأنك لو قدمت بعض الأبيات على بعض ، أو أخرتها لما حدث خلل في موضوع القصيدة ، فهي قائمة على استقلال الأبيات بعضها عن بعض مع التلاقي في الغرض .

فمن الممكن أن تقدم مجموعة الأبيات من ١٣ - ١٥ على مجموعة الأبيات من ١١ - ١٢ ولا يؤثر كثيراً في ترتيب المعنى ، بل الأفضل أن يكون كذلك من حيث الترتيب الواقعي للمعاني ، وتدرج بعضها على بعض .

منزلة حافظ بين النقاد والشعراء :

كاد أن يجمع النقاد على أن حافظاً أحد رواد مدرسة المحافظين لا المجددين ، لكنه إنصافاً للحق والتاريخ أن حافظاً لم يكن مجدداً في الأسلوب ولا في الخيال والصور ، ولا في المعاني والأفكار فكان هو والبارودي يسيران على نهج القدماء من فحول الشعراء .

ولكن حافظاً كان مجدداً في بعض الأغراض الشعرية الجديدة ، فنشأت على يديه أغراض جديدة تنسب إليه ، مثل الشعر الاجتماعي والشعر الوطني وشعر الحضارة الاسلامية ، ثم ألبس الشعر السياسي لباساً جديداً يتفق مع قضايا عصره واتجاهاتها السياسية لذلك أطلق عليه نقاد عصره لقب (شاعر النيـل) بمعنى أنه شاعر شعب مصر فوصف آلام الدهماء وصور وطنية الأمة وموقفها من الاستعمار ، وسجل تاريخ زعمائها الوطنيين ، وفاجعة دنشواي وأزمات السياسة والمال ، والحضارة الإسلامية .

ووازن الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي بينه وبين شوقي فقال : كان حافظ في الغالب شاعراً عاطفياً معبراً عن أمته ، في حين كان شوقي في الراجح شاعر الذكاء المحض وصفاً وتاريخاً وتصويراً وسرداً ، والشعر عند شوقي رياضة ذهنية في حين أنه عند حافظ كان منبراً يصيح من فوقه بأمته .

ويقول خليل مطران في حافظ وشاعريته : كان حافظ يطرق الموضوع في الغالب من جوهره ، وربما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع ، شأن الصانع القدير الذي يبدأ بأصعب مابين يديه .

ووصف الدكتور طه حسين حافظا وشوقيا فقال : هما أشعر أهل الشرق العربي منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك .

ويقـول المـازني : نقدت شعر حـافظ نقداً كله سخر وتهكم أو قله عقل لأنـه صار في رأيي ممثـلاً لمذهب قديم يجب هدمـه ، وكان العقـاد يوافقه في ذلك ولكنهمـا في آخر حياتهما اعترفا بحمق هذا النقد وقالا : إنه كان من حماقـة الشبـاب . ويقول عنـه الشيخ عبـد العزيز البشري : حافـظ شاعـر يحب الجمـال ، خفيف الظـل عذب الـروح ، حلو الحديث . حـاضر البديهـة ولم أجـد قـط رجـلاً أسرع منـه حفظـاً ، وكذلك لم أر قـط رجـلاً اجتمع له من

متخيـر القـول ومصفي الكلام مرسـلاً ومقفي مثل ما اجتمع لحافظ ، فكان حقـاً لـه مـن اسمه أوفـر نـصيب وحافـظ كلف بالديباجة والصنعة ونسج الكلام .

ورأى حافظ أن الشعر هو : أن أدق المعاني وأجلها قد تقع للدهماء . أما إشراق الديباجة ، وفصاحة القول ، وتلاحم النسج ، ورصانة القافية ، فذلك هو الشعر .

* * *

التضامن الإسلامي

أدب التضامن الإسلامي ، وتعاون المسلمين في الدفاع عن [النفس والمال والعرض والدين] في الأسرة ، هي الوطن الصغير ، وتعاونهم في الدفاع عن الوطن ، الذي يضم الأسر والعائلات ، ويعيشون على أرضه ، وترفرف عليهم رايته في كل من مصر ، والسعودية ، وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين ، واليمن والعراق ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، وغيرها من الدول الإسلامية هي الوطن الكبير ، والتعاون في الدفاع عن هذه الدول بلاد الإسلام والمسلمين ، وعن الأمة الإسلامية ، هي الوطن الأكبر .

فالأدب الإسلامي الذي ينشد كل ذلك ، نطلق عليه أدب التضامن الإسلامي ، وهو غرض أدبي من أغراض أدبه ، وأدب التضامن الإسلامي ، هو قمة الإحسان في الإيمان ، وقمة الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ ، والبغض فيه والتخاذل عن الكلمة الطيبة والمعبرة عن حبه والدفاع عنه ، يجلب غضب الله عز وجل على عباده فلا يستحقون منه عز وجل النصر مصداقا لقوله تعالى :

﴿ قل إن كان أباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾ . ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ .

ويقول سيدنا محمد ﷺ :

« من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

ولا تخلو الأسرة المسلمة من هذه كلها وهي الوطن الصغير وسبق أن عرضنا الشعر الاسلامي الذي ينشد فيه الشاعر القيم الإسلامية لبناء الفرد والأسرة في غرض حضارة الإسلام ، ولايخلو الوطن الكبير في دول الإسلام ولا الوطن الأكبرَ في الأمة الإسلامية من كل ماسبق في الآية الكريمة والحديث الشريف ، وهو موضوع حديثنا في شعر التضامن الإسلامي وأدبه .

حب الوطن :

الأدب في كل العصور كان يعبر عن حب الوطن منذ العصر الجاهلي كان يتغني في مطالع القصائد بالديار والدمن والأطلال ، وظل الأدب يسير على هذا المنهج في القصيدة ، ولم يظهر حب الوطن في قصائد مستقلة غالبا إلا في المطالع أو في مقطوعات عند الشعراء ، يقول دعبل الخزاعي في قطعة جميلة في حب الوطن والحنين إليه :

أَلم يَأنِ للسَّفْرِ الذين تَحمَّلوا ... إلى وطَنٍ قبْلَ المماتِ رُجُوعُ
فقلتُ لهمْ ولَمْ أمْلكْ سوابِقَ عبرةٍ ... نَطَقْنَ بما ضَمَّتْ عليه ضُلوعُ
تَبيَّنْ فكمْ دارٍ تفرّقَ شَمْلُها ... وشَمْلٍ شَتيتٍ عَادَ وَهُو جَميعُ
كَذَاكَ اللَّيالي صَرْفُهُنَّ كما تَرى ... لكلِّ أناسٍ جَدْبَةٌ وربيعُ

ويعبر أبو البقاء الرندي الشاعر الأندلسي عن حبه لوطنه « رنده » ، فيصور مظاهر الجمال ، وسحر الذكريات الجميلة في النفس ، التي كان الشاعر يعتز بها وذلك في قصيدة طويلة وليست مقطوعة يستهلها بهذا المطلع :

بحياة ماضمَّتْ عُرَى الأزرار ... بذمامِ مَا في الحُبِّ منْ أَسْرار
بَلِّغْ لأَندَلسِ السَّلامِ وَصِفْ لها ... مَا فيَّ منْ شَوْقٍ وبُعْدِ مَزَار
وإذا مَرَرْتَ برنْدَةَ ذاتِ المُنى ... والتاجُ والدَّيْموس واللوْزار
فَسلمْ على تلك الديارِ وأهْلها ... فالقوْمُ قَوْمي والدِّيار دِيَاري

وهكذا يصور حبه لوطنه في القصيدة التي آلمته الغربة عنه حتى يقول :

ومعاهـد كانت علي كريـمـة ... لم يبـق لي منهـا سوى التذكـار

وأصبح حب الوطن غرضا أدبيا جديدا في العصر الحديث ، يحتل مساحة كبيرة عند الشعراء ، وخاصة بعد أن جثم الاستعمار على صدر الأوطان الإسلامية شرقا وغربا ؛ فقلما نجد شاعرا قد خلا ديوانه منه ، بل دواوين الشعراء حافلة بـه . وغيرها من الشعر المنشور في الصحف والمجلات ، وقد نشرت بحوث

---

(١) العصر العباسي الأول : د . شوقي صيف ١٨٢ .

(٢) الوافي في نظم القوافي : مخطوط في دار الكتب المصرية برقم ٦٠٣ أدب ص ٩١ / ١ لأبي البقاء الرندي .

مستقلة في الشعر الوطني للبارودي وشوقي وحافظ وأحمد محرم وغيرهم يكفينا ذلك عن الاستطراد معهم ، وسنقتصر على بعض الشعراء سواهم ، يقول شاعر السودان : مبارك المغربي في حبه لوطنه في قصيدته « ديوان الهوى » :(١).

أنت من أنت ؟ أنت دنيا من السحر رؤاها تعددت ألوانا
بالذي أوجد الوجود وآتاها رواء الشباب والريعانا
أي وصف ترى يحدث عنها ؟ وهي أوفت على البيان بيانا
« عطبرا » يانجية الروح والقلب وملقى الوفاء يوم دعانا
في روابيك شب فينا غرام شديد الحب لم يزل بركانا
بالذكراك كلما طاف طيف وجد القلب ظامئا أسوانا
مرة يشتكي وأخرى يناجي وأحايين ينشد السلوانا

ويصور الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي الاستعمار الجاثم على صدر وطنه مهما طغى وتجبر ؛ فلابد أن يلقى مصيره المحتوم ؛ فلا يركنن الظالم إلى سكون الدهر وموت الضمير ، وظلام الاحتلال ، فلابد للحق أن ينتصر ، ولليل أن ينجليْ ؛ فيشرق الفجر بنور الحرية والاستقلال ، لأن الشعب ستتلاحم قواه وتتحد مع قوى الطبيعة والحياة في سحقه ؛ لينتقم للحق والحرية والكرامة ؛ فيتوعد الشابي المستعمر ويصرخ في وجهه ، ويصيح به في قصائد كثيره في شعره منها قوله :(٢)

أيها الظالم المستبد حبيب الظلام ، عدو الحياه
سخرت بأناة شعب ضعيف وكفك مخضوبة بدماه
وسرت تشوه سحر الوجود وتبذر شوك الأسى في رباه
رويدك لايخدعنك الربيـــع وصحـوا الفضـاء وضـوء الصبـاح

---

(١) ديوان صدحات : مبارك المغربي شاعر سوداني ومن دواوينه أيضا ديوان « عصارة قلب » ، وديوان « ألحان الكروان » وديوان « عاشق النيل » ، « من أناشيدي » ، « إليه المتاب » ، « من الوجدان » ومسرحية « رجل من الجنة » . وله كتب منشورة .

(٢) شاعر تونسي ولد عام ١٩٠٩ تعلم أبوه في الأزهر الشريف ثم صار قاضيا شرعيا نظم الشابي قصيدته الأولى عام ١٩٢٣ وظهرت مجموعته الشعرية ١٩٢٧ م وتوفي عام ١٩٣٤ فقد عاش بين الحرب العالميتين الأولى والثانية . ديوان الشابي : ٥٨ .

فقي الأفق الرحب هول الظلام وقصف الرعود ، وعصف الرياح
حذار فتحت الرماد اللهيب ومن يبذر الشوك يجن الجراح

تأمل هنالك أني حصدتَ رؤوس الورى وزهور الأمل
ورويت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع ، حتى ثمل
سيجرفك السيل سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل

وأما الشاعرة الفسلطينية الثائرة ، فدوى طوقان ، يتحول شعرها إلى نار تحرق الأعداء ، وتشوي بها وجوه المعتدين على أرض فلسطين موطن القدس الشريف ، ثالث الحرمين ، وأولى القبلتين ، وتحيى روح الجهاد في تحريرها وتوقظ الوجود من حولها ؛ ليستيقظ العالم الإسلامي على تكبيرات النصر وأنوار العودة ، تتعانق مع أنوار القدس الشريف ، تقول في قصيدة من شعرها الوطني « يقظة النائم » :(١)

إيه ياشرقُ أيُّ نور جديد لاحَ في دُهْمَةِ الليالي السُّود
لفَّ شُمَّ الجبالِ والسَّهْلَ والحزْنَ وهَامَ الربُى ، ورَمْلَ البيدِ
وإذا أنت يفتحُ النُّورُ عينَيْكَ فتصْحُو على الضياء الوليدِ
وتطلَعْتَ في حماك حمى الأمجادِ رَبْعِ العروبةِ المعْدودِ

إلى أن قالت :

يالها اللهُ صَرْخَةٌ منك دوَّتْ في شعابٍ ، وأغْوُرٍ ونجُودِ
يالها صرخةٌ أهابتْ فأحْيَتْ عزماتٍ ، وطوَّحتْ بقيود
تفتحتْ في بنيك فانطلق العاني وَهبَّ الكابي ، وحَيَّ المُودي
وتداعوْا من ههنا وهنا وانتظموا تحت بندك المعقود
ماتراهم تسايلوا بين عينيك خفافا من قاحم ونجيد
نفروا نفرة الأبيِّ وقد ضيمَ وهبُّوا بعزيمةِ المشدود

---

(١)فدوى طوقان في طليعة شاعرات العرب ، فلسطينية صاحبة ديوان : « وحدي مع الأيام » .
أغور : منخفضات ، نجود : مرتفعات ، الكابي : العاثر ، المودي : الهالك ، البند : الراية ، ==

يابني الشرقِ يمُنّ الله يوماً تمتم فيه مِنْ هوان القعود
أنتم الطيبون ، صبَّابةُ العُرْب حُماةُ الحِمى بقايا الجدود
ذلك العيد أقبل مَحْدُوًا بروح في بردتيه جديد
فيه شيءٌ من اعتزاز قديم عَرَفَتْهُ لهُ خوالي العهود
يومَ للعُرْب مقعدٌ في النجوم الزُهْر يزهو بركْنه الموطود
في فؤاد القدس الجريح اهتزازُ لكُمْ رَغمَ جَدِّه المنكود
إنْثنى على الجُرْح يَشدُو ويُحَيِّي افراحكم في العيد
عَذُبَ الشعرُ إنّما الشعر أنّات شقيٍّ أو اغنياتُ سعيد

وألقى الشاعر خير الدين الزركلي قصيدة : « بين الدم والنار » في حفلة أقامها السوريون في القاهرة بعد ضرب الفرنسيين دمشق بالقنابل عام ١٩٢٥ منها قوله : (١)

الأهل أهلي والديار دياري وشعارُ وادي النَّيِّرين شعاري
ما كان من ألم بجلّقَ نازل وارى الزناد فَزِنْدُهُ بيَ وَارى
إن الدم المراقَ في جنباتها لِدمي وإن شفارَها لشفاري
النار محدقة « بجلّقَ » بعدما تركتْ « حماةَ » على شفير هَارِ

إلى أن قال :

غضبتْ لسورية الشهيدة أمّةٌ في مصر تُطفئُ غُلّةَ الأمصار
وَرعتْ لها ذِمَمَ الوفاء فلم تضعْ عَهْدٌ تسَلْسَلَ في دم الأعصار
لله والتاريخ والدَّم والنُّهى حَقٌّ وللآمال والأوطار
يابْن الكنانة ما الجراحُ دوامياً في الشام إلا في طُلى الأحرار
هلا نظرت إلى الشام فإنها ترنو إليك بشاخص الأبْصار
ليس الجوارُ إذا عدلتَ بِمُقْنِعٍ يأبى الشقيقُ عليك حقَّ الجار

== المعقود : المرفوع ، قاحم : جرئ ، نجيد : منقذ ، صبابة القوم : صفوتهم ، بردتيه : ثوبيه ، الموطود : المدعوم ، المنكود : التعس .

(١) ديوان الزركلي ص ٢١٠ ، وهو من كبار شعراء الشام ، صاحب موسوعة الأعلام ، كان سفيرا للملكة العربية السعودية بالمغرب توفي عام ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

والشاعرالدكتور إبراهيم أبو الخشب له شعر كثير منشور في الصحف والمجلات ، وله ديوان مخطوط وهو أستاذ الأدب والنقد والفكر الاسلامي في جامعة الأزهر ، لايزال يعمل أستاذا متفرغا حتى الآن أمد الله تعالى في عمره يقول في حب مصر :(١) .

أبنـاء مصر وبينكم أرحـام موصولة ومـودة وذمـام
ووشائج مرعيةٌ وقرابـة يدلي بهـا الآبـاء والأعمام
والنيل وحدكم وحـول مياهـه تتهافت الآمـال والآلام
والأمـر يدعو للتشاور والحجا حتى يسود الرأي والإقـدام
والغرب يرقب من بعيد شأنكم مترقبا ألا يكون وئـام
لاتجعلوا تلك النيابة باعثا للحقد فالحقد التعيس حمام
إن البلاد بحاجـة لجهودكـم ولها بهـا دون الوغى صمصام
فذروا الخلاف فإنـه جرثومـة ملعونـة يندى لهـا الأهـرام
وارسوا على العلم الصحيح عمادكم فـالجهـل داء للـورى وسقـام

ومن الشعـر الوطني الذي يعبـر عن الحب العميق الصادق ، والعاطفة الحارة ، والإخلاص والتفاني في حب الوطن ، تفيض فيه المشاعر بفرحـة النصر في ملحمة العبور العظيم ، وتحطيم خط « بارليف » أسطورة العدو الجوفاء ومزاعم اسرائيل الهشة ، فيتحقق النصر الكبير في العـاشر مـن رمضان المبارك شهر الانتصارات لمواكب النور النبوية ، وشهر هزيمة التتار والصليبيين عبر التاريخ الإسلامي في عين جالوت والرملة والقدس وحطين ، وفي سيناء ، يصور ملحمة العبور في شعر المعركة الشاعر الدكتـور محمد عبـد المنعم خفـاجي في قصيدتـه « سيناء » يقول :(٢)

---

(١) ديوانه المخطوط : وتحت الطبع .

(٢) ولد في تلبانه مركز المنصورة في ٢٢ / ٧ / ١٩١٥ / ١٠ رمضان ١٣٣٣ هـ حصل على الدكتوراه من جامعة الأزهر عام ١٩٤٦ له مئات المؤلفات في الإسلام والأدب والنقد ، واللغة والسيرة والتاريخ ومواكب الحياة ، ودواوين الشعر { وحي العاطفة ١٩٣٦ ـ أحلام الشباب ١٩٤٩ ـ أحلام السراب ١٩٦٩ ـ الديوان الإسلامي ١٩٧٢ ـ نغم من الخلد ١٩٧٣ ـ على الضفاف ١٩٨١ ـ أشواق الحياة ١٩٨٣ ـ ملحمة السيرة النبوية الخالدة ١٩٨٦ ـ أغنيات من ==

سيناءُ يا أملاً تُناجيه الحياه سيناء يانغماً تردِّدُه الشفاه
أحلامُ كل الشعبِ ياسيناءُ أنـــ ـــت وأنتِ للوطنِ المفَدَّى مُبْتَغاهْ
آمالهُ ورُؤاه في غفواته أبداً ويقظته ، وما أحْلى رُؤاه
أنشـــودة التاريخ والمجـد الكبيـــــــرِ وكم قَهرْتِ على العصورِ منَ الغُزَاة ؟
جئناك بالحرية الكبرى وبالتَّحْـريــــــــر مــن ذل القراصنة البغَاه
جئنا نُقَبِّلُ تُرْبَك الغالي ونَـرْ فعُ عنك ياسيناءُ أغلالَ الجُناه
عادتْ إليكِ كتائبُ الجيشِ العظيـ ـم رفيعةُ الأعْلام عاليةُ الجِباه
عادتْ إليك تخطُّ أروعَ صفحة للمجْد ، للنصر المُظَفَّر للحياه
عادتْ ومعجزةُ العبور جليلةٌ والدهرُ يَشْهَدُ في بطولتها مُناه
« بارليف » دُمِّرَ والحصونُ تساقطتْ واستسلم الجبناء من حب النجاه
مابين مأسور ومقتول ومجـ ـروح يصيحُ وهاربٌ شُلَّتْ يداه
سيناءُ تلفُظُهُ عدوّاً غادراً لايعْرفُ اللؤْمَ الدَّنيءَ أخاً سواه
وعلى الرمال تناثرتْ أشْلاءُ دبَّـ ـاباته والنَّارُ تأكلُ في قفاه
ياجيش مصرَ سَلِمْتَ رمزاً للفخـا رِ فكمْ غصبْتَ النصرَ من أيدي الطغاه
صنع ابنُ مصرَ المعجزات مدى الزمـا نِ وما أعزَّ صنيعه يحمي حماه
تمشِي إلى النَّصرِ المؤزَّر ظافرا حتى تُخلِّدُ نَصْرَهُ صُحُفُ الرُّواه
النيلُ والوطنُ الحبيبُ يُرَدِّدا نِ لجيش مصرَ البرِّ ماصَنَعَتْ يداه
والعربُ والشرقُ الكبير يُقَدِّرو نَ لجيشها البطلِ الهمامِ صَدَى خُطاه
واللهُ والدينُ العظيم يبارك الـ أبْطالَ مَا فعلوا بأعداء الحياه
سيناءُ جاء النصرُ والعيدُ الحبيـ ـبُ وجاء ياسيناءُ فجرُك في سَناه
أنت التراث الفذُّ والأملُ النبيـــ ـلُ وأنت يـاسيناء قيثار الهداه
وتحدث القرآنُ عنك وفوق أرْ ضِك أنبياءُ الله ساروا والدعاه

== عبقر ١٩٨٧ ـ نشيد الذكرى ١٩٨٨ ـ أنشودة الذكريات ١٩٨٩ ـ أحلام الذكرى ١٩٩٠ ـ أحلام الأمس ١٩٩٠] . كان عميداً لكلية اللغة العربية ورئيسا لرابطة الأدب الحديث ولازال رئيسها أمدَّ الله تعالى في عمره .

نَفديك ياروح الحياة ونفتدي مَسْرَى الرسولِ بِكلِّ ما أمَرَ الإله
الجيشُ قد صنَع البطولات الكبا رِ على ثراك وفوقه ألقى عصاه
فلتسلمي ولْتسلمي ، إنّ الزّما نَ لك الفداءُ لك النجاة ، لك النجاه
لك يــاذُرى سينـاءَ والعلمُ الكبيــــرُ عليك يخفقُ كلَّ أحلام الحياه
كل أحـــلام الحيـاه
كل أحـــلام الحيـاه

هكذا يكون الحب الصادق والخالص لقلب العروبة والإسلام لمصر الأزهر ، فنشيد النصر فيها ، هو معزوفة الأمة الإسلامية في أصداء الحياة ، وهو النغم الخالد في عزة الإسلام وأمجاد المسلمين ، وهو الأمانة الأسمى التي أودعها السلف الصالح في أعناق الجيل ، وكل جيل في كل عصر ، وفي أعماق المعمورة من قريب أو بعيد ، وفي سيناء أرض الرسالات والإسلام ومقبرة الغزاة ، كانت ملحمة النصر ، التي تجدد انتصارات الإسلام في اليرموك وفي القدس الشريف وفي حطين والرملة وعين جالوت ، وفي عمورية والأندلس ، فسيناء هي بوابة النصر إلى القدس الشريف ومسرى الرسول ، وساحات ديار فلسطين موطن سماحة ابن الخطاب أمير المؤمنين وعدالته ، التي تعانقت بها المآذن مع أجراس القباب ، ملحمة سيناء والإيمان وجند مصر ، حطمت خرافات العدو وأساطير إسرائيل وعلوم الحرب و « تكنولوجيا » الفضاء الحديث ، فزفت إلينا البشرى بالنصر القريب واستعادة أرض المسرى والزيتون.

والدكتور خفاجي عاشق المعرفة وسيناء والعروبة والإسلام يتغنى بهذا الحب لمصر وفلسطين ، والجزائر وليبيا ، والشام وبغداد واليمن ، وسوريا ولبنان وباكستان ، والبوسنة والهرسك والسودان والصومال ، وجميع العالم الإسلامي في دواوينه الكثيرة ، وليست سيناء هذه هي القصيدة الوحيدة في ديوان « أنشودة إلى الغد » ؛ بل تغنى بها أيضاً في دواوينه : « أشواق الحياة » وفي : « أغنيات من عبقر » وفي « الديوان الاسلامي » وغيرها .

وللشاعر أيضا شعر كثير في حب الوطن وتمجيد الأمة الإسلامية إخلاصا في حبها ، فقد تنوعت قصائده في ذلك ، فله في ديوان « نشيد الذكرى » : [شهيد السلام ص ٧١ ـ وطني الحر ص ٨٤] ، وفي ديوان : « نغم من الخلد »

[انتصار الشعب ص ٢٩ - صوت من التاريخ ص ٦٧ - وما أحلى الغد ص٧١ - وحدة الوادي ص ٧٤ - مدينتي الخرطوم ص ٧٦ - شهيد العروبة ص ١٠٩ - باكستان ص ١١٨ - رثاء فيصل ص ١٤٥] ، وفي ديوان : « أشواق الحياة » [وطني الحر ص ٢١ - ملحمة الأجيال ص ٣٥ - عشت حرا ياوطن ص ٣٧ - الربيع والسلام ص ٤٠ - شهيد السلام ص ٦٢ - مصر العظيمة ص ٨٤ - مصر ويوم مصر ص ٨٧ - سيناء قصيدة ثانية ص ٨٨ - عيد سيناء والوطن قصيدة ثالثة ص ٩٠ - فوق الشمس ص ٩٥ - المنصورة ص ١١١ - الشهداء ص ١١٣ - دنشواي ص ١١٧ - شهيد العرب ص١٧٨ - أمة العرب ص١٣٢ - الشهداء ص ١٥٥ - إلى الشباب المصري ص ١٧٦ - بطولة النضال ص ١٧٧ - ذكرى سعد ص ١٧٩ - نشيد مصر ص ١٨٠ - عيد الاستقلال ص ١٨٨ - الشهيد ص ١٨٩ - عيد الجهاد ص ١٩٠ - الشهداء ص ١٩٤ - المجد الخالد ص ٢٠٧] وغيرها .

وفي ديوان : « أغنيات من عبقر » [أنا مصري ص ٩ - دنشواي في عيدها الثمانين ص ٤٤ - عروس النيل ص ٤٩ - فوق النجم ص ٧٥ - جنة الأندلس ص ١٦٥ - وطن الشمس ص ٢١٧ - وغيرها] .

ويشيد الشاعر عبد الحميد عبد المنعم فارس في ديوانه : « وجدان شاعر » بمعركة النصر في رمضانَ المبارك في قصيدة طويلة بعنوان : « الله أكبر » منها قوله :

الله أكبرُ يا أكتوبرُ العَطِرُ ... صوتٌ من الخلد ماجاءتْ به بشرُ
إرادةُ الشعب يابنَ النيلِ قد جُمعتْ ... فانْدكَّ « بارليفُ » لم يُعرَفْ له أثر
أجواءُ سيناءَ قَدْ دانتْ لأنسُرُنَا ... والريح والرمل والآجام والشجر
كلُّ القلاعِ تهاوتْ تحت وطأتنا ... كلُّ الأبالس قد غُصَّتْ بها الحُفَر
سل العروبة والإسلام عن بلد ... شعارها العدلُ والإحسانُ لا الضرر

---

(١) ولد في بني عدي بأسيوط ، وعاش مابين [٢٥ / ٩ / ١٩٣٨ - ٢١ / ٦ / ١٩٩٧] والده عالم أزهري داعية وشاعر له ديوان « عالم الخلود » توفي عنه والده وهو ابن عامين فرباه عمه عبد الرحمن ، تخرج من كلية آداب الأسكندرية ١٩٦٠ - عمل بالسد العالي وحصل على وسام الاستحقاق ، ثم رئيسا للقطاع الإداري بشركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح ، له ==

لم تقبل الضيمَ في نفسٍ ولارَحِمِ وانْدكَّ مِنْ عزْمِها الطاغوتُ والتَتَرُ
مصر الحياة حباك الله جوهرة لأنت باقية مادامت العُصُرُ
مرفوعة الرأس والأحداث زائلة أبناؤك الأسد همْ أمْ أنجُمٌ زُهُرُ ؟

« مكة » قدس الأقداس

للشاعر السعودي محمد حسن فقي ، انساب شعره إلى العالم الإسلامي من مكة المكرمة ، موطنه المقدس ؛ فأشرق نورها عليه يوم أن ولد في ٢٧ من ذي القعدة عام ١٣٣١ هـ ؛ ليكون طالبا في مدرستها (الفلاح) ثم أستاذا لها وهكذا أخذ يتقلب في خدمة وطنه الحبيب ، حتى تفرغ للعلم والأدب ، ليصير مستشاراً (للمجلة العربية) ، والتي لها أثرها البارز والكبير في الحركة الفكرية والعلمية والأدبية حديثا في العالم الإسلامي والعربي .

والشاعر له مؤلفاته منها : (نظرات وأفكار في المجتمع والحياة) ، (هي مصر) ، (مجموعة قصصية) ، (بحوث إسلامية) ، (في رحاب الألب) مسرحية شعرية (١) .

أما ديوانه : (قدر ورجل) ، تفتحت أزاهيره عن أربع وخمسين قصيدة تضوع حب الشاعر في إحدى عشرة قصيدة ، وزاحم بمنكبيه مواكب الحياة في ثلاث عشرة قصيدة ، وتآصرت عروبته مع العالم ، وتجاوبت عقيدته الإسلامية في سبع عشرة قصيدة ، وغاص في أعماق النفس مستلهما شاعريته في تسع قصائد ومتأملا بوجدانه الملهم في ست قصائد ، ومودعاً أرواح الخالدين في خمس مرائي .

وسما الشاعر محمد فقي بالشعر السعودي في العصر الحديث إلى مدارج التجديد ، وبعث فيه الحياة والإبداع ، فكان بحق رائدا ومجددا ، يزاحم بمنكبيه

== نشاطه في مجال العمل الخيري والاجتماعي والأدبي وله عدة دواوين نشر منها : « وجدان شاعر » والباقي تحت الطبع .

(١) شعراء العصر الحديث : عبد الكريم بن حمد الحقيل جـ ١ ص ١٤٧ .

رواد الشعر الجديد في العالم الإسلامي والعربي ، وقد استقام لموهبته الشعرية الشعر العمودي ، والشعر المتحرر من قيود القافية والبحر الخليلي على السواء ليعزف بتوقيعاته الموسيقية أنغاما تنسجم مع الموضوع الأصيل المتوارث قصيدا عموديا ، أو رباعية أو خماسية أو سباعية (١) .

وحينما تنسجم الأنغام مع عصير فكرة معاصرة ، تنساب في شعر متحرر من الوزن العروضي والقافية ، لكي يهدر بموسيقى خفية ، تخدر الإحساس وتأخذ بالمشاعر ، وقد نطق الشعر الحديث بأستاذيته وريادته كثيرا منه على سبيل المثال قول الشاعر عبد الله محمد باشراحيل في قصيدته (ملهم الشعر) وقد أهداها إلى الأستاذ الشاعر المعلم محمد حسن فقي ، منها : (٢)

رائعُ القولِ إنه لك وحدك ملهم الشعر ليتني كنت رفدك

غن للحب يامفرداً أسْكَر حبَّةَ القلبِ فهي ترتاح عندك

وهكذا إلى آخر القصيدة .

ومن شعره العمودي قصيدته التي نشرت في ملحق (المجلة العربية) عدد شهر ربيع الأول عام ١٤٠٣ هـ بعنوان (مكة) قدس الأقداس وهي في ثلاثة بعد المائة بيت ، ومطلعها : (٣)

أمكةُ . . ياهذي الرِّحابُ تألَّقَتْ بنورِ الهُدَى الهادِي لنَا مِنْ مُحمد

أمكةُ . . ياهذي المغاني تأرَّجَتْ بعطرِ شذيٍ من نبيٍ ومسجد

الغرض والموضوع من القصيدة :

الشاعر هنا بموهبته الشعرية الملهمة يهوي بالقارئ في عواصف متمردة تلفه في ضباب ، أو تغوص به في بحر متلاطم الأمواج ؛ فلا يكاد يستقر على صخرة إلا ويجد نفسه على أخرى في حيرة ، فالضباب والحيرة في القصيدة تجعل الناقد مترددا في الحكم على الغرض من القصيدة ، والوقوف على موضوعها أيكون الغرض هو حنين الشاعر إلى وطنه الصغير ؟ الذي نشأ في أحضانه المقدسة

---

(١) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية : د . بكري شيخ أمين ص ٤٨٦ .

(٢) جريدة الندوة / العدد ٦٩٠١ / ٢٦ / ١ / ١٤٠٢ هـ .

(٣) المجلة العربية : شهر ربيع الأول ١٤٠٢ هـ ملحق .

الدافئة ، وكأن القصيدة تخبر الآخرين (وأنا منهم) بأن الشاعر بعيداً عنه ، أو على نية الهجر والرحيل منه ، وسلوان العزاء ونشيد الغربة ، والأوتار الموصولة الشجية بين الوليد والأم الحنون ، وحينئذ يذكر الشاعر مولده وملاعب صباه وأيام الشباب ومحاسن الرفاق ، وحلاوة الهجر ، ومرارة الوفاء ، وصفاء الروح وطهارة النفس في قوله :

دِيار الهوى والمجد ما أشْرفَ المُنى ... إذَا ما اسْتقرَّتْ عندَ أشْرَف مَقْصد
دَرَجْتُ بها طفلاً فكانتْ طُفُولَتي ... تُدنْدنُ في نُعْمَى وتَمْرَحُ في وَدْ
وعشتُ بها غَضَّ الشَّبِيبة أرْتَوي ... منَ العِلْم عَنْ أشياخه خَيْرَ مَوْرد
ومازلتُ كهلاً أصْطفيها واجْتَدي ... رضَاها وما مِنْ غَيْرها كنتُ أجْتَدي
وأرجو أنا الشيخ المتيم بالهوى ... هواها ثوائي تحت أكرم فدفد
نعمتُ به طفلاً نعمتُ به فتىً ... نعمتُ به كهلاً كَدُرٍّ مُنَضَّد
وحولي من الفِتْيانِ أكْرَمَ صُحْبَة ... نَشَاوَى اقْتداء أو نَشاوَى تَوَدُّد

إلى آخر المقطع ، وكذلك المقطع من ٦٧ : ٨٠ في القصيدة .

أو يكون الغرضُ التأملَ الوجداني عَبْرَ ستين عاماً على زهرة تفتحت في مكة المقدسة ، وغذيت بروافدها الثرة ، التي تفجرت من بحر النبوة والتي سمت بالسلف الصالح ؛ فصاروا منارةً للعالم ، عمرت الدنيا بأريجها ونورها ؛ فكانت الحضارة الإسلامية ، التي أذهلت العقول بقيمها ومبادئها وخلودها ، وعلى ذلك يكون الغرض من القصيدة الشعر الوجداني التأملي في حب الوطن أيضا ، الذي يحمل غرضا تأمّلياً وجدانياً فيه مثل قوله :

لقد عشتُ فيها منذُ ستينَ حجَّةً ... فأطْرَبَني أنَّني بمكةَ مَوْلدي
لَقَدْ وُلدَ المُخْتار فيها فأشْرقَتْ ... دَيَاجيرُها بالنور خَيْر مُحَمَّد
وقدْ شَعَّ منها النورُ في كلِّ أُمّة ... وكل مكان . . فاستنارًا بأحمد
لقد كان بدراً للدياجير كاشفاً ... ومن حَوْله الأصحابُ مِنْ كلِّ فَرْقَد
فما كان كالصديق في الناس رقّةً ... وحَزْماً أطَلاً في كلِّ مَشْهَد
ولا كان كالفاروق عَدْلا وحكمةً ... فما تَمَّ من عَبْد لديه . . وسيد
فيا كبدي بعدَ التفرُّق والنّوى ... تحنُّ إلى العَهْدِ الحبيبِ المُمُجَّد

وقد حيلَ مابين المحبِّ وحُبِّه ... بِنَأيٍ شَتيت أو بصَرْف مُبَدَّد
إذا سِرْتُ في تلك الرحاب تعثَّرَتْ ... خُطايَ بها من رائح ومُجَدِّد

وكذلك المقطوعات من ٣٣ : ٤٣ ، ومن ٤٤ : ٦٦ ، ومن ٨١ : ١٠٣ .

وسواء أكان الغرض حنينا أو تأملا وجدانيا ، أم هما معا فهو غرض بكر ، وموضوع جديد على الشعر السعودي الحديث وهذا مما لاجدال فيه ، وهو حب الوطن ، وليس أي وطن ، وإنما وطن مقدس لكل المسلمين في جميع أنحاء العالم ، إنه وطن الأمة الإسلامية ، يتوحدون فيه حول الكعبة المشرفة بالليل والنهار في الدعاء والصلوات التي هي عماد الدين .

التجربة الشعورية في القصيدة :

وجدان الشاعر في القصيدة ملتهب متفجر بلوعة الفراق ، ولهيب النوى فهو لايطيق هذا الهجر ، ولايصبر على الجفاء ، فقد ترجم إحساسه في التجربة على أنه يتوقى الابتعاد عن مكة المقدسة في تلك القصيدة ، لتكون بمثابة مايدفع عن الشاعر تهمة العقوق لها ؛ فيقرر بأن الهجر لموطنه الصغير ، ليس من دينه ولايبتغيه وإن دفعت به الأقدار بعيدا عنها ، فلتكن هذه القصيدة سلوانا وعزاء ووصلا وقربانا ، حتى يعود إلى حضن الأم الدافئ يقول الشاعر :

تركتُك مَجْفُوًا وما كنتُ جافياً ... فما كنتُ إلا كالسجين المصَفَّد
فلا تَنْعَتِيني بالعقوق فإنني ... لَبَرٌّ إذا زودت أو لم تزود
تؤيدني في البر هذا أوابد ... تلوح كصرح بالقوافي مشيد
أقدمُ قرباناً إليك شَوارِدي ... فكم من مُغَنٍّ يصطفيها ومُنْشد
يردِّدُها الشادون للناس مرةً ... وأخرى فتحلو كالجني بالتردد
فلو سبقت حينا من الدهر لم يكن ... يغني بها غير الغريض ومعبد

وكذلك المقطع من ٢٣ : ٣٣ يعبر عن هذه التجربة تعبيرا صادقا . ومن هنا كانت التجربة الشعورية وجدانية حارة متدفقة في عاطفة محمومة صادقة ومشاعر رقيقة دافئة ، وإحساس دقيق فياض ، ولايحتاج الشعر الابتداعي الجديد في قوة التجربة وصدقها أكثر من هذا .

ولقد أحسست (المجلة العربية) بالحمم البركاني في تجربة الشاعر المتفجرة

بالقوة والصدق ، فذكرت تقدم الشاعر في قصيدته هذه فقالت :

(يظل هذا الشاعر متدفقا آبداً . . ! يبقى أبدا . . نهراً من العطاء . . والمعاناة والإبداع . . نبض الألم بين جوانحه لايزيده إلا عطاء . . مثلما أن العطاء لايمنحه إلا فيضا من الألم ، وماذا عن الشاعر ؟ عندما نتناول (تجربته) قدس الأقداس . . وأطهر البقاع : مكة المكرمة)[1] .

التصوير الشعري في القصيدة :

١ ـ التشخيص في التصوير الأدبي لهذه التجربة الأدبية يبدأ من المطلع فالمدينة المقدسة مكة كائن حي تتجاوب مع الشاعر ، فيخاطبها معتزا بقدسيتها وتنطق أسارير وجهها مضيئة بنور الهدى والهادي محمد ﷺ ، ثم يفوح العطر وليس كأي عطر إنما العطر أخلاق محمد ، وشريعة رب البيت الحرام ، ثم تميس في تبختر ودلال ، لأنها أنجبت من بين أحشائها الفرسان الشجعان والسلف الكريم الماجد ، فقد نشروا النور ، وحطموا القيود ، قال :

أمكة . . ياهذي الرحاب تألقت ... بنور الهدى الهادي لنا من محمد
أمكة . . ياهذي المغاني تأرجحت ... بعطر شذى من نبي ومسجد
أمكة . . ياهذي البطاح تبخترت ... بأشجع مغوار . . وأكرم منجد

وكذلك التشخيص في الأبيات الثلاثة من ٥٠ : ٥٣ ، وأيضا في ثلاثة أخرى من ٦٤ : ٦٦ وغيرها مما يفيض بالحيوية والجمال والإبداع .

٢ - الإبداع في التصوير الأدبي في قوله :

لئن نزحَ الأحبابُ عنكِ لفترة ... من الدهر خَوْفَ الغاشم المتوعد
وما هو إلا العيشُ يطوي جناحَهُ ... فقيراً . . فيجتاز النفيسَ إلى الردى
قضاء علينا مانطيق اتِّقاءَهُ ... فليس لنا غير الرضا والتعود
ولكننا نصفيك حبّا مُبَرّأً ... من اللهوِ حُبَّ القانت المتعبد
تجرَّدَ من نفعٍ تجرَّدَ منْ هوىً ... حقير . . وأسمى الحبُ حُبُ التجرد
فماأنت إلا القدس في الأرض ينتمي ... إلى القدس في العلياء بالأمس والغد

---

(١) المجلة العربية : ربيع الأول ١٤٠٢ هـ ملحق .

هذا خيال بكر ، وصورة أدبية مبتكرة ، وفن تصويري بديع ، فأحباب مكة لاينـزحون عنها عقوقا لها ، ولكن براً بها وطاعة فيها ، حتى يتوفر لهم العيش الرغيد ، ليكونوا كراما بررة ، كما هي تبغي وتريد ، فالعيش طائر يحتضن الفقير تحت جناحيه محلقا ، لايسقط إلا حيث ينتشر الحب ، وقد يتعرض المجاهد في سبيل العيش للشهادة راضيا بقضاء الله وتقديره لرزقه . لكن حب مكة حب صاف مبرأ من اللهو ، مثل حب القانت المتعبد الذي تجرد في الوجود من نفع وهوى ، وأسمى الحب هو الحب المتجرد ، وهو حب مقدس لمكة المقدسة ، التي تقدست في الأرض ، وفي السماء ، وكانت ولازالت وستزال مقدسة .

والخيال الذي يصور العقوق في صورة يرتضيها الوالدان من الأبناء ، لأنه عقوق يجلب البر بهما ، ويدفع الفقر ، ويحقق الغنى ، هو خيال بكر ، ثم يصور أيضا البر الحقيقي بمكة وعدم العقوق بها في الحب الخالص الصافي المجرد من الدنيا وشهواتها ، وأن حب مكة هو التقديس والعبادة ، فهي مقدسة في الماضي والحاضر والمستقبل . وهناك صور مبتكرة أخرى ، منها الصور التي في الأبيات من ٥٠ : ٥٣ ، ومن ٦٤ : ٦٦ وغيرها .

على أن في القصيدة صوراً جزئية محافظة على الخيال الأصيل القديم في أسلوب قوي جزل ، وعبارة محكمة رصينة ، وديباجة مشرقة قوية ، نذكر منها على سبيل المثال قول الشاعر :

أرى في الصخور الصُّمِّ فيكَ حلاوةً ... فأحْسبها من فَرْحَتِي كالزُبُرْجد
ولما طَواني البينُ عنكَ تكاثرتْ ... شُجُوني فلمْ أثْبتْ ولم أتَجلَّد
وما الليثُ عند الدهرِ إلا كأرنبٍ ... ولا النسرُ عند الدهر إلا كَجَدْجَد

ضباب وغيوم في القصيدة :

لايعيب الشاعر أن تتراشق السهام حوله ويكفيه أن السهام لاتعانق إلا القادة في الحروب ، وكلما سما العمل الفني استقطب المفكرين ، وخطف الأبصار ، ثم تستريح العين من وهج الشعاع في منحنيات ومطبات ، كي تقوى بعد على مواصلة النظر والتأمل .

لهذا كانت قصيدة (مكة) المقدسة تزهو في وقار واتزان ، يتناسب مع قداستها ، لا كالعروس في ميسها ودلالها وتبخترها وذلك في قوله : (أمكة . . ياهذي البطاح تبخترت) .

ومادام الشاعر يتحدث عن قدس الأقداس الإسلامية كما ذكر الشاعر في تقديمه للقصيدة ، فكان الأولى أن ينسب الفعل للقضاء والقدر والحتم لا للدهر الذي تتصرف فيه الأقدار ، في قوله :

ليفعل بي ماشاءه الدهر

فالأولى أن يقول : (ماشاءه القَدَرُ) بلا اضطراب في الموسيقى الشعرية فهذا يتلاءم مع قدس الأقداس الإسلامية ، بدليل أن عقيدة الشاعر الخالصة تستدرك ذلك في بيت لاحق فيقول :

لكنها الأقدار تطوي قلوعنا ونشرها في هائج الموج مزبد

وقدس الأقداس يطيب فيها العيش في هناءة ورغد مع القليل من الزاد ، لأن فيها القناعة والرضا ، وفيها الغنى والثراء ورغد العيش ، فكيف تكون الحياة في غيرها أفضل ، مهما تحقق فيها الثراء والغنى ، فلا ينبغي أن يسمى العيش فيها رغدا ، وخاصة في مجال الموازنة بينها وبين قدس الأقداس ؛ لذلك كان الأولى في قوله : (لكن بأرغد) ، أن يصير : (لكن بعسجد) ؛ فهو المناسب مع العيش في غير مكة ، التي يتناسب معها التعبير بأرغد ؛ فالعسجد هو الذهب والجواهر ، ولايستلزم منهما الرغد والقناعة في غير مكة المقدسة ؛ لذلك كان ينبغي أيضا أن تحل (الزيادة) محل (الرغادة) في البيت (وما كنت اختار الرغادة إن نأت) ، وكلاهما لايؤثر في موسيقى البيتين ، بل يظل الوزن صحيحا لاينخرم .

والقافية عند الشاعر تأتي منقادة طائعة ، تسبق المعنى في مكانها من البيت ويدل هذا على مهارة الشاعر ، وخصوبته اللغوية ، وثراء حقله في علم اللغة والاشتقاق ، ولا أدري مع ذلك كيف آثر الشاعر (عين هدهد) بالذات ، ليرى بها منابع الماء من تحت قدميه ، هل الهدهد وحده من بين الطيور أحدُّ بصراً ؟ وأقدرُ على هذه الرؤية ؟ أو أن حركته في رأسه أكثر من غيره ؟ فالأولى عندي منه الصقر والنسر ؛ فهما أحد الطيور بصرا وأثقب نافذة في البحث والتقصي

وأقدر من الجميع الصياد الذي يأسر الطيور بحنكته ، فكان ينبغي أن نقول : (ياليت لي عين صائد) بلا تأثير على الوزن والقافية أما بقية القوافي فقد فرضت نفسها على السامع فرضا في القصيدة كلها مثل قوله :

ننخضع لاندري إلى أي حالــة تصير .. لأشقى ؟! أم نصسر .. لأسعد

الدفاع عن الأمة الإسلامية :

كان الأدب الذي يصور الدفاع عن الأمة الإسلامية ، ويسجل انتصاراتها قبل العصر الحديث يأتي مع أغراض أخرى كالمدح والفخر والوصف وغيرها كالشعر الذي أنشده مروان بن أبي حفصة في انتصارات هارون الرشيد ، والذي أنشده البحتري في الخلفاء والقادة ، والذي أنشده أبو تمام في انتصارات المعتصم والذي أنشده المتنبي في انتصارات سيف الدولة ، والذي أنشده الشعراء في انتصارات صلاح الدين وقطز ، وكذلك الشعر الذي كان ينشد قبل في صدر الاسلام والدولة الأموية (١) .

أما غرض الدفاع عن الأمة الإسلامية وتسجيل انتصارات العروبة والإسلام وتوحيد صفوفها ، ورد العدوان عليها ؛ فلم يأت مستقلا عن الأغراض الأخرى إلا في العصر الحديث ، ويشمل هذا الغرض الأدبي الإسلامي .

١ ـ شعر القومية العربية . ٢ ـ شعر الوحدة الإسلامية .

٣ ـ شعر التحرير لدول الإسلام ورد العدوان عنها مثل فلسطين ولبنان والبوسنه والهرسك وغيرها .

٤ ـ شعر الأقليات المسلمة في أنحاء العالم .

٥ ـ شعر الفتن والانقلابات داخل الدول العربية والإسلامية مثل مشكلة السودان والصومال وكراتشي وغيرها .

٦ ـ شعر مواجهة تحدي العدوان من الهيئات والمؤسسات والجمعيات الدولية مثل هيئة الأمم المتحدة وغيرها .

فالشاعر محمد الأسمر عاصر شعره مؤتمرات الاستعمار المروعة في الوطن العربي ، والأحداث التي تفكك عرى الوحدة العربية والإسلامية ، فيشيع التمزق

---

(١) انظر ماقبل هذا الجزء ، وكتابي : من الأدب العباسي دراسة ونقد .

بين أبناء الوطن الواحد ، فتحطم وحدته وتذهب بكيانه ؛ فيحث في شعره على الوحدة ، ونبذ الخلاف والقضاء على الفرقة والانقسام ، وتوحيد الصف العربي وكشف ألاعيب الاستعمار ، والحذر من حيله وكيده ومواجهته بقوة وعنف يقول في ذلك الشاعر محمد الأسمر :(١) .

بني (يعرب) من كل لون وملة ... عدوكم مازال جم الحبائل
يصيد بها المستضعفين فحاذروا ... ألا عيبَ صيادِ البلاد مخاتل
مكايده بين الممالك صمتها ... أشدُّ وأدهى من دَوِيٍّ القنابل
يفرقُ بين التوأمين كأنما ... تناهى إليه وحده سحر بابل
بني (يعرب) مابال كل رياحكم ... بشتى نواحي الشرق ريح التخاذل ؟
فحتى متى هذا الخلال وأنتم ... وإن كنتم الأحرار بين السلاسل
ألا وَحِّدوا تلك القلوب فإنها ... إذا اتَّحدَتْ كانت أجل الوسائل
ونلتُم بها الشَّأوَ البعيدَ مناله ... وقامت مقام الطاعنات الذاوبل (٢)

هذا الغرض الأدبي في الشعر الحديث لا يكاد أن يتخلى عنه شاعر في شعره في العالم العربي والإسلامي ؛ لأنه يرتبط بعروبتهم وعقيدتهم الإسلامية لذلك سنكتفي هنا بالإشارة إلى الشعراء وخاصة من اشتهر هذا الفن عنده ومن هؤلاء العطار والساعاتي والبارودي وأمير الشعراء أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد محرم ، ومحمد عبد المطلب ، وعلي الجارم ، وسيد قطب وعلي محمود طه ، ونجيب الكيلاني ، وعمر أبو ريشه ، ومفدي زكريا ، وفدوى طوقان ، وأبو القاسم الشابي ، وعبد الحليم المصري ، وسليمان بن سحمان وأحمد الكاشف ، ومحمود أبو الوفا ، والزين ، وعلي شوقي ، ومحمود عماد ومحمد عمر الطوانسي ، والهمشري ، والدهشان ، وشكري والمازني والعقاد

---

(١) عاش مابين [٦ / ١١ / ١٩٠٠ - ٦ / ١١ / ١٩٥٦ م] وقد ولد في دمياط ، وتعلم في مراحل الأزهر ومدرسة القضاء ثم حصل على العالمية من الأزهر الشريف عام ١٩٣٠ ، وكان ينشر شعره في الصحف والمجلات مدة تعليمه ، ونشر ديوانه الأول في حياته أما ديوانه الثاني الذي جمع فيه شعره بعد عام ١٩٥٠ فلم ينشره في حياته ، ويعد من الشعراء المحافظين المطبوعين في العصر الحديث .

(٢) ديوان الأسمر : ص ٢١٥ .

ومحمد علي السنوسي ، وعمر بهاء الدين الأميري ، وعزت شندي ، ومحمود حسن إسماعيل ، وصلاح عبد الصبور ، وحسن كامل الصيرفي ، ومختار الوكيل وعزيز أباظه ، وابراهيم ناجي ، وعبد الله شمس الدين ، وعبد القدوس أبو صالح ، والعوضي الوكيل ، وهاشم الرفاعي ، وعامر بحيري ، ومحمد عبد الغني حسن ، وسليمان العيسى ، وإبراهيم طوقان ، والزهاوي ، والرصافي ، والفضل بن الوليد ، ومحمد مصطفى حمام ، ومحمد فضل إسماعيل ، ومحمود الخفيف ومحمود غنيم ، وإبراهيم نجا ، وحسن القاياتي ، والأسمر والزين ، وإبراهيم بديوي ، والخطيب ، وأحمد رفيق المهدوي ومحمد الخضر حسين ، ومبارك المغربي ، والتيجاني بشير ، وعبد الله الطيب ، وخير الدين الزركلي وعبد العليم القباني ، وصالح الشرنوبي ، وحسن جاد حسن ، وإبراهيم أبو الخشب ، ومحمد عبد المنعم خفاجي ، وسعد ظلام ، وعبد الحميد الديب ، ومحمد شفيع السيد وحامد محيسن ، وأحمد محمد الحملاوي ، وعبد الجواد رمضان ، والغمراوي وأحمد مخيمر ، ووليد الأعظمي ، وطاهر زمخشري ، وأمجد الطرابلسي ومحمد حسن فقي ، ومحمد محمود الزبيري ، وعبد الله بن إدريس ، والعقيلي وشكيب أرسلان ، وعبد العزيز المبارك ، ومحمد رضا الشبيبي ، وعبد المحسن الكاظمي ، وعبد الله الفيصل ، ويوسف العظم ، وأحمد الشامي ، وعلال الفاسي وحسين عرب ، وحسين سرحان ، وعبد الله بن خميس ، وأنور عطار ، وغازي القصيبي ، وعبد اللطيف النشار ، ومحمد بهجت الأثري ، وأحمد فرح عقيلان وعبد الرحمن العشماوي ، وأحمد قنابة الليبي ، وبشير السعداوي ، ومحمد ميلا مبارك ، ومحمد رجب البيومي ، ومحمد أحمد العزب ، وعصام الغزالي وهارون هاشم رشيد ، وعدنان النحوى ، وصالح آدم بيلو ، وحسن عبد الله القرشي ، وغيرهم من الشعراء في العالم العربي والإسلامي .

ويقول الشاعر علي محمود طه الملاح التائه في قصيدته : « عام جديد » : (١)

---

(١) ولد بالمنصورة عام ١٩٠١ م وتوفي عام ١٩٤٩ م ، وله دواوين : « الملاح التائه » و « ليالي الملاح التائه » و « أرواح وأشباح » و « وزهر وخمر » و « أغنية الرياح الأربع » و « الشوق العائد » و « شرق وغرب » و « أرواح شاردة » والقصيدة من ديوان : « زهر وخمر » ص ٨٩ .

ياقلوبا ضمها الشرق على ... موردِ للحق والحب التؤامِ
وشُعُوبا جمعتها أمة ... بين مصر وعراق وشآم
وبطونا من بقايا طارق ... في البقاع الجرد والخضر النوامي
ماشدا شعري بها إلا هفتْ ... بالقباب البيض أو حمر الخيام
كل روح يهتدي من حبها ... كل قلب بشعاع من غرام
تذكر القربى وتستدني بها ... مشرق الآمال في مطلع عام
وترجي عودة المجد الذي ... أعجز الباني وأحيا المتسامي
ومن بيوت هاشميات البنا ... وعروش أمويَّات الدعام
ونتاج من نهى جبارة ... وتراث من حضارات ضخام
قل لها ياعام لاهُنْت ولا ... كنت إلا مهد أحرار كرام
واجمعي أمرك لليوم الذي ... يحمل البشرى لعشاق السلام
ذاك مجد لم يَنَلْـهُ أهله ... بالتمني والتغني والكلام
بل بآلام وصبر وضنىً ... ودموع ودم حر سجام
فاستعدي لغدٍ إن غداً ... نهزه السابق في هذا الزحام

ويشيد بالوحدة وأمجاد الأمة في ماضيها وحاضرها : في قصيدته « يوم الملتقى » : (١) .

اليوم شيدوا كما شادت أبوتكم ... شرقا دعائمه كالطود شماء
دستوره وحدة مثلي وشرعته ... بالحق ناطقة بالحب سمحاء
لكم بحاضركم من دهركم نهز ... فيها لغابركم بعث وإحياء
شدوا على العروة الوثقى سواعدكم ... لايصدنكم عنها بالخلق مشاء
ياشرق مجدك إن لم ترس صخرته ... يداك أنت فقد أخلته أهواء

وهكذا يمضي في قصيدته التي اقتصرنا على بعضها ، كما اقتصرنا على بعض القصيدة الأولى أيضا ، ويقول محمد عبد المطلب شاعر البادية في

---

(١) ديوان : « الشوق العائد » : علي محمود طه ص ٦٩ .

قصيدته : « عدوان روما » ومطلعها : (١)

حذار فللإسلام في كل بقعة سراة إذا ما أجدب الناس أخصبوا
حذار فللإسلام في كل أمة حماة إذا ماشزّر الدهر قطّبوا
حذار فللإسلام في كل بلدة دهاة إذا ما أظلم الرأي أثقبوا
إذا ماتنادى المسلمون فإنما لنجدتنا كل الممالك ترقب
وكم في سبيل الله أريحية لمصر بها رأبُ الخلافة يشعب
تفيض على الإسلام بالجود أنعما غزارا إذا ما أخْلَفَ الأرضَ صيِّبُ
ويَا لَبَني الهيجاء لاتفزعنكم كلاب تعادت باغيات وأذؤب
فأنتم جنود الحق وهو مظفرٌ قديما وجند الظالمين مغلّب

وأما صاحب ديوان مجد الإسلام فإنه من بين شعراء العصر الحديث قد جند شعره لسيرة الرسول ﷺ والصحابة ﷺ، ولتصوير حضارة الإسلام وأمجاد الأمة الإسلامية والدعوة إلى وحدتها في اعتصام بحبل الله تعالى أمام أعدائهم ، حتى يظل النصر والمجد حليفهم ، ليسيروا على سنن السلف الصالح وليؤدوا واجبهم المقدس نحو دينهم في الحياة الكريمة المتحضرة كما أدى السلف الصالح ﷺ، فتراه يثور غاضبا وهو يتألم بعاطفة محمومة تتلظى ناراً ، وتستعر شررا من أجل أمته الإسلامية ، يصور ذلك في شعره وفي قصيدته : « وطن يعذب في الجحيم » ومطلعها : (٢)

خُلُق العروبة أن تجِدَّ وتدأبا وسجية الإسلام أن يتغلبا
لا تلك تخفض من جناحيها ولا هذا يريد سوى التفوق مطلبا
رفع النفوس عن الصغار وصانها عن أن تخاف عدوه أو ترهبا
دين الفتوة والمروءة ماطفت لحجج المنايا حوله فتأهّبا

---

(١) ديوان محمد عبد المطلب : ص ٢٥ لقب بشاعر البادية وتوفي في عام ١٩٣١ .

(٢) ولد أحمد حسن عبد الله محرم في في قرية بالدلنجات بالبحيرة في ٥ من محرم ١٢٩٤ الموافق ٢٠ / ١ / ١٨٧٧ م لكنه عاش ومات في دمنهور وريفها وتوفي في ١٣ / ٦ / ١٩٤٥ وديوانه جزءان طبع في عام (١٩٠٨ م) وله ديوان « مجد الاسلام » وله أيضا غير هذا شعر كثير منشور في الصحف والمجلات ومخطوط لم يجمع حتى الآن ومنه هذه القصيدة .

المؤمنون على الحوادث إخوة ... لايعرفون سوى الكتاب لهم أبا

إلى أن قال :

ياقوم لستم بالضعاف فغامروا ... وخذوا مطالبكم سراعا وثُبا
أنما كفاكم قوةً في دينكم ... ماجمّع الإيمان فيه وألّبا
يا آل يعرب من يربني (خالدا) ... يزجي الخميس ويستحث المِقنبا
من شاء منكم فليكنه ولا يَقُل ... ذهب القديم فإنه لن يذهبا
السرُّباق والزمانُ مجدَّدٌ ... والسيف مافقدَ المضاءَ ولانبا
ردوا المظالم عن محارم أمة ... ردّت ظنون ذوي الجهالة خُيَّبا
لم يُعطِ أوطان العروبة حقها ... من كان يطمع أن تباع وتُوهبا

ويقول الشاعر اليمني أحمد الشامي في قصيدته : « القدس قبلة المسلمين الأولى » ومنها يقول : (١)

بنو العروبة هبوا من مضاجعكم ... واخشوا إذا ماغفلتم سوء منقلب
لاتتركوا القدس للأغراب والتمسوا ... نصر العروبة في التوحيد والغلب
سيصرخ العرب بالإسلام في أمم ... شتى من السند حتى المغرب العربي
لاتظلموا الشعب إنْ فردٌ تعنَّتَهُ ... فمصر مثوى الأباة السادة النُّجب
لأننا أمة أهدت لعالمها ... مايرتجيه من الأديان والكتب
من صخرة القدس قد فاضت ينابعها ... على البرية بالإيمان والأدب

وهي قصيدة طويلة وَقَفْنَا على عدة أبيات منها ، ويقول الشاعر الأردني يوسف العظم في قصيدته : « ياقدس » ومطلعها : (١) .

ياقدسُ يامحرابُ يامنبرُ ... يانورُ يا إيمانُ ياعنبرُ

---

(١) عمل في وزارة خارجية اليمن ثم سفيراً متجولا لها ، وترك العمل عام ١٩٧٤ وتفرغ للأدب وله مؤلفات كثيرة وعدة دواوين ومسرحية شعرية والقصيدة نشرت في صحيفة الشرق الأوسط في ٧ / ٩ / ١٤٠٢ م انظر شعر الجهاد للدكتور عبد القدوس أبو صالح والدكتور محمد رجب البيومي ص ٣١٢ / ٣١٦ .

(٢) ديوان « رحاب الأقصى » ص ١١ تنقل في وظائف كثيرة في الأردن مدرسا بالكلية الإسلامية ثم مديرا لمدارس الأقصى ، وعضوا في مجلس النواب الأردني ، وله مؤلفات كثيرة .

إلى أن قال في قصيدته الطويلة :

والمسجدُ الأقصى ومحرابُـهُ   يحنو علينا ركعاً سُجَّداً
قبابه كانت تُنَاجي العلا   وأرضه كانت منارَ الهدى
تُحَدِّثُ الأكوانَ عن زحفنا   وقد بسطنا للمعالي يـداً
وهامة الفاروق مرفوعـةٌ   أكرمْ بها في قدسنا مشهدا
يعلي لواء العدل تكبيرة   ويصنع الأمجاد والسؤددا
ياقدس إن طالت بنا فرقة   فسيفنا ياقدس لن يُغْمَدَا

ويقول شاعر مدرسة أبولو حسن كامل الصيرفي في قصيدتـه : « مـيلاد أمة » ومطلعها :(١)

ثراك يا آرض أجدادي وأحفادي   أغلى من الدم عند الواهب الفادي
حملتُ ذكراك في سرِّي وفي عَلَني   أنيَّ حللتُ وفي نومي وتسْهادي
مطالع النور كانت من ينابعنا   وصرخةُ الحق كانت فوق أعوادي
إذا مشت أمة في ظل حاكمها   طليقة الرأي كنت المشعل الهادي
خَلّدتِ للدهر في أدْمَى صحائفه   تاريخ مجد لأجيال وآمادي

ويقول عمر بهاء الدين الأميري في قصيدته : « سيطول الطريق والنصرآت » يختمها بقوله : (٢)

قد كفانا يا أشقياءَ هواكمْ   أن نُسَامَ الهوان فيكم ونشقى
سيري الكونُ من تمرد ذا الجبار   مايسحق « الطواغيت » سحقا
إن « الفتح » موعدا راسخ العزم   وسعيا إلى الفداء وسبقا
بيعة في الجهاد شُقّت من القدس   إلى الخلد دربها الوعرَ شقا
سيطول الطريق لكن نصر الله   آت وعروة الله وثقى

---

(١) ولد بدمياط ٦ / ٩ / ١٩٠٨ عمل بوزارة الزراعة ثم مجلس النواب ثم بالصحافة حتى تقاعد عام ١٩٦٨ وتوفي عام ١٩٨٤ م له أربعة عشر ديوانا منها : [قطرات الندى - الشروق - نوافذ الضياء - صلواتي أنا - عودة الوحي - زاد المسافر - شهر زاد - نغمات ونسمات - النبع - الألحان الضائعة] إلى آخرها .

(٢) ديوان من وحي فلسطين : عمر بهاء الدين الأميري ص ١٦٤ : ١٦٧ .

ويقول الشاعرمحمود عماد في قصيدته : « بعد مؤتمر القمة » ومطلعها : (١)

أَوَعَى صيارفة الكلامْ ماقد عناه العَمُّ سامْ ؟
العالم المتمدين الداعي إلى سُبُلِ السلام
لَمَّا رأى العرب اهتدوا بعد الخصام إلى الوئامْ
وتعاهدوا أن يدفعوا عن مائهم دفع الكرام
قالوا اغتصاب الماء حِلٌّ والدفاع هو الحرام

إلى أن قال :

قد غَرَّكم منا التغاضي عن ذنوبكم الجسام
فاثرتموا فينا بما لكم العداوة والخصام
واليوم داوينا الجرو ح فكلهن إلى التئام
شالت نعامتكم وشا ل لصحبكم عنا النعام

ويقول الشاعر محمد عمر الطوانسي في قصيدته : « اتحدنا » ومطلعها : (٢)

صيحة الأوطان بالإيمان دوت ياعرب وحدة الأهداف قامت واعتلت هام الشهب

وهكذا إلى آخر القصيدة على نظام المقطوعات جاءت في أربع مقطوعات .

ويقول الشاعر الدكتور عزت شندي في قصيدته : « الرافضون » ومطلعها : (٣)

دعاة التمزق لاتغضبوا ولاتَنْبَحُوا اليوم أو تنعبوا
أمامكم الخيرُ والشرُّ فامضوا لأيهما نحن لا نغضب

---

(١) عود على بدء : محمود عماد ٨٦ : ٩١ وله ديوان آخر بعنوان « ديوان عماد » وهو جزءان منشور عام ١٣٨١ ـ ١٩٦١ .
(٢) ديوان سر لـ : محمد عمر الطوانسي ص ٨٤ .
(٣) ديوان مواكب الحياة للشاعر الدكتور عزت شندي موسى ١٣٦ / ١٦٤ .

وهكذا إلى نهاية القصيدة التي زادت عن ستين بيتا .

والشاعر علي شوقي يدافع عن أمته الإسلامية وعن مصالحها في حكومة مجلس الأمن التي لاتقوم على الإنصاف ، بل تتحيز لمن يضمر عداوته لها يقول في قصيدته : « نحن ومجلس الأمن » يقول في مطلعها : [١]

أما في الناس من رجل رشيد ... يمد القوم بالرأي السديد
فقد عميتْ بصائرهم وضلوا ... سبيل الرشد من زمن بعيد

إلى أن قال :

أقاموا مجلسا للأمن يدعو ... إلى السلم المكبل بالقيود
تولى كبره السفهاء منهم ... وغُصّ بكل شيطان مريد
إذا اجتمعوا على أمر مريج ... تواصوا بالضغائن والحقود
وليس السلم بغيتهم ولكن ... دهتْهم صولةُ الخصم اللدود
ومن كان له اليهود وليّاً ... فبشره بخذلان أكيد

وأما شاعر العروبة والإسلام علي الجارم فقد تناول هذ الغرض في شعره في قصائد كثيرة منها : « مصر » و « يوم السلام » ، و « العروبة » و « السودان » و « الدعوة إلى الوئام » و « بغداد » و « لبنان الثائر » و « مصر تعزي العراق » و « أفراح مصر » ، و « فلسطين » و « الجامعة العربية » و « المجمع اللغوي » و « مصر الوالهة » وقصيدة أخرى « لبنان » و « الوطن » وغيرها من القصائد التي شارك بها في مؤتمرات العالم العربي والإسلامي ؛ فقد خلت له الساحة الأدبية بعد وفاة أحمد شوقي وحافظ في قلب الأمة الإسلامية في الغرب والزهاوي والرصافي في شرقها ، فكان بشعره يواصل مسيرة الرواد من شعراء المحافظين المجددين في الشعر الإسلامي الحديث .

---

(١) ديوان علي شوقي : ص ٨٨ : ٩٤ قدم للديوان عباس محمود العقاد نشره المجلس الأعلى للفنون والآداب وقد عارض نونية ابن الرومي هو والعقاد والمازني ، ولد الشاعر علي محمد مصطفى شوقي بمدينة دمنهور في ٩ / ٩ / ١٨٩٠ وتوفي بالقاهرة في ٢٣ / ٦ / ١٩٥٦ م .

الشاعر الإسلامي
محمود غنيم

كان محمود غنيم رحمه الله تعالى في منهجه واتجاهه في شعره يتجه اتجاها إسلاميا ، بمعنى أنه قد جند لسانه وقلمه ، وشعره وفنه الأدبي للقيم الإسلامية والإنسانية النبيلة ، التي حث عليها الإسلام ؛ فيصدر عن روحه الإسلامية الصافية ، وقيمه الأخلاقية السامية ، وذلك في تصوير شعري ، وفن إبداعي وعاطفة قوية صادقة ، وخيال رائع ، وتشخيص حي بلغة القرآن الكريم لغة الإسلامي والحياة ، في جميع أغراضه الأدبية المختلفة وهي :

١ ـ حضارة الإسلام	٢ ـ الشعر القومي والعربي
٣ ـ الشعر الوطني	٤ ـ شعر الطبيعة
٥ ـ الشعر الوجداني	٦ ـ الشعر الاجتماعي والإخوانيات
٧ ـ شعر العبرات	٨ ـ الفكاهات والدعابات

وسنوضح ذلك من خلال شعره وفنه الإبداعي وأدواته التصويرية .

ولايخفى على المشتغلين بالأدب اليوم مفهوم « فن الشعر الإسلامي » فليس المقصود من ذلك أن ينظم الشاعر في شعره أبواب الفقه الإسلامي وحقائق السيرة والتاريخ ، كما ينظم علوم القرآن والتفسير والحديث والتوحيد ، ويقيم على ذلك الأدلة النقلية والعقلية ، فمثلا حينما يتحدث عن الصلاة في شعره لا يذكر شروط صحتها وحكمها وأركانها وسننها فهذا أمر ظاهر لايخفى على أحد .

وأما المقصود بالفن الأدبي في الشعر الإسلامي هو التصوير الحي ، والتعبير الجميل من خلال عاطفة الشاعر ووجدانه ومشاعره الصادرة عن موهبة ، وتأمل في مختلف مجالات الحياة الشخصية عاطفية أو فكرية أو نفسية ، وفي مجالات الحياة الاجتماعية ، التي تصور علاقة الشاعر مع أخيه الإنسان ، وفي مجالات الحياة التي تصور علاقاته مع الطبيعة والكون ، مستخدما في ذلك أدوات الفن الشعري الراقي من اللغة الحية لا العامية ، ومن الأسلوب الأدبي الرفيع لا القبيح ولا الهابط ، ومن خلال القيم الأخلاقية والإنسانية السامية لا المادية المسرفة ولا الإلحادية الضالة ، ولا الانحرافات الشاذة الذميمة ؛ لأن الأدب صبغة

الأديب وشخصيته وانطباعه وذاتيته ، يصطبغ شعره بصبغته ، فإذا كان الأديب « ارستقراطيا » فلا يخلو أدبه من « استقراطيته » ، أو « ديمقراطيا » فلا يخلو من « ديمقراطيته » ، أو ملحداً فلا يخلو أدبه من إلحاده وفساده ، وعلى ذلك فلا يصح أن ننكر على الأديب المسلم والشاعر الإسلامي صبغته الإسلامية « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » .

وهكذا كان الشاعر محمود غنيم صاحب الموهبة الشعرية الفذة ، والروح الإسلامية الطاهرة الصافية في الجاهه الإسلامي في فنه الشعري ، ويرجع ذلك إلى نشأته وحياته ، ومظاهر شعره وسماته ونذكر ذلك بايجاز .

أولاً : أثر نشأته وحياته في اتجاهه الإسلامي :

ولد الشاعر في قرية « المليج » بالمنوفية في الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٠٢ وسطا بين أخوين هما أحمد وعبد الواحد ، وحفظ القرآن الكريم في كتاب القرية ، ثم التحق بالمعهد الأحمدي الأزهري بطنطا عام ١٩١٥ / ١٩١٩ ، ثم بمدرسة القضاء ، فلما ألغيت عاد إلى المعهد ثانية ؛ ليحصل على الشهادة الثانوية عام ١٩٢٤ ، ثم يلتحق بدار العلوم فيتخرج منها عام ١٩٢٩ ويعمل مدرسا للغة العربية في كوم حمادة يقول في ذلك قصيدة « حنين إلى الماضي » : « رجع الصدى » ص ١٠١

سلام عليها في مليج مثابةً حفظت بها السبع القصار المثانيا
سلام على طنطا ومعهدها الذي نظمتُ به قبل البلوغ المثانيا
سلام على دار القضاء وأهلها وربعٍ من العرفان أصبح خاويا
سلام على دار العلوم وعهدها وهيهات هذا المعهد يرجع ثانيا
مغان عرَفْتُ العلمَ من غُرُفاتها وأودعت فيها بضعة من شبابيا

وفي عام ١٩٣٨ انتقل إلى القاهرة ، ليعمل مفتشا للغة العربية فيها ، ثم عميدا للغة العربية بوزارة التربية والتعليم ، كما كان عضوا بلجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وحصل على جائزة الشعر التشجيعية من الدولة عام ١٩٦١ في ديوانه « في ظلال الثورة » ، وقبلها على جائزة مجمع اللغة العربية متقدما على الشاعر محمد الأسمر في ديوانه « صرخة في واد » عام ١٩٤٧ ، ثم كان ديوانه الثالث « رجع الصدى » الذي قدم له الدكتور محمد

أحمد سلامه الأستاذ بجامعة الأزهر بعد وفاته في عام ١٣٩٩ / ١٩٧٩ وقد اطلق عليه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي « الكلمة الأخيرة » وقال عنه : وهو ديوان مخطوط يحتوي على ثلاث وتسعين قصيدة ومقطوعة ويجمع شعره من عام ١٩٦١ إلى قبيل وفاته ، وأنني وضعت له هذا العنوان ، إذ لم يكن الشاعر قد أسماه باسم خاص(١)

ولقد تحدث محمود غنيم عن أثر هذه الحياة في شعره فقال :

لعمرك ماصارت رسوماً بواليا ... ولكن بلينا نحن وهي كما هيا
مغان سقيناهنّ ماءَ شبابنا ... واسْقَيْننا نَبعاً من العلم صافيا
وما برحت شماء شامخة الذرا ... فهل ثم أشياخي بها ولِدَّاتيا

ثانياً : أغراض شعره :

ومن أغراضه الأدبية في شعره الإسلامي :

١ ـ شعر الحضارة الإسلامية :

تجده مثبوتا في مسرحه الشعري : كما في مسرحية « المروءة المقنعة » ومسرحية « النصر لمصر » في تاريخ صلاح الدين الأيوبي وانتصاراته . وكذلك تجدُ في قصائد كثيرة في دواوينه الثلاثه مثل قصائد : الركب المقدس ـ الوحدة الكبرى ـ شعب واحد ورب واحد ـ تحية وقضية ـ في أرض النبوة ـ ثورة على الحضارة ـ قومي بين الشرق والغرب ـ ميلاد الرسول ـ الهجرة ـ الإسراء ـ خالد بن الوليد ـ أسطول معاوية ، وغيرها يقول في (أرض النبوة) ديوان « رجع الصدى » ص ١٧ ، ١٨ .

هنا بني المصلح الأمي جامعة ... على أساسين من علمٍ وعرفان
طلابها في ربوع العالم انتشروا ... مبشرين بإصلاح وعمران
فيها تخرج سواسي البرية من ... أدنى المحيط إلى أقصى خراسان
ساسوا الشعوب بأحكامِ الكتاب فما ... أحسٍّ شعب بجور أو بطغيان
سماحة عرف الدين الحنيف بها ... مافرقت بين ألوان وأديان

---

(١) الأدب العربي الحديث ومدارسه ص ٢٢٧ / ٢ .

الله أكبر كانت سرَّ قوَّتهم ... على الجبابر من فرس وروما
شاد البُداة حضارات بها وبها ... ثَلُّوا عروشا وسلُّوا دُرَّتيجان

وفي قوله :من قصيدة (ثورة على الحضارة) في « صرخة في واد » ص٧٢:

درعتم الجو أشباراً وأميالا ... وجُبْتم البحر أعماقا وأطوالا
رسالة الغرب لا كانت رسالته ... كم سامنا باسمها خسفا وإذلالا

وفي قوله من قصيدة « قومي بين الشرق والغرب » ، « صرخة في واد » ص ٩٧ :

دين بن عبد الله دين باسْمه ... قبض « الرشيد » على الورى بزمام
هو دولة كبرى وملكٌ شامخ ... لامحض تكبير ومحض صيام

٢ ـ الشعر القومي والعربي :

وللشاعر قصائدكثيرة في تمجيد العرب والعروبة واللغة العربية وأمة العرب أينما كانت وتحرير فلسطين موطن العروبة والإسلام منها قصيدة : « بغداد » ، « انتصار الجزائر » وقصيدة « مهرجان الجزائر » و « تحية الكويت » ، « الوحدة الكبرى » ، « هزيمة العدوان الثلاثي » وقصيدتان عن « فلسطين » وقصيدة « غزة » و « لبنان » و « طرابلس الغرب » وغيرها .

يقول في قصيدته « الركب المقدس » ص ٢٣ ـ ٢٥ « رجع الصدى » :

لم يكن طه لعمري ساحراً ... يخرق العادات أو يتلو رُقاهْ
وحّد العُرْبَ وكانوا بدداً ... كهشيم النبْت من شاء رعاه
قوةٌ كامنةٌ أخرجهـــا ... مثلما يَخرجُ طلعٌ من لـواه
فإذا التيجان تهوي وإذا ... برعاة الإبـل للدنيا رعـاه

ويقول في قصيدة « بغداد » « رجع الصدى » ص ٢٧ .:

أبناء يعربَ لسنا من سلالتهم ... إن نحن لم نسد الدنيا كما سادُوا
تكتلَتْ أممُ الدنيا بأجمعها ... وأنتِ يا أمة التوحيد آحادُ
إني لأوشك أن أعتدَّ وحدتنا ... دنيا وأنّ افتراق الشملِ إلحادُ
أبنا يعرب ذودوا عن محارمكم ... إن الكريم عن الأعراض ذوَّادُ
فليعلم الغرب أن الشرق لافظُهم ... وإن أتتهم من الشيطان أمداد

ويقول في قصيدة « الوحدة الكبرى » « رجع الصدى » ص ٤٥ :

أيها العرب أرهفوا الآذانا   هل سمعتم كما سمعتُ الأذانا
هاتف عُلوي الدعاء إلى الوحـ   ـدة من عالم الخلود دعانا
أيها الهاتف السماوي أذّن   في البهاليلْ من بني عدنانا
جمع العربُ أمرهم من شتات   إن للعرب بعد ذلك شانا
سوف نحيى تراثنا من جديد   ونُزيد التراث آناً فآنا

٣ - الشعر الوطني

يدعو فيه الشاعر إلى النضال والتحرير من الاستعمار والتنكيل بالمستعمرين وتخليد مواقف البطولة ، وتمجيد الزعماء والأبطال ، وله شعر غزير في الوطن منها قصيدة « لا نكسة » و « راهب الحقل » و « معجزة السد » ، « ذكرى دنشواي » ، « ذكرى العدوان الثلاث » ، « بين عهدين » ، « من وحي المؤتمر » ، « نشيد الوطن السليب » ، « إلى مجلس الأمن » ، « إلغاء الملكية » ، « إعلان الجمهورية » ، « تأميم القناة » ، « هزيمة العدوان » ، « السد العالي » ، « أعياد النصر » لأن الدفاع عن الوطن دين وعقيدة :

يقول في النشيد الوطني ص ١٥ في ظلال الثورة :

أنـا العـربي الأبـيّ   بربي وشعبي أديـن
شعـاري سـلام يـرف   ظـلال علـى العاملـين
هـي جمهـوريـة   تملأ الدنيـا سنَـا
هتـف الكـون بهـا   ولهـا الدهـر انحنى

ويقول في « ذكرى دنشواي » « رجع الصدى » ص ١٢٩ .

يادنشوايُ وأنـت في   أرض الحمى بيت القصيدْ
أنـت التي نبَّهت أهـ   ـل الكهف من طول الرقودْ
وصَنَعْت أبطـال البـلا   د الزائدين عن الحـدودْ
النـاقمين على الدخيـ   ـل الثائرين على القيـودْ
أنت التي أشعلت كل   عزيمة في بور سعيدْ
بسلاحـك المـاضي تقلَّـ   ـدَ « مصطفى » وسطا « فريدْ »

وَوَلدت سعداً للكنانة أيها الأم الولود

٤ ـ شعر الطبيعة :

وفي شعر الطبيعة يتملّى أسرار الكون ، ويتعرف على مواطن الجمال وإبداعات الله سبحانه في كونه ومخلوقاته لتكون له صلوات في معابد الطبيعة والحياة قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ وغيرها .

وللشاعر في هذا المجال شعر غزير وعميق ، وتصوير بديع ودقيق من هذه القصائد « على سطح القمر » ، « غزو الفضاء » ، « نيسان » ، « على شاطئ البحر » ، « في الصيف » ، « فلسفة الحياة » ، « صورة شمسية » يقول في قصيدة « على سطح القمر » في « رجع الصدى » ٦٣ يخاطب سفينة الفضاء أبولو :

وكيف حملت ركبك في سلام فَقَرَّ بهم على القمر القرارُ
وكنا نحسب الأفلاك خلقا غريبا لايزور ولا يـزارُ
شهدتُ بأن لله أقداراً وغير الله ليس له اقتدارُ
وأن الجهل للإنسان مهما يزد علما ومعرفة شعارُ
وأن وراء هذا الكون ربّاً له في الكون أسرار كبارُ

ويقول في قصيدة « على شاطئ البحر « رجع الصدى » ص ٧٩ :

إن كنْتَ يابحرُ عملاقاً فأنت وما تحويه في ملكوت الله كالقَزَمْ
وما أنا لك في شعري بمنقصة يكفيك أن خصك الرحمن بالقسم
إذا تسمعْتُ خلت الموج فيك شداً بذكرِ مَنْ كوَّن الأكوان من عدم

٥ ـ في الشعر الوجداني

وفي شعره الوجداني يتغشاه نور الإيمان ورحمة الإنسان وصفاء الروح وطهارة القلب في تصوير رقيق وألفاظ عفة لاقبح فيها ، ولا هتك لأستار الحرمات في أساليب راقية لا مكشوفة ، وذلك في قصائده : « مشاعر الآباء » ، « ظلع وشيب » ، « حنين إلى الماضي » ، « غريب بين قومي » ، « تعلم كيف تنسى » ، « ثراء وشفاء » ، « يأس وآمل » وغيرها .

يقول في غزليته : « حمائم الحرم » « رجع الصدى » ص ١٠٧

حيّ حمائم الحرم بالبيت سربها اعتصمْ
سربٌ من الآرام ما حواه بانٍ أو عَلَمْ
من كل خود كسَنَا الصبح إذا الصبح ابتسم
حسناء إلا أن هذا الحسنَ بالتقوى اتّسم
يصونها من ريبة جلالٌ وعظم
ذات جمال خالص لله غيرُ متهم
في حللٍ بيض عليها طابع الزهدِ ارتسم
فضفاضة لكنها كالبدر فيها أو أتمْ
والحسن كم يزداد حسناً إن هو احتشم
مسلمة قانتة لله بارئْ النَّسم
قوامة الليل إذا جَنَّ الظلام ادلهم

٦ - الشعر الاجتماعي والإخوانيات :

يفيض عن محبة صادقة للمجتمع الذي يعيش فيه ، ويعبر عن إخلاصه في مودة أصدقائه وخلانه ، فيثني عليهم بما يستحقون عنده وتقديراً لأصدقائه ومعاصريه كالعقاد والماحي وصالح مسعود وزير خارجية ليبيا وعزيز أباظه والشيخ عبد الله الجابر الصباح والأمير صقر القاسمي ، ومحمد أحمد بنونه وأسامة حسن علوان ، ووزير المواصلات مصطفى خليل يحثه على تركيب التليفون بعد أن أحيل من الخدمة إلى المعاش يقول :

كن لي نصيرا ياخليل ياصاحب الحسب النبيل
قد صرتُ بعد تقاعدي من بعض أبناء السبيل
لايهتدي أحد إليّ ولو سعى لى ألف ميل
بيتي بدون مسرّةٍ مثل الفلاة بلا دليل

ولما تم تركيب التليفون قدم شكره للوزير قائلاً :

أنا إن شكرت لمصطفى فبشكره يُقضي الوفا
أسدَى إليّ يداً أرقُّ من النسيم والطفا

قد كنت سِرّاً خافيـا فالآن قد برح الخفـا
والآن أصبح منزلي علماً كمروةَ والصفـا

« رجع الصدى » ص ١٨٨ .

٧ ـ شعر العبرات :

ومن شعر العبرات عند الغنيم ما كان يبكي فيه العلماء الذين عاشوا من أجل الفكر والعلم ، وضحوا بحياتهم في سبيله ، فماتوا يصلون في محراب العلم والفكر ، أو كان يبكي فيه للزعماء الذين أسدوا إلى الأمة الإسلامية والعربية جليلاً ، فحملوا راية الحرية ، وتحرير أرض الإسلام من الاستعمار والمستعمرين ، لذلك بكى في شعره على موت العقاد ومحمود الخفيف والزعيم جمال عبد الناصر . يقول في دمعته على العقاد فيلسوف الشرق :

جزعَ الشرقُ وأجرى أدْمُعَهْ ليت شعري أي خطبٍ روّعَهْ
لاتلوموه على تَذْرافهـا فيلسوف الشرق خلّى موضعه
عالِـمٌ بل عالَم في رجـلٍ ليت شعري أي قبر وسّعه
عبقري العبقريات قضى فهْيَ من حُزْنٍ عليه جزّعه
إن بكتـه العبقريات دماً فهي من أوصافه منتزعه

٨ ـ شعر الفكاهات والدعابات :

ويحث الإسلام على ترويح النفس ساعة بعد ساعة ، لكنما إذا ماتفكه أو داعب أخاه ؛ ليروح عنه وعن نفسه يكون ذلك من خلال القيم الإنسانية ، لا الهجاء المقذع ، وبلا تجريح أو تهوين من شأن الأخرين هكذا كان منهج الشاعر محمود غنيم في دَعاباته وفُكاهاته ؛ فحينما يتحدث عن بط الماحي يقول « رجع الصدى » ص ٢٠٨

ولبيتِ الماحيَ صيتٌ في تربيةِ البط الزّغاط

وقال :

قد سمعنا عن بطكم ماسمعنا فأكلنا بالأذن حتى شبعنا
غير أن الأفواه تنطق همساً ماعرفنا لذلك البـط معنى

ويداعب زميله محمد برانق حين أحيل من الخدمة إلى المعاش : « رجع

الصدى » ص ٢١٤ :

قالوا أحيل إلى القعود والمداء يأسن بالركود
فأجبت كلا بل ستعود لد يامحمدُ من جديد
فغداً تتاجر في النحاس وفي الصفيح وفي الحديد
إني أعيذك باسم رب العرش من عين الحسود

رحم الله الشاعر محمود غنيم الذي كان يشدو بالمبادئ الإنسانية السامية ويتغنى بالقيم الأخلاقية الفاضلة فاصطبغ شعره بالصبغة الإسلامية العالمية فمضى في عزة مع الخالدين .

* * *

التكافل الإجتماعي

التكافل الاجتماعي نظام تشريعي في الإسلام ، يشتمل على مبادئ إنسانية ، تعتمد عليها الحضارة الإسلامية ، تكفل حق الإنسان في الحياة الكريمة وتضمن له المعيشة العفيفة ؛ فتسمو به عن الذل وهوان المسألة ، وتنتشله من الفقر والحاجة ، لأن لله عز وجل حكمة في توزيع الأرزاق ومقاديرها ؛ فيبسط الرزق لعبد ، ويقبضه لآخر ، لاستقامة الحياة وتعمير الكون ، بالتعاون بين الغني بماله والفقير بعمله وعقله ، ابتغاء مرضاة الله تعالى ؛ فمرضاته ورحمته خير مما يجمعون : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون »[١] وليس هذا التقسيم طبقيا أو للتمايز ، وإنما يرجع إلى لطف الله سبحانه وتعالى بعباده : ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴾ [٢] ، فهو القوي القادر على كل شيء ، لايرضى لعبده الذل ؛ بل العزة والكرامة ؛ لأنه هو القوي العزيز ؛ فالكفالة حق للفقير على الغني ، وليس تفضلا عليه ، وإنفاق الغني يخلفه الله عليه بأكثر منه : ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ [٣] وقوله تعالى : ﴿ له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴾ [٤] ؛ لأن بسط الرزق للجميع على السواء لاتستقيم عليه الحياة ، ويشيع البغي والظلم والتسلط في الأرض ؛ لذلك فقد قدرها حسب طبيعة خلقه ومقتضيات التعمير في الحياة فهو سبحانه وحده خبير بخفايا عباده ، بصير بأحوالهم ، ومايعود عليهم بالخير والسعادة في الدينا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ [٥] وهو ما يصوره الحديث الشريف : « إن من عبادي من أغنيته لفسد حاله ، وإن من عبادي من أفقرته لفسد حاله . . » .

ومن هنا شرع الإسلام نظام التكافل الاجتماعي ؛ ليحث الأغنياء على الإنتاج والاستثمار ، ويضمن حق الفقراء والضعفاء والمحتاجين ؛ فقد أجراه الله

---

(١) سورة الزخرف : آية ٣٢ . (٢) الشوري : آية ١٩ . (٣) سورة سبأ : آية ٣٩ .
(٤) سورة الشورى : آية ١٢ . (٥) سورة الشورى : آية ٢٧ .

الغني الوهاب على أيدي الأغنياء ، فلا ينفقونه تفضلا عليهم ، بل هو حق لهم قال تعالى : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ (١) .

وحق الفقراء والمحتاجين ، وكفالة الحياة الشريفة لهم نظمها الإسلام في صور كثيرة ، وأنماط متنوعة منها : الزكاة ، والصدقات ، والتبرعات في الكوارث والنكبات وبناء المدارس والجامعات والمصانع والجمعيات الخيرية والملاجئ والمؤسسات الاجتماعية للمعاقين والمسنين واليتامى ، ومحاربة الغلاء والاحتكار وبناء البنوك الإسلامية ، ومشروعات الزراعة والفلاحة ، والتكافل الاجتماعي بين المسلمين وأهل الذمة والأقباط وغير ذلك مما يدخل في نظام التكافل الاجتماعي لأعمال البر والخير ، وتعمير الحياة والرقي بالمجتمع الإسلامي .

وهذه الأنماط الإنسانية صورها الأدب الإسلامي في كل العصور الأدبية لكنها جاءت متفرقة في أبيات بين الأغراض الأدبية الأخرى في القصيدة الواحـــدة . أو في المقطوعة الأدبية ، ولم تقتصر قصيدة على نمط من أنماطها إلا في الأدب الحديث غالباً ، الذي سنقف عنده طويلا ؛ فيأتي مرة في الأدب القديم مع غرض الفخر مثلا كما في قصيدة الشريف المرتضي ، يقول : (٢)

وكم ثـوتْ منكم الأحوالُ فاسدةً … حتى صرفْتُ إليها وَجْهَ إصلاحي
لا لذَّةَ لِي في غير الجميلِ ولا … في غَيْرِ أودية المعروف أفْراحي
دفعْت عنكم بما تجلو القيونَ وقد … دفعتم الشرَّ عجزاً عنه بالرَّاح
إن كات ريْحكم مالاً بغارقكم … فليس غير الأيادي البيض أرباحي

ويرثي العباس بن الأحنف لحال الفقير ؛ فيقول : (٣)

يمشي الفقير وكلُّ شيءٍ ضِدُّهُ … والناسُ تُغلقُ دونَه أبوابهَا
وتراه مبغوضاً وليس بمذنب … ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذاثرْوَةٍ … خضعتْ لديه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً … نَبَحَتْ عليه وكشَّرتْ أنيابها

ويقول ابن الرومي :(٤)

---

(١) سورة المعارج : آية ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) الديوان : ص ٢٠٣ / ١
(٣) الديوان : ٦٣ .
(٤) عبقرية ابن الرومي : للمؤلف ص ١٥ .

جُعلتُ فداك لم أسألك ذاكَ الثوبَ للكَفَنِ
سألتُك لألبَسَهُ وروحي بَعْدُ في البَدَنِ

ويصور المتنبي الزاد ، وقد نفد ، حين يمدح محمد بن زريق ، فيقول : (١)

محمدٌ بنُ زُريقٍ مانرى أحداً إذا فقدناك يعطي قبل أن يَعدَا
وقد قصدتُك والتِّرحال مُقْتربٌ والدار شاسعةٌ والزادُ قد نَفدَا
نَخلٌ كفُك تَهمي وَاثْنِ وابِلَها إذا اكتفيتُ وإلاَّ أغرقَ البَلَدا

وغير ذلك مما ورد في الشعر الإسلامي قبل العصر الحديث ، مما تعرضت له قبل ذلك في هذا الكتاب ، أو في كتابي : « من الأدب العباسي دراسة ونقد » . وغيرهما .

صور الأدب الإسلامي اليتيم ، ليحرك العواطف نحوه بالحب والعطف والحنان ، فيرعاه المجتمع رعاية مثل غيره من أبناء المجتمع ، ويصير عضوا صالحا وجادا في بناء المجتمع ورقيه ، على النحو الذي شرعه الإسلام لكفالة اليتيم ورعايته مما هو معروف في التشريع الإسلامي ، وتعرض لذلك كثير من الشعراء فالشاعر أحمد محرم يحذر الأوصياء على اليتامى من السطو على أموالهم وتبديدها في غير مصالحهم ، ولا يأكلون أموالهم بالباطل ، واليتيم أحوج إليها لأنهم محرومون من ملذات الحياة ، بينما هم ينعمون بالطيبات ، منغمسون في الملذات والشهوات ، يقول أحمد محرم : (٢)

يا أمينَ الله في النَّفْس التي شَفَّها اليُتْمُ فَذَابتْ ألما
ذنبُ قَفْر أنت ؟ ! أم أنت امرؤٌ يتقّي الله ويرعى الحُرُما
تأكلُ المالَ الذي استَرْعاكه غافلٌ عن شأنه ماعلما
مُشْرِعٌ تكرع في سَلْسَاله وهو مُلْتاعُ الحشا يشكو الظَّمَى
تأخذ الدينارَ إنْ أوليتَهُ جانبَ الرِّفْق وتُعطي الدِّرهما
شَفَّهُ من سوء عيش وأذىً مابَرَى اللحْمَ وهَدَّ الأعظما
نال منه الضُّرُّ حتى لَوْ مَشَى بين جَنْبَيْ نائم ماحلما

---

(١) الديوان : ص ١١٣ . (٢) ديوان محرم : ١٥٧ / ٢ .

ويصور الشاعر محمود أبو الوفا في شعره « اليتيم الأول » في صورة أدبية تثير مشاعر العطف عليهم والرعاية لهم ، كما يصور الشاعر عبد الرحمن شكري حال اليتيم تصويرا يثير العواطف ويحرك المشاعر ، فيحث المجتمع على كفالة اليتيم ، وكل من فقد العيش فهو يتيم ، حتى لاينشأ حاقداً على الذين ينعمون في الحياة من حوله ؛ فيتحول إلى مجرم خطير يضر مجتمعه ، ويسيء إلى أمته فحينما يرعاه المجتمع ، ويكفل له العيش الكريم ، يعوضه عما حرم منه في الحياة منها قوله : (٢)

يظل حَسُوراً للذين أظَلَّهم — من العَيْشِ فينانُ النعيم رَطيبُ
وماعلّم الغلَّ الفتى كمصيبة — دهته فَلَمْ يعطف عليه ضريب
عزاءُك لايلممْ بك الضيمُ إننا — يتامى ولكن الشقاءَ ضُروب
فهذا يتيمٌ ثَاكِلٌ صفوَ عَيْشه — وذاك مَن الصَّحْب الكرام سليب
وكل امرئ في الناس باك وضاحكٌ — وكل يتيمٍ لليتيم نَسيب
فإنْ شِئْتَ فاعْدُدْ من رُزِئْتَ امانياً — وأنك منها ماحَيِيت سليب

ويرى فؤاد الخطيب أن اليتيم هو الذي يعاني الجوع والعرى والمرض أسكتته الأرزاء عن الكلام في صمت الأحزان ، ولو تجسمت أناة المحرومين وتكلمت أحزانهم لعزفت بأوتارها ألحانا باكية ، تدمي القلوب ، وتقرح الأجْفان ، يقول في قصيدته : « الآلام والأيتام » منها قوله : (٢)

من ذَا المُطلُّ يعاني العُرْىَ والسَّقَما — يكاد يُصْعَقُ تحتَ الرزء مُنْخَطما
هو اليتيمُ هو المنسيُّ ، نِضْوضنيٌ — ومايحرك بالوجد الدفين فما
في صدره الغضُّ دنيا لَوْهيَ انكشفتْ — أبصرتْ في طيهّا الأهوالَ والنِّقَما
يلوذُ بالصَّمت والأحزانُ إن صمتتْ — أزرتْ بكل بيان سَالَ مُنْسجما
ولو جَمعْتَ دموعَ اليُتْمِ فاتَّسقتْ — عقْداً ، وكلَّ أنين فيه فانتظما
وكل لوْعة محزون مُحَجَّبة — في النفسِ حتى التَقَتْ ثم استوتْ كلما
لما استطعت تميطُ السِّتْر عن صُوْر — للحزن تنطق بالهول الذي انكتما
لو أحسَّتْ به الأقلامُ لا نحطمتْ — رُعْباً ولو كان يَدري اللفظُ لاضطرما

---

(١) المجموعة الكاملة : ص ١٣٧ .
(٢) الديوان : ص ٥٠٦ .

ويصور الشاعر عزت شندي اليتيم تصويراً أدبيا ، تنفطر له القلوب يستثير بها عطف الناس عليهم ، ورعايتهم له ، ليعوضوهم عن الحرمان ، ويخففوا عنهم الأسى والألم في قصيدتين ، نكتفي منها بأبيات ؛ فالأولى : « يتيم » في أربعة وعشرين بيتا في ديوان : « مواكب الحياة » ص ٢٨٩ / ٢٩٠ ، منها قوله :

أرأيت ذاك الطفل يبكي دون من يُنْهي دموعَـه
مُتململا يطوي على الآلام والشكوى ضلوعَـه
متضرعـاً بين الصغار مُحَاذِراً يُبدي خشوعـه
فإذا صحا سَئِمَ الحيـاة وإنْ أَوَى قَاسى هُجوعَه
لم يلقَ من يروي صداَه ولا الذي يكفيه جوعـه

والثانية : « اليتيم » في تسعة وعشرين بيتا ، من ديوانه « مع الله ورسوله » ص ٢١٩ : ٢٢٣ منها قوله :

وأطعمت من زادي اليتيم مُقَدَّماً ... أطايب ما أقتات غير ضنين
وجُدْتُ له بالمال حين خصاصة ... وقد لاتعي يُسَرايَ بذلُ يمين
عجبت لمن يلقي اليتيم يدعُّه ... ولايرعوي يَوْماً لوازع دين
ويأكل من أموالـه وكأنما ... هي النار تذكي جمرها ببطون
أليس له قلب يحس ومُهْجَةٌ ... فيخشى عذابا في أحرِّ أتون

أما الشاعر حافظ إبراهيم فقد تناول اليتامى ورعاية الأطفال في قصائد كثيرة ، في الجزء الأول من ديوانه ، منها قصيدة « رعاية الأطفال » وهي طويلة ص ٢٧٥ ـ ٢٧٩ ، وقصيدة « ملجأ رعاية الأطفال » وهي طويلة ص ٢٨٣ : ٢٨٨ ، وقصيدة « محاورة بين حافظ وخليل مطران في حفل أقامته جمعية رعاية الطفل بالأوبرا » ص ٢٩٢ : ٢٩٦ ، وقصيدة « ملجأ الحرية » للأطفال ص ٣٠٧ : ٣١٠ ، وغيرها ثم قصيدة « جمعية الطفل » ص ٣١٠ : ٣١٢ ، ألقاها في الحفل الذي أقامته هذه الجمعية في يوم الثلاثاء أول مايو سنة ١٩٢٨ ، منها قوله :

أيها الطفلُ لا تخفْ عَنَتَ الدهـــرِ ولاتَخْشَ عاديات الليالي

قيَّضَ اللهُ للضَّعيف نفوسا تعشق البرَّ من ذوات الحجال
أيْ ذوات الحجال عشتنَّ للبـــــرِّ ودُمْتنَّ قـدوةً للرجـــال
لم يكونوا ليدركوا المجد لَوْلاَ كُنَّ أو يسلكوا سبيلَ المعالي
بسمةٌ تجعل الجبانَ شجاعاً وتعيدُ البخيلَ أكرمَ نالِ

إلى أن قال :

شاع بؤسُ الأطفال والبؤسُ داءٌ - لو أتيح الطبيبُ - غير عُضال
أيّدوا كلَّ مجمع قام للبـــرِّ بجاره يُظلِّمُهُ أو بمـــال
كـم يتيـم كـــادت بــه البأســـاءُ لــولا (رعاية الأطفال الخ

ويصور سماحة الإسلام في تعامل المسلمين مع أقباط مصر في محبة وتآلف في ص ٢٨٨ : ٢٩٢ كما يحث شاعر النيل على بناء المدارس والجامعات لتعليم الأطفال في قصائد كثيرة من الجزء الأول منها : « إلى رجال الدنيا الجديدة » ص ٢٥٩ : ٢٦١ ، وقصيدة « مدرسة مصطفى كامل » ص ٢٦١ : ٢٦٤ ، وقصيدة « إلى ناظر المعارف سعد زغلول باشا » ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ وقصيدة « الحث على تعضيد مشروع الجامعة » ص ٢٦٥ : ٢٦٨ ، وقصيدة أخرى « في الحث على تعضيد مشروع الجامعة » ص ٢٧٢ : ٢٧٥ ، وقصيدة « مدرسة البنات ببورسعيد » ص ٢٧٩ ، وقصيدة « جمعية الاتحاد السوري » ص ٢٩٩ : ٣٠١ ألقاها في حفل خيري أقامته الجمعية لإعانة الطلبة الشاميين وكذلك الشاعر أحمد شوقي اهتم بهذا الجانب بالعلم والتعليم وإنشاء المدارس والجامعات والمؤسسات العلمية وقصيدته « الأزهر » مشهورة وكذلك قصيدته في « العلم والتعليم » ومطلعها :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا [١]

وحين يسمع الشاعرأحمد محرم بسفر إحدى البعثات العلمية إلى أوربا ينشد فيهم مستقبل الأمة المجيد ، وأن يتحقق على أيديهم رقيها وحضارتها يقـول : [٢]

---

(١) الشوقيات : ٢٢٤ / ١ .
(٢) ديوان محرم : ١٠٤ ، ١٠٥ / ٢ .

يابعثة الأمل المخضرُ جانبه ... يحيا به الراجيان : الشعبُ والوطن
سيروا إلى الأفق الغربي عن أفق ... انتم أهلّته تجلّى به المحن
وحدّثوا القوم أنّا أمةٌ عرفتْ ... معنى الحياة فلا نومٌ ولاوَهَنُ

ويصور الأدب الإسلامي البؤساء والمحرومين ورعايتهم ، والوقوف مع المصابين وأصحاب العاهات ، والإحسان إليهم ، والتعاون مع من تعرض لنوائب الدهر من الكوارث والنكبات ؛ ليتخطى هؤلاء جميعا أزمات البؤس ومحنة الشقاء ، ومرارة الحرمان ؛ فتعود الابتسامة على شفاههم ، ويطمئنوا إلى الحياة الهنية ، وينعموا بالمعيشة الكريمة ؛ لأن الإسلام حث على التكافل والتعاون والمشاركة في علاج الفقر والبؤس ، وإنصاف المنكوبين ، والإحسان إلى المحرومين والمصابين ، يقول أحمد شوقي : (١)

والبر عندك ذمة وفريضة ... لامنّةٌ ممنونةٌ وحِباءُ
جاءتْ فوحّدتِ الزكاةُ سبيلَهُ ... حتى التقىَ الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل في حق الحياة سواء
فلو أن إنسانا تخيّر ملةً ... ما اختارَ إلا دينَك الفقراء

ويصور محمود أبو الوفا بؤسه في الحياة ، وما يعانيه من العاهة التي أصابت رجله ، ولازمته في حياته فيوجه شعره مستعطفا ومسترحما حافظ إبراهيم صاحب ترجمة كتاب « البؤساء » لفيكتور هوجو ، وغيره من المنصفين فيقول : (٢)

ياصاحب البؤساء جاءك شاعر ... يشكو من الزمن اللئيم العاتي
لم يكفه أني على عكازة ... أمشي . . فحط الصخر في طرقاتي
ثم انثنى . . يُزْجى عليَّ مصائبا ... سُحُباً كقطعان الدُّجَى جهمات
في ليلهن فقدت آمالي الألي ... صاحبنني مذ لاح فجر حياتي
فغدوت في الدنيا ولا أدري أمن ... أحيائها أنا . . أم من الأموات

---

(١) الشوقيات : ٢٦ / ١ .
(٢) المجموعة الكاملة : ص ١٣١ .

ويلقى العقاد اللوم على الأغنياء لجحود قلوبهم على الفقراء ، الذين يتعرضون لمحنة البؤس ، وينبغي أن يمسحوا دموع البؤساء : يقول :[١]

عتب الغنى على الفقير يعالجُ العيْش الحديبا

يلحاه أن يدع الدمَقْس ويلبس الطِّمْرَ المعيبَا

لو كُنتَ تُنصِفُ ماعَذَلتْ عَلى كآبته كئيبـا

مهلا لتعلم من تلوم إذا كرهت بنا قطوبـا

أنت الملومُ فلو أردت رأيتني جذلاً طروبا

ويصورإسماعيل سري الدهشان شناعة البخل لمن أمتن الله عليهم بنعمة المـال ؛ فتنكـروا لأهليـهم وذويـهم ، وأمسكوا أيديـهم عن الفقراء والمحتاجين يقول : [٢]

في الضيق كان يـزورُني يشكو إليّ مـن الحَـرَجْ

وَأحُـدُّ مِـنْ أشجـانـه وأُريــه ناحـيـةَ الفـرج

لكـن لـمـا اغتنــى إن زرته قالوا : خـرج

وهـو المقيـم ببيتـه لكنْ كَذَا أهلُ الْعِـوَجْ

مازرتــه مستعطيـا أترى تَذكَّـرَ فانـزعـج

وتناول الشعراء اهتمام الشئون الاجتماعية بالمحتاجين وبمشروع معونة الشتاء ، وبإقامة المشروعات والمصانع لهم ، وبمشروع القرش وبمحاربة الاحتكار وغلاء الأسعار ، والاهتمام بفتح البنوك ومؤسسات الاقتصاد والتصنيع ، من هؤلاء الشعراء ، الشاعر محمد فضل إسماعيل في قصائده « اليوبيل الفضي للشئون الاجتماعيـة ص ٢٢٤ ، و « معونة الشتاء » ص ٢٤٧ ، وقصيدة « المصنع

---

(١) ديوان العقاد : ص ١٧٠ .

(٢) هـذا هـو اسـم الشهـرة واسمـه فـرج بن محمد بن علي الدهشان من مواليد سمنود في ١٢ / ٩ / ١٩٨٤ م بعد حصوله على الابتدائية عمل مدرسا ثم موظفا بمصلحة البريد ثم انتقل إلى الاسكندرية وصار شاعر الأمير عمر طوسون ، ثم عاد إلى سمنود وبعدها إلى القاهرة ، وكان عضوا بجماعة أبوللو ، ثم استقر في سمنود ، وله دواوين مطبوعة ومخطوطة ، وله روايتان ومؤلفات مخطوطة ،وتوفي ٦ / ٢ / ١٩٥٠ م من ديوانه « بين الجد والجيد » ص ٦٣ ، وله ديوان آخر مطبوع من جزأين .

والعامل » ص ٢٠٢ ، وغيرها . والشاعر العقاد في قصيدته عن مشروع القرش في ديوانه ص ٣٧٠ ، والشاعر عامر بحيري في قصيدته ص ٢٩ ، ويحتفي أحمد محرم بالعيد القومي ببنك مصر ومشروعاته الاقتصادية [١]، وقصيدة محمود أبو الوفا في « بنك مصر » في المجموعة الكاملة ص ٢٥٨ ، وقصائد الغلاء والاحتكار للعقاد في قصيدته في مجموعته ص ٢٣١ ومنها :

ليس البلاء بلاء القوت نندبه — بل البلاءُ بلاءُ الخُلْف نَنْعَاهُ
مَا أَبْخَسَ الروح في مصر وأرخصها — وأنفَسَ الخُبْزَ في مصر وأغلاه
لاتَحسَبُوا أُمَّةً يعلو أعاظمها — إذا الفقيرُ طلابُ القوتِ أعياه
وَالهَفَ نفس على قومٍ إذا نظروا — ذلَّ الفقير سعوا في كشف بلواه

وقصيدة « غلاء الأسعار » لحافظ إبراهيم في الجزء الثاني من ديوانه ص ٣١٦ وقصيدة محمد الأسمر في ديوانه ص ١٦٧ منها :

هذه الحربُ غيرتْ كلَّ شيء — لم يعدْ عيْشُنا كما كان عيشاً
مالهذا الغلاءُ يزحفُ كالسَّيْلِ ويغشى كالليل ساعةَ يغشىَ
نحن غرقى فيه وحَسْبُك منه — أن يكونَ الجُنيهُ عِشْرينَ قرْشا

ويصور أحمد محرم حريق ميت عمر ، يدعو فيها المجتمع إلى التكافل والتعاون مع المنكوبين ، وإعانتهم على نكبتهم ، وتخفيف آلامهم ، ثم يشيد بكرمهم وتسابقهم إلى فعل الخيرات ؛ فيقول : في ص ٧٥ / ٢ منها قوله :

قومٌ إذا سئلوا المعونة أحسنت — مثنى أياديهم جواب السائل
ولقد تبينت الرجال فلم أجد — في الناس ألأمَ من غنيٍّ باخل

وحافظ إبراهيم في قصيدته « حريق ميت غمر » في ص ٢٥٠ / ١ ومطلعها :

سائلوا الليلَ عنهم والنهار — كيفَ باتتْ نساؤُهم والعذارى

كما صور الأدب الأسلامي الفلاح ومايعانيه من قسوة العمل والمعاناة ويحث المجتمع والدولة على تيسير مشروعات الري والصرف وبناء السدود

---

(١) شاعر العروبة والإسلام ، أحمد محرم : د محمد إبراهيم الجيوشي ص ١٨٨ .

وإعانته أثناء القحط والجدب ، وإمداده بما يحتاجه ليواصل زراعته ؛ فيعود على الأمة بالكفاية والرخاء ، وقلما تجد شاعرا في الأدب الحديث يتخلى عن تصوير الفلاح ، وكفاحه ونتاجه القومي يقول الشاعر إبراهيم محمد نجا في ليالي الحصاد في ديوانه :

يالياليَ الحصادِ دمت ولا طا فتْ بمغناك طائفاتُ العَوادي
ما أحَبَّ السُّهاد فيك وإن كا ن عجيبا في الليل حب السهادِ
ياليالي الحصادِ قدْ طلع الفجْــرُ بشيراً باليمن والإسْعاد
فاستفاقَ الوجودُ وانْتَبه الكو نُ وغَنّى له الزمانُ الحادي
ياليالي الحصادِ عودي إلينا كل عامٍ على مدى الآباد

ويصور الهمشري مايعانيه الفلاح من قسوة الإقطاع ، وثرواتهم التي تنمو من دم الفلاحين الكادحين الذي ينزف ، ويذوب في حقول الشقاء والحرمان ، بينما يخلع السلطان علىَ جبين القُساة الجبابرة الرتب والألقاب والنياشين يقول : (١)

واسوأتاه لأرض أصبحت غُنُماً ترعاه عاجلةُ الأسقام والنُّوَبِ
تزداد ثروتها والقوم نَخْوتهم تهوى فُتُوَّتَهـا خوارة العصب
أهل الإمارة من صيد غطارفة أو من ذوي الجاه والألقاب والرتب
أحوالهم أبداً رهن لمنقلب تحوَّل من زاهر يوما إلى عطب
لكن أهل القرى الأبطال كلهم فخرُ البلاد الشداد العزم والهمم
إذا همو ذهبوا وانثل صرحهم وغالهم غائل الآرزاء والسقم
فلا مرد لهم .. لاشيء يخلفهَم من بعدهم .. كل شيء بات كالعدم

وللشاعر محمود غنيم قصيدة « راهب الحقل » ص ١٢٢ ، ديوان رجع الصدى ، وقصيدة « السد العالي » في ص ١٢٥ ، وقصيدة كيلاني حسن سند « هكذا غنى الفلاح » ، « في العاصفة » ص ٣٤ ، وقصيدة الشاعر حسن

---

(١) محمد عثمان الهمشري وشهرته محمد عبد المعطي الهمشري عاش (١٩٠٨ - ١٩٣٨ م) ولد في السنبلاوين بالدقهلية وهو شاعر الطبيعة الساحرة ومن شعراء جماعة أبوللو : الهمشري حياته وشعره : صالح جودت ص ٨٣ .

جاد حسن « أمل الفلاح » يقول فيها : (١)

اللهُ للفــلاحِ في بؤســه وصرخةُ الآمـال في نفسه
يبخسـه الدهـرُ وأوطانُـهُ عـونٌ مع الدهر على بخسه
ومـاسرى في أفقه كوكـبٌ إلا وغَضّ الطرفُ مِنْ نَحْسه
مضنىً يفُض الدَّهْرُ عن كدحه وتسْمُرُ الأيامُ في بأسـه
علَى مُحَيَّاهُ سطـورُ الضَّنَى قَدْ خَطَّهـا المقدورُ عن تعسه
تحسُّ ذلَّ البؤسِ في صوته وتُدْرك التَبْريحَ في جَـرْسِه
الفقرُ والجهلُ وأسقامُـه معاولُ الهدم في رأسه
يبيتُ صفر اليدين من عَدمه والذهبُ الإبريزُ مِنْ غَرْسِه
وقوتـه ماخلَّفتْ أرضُـهُ من حنظلِ الزرعِ ومِنْ يبْسه
يعيش بين الهـم في كـوخه كأنه لم يكن من إنْسه
مَنْ أسكن المُتْرفَ فردوسَه يسكن في المعتم من رمسه
ومن كسا الوادي حريرَ المُنَى مُرقَّعُ الأطْمار مِنْ لبُسْه
فكم شواه القيظ في جَمْره وكم طواه البردُ في قرْسه
هل للمنى الجرحى بأحشائه هزَّةُ عطف من بني جنسه
وطِبُّوا لِعَاصِي الداء في جسمه واشفوا عضال الجهل في نفسه
واسْقوه عذبَ الماء لا آسناً يُرَنِّقُ المكـروب من كأسه
وكافحوها فيه أُميـةً تنفث روح الشرِّ مِن رِجْسه
يضاعف الصحةُ مِن عزمه ويرهف التعليم من حسه
لاتحرموه من جَنَى غرسه واحموا الجنَى الغالي من وكسه
واستبدلوا من كـوخه جنةً مِنْ رَافه العيْشِ وفردوسه
إن تُسْعِدوه اليومَ في ظله يَنْسَ مريرَ العيش من أمسه
أو تنهضوه تنهضوا بالحمى وترفعوا المخفوض من رأسه

(١ـ) في ديوانه المخطوط ، ونشرت في مجلة الأزهر المجلد السابع عشر ص ٢٣٨ جمادي الأولى عام ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م استحق عليها الجائزة الأولى من إذاعة بريطانيا .

وغيرها من الشعر الإسلامي ، والتصوير الفني الصادق ، الذي تتفتح له منافذ الإدراك الكثيرة من العاطفة والمشاعر والأحاسيس والقرائح والعقول في الأدب الإسلامي ، الذي شدا به شعراء آخرون منهم نجيب الكيلاني ، وسيد قطب ومحمد محمد الزبيري وإبراهيم عزت ، وعبد الحميد الديب ، وجمال فوزي ، والشابي ، وعمر أبو ريشه ، والرصافي يقول جمال فوزي : [١]

الخراب الخراب في كل ركن   أزمات في النقل والإسكان
أزمات في العيش أنكى وأقسى   أزمات الأخلاق هزت كياني

الطبيعة

الطبيعة هي الآيات المحسوسة والإيحاءات الملموسة ، أبدع الله سبحانه وتعالى مظاهر الحياة ، ونواميس الكون ؛ فكان الإنسان فيها أبدع آياته مع أنه قدّ منها : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحس تقويم ﴾ [٢] ؛ فهي مصدر حياته ، تربطه بها نواميس ربانية في الماء والهواء والنبات والحيوان والجماد . لايستغنى بعضها عن الآخر ، بل يتعاطفون في وحدة متكاملة ، وفي الترابط والتعاطف سر وجوده ونمو حياته ، واستمرار بقائه ، فلا يمكن أن يستغنى عن التراب والماء والهواء ، وما ينتج عنهما من نبات وحيوان وطير وحشرات وجماد ؛ فعلاقاته بها وثيقة في توازن واتزان بين المخلوقات ، التي تخضع جميعا لنواميس الحياة التي أبدعها الله تعالى ، وقوانين الكون ، التي نظمها سبحانه قال تعالى : ﴿ أفسحبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا ترجعون ﴾ [٣] ، وميز الإنسان عنها بعقله وتكليفه في الأرض ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [٤] .

واستخلفه عليها وسخرها له فقال تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولايزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولايزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾ [٥] ، وقال تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك

---

(١) الصبر والجهاد : ديوان جمال فوزي ص ١١٢ دار الأنصار القاهرة ١٩٩٧ م .
(٢) سورة التين : آية ٤ .   (٣) المؤمنون : آية ١١٥ .
(٤) الإسراء : آية ٧٠ .   (٥) فاطر : آية ٣٩ .

سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ (١) ؛ بل وعد الله عز وجل أن يمكن المؤمنين من الأرض ومافيها من أسرار الحياة وآيات الكون فقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) .

وحمّله أمانة التسخير ، وحثه على التدبر في آيات الله في السموات والأرض ، وإبداعه في خلقه ليزداد إيمانه قال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ (٤) .

وحثه على أن يستخدم التسخير فيما هيأه الله له ، ابتغاء مرضاته ليكون عمله بناء وصالحا ، لافاسدا ومدمرا كما جاء في الآيات السابقة ، فقد حذر من كفر بنعم الله عز وجل بالفسق والخسران والكفر ، والعقاب ، وعذاب النار وغير ذلك ، وكما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد ، الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا . . ﴾ (٥) ، وقال تعالى في سورة النحل : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ (٦) .

وموقف الأديب والشاعر من الطبيعة ، ومظاهر الكون والحياة لايخلو من الاتجاهات الآتية ؛ فمنهم من يصورها مجردة كما هي في الواقع ؛ لينبه غيره إلى آيات الله في الكون كما تنبه هو ؛ فيتدبرها ، ويتأمل في مخلوقاته ، ومنهم من

---

(١) الأنعام : آية ١٦٥ .   (٢) النور : آية ٥٥ .   (٣) آل عمران : آية ١٩٠ ، ١٩١ .
(٤) الغاشية : آية ١٧ : ٢٢ . (٥) البقرة : آية ٢٦٧ ، ٢٦٨ . (٦) النحل : آيات : ٣ : ١٨

يصورها في إطار من المشاركة والتجاوب بين عاطفته ووجدانه ، وبين مظاهرها فيتبادلان التعاطف والمشاعر ؛ فيحبها وتحبه ويتألم لها ، وتأسى له في مشاركة وجدانيـة بينهمـا ؛ ليدفع غيره أن يتبادل هو كذلك في آيات الكون ومظاهر الطبيعة ؛ فيتجاوب معها حباً بحب ، وحفظا بحفظ ؛ ولقد حث الإسلام على ذلك ؛ فالله سبحانه وتعالى ضاعف الأجر والثواب للرجل ، الذي سقى كلبا وهو يلهث من شدة العطش ؛ فملأ له خفه من البئر لينقذه من الهلاك ، ودخلت أمرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعا ، وحث القرآن الكريم في آيات كثيرة على رعاية الزروع والثمار والحيوانات والمياه والأنهار فعلى الإنسان أن يرعاها ويحافظ عليها وينميها ، ويلبي حاجاتها من الشراب والطعام ، للاستمتاع بها والانتفاع منها ، كما في الآيات السابقة وغيرها ، والأحاديث الشريفة كثيرة في ذلك .

ومنهم من يسلك اتجاها أكثر من التعاطف والتجاوب مع مظاهر الطبيعة فيصورها بمنظور أسمى عن طريق السمو النفسي ، حين يقف على أسرارها بنور الخالق الذي أودعه فيها ، ومن خلال الإشراق الروحي والحضور الوجداني فيدرك في نشوة صوفية إبداعات الله في خلقه ؛ فيأوون إليها ويأنسون بها ؛ لأنها لا تضمر لهـم حقدا ولا أذى أو شرا ، بعيدا عن الإنسان الذي يحمل الخير والشر معا ، والطبيعة في الاتجاهات السابقة ، تتخذ لها طرقا كثيرة للتعرف على الله عز وجل بالتدبر لآيات الله في الكون والحياة والطبيعة ، سواء بالتصوير المجرد غير المباشر أو بالتصوير الحي المباشر في تجاوب وتعاطف ؛ ليزداد الإنسان إيمانا بخالقها ومبدعها على إيمانه .

وقد يتطرف الأديب فيزعم بالباطل أنه يرى ذات الله سبحانه وتعالى عما يشركون - لا آياته - في مظاهر الطبيعة ؛ فهي التشخيص الحي - عندهم العلمانيين - للألوهية ، التي لاترى ، وهذا مرفوض في الأدب الأسلامي وأكثر منه رفضا ونكراً ، هو ما اتجت إليه « الوجودية » حيث يزعم دعاتها بالباطل أن الله عز وجل في الطبيعة ولايوجد في سواها - تعالى الله عما يصفون - مثل هوجو وبيرون وشيلي وغيرهم .

والشعر العربي عامة والإسلامي خاصة تناول الطبيعة في العصور الأدبية جميعها ، فكل عصر أدبي يتخذ له اتجاها من الاتجاهات غير المرفوضة السابقة حسب التطور في فن الطبيعة ، والتعمق في مظاهره ، فقد اشتهر كثير من الشعراء

في العصر العباسي بشعرها ، منهم أبو تمام في قصيدته الطويلة المشهورة :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حلية يتكسر

إلى أن قال :

ياصاحبي تقصَّيا نظريكما تَرَيَا وجوهَ الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمساً قد شابه زهرُ الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاشٍ للورى حتى إذا حل الربيع فإنما هي منظر
مصفرةٌ مُحمَّرةٌ فكأنهـا عُصُبٌ تيمن في الوغى وتَمَضَّر
منْ فاقع غضٍّ النبات كأنه دُرَرٌ تُشَقَّقُ قبل ثمُ تُزَعْفَرُ
أو ساطع في حمرة فكأنما يدنو إليه من الهواء معصفر
صنع الذي لولا بدائع لطفه ماعاد أصفر بعد إذ هو أخضر
خلق أطَلَّ من الربيع كأنـه خلق الإمام وهديه المتنشر

ويقول ابن الرومي : (١)

حيتك عنا شمال طاف طائفها بجنة فجرت روحا وريحانا
هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه موسوسا وتنادى الطير إعلانا
ورق تغنى على خضر مهدلة تسمو بها وتمس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزة عطفيه نشوانا

واشتهرشعراء الشام بشعر الطبيعة مثل النامي ، والزاهي ، وأبي الفرج الببغاء ، وأبي الفرج الوأواء ، وكشاجم ، والسرى الرفاء ، والصنوبري (٢) وغيرهم ، وكذلك شعراء كثيرون في الأندلس والمغرب والقيروان منهم ابن هانئ ، وابن شهيد ، وابن دراج القسطلي ، وابن زيدون، والمعتمد بن عباد ، وابن حمد يس وابن عبدون وابن خفاجة وابن سهل ، ولسان الدين الخطيب وغيرهم يقول ابن خفاجة في تصوير الجبل :

---

(١) انظر كتابي عبقريته ابن الرومي شاعر العصر العباسي تناولت فيه شعر الطبيعة عند كثير من الشعراء في العصر العباسي وغيره بين التأثر والتأثير .

(٢) انظر كتابي من الأدب العباسي دراسة ونقد في تحليل قصيدة له في دراسة فنية ونقدية .

وأرعن طماح الذوابة باذخ   يطاول عنان السماء بغارب

إلى أن قال :

فرحماك يامولاي دعوة ضارع   يمد إلى نعماك راحة راغب
فأسمعني من وعظه كل عبرة   يترجمها عنه لسان التجارب
فَسَلي بما أبكى وسَرّى بما أشجى   وكان على ليل السُّرى خير صاحب
وقلت وقد نكبتُ عنه لطية   سلام فإنا من مقيمٌ وذاهب

وأما الطبيعة في الأدب الإسلامي الحديث فكان الأديب يناجيها وتناجيه ويشاركها الأحزان وتشاركه ، ويشخصها فتظل شخصا يدافع عنه أو عن وطنه أو عن الإسلام ، فالطائر السجين يمثل الشعب الليبي تحت نير الاحتلال الإيطالي ، الذي قيد حريته حين يصور ذلك الشاعر إبراهيم الأسطى عمر في قصيدته « الطائر السجين » يقول :

أيها المسجونُ في ضيق القفصْ   صادحاً مِنْ لوعةِ طولَ النهارْ
ردّدَ الألحانَ مِنْ مُرِّ الغُصَصْ   وَبَكَي في لحنه بُعْدَ الديارْ
ذكّرَ الغصنَ تثني   والفيـــاً يتغنـــىً
وهو في السجْنِ مُعَنىً   فبكـى وجداً وأنّــا
وتَمنّى
والأماني ما أُحَيْلاَها خُيَالُ   يتلاشى مثل أحـــلامِ المنـــامْ
لو صَحَا في روضة والغُصْنُ مَالْ   من نسيم بين ضَوءٍ وظَلاَمْ
ومضى يَصْدح فِي دنيا الجمالْ   بينَ أغصَانٍ وخلانٍ كـرامْ
ناصِحاً يروي لهم بعض القصصْ   مابه هدىً وذكرى واعتبارْ
ضاق ذرعا بالأماني   وهــو في نفس المكانْ
ويعـــانـي ويعـــانـي   ... ... فرآني
شاردَ اللُّبِّ إليه ناظراً   قال ملتاعا : ألا تسعـفـنـي
قلتُ : لو كنْتَ قويّاً قادراً   لم تذقْ ياطَيْرُ مُرَّ المحَنْ
وَلَبَدَّلْتَ النظامَ الجائر   ولما استَحْذَى تبرٌ لِغَنِي
ولكانَ الشّرُّفي الدنيا نَقَصْ   ولكَانَ العدْلُ للخلق شِعـارْ

رزْقُنا يُقسَّمُ فينا بالحصص　　لاغنيٌّ ، لافقيرٌ ، لاشرارْ
هكذا تصفوا الحياة　　لجميع الكائنات
ونزول السيئاتِ　　سعياً في الحسنات

للممات

غير أنّي أيُّها الطير الكئيبْ　　عاجزٌ مثلكَ مغلولُ اليدينْ
في بلادي بين أهلي كالغريب　　وأنا الحر ، ولو تدري سَجين
عُذْ بدعواك إلى المولى الرقيب　　من إذا شاء فما شاء يكون
وارتقب فالحظ في الدنيا فرصْ　　ربما جاءتْ على غير انتظار
واترك اليأس وغرد في القفص　　وتناساه فللمعُسْر يَسَار
آه لو يدري مقالي　　لشجاه اليوم حالي
غير أني بخيالي　　في رشادي أو ضلالي

لا أبالي

أيها الإنسان ماذنب الطيور　　تُوَدَعُ الأقفاص ؟ هل كانت جُناه ؟ (١)

ويخاطب الشاعر التونسي السماء ويناجيها فَتَعْطفُ عليه بنجواها ورؤاها ليكونا معا جيشا يسحق أعداء الحياة ، ويحطم الأغلال ، لتحقيق العزة والمجد والكرامة يقول سعيد أبو بكر :(٢)

فما هو ذنبي ياسماء ؟ وما الذي　　أتيت لأغدُوا أكْلَةَ الرّخّ والنسْرِ
أيمكن أن أغدو الأسير ومقلتي　　تشاهد في الأوكار حرية الطيْر
إذَنْ فاحْرقيني ياسماءَ بوابلٍ　　من النار ، إنّ النار أهون في الضُرّ
ساجعل ابطالي الأعزاء متزراً　　أشَدُّ - إذا حان الزمان - من الصَّخْرِ

---

(١) شاعر ليبي ولد بدرنة إحدى مدن برقة وعاش مابين [١٩٠٧ - ١٩٥٠ م] وعمل بالمحاكم الشرعية ، وتنقل بين مصر والشام والعراق ثم عاد إلى وطنه ليحرره في ١٩٤٥ وبعد التحرير تولى عمل القضاء وله شعر كثير قصة الأدب في ليبيا العربية ، د . محمد عبد المنعم خفاجي ص ٨٨ : ٩١ .

(٢) ولد في مدينة المكنين بالساحل بتونس ، وعاش مابين [١٣١٧ - ١٣٦٧ (١٨٩٩ - ١٩٤٨ م)] . وله قصص صغيرة وديوان « السعيديات » .

ويندمج الشاعر الدكتور نجيب الكيلاني مع مظاهر الطبيعة ؛ فتشاركه في محنته العصيبة ، التي يعانيها من قسوة البشر ، فلا يرحم الإنسان أخاه ، ولايهتز قلبه للصغار ، حينما يستقبلون العيد بالحزن والفراق والآلام ؛ فيجد الشاعر الحب والرفق مع الحيوان ، مع الغزال ، الأنيق الرقيق ، لايعرف الشر والقسوة طريقاً إليه ، فيملأ حياته بهجة وأنساً ، وينتقل معه هنا وهناك على الصخور والآكام والرمال ، وبين الشعاب والتلال في وادي النخيل ، مع الخضرة والثمار ، وصفاء الجو ورقة الماء ، يمرح الحقل على أنغام الطيور ، وهديل الحمام ، في أمن وسلام يقول الكيلاني في قصيدته : « عيد ميلاد » : [1]

وحسب العيد في اللهو الجميل ... انثنى فرحاناً في وادي النخيل
حولي الصحب على أفواههم ... غنوة العصفور أو شدو الهديل
كم سهرنا في ليالينا الطوال ... رهن شدو وجموح في الخيال
وهرعنا خلف أطياف المنى ... لانبالي بشعاب أو تلال

ليتني رافقت أسراب الغزال ... حيث لاشر ، ولازيف يقال
نصعد الآكام في صحوتنا ... حولنا طُهْرٌ وَضِيءٌ ورمال
نمزج الروح بأعطار الهوى ... ونذود العقل عن بحث الجمال
نأخذ الدنيا كما أبدعها ... بارئ الكون من غير ابتذال

حينذا أهتف إن اليوم عيـد

وفوزي العنتيل شاعر « عبير الأرض » ، والشاعر محمودحسن إسماعيل

---

(١) ولد بقرية شرشابه مركز زفتى بالغربية في ١ / ٦ / ١٩٣١ ، تعلم في مدرسة الإرسالية الأمريكية بسنباط وبثانوية طنطا ثم تخرج من كلية الطب بجامعة فؤاد الأول وفاز بجوائز كثيرة عن رواياته ودواوينه ، وقررت بعض رواياته على المرحلة الثانوية في عام ١٩٥٩ وعمل في الامارات عشرين عاما ليعود إلى مصر ويظل حتى توفى في يوم الثلاثاء ٣ من شوال ١٤١٥ هـ الموافق ٤ / ٣ / ١٩٩٥ وله دواوين منها : أغاني الغرباء - مهاجر - كيف ألقاك عصر الشهداء - أغاني في الظلام - نحو العلا ، وغيرها ، وله روايات ؟: موعدنا غدا - اليوم الموعود - موكب الأحرار - ليل وقضبان - ليالي تركستان - العالم الضيق - عند الرحيل - الظل الأسود - الطريق الطويل - الذين يحترقون - دم لفطير صهيون - حكاية جاد الله - حمامة السلام - حكاية طبيب وغيرها وله مولفات في الأدب الإسلامي ونقده .

شاعر الكوخ والريف هام بالطبيعة وتغنى بها في شعره الإسلامي ، نكتفي بما ذكرناه ، في حضارة الإسلام ، أما شاعر القرية المهجورة والطبيعة : الهمشري يستقبل الربيع فيقول : [١]

هو الربيع ، إذا هبت شمائله   هزّ البسيطة قاصيها ودانيها
فصل جميل ، من الجنات مشرقة   تبدي الطبيعة فيه كل مافيها
كأن أيامه والسحر يطلقها   أحلام حسناء طافت في لياليها
كأنما النور فوق العشب مسرحها   والزهر أسرابها رفت على فيها

وأما الشاعر اليمني محمد محمود الزبيري فحينما يتحدث عن فنه الشعري وتجاربه الأدبية يمزج خيوطها من مظاهر الطبيعة الساحرة ، تسلسلت بريحان الجنات ، وتدب قوافيها مثل دبيب النمل ، فتطرب بموسيقاها الطيور وتصدح على أوتارها العصافير ، فيغفو تارة من نشوتها ، ويصرخ أخرى من غضبتها يقول الزبيري في « الأشراق الفني » : [٢]

أحس بريح كريح الجنان   تهب بأعماق روحي هبوبا
وأشعر أن القوافي تَدِبُّ   كالنمل ملءَ دماغي دبيبا
كأن بعقلي لها جنة   يلاقي بها كل صبٍّ حبيبا
نواميس يسعى إليها الكلام   ويبغي له من خلود نصيبا
أُسَلِّم نفسي لها ذاهلا   حريصا عليها بشوشا طروبا
وأصمت مستمعا تارة   وأصرخ حينا عبوسا غضوبا

وشاعر الشام الحديثة عمر أبو ريشه ، يمزج قضية الوطن المغلوب على أمره ، يتحكم في مصيره المستعمر الغاصب ، فيئن البلبل من سجنه ، ويرفض أن يبقى في قفص الذل ، ولوكان من ذهب ، إنها مأساة الإنسان والاستعمار ، يصور

---

(١) الهمشري حياته وشعره : صالح جودت ص ١٦٧ .

(٢) ولد الشاعر في صنعاء باليمن وعاش مابين [١٩١٩ - ١٩٦٥ م] وله دواوين : ثورة الشعر - صلاة في الجحيم ، ونقطة في الظلام ، وهذه القصيدة من ديوان ثورة الشعر : ص ٢٤ . انظر شعراء الدعوة الاسلامية : أحمد الجدع .

ذلك في قصيدته « بلبل » في بنية قصصية يقول : (١)

حلم تخلى عنه في رغده | هل يقدر النوح على رده
لو يعلم الصياد ما صيده | لم يجعل البلبل في صيده
ألفيته ينشر ألحانه | كأنما ينشر من كبده
وإلفه المشفق ظل له | باق كما كان على عهده
مدَّ لهُ اللفتات مستوحشا | طاو جناحيه على وجده
كم أطبقت منقاره غصة | فمده ينقر في قيده
أسقمه العيش على وفره | لما رآه ليس من كده
وأين مخضلّ الجنى حوله | من زنبق الروض ومن ورده
طوى المنى نوحا ولكنما | لم يغنه النوح ولم يجده
نعاف دنياه فلم يتَّخِذْ | عشا ولم يحمل سوى زهده
كأنه من طول ما مضه | من عبث الدهر ومن كيده
أبى عليه الكبرْ أن يورث | الأفراخ ذل القيد من بعده

وتتعاطف مظاهر الطبيعة مع المحنة التي عاناها الشاعر إبراهيم عزت فتئن لأناته ، وتنطق بآلامه وأحزانه ؛ فالشر يعوي كالكلاب وخضرة الزروع تتحول إلى قتام وسواد ، والبوم تنوح فوق الديار وحمام السلام تسيل منها الدماء ، وتحترق الأزهار فتتلاقى سحائب الظلام ، ظلمات بعضها فوق بعض حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها ، حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب يقول في قصيدته : « عذابنا » (٢)

---

(١) ولد الشاعر في ١٠ / ٤ / ١٩١٠ بعكا ، وعاش بينها وبين حلب كان سفيرا لسوريا حتى عام ١٩٧٠ وله دواوين : شعر ـ من عمر أبي ريشه ـ غنيت في صمتي ـ مختارات ـ ديوان عمر أبي ريشه ـ السفير الجوال ـ من وحي المرأة ، وله مسرحيات شعرية : ذي قار ـ عذاب ـ الطوفان وغيرها من ديوان عمر أبي ريشه : ص ١٤٤ : ١٤٦ .

(٢) ديوان « الله أكبر » : ص ٦٧ . الشاعر إبراهيم عزت من مواليد سوهاج ، تعلم في طنطا ثم في القاهرة متنقلا مع والده ، وتخرج من كلية التجارة بجامعة عين شمس عام ١٩٥٥ ، وعمل في التلفزيون ثم في الجهاز المركزي للمحاسبات والإدارة ثم تفرغ للدعوة عام ١٩٦٥ ، وله شعر كثير منه ديوان : « الله أكبر » وتوفي في رمضان ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ .

حقائق الحياة كلها مزيفه
الخير شر مطبق فمزقوا رداءه
والشر في عوائه الكئيب غاده
يساق في أعقابها المديح
إياك أن تحب خضرة الزروع
ما أجمل السواد
ما أرق بومة تنوح فوق دارنا
ولتذبحوا الحمام
ولتقتلوا الأطفال
ولتحرقوا الأزهار كلها
لكي يسير ركبهم
نبوءة الحبيب كلها تحققت
فلم تعد عيوننا لشدة الظلام تبصر
فإن رأت فما الذي يفيد أن ترى أو لاترى

ويصور الشاعر عامر بحيري غروب الشمس وقت الأصيل في صورة تناولها شعراء كثيرون في العصور المتابعة وفي كل مرة ترى صورة جديدة ، فقد عقدتُ موازنة أدبية بين الشعراء في صورهم (١) ، لكن صورة عامر قدّت من عصره الحديث يقول فيها :

غروب الشمس إستبرقْ ونارٌ تحتها زئبق
وهذا سابح . . عاد وثان . . يدفع الزورق
وموج بعد ما أخلى الورى ميدانه . . صفّق
ونام البحر . . مثل البرّ . . في الظلمة واستغرق
ولاح النور كالأقما ر في المغرب والفندق
فقمنا نهجر البحر إذا الليل بنا أحدق

(١) انظر كتابي « البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر » الفصل الأخير .

ولم ننس جمال المو ج . . والشمس به تغرق
فيا ليتك ياليل معي ، والوعد قد يصدق
ترين الشمس في الأموا ج . . تبدي حسنها المطلق
تقولين . . وما أجمل ما قلت من المنطق
كأنَّ الشمس والبحر فتاة حسنها ينطق
بجسم ليته يغري وراس فكره يحرق
مع الطاقية الحمراء فوق البرنس الأزرق [١]

وللشاعر إبراهيم ناجي شاعر النغم الغنائي في الطبيعة والتفاني في العشق لها ، ترى ذلك في قصيدة « الأطلال » وقصيدة « العودة » ومطلعها :[٢]

هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء
دار أحلامي وحبي لقيتني في جمود مثلما نلقي الجديد
أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد

* * *

(١) ديوان عامر بحيري المجموعة ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٢) ولد بالقاهرة وعاش مابين (٤ / ٣ / ١٩٦ - ٢٥ / ٣ / ١٩٥٣) وتخرج من كلية الطب وعمل به وله دواوين منها : « الطائر الجريح » ، « ليالي القاهرة » ، « وراء الغمام » وهو من شعراء « أبوللو » يمتاز شعره بالغنائية والنغم وله شعر يتغنى به .

معنى الرّبيع

للشاعر السعودي حسين سرحان

١ - عاد الرّبيع إليك عودةَ وامق ... فاشرب صباحَ جداولَ وحدائق
٢ - وَارْحَلْ مع الفجرِ المنيرِ عن الدّجى ... وادخلْ نهارَ أزاهرٍ وزنابق
٣ - تجد الفضاءَ يدفّ دفّةَ طائرٍ ... وترى السّماءَ تَخِفُّ خِفّةَ عاشق
٤ - والأرض تحت اثنيهما مسجورةٌ ... طيباً يلذُّ لكلِ أنف ناشق
٥ - العرى أسبغَ ثوب كأس رائع ... والعطل رجّع صوتَ حَلْيٍ شائق
٦ - أفلا ترى العصفورَ في جمحاته ... جذلانَ يُومِضُ مثلَ ومضِ البارق
٧ - لا يستقرّ كأنّه (دوّامة) ... أبداً تدور على أنامل حاذق
٨ - معنى (الرّبيع) أراه أعظم موجز ... من أن يشير إلى دلالة ناطق
٩ - الأرض غير الأرض فيه كأنما ... دُحِيَتْ بكلّ جمالها المتناسق
١٠ - والجوُّ أوجعُ من ضميرِ ذائبٍ ... وجداً ، وأسرعُ من فؤاد خافق
١١ - سكران يلتمس الوصال لهاجرٍ ... حبّاً ، ويحثّ الخطى لمُساوق
١٢ - ينهل بالمطر الهتونِ إلى مدى ... ويرذّ أيّ رذاذ وبلٍ رائق (١)

شرح الأبيات :-

١ - صور الشاعر الربيع في صورة محبوبة طال غيابها ، تعود إلى حبيبها على مضض وشوق ، فيرتحق من الربيع الماء العذب الصافي ، ويستروح منه نشر الحدائق المزهرة ، وطيب الورود الفواحة .

٢ - إذا ما عاد الربيع فإنك ترحل عن شدة البرودة في الشتاء والزوابع في

---

(١) معاني الكلمات : وامق : محب ، الدجى : الظلام والمراد الشدة نهار أزاهر : جمال الزهور زنابق : أنواع من الزهور ، تخف خفة : صفاء السماء ، مسجورة : مملوءة ، ناشق : ينشق ويشم العرى والعطل : المجرد ، رجّع : ردد ، جمحاته : سرعته ، جذلان : فرحان ، دوامة : آلة يلعب بها الصبيان ، يحتث : يسرع الخطى ، مساوق : معارض له في السير ، ينهل : يتساقط ، الهتون : المنصب ، يرذ رذاذاً : يمطر مطرا ساكنا ، الوبل : المطر الخفيف ، رائق : صاف نقي . من ديوان أجنحة بلا ريش : ص ١٠٢ / ١٠٣ بيروت (١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م) .

الخريف ، والحرارة في الصيف . لتستقبل في الحياة سحر الربيع الذي أضاء بنور الزهور المتفتحة ، وراق بصفاء الورود الزاهية .

٣ - ينساب في الفضاء النسيم الدافئ في رفق ، كما ينساب الهواء الرقيق من بين جناحي الطائر حين يرفرف بهما ، وكما ترى السماء صافية زاهية قد انقشع عنها الغيوم وانحسر القتام .

٤ - والأرض بين أحضان السماء الدافئة تعبق الفضاء بالطيب المتضوع الذي يمتع عشاق الربيع ، وتبعث النشر الفواح الذي يحيى هيامي الطبيعة الساحرة .

٥ - صفاء الربيع الذي اشتمل على الكون ، شكل في الفضاء ثوباً سابغاً شفافاً ، أشبه بذلك الكأس البلوري الرائع ، كما أن خلاء الجو ونقاءه شكل من الأصوات ترجيعاً عذباً وموسيقى رائعة ، كأنها قلادة جذابة على صدر الفضاء .

٦ ، ٧ - وليس الفضاء وحده هو الذي يرقص طرباً ، بل تعجب كثيراً حين ترى العصفور يقفز سريعاً هنا وهناك في فرح وسرور ، ولا يستقر على حال فقفزاته توقيعات موسيقية ، وحركاته أنغام متساوقة يعزفها فنان ماهر ، وفي أثناء ذلك تبرق عيناه ، التي انعكس عليها صفاء الجو وسحر الفضاء ، فهو حقاً قطعة حية من الربيع وسر الحياة فيها .

٨ - فالربيع لغز غامض ، وسحر دقيق ، لايقف عليه إلا الخاصة الذين يقفون على أسرار الكون وألغاز الحياة ، كالشأن في البليغ الذي يفطن لكل إشارة ويعرف ما وراءها من المعاني العميقة والأسرار الدفينة .

٩ - الربيع فنان ماهر ، فالأرض الذي نفث فيها من سحره غير الأرض فصار اتساق الزروع فيها والحدائق والأنغام كالبساط الجميل الرائع في تناظر جذاب ممتع .

١٠ - ١٢ - الربيع عروس فاتنة يفيض دفءاً ويتفجر حناناً وحباً ، فالجو أصبح في نسيمه الدافئ وهوائه الحنون كالحبيب الذي يذوب شوقاً ، ويغتلي وجداً . ويخفق قلبه شوقاً في تتابع وسرعة ، وهو يترنح في سكره ، ويسابق العذال ليلتمس الوصال بعد الهجر الطويل ، وهو يذرف دموع الشوق دمعة بعد أخرى في تتابع وتراسل ، ليطفئ حرارته ويشفي غلته كالرذاذ من المطر الهادئ الخفيف ، ينزل في رفق وصفاء .

نشأته وحياتــه :

ولد الشاعر حسين سرحان بمكة المكرمة مابين عـامي (١٣٣٣ هـ ، ١٣٣٤ هـ) الموافق عام ١٩١٥ م ، لكنه عاش متنقلاً في البادية والصحراء من شبابه إلى كهولته وفي ذلك يقول الشاعر :

« واليوم وأنا في نحو الخامسة والخمسين من عمري إذا صح أني ولدت في عام ١٣٣٣ هـ ، فقد كنا بدواً لانؤرخ مواليدنا ولا وفياتنا وندعها لله » [١] .

وتلقّى دروسه التعليمية في مدرسة الفلاح بمكة المكرمة ، وظل بها حتى تجاوز السادسة عشرة من عمره ، وقد اغترف فيها من المعارف المتنوعة على يد أجلاء ، أفاد منهم ، وظهر ذلك في شعره وأدبه ... .

وفي عام ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣٠ م ترك التعليم ، وتفرغ لدراسة الأدب والشعر القديم والحديث على السواء هو وزملاؤه المعاصرون له مثل الأستاذ عريف . ومحمد سعيد العامودي ، ومحمد حسن فقي ، ومحمد حسن عواد وغيرهم ، وكانوا يعقدون ندوات أدبية ونقدية في مختلف أنحاء مكة ، مابين المسفلة وجرول والمعابدة ، يتناول فيها كبار المفكرين والشعراء والنقاد والأدباء مثل المازني والعقاد وعبد الرحمن شكري وطه حسين ومحمد الغمراوي ومصطفى صادق الرافعي وسواهم [٢] .

وكان أيضاً يعيش مع الجاحظ والتوحيدي وأبي هلال العسكري والجرجانيين وقدامة وابن خلدون والأصفهاني ، كما كان يعيش بين أرسطو طاليس وسقراط وأفلاطون ، وأفلوطين ، وأبيقور ، وجورجياس ، وكذلك مع برناردشو وأناتوم فرانس ، وشكسبير وهيجو وجوته [٣] .

واشتغل الشاعر في مطلع حياته ببيع الأغنام في مكة ، لأنه ابن البادية والصحراء ، ومارس كثيراً من الوظائف في الدولة ، حتى عمل أخيراً رئيساً للتحرير في مطبعة الحكومة في مكة المكرمة ، ومازال يعمل في هذا المنصب حتى أحيل على المعاش [٤] .

---

(١) الموسوعة الأدبية : عبد السلام طاهر الساسي ٢ , ٩٠ مكة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م . دار الثقافة .

(٢) الموسوعة : ٢ , ٨٩ .

(٣) المرجع السابق : ٢ ـ ٨٨ .

(٤) مجلة المنهل : عدد ٢٧ ، ص ٨٣٥ .

واشتهر الشاعر بتواضعه الجم شأن العلماء والمفكرين ، وهذا مما يدل على تواضعه يقول حسين سرحان : وأنا امرؤ أعتقد أني على نصف عقل ، إذا كان بعض الناس يزهون بعقول كاملة ، ويزدادون عليها عقولاً أخرى ، وهم يؤمنون إيماناً تاماً بأن عقولهم كاملة ، هل هناك من له عقل كامل . . إذ لقد كان نبياً . . وإذ كان عاقلاً جداً مثل ابن سيناء والفارابي ، فإنه يكون عندئذ مغروراً مفرطاً في الغرور ، وهل العقل الإنساني كامل ؟ (١) .

وهو من حيث نمائه الجسدي ضعيف البنية ناحل البدن ، مبتلي في جسده بالأمراض والعلل يقول : ما أعرف منذ أن عرفت نفسي من السادسة من عمري فصاعداً إلاّ وأنا معرض للأدواء والزمانات المتلاحقة ، وفي جسمي اليوم من أخمص قدمي إلى قمة رأسي أكثر من مائة كية بين خفيفة وثقيلة . . . ثم أمسينا أجسادنا مثل الحرير مرهفة ، وأنفاسنا تصطدم بالنسيم العليل فترتد عنه ، فقد كنا نطأ على الشوك فآضت أقدامنا أشد حساسية من رؤوسنا (٢) .

وتمتـزج روحه بالسخرية التي لاتجرح العاطفة ، وتحتاج إلى ذكاء في إدراكها ، وخاصة في النثر الأدبي الذي امتاز به عن شعره (٣) ، ويقول عن نفسه :

« ولكن من يراني أو يسمعني أني ساخر بالحياة وبكل مافيها من دواعيها لكن الواقع غير ذلك ؛ لأن الحياة تسخُر بي أبلغ السخرية ، ثم تجعلني أداة في يدها لأسخر منها من باب التعويض ، وهو تعويض كاذب وإلى الله المشتكى » (٤) .

عوامل شاعريته :

١ ـ كان للبادية أثرها في شعره حيث عاش متنقلاً بين ربوعها ومرابعها فأمضى شبابه ، وأحيا كهولته فيها ، يقول : قبل أكثر من ثلاثين عاماً كنا فتية خلطاء ، وكنا متفاوتين في طرق معاشنا ، وإن كان اتجاهنا واحد على وجه التقريب ، منا من يعيش على بيع الأغنام مثل أنا (٥) .

فكان من مظاهر البادية في شعره الجزالة والقوة والفخامة :

---

(١) الموسوعة : ٢ / ٨٨ .
(٢) المرجع السابق : ٢ / ٩١ .
(٣) مقدمة الديوان : حمد الجاسر ، ص ١٠ .
(٤) الموسوعة : ٢ / ٩١ .
(٥) الموسوعة : ٢ / ٨٩ .

٢ - سلامة الفطرة وصفاؤها التي صقلتها حياة الصحراء ، فقفزت به إلى ساحة الشعراء الصادقين في شعرهم .

٣ - كان لتعليمه في مدرسة الفلاح بمكة المكرمة أثر كبير في شعره ، حيث تلقى العلم والمعرفة على أيدي علماء أجلاء ، تأثر بهم وأفاد منهم .

٤ - وفي عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م تفرغ لدارسة الأدب وللإطلاع على مذاهبه ، فكان هذا التفرغ دافعاً قوياً لصقل شاعريته الموهوبة يقول الشاعر :

« كنا نجتمع على الأقدام من أسفل مكة في جرول والمسفلة إلى غيرها بالمعايدة ، وكان رئيسنا أو يكاد محمد حسن عواد ، فقد كان يحرر في مجلة (الإصلاح) التي يرأس تحريرها حينذاك محمد حسن فقي ، كنا يومذاك أخفاء من الدنيا ، فارغين للأدب قديمه وحديثه وكان المازني والعقاد والرافعي وشكري وطه حسين والغمراوي وغيرهم ألوية تنشر أمامنا ، فنهرع تحتها وبين أفيائها ونتناقش ، ثم يصنع لنا غذاء ، ونتفرق لنعود في الصباح الباكر »[1] .

٥ - شجعه نشر الشعر والأدب في الصحف والمجلات على التكثر من نظمه وعلى تهذيبه وإخراجه إلى القراء والنقاد في أحسن صورة ، وأجمل تعبير فنال منزلة عند الأدباء والنقاد مثل حمد الجاسر ، الذي أعجب بشعره وهام به فقدم لديوان الشاعر حسين سرحان « أجنحة بلا ريش » .

٦ - اشتهر بمكتبته العامرة بأمهات الكتب العلمية والأدبية ، التي حوت القديم والجديد ، فتيسر له الاطلاع الشامل والثقافة الواسعة ، والوقوف على الجديد من التيارات الأدبية الحديثة ، لذلك كان أحد زعماء المدرسة الابتداعية الحديثة في السعودية .

٧ - مكنه منصبه كرئيس للتحرير في مطبعة مكة الحكومية من الاطلاع على كل جديد ، ينمي فيه ملكة النقد والتحليل والمراجعة والتصحيح والتهذيب وهذا مايحتاجه الشاعر في فنه الشعري ، حيث يحتاج إلى المعاودة والتهذيب والصقل والنقد والموازنة .

---

(١) الموسوعة : ٢ / ٨٩ .

الغرض من القصيدة :

وهو وصف الربيع ، فقد كان هذا الغرض من الأغراض القديمة في الشعر العربي القديم ، وخاصة العصر العباسي ، حيث نظم في فنه شعراء كثيرون منهم أبو تمام ، والبحتري وابن الرومي ، وتخصص فيه شعراء كثيرون منهم الصنوبري والسري الرفاء ، وابن خفاجه الأندلسي وغيرهم .

ولكن شعرهم الوصفي خلا من التشخيص الذي هو من سمات العصر الحديث في وصف الربيع .

أما حسين سرحان في وصفه للربيع وهو من الشعراء المعاصرين ؛ فقد كان التشخيص في قصيدته التي معنا ضعيفاً ، ظهر في صور أدبية باهتة ، ولم تظهر قوته ولاحيويته إلاّ في الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة :

حيث صوّر الربيع في هذه الأبيات في صورة عاشق محب يذرف دموعه ويخفق قلبه ، ويذوب شوقاً ، ويسرع الخطى إلى الحبيب بعد طول الهجر مترنحاً في مشيته مبتهجاً بفرحة اللقاء .

وليته بثّ التشخيص في بقية الأبيات والصور الأدبية لخلع على هذا الغرض القديم جدة وابتكاراً ، ولكان الشاعر من الرواد المجددين في شعر الطبيعة والربيع .

وليس معنى ذلك أن الشاعر مقصّر في كل الصور ، فقد رأيت الصور التشخيصية الرائعة في الأبيات الثلاث الأخيرة من القصيدة ، وحسبه ذلك فهو من مدرسة المحافظين المتطلعين إلى التجديد .

الخصائص الفنية في شعره :

أولاً : الإحساس الصادق والشعور العميق ، لذلك خلا من البهرج والزيف والتضليل .

ثانياً : شعره عميق الصلة بواقعه وبيئته التي عاش فيها ، وتطبع بطابعها البدوي ، فمع أنه من مواليد مكة إلاّ أنه ابن البادية ، عاش متنقلاً بين مرابعها ومراتعها شاباً وكهلاً ، وتسري الروح البدوية في شعره مثل قوله :

أفلا ترى العصفور في جمحانــه   جذلان يومض مثـل ومض البارق

فالعصفور يجمح كالفرس ، ويومض مثل ومض البرق ، وذلك من وحي الطبيعة في الصحراء والبادية .

ومثل قوله :

والعرى أسبغ ثوب كأس رائــع والعطل رجع صوت حلي شائق

فإيثاره التعبير عن الربيع بالعرى وبالعطل يدل على نحتها من واقعه الذي عاش فيه ، وهي الصحراء والبادية ، لا من معاجم اللغة .

ثم ترديد الأصوات في جو الربيع الساكن الهادئ ، يشبهه الشاعر بصوت الحلى الممتع الجذاب على صدر العذراء ، فهذه صورة بدوية رائعة من واقع حياة الشاعر في البادية .

ثالثاً : سلامة الفطرة وصدقها ، لأنها كانت وليدة البادية الصافية ، ونبتة الصحراء الخالية من الزيف ، لذلك كان الشاعر ذا فطرة سليمة وحس لغوي صادق تسيل منه الألفاظ القوية والكلمات الجزلة في عذوبة فيظن القارئ بأن الشاعر قد انتفى هذه الألفاظ القوية من معاجم اللغة ولكن الواقع أن فطرته السليمة ، هي التي انتقت التعبير الصادق والأسلوب الجزل ، ولايفهم ذلك إلا من عاش عيشة الشاعر في قلب البادية والصحراء .

ومثل الألفاظ الجزلة والأسلوب المحكم القوي في هذه القصيدة عودة الربيع في صورة الوامق ، والأرض مسجورة ، والعرق أسبغ ثوب كأس ، والعطل رجع صوت حلى . وكأنما دحيت ، ويحتث الخطى لمساوق ، وينهل بالمطر الهتون .

رابعاً : يميل الشاعر إلى مخاطبة العقل أكثر من ميله إلى مخاطبة الحس فغلب على شعره العقل والفكر على العاطفة والشعور ؛ لذلك عده نقاد العصر من شعراء الفكرة لا من شعراء العاطفة ، فهو يميل إلى مدرسة الديوان لا إلى الإسراف في الخيال ولا الهيام بالشكل . .

وقد ألحقه حمد الجاسر بأبي العلاء المعري وأضرابه كالخيام ممن عمدوا إلى مخاطبة العقل ، ومع ذلك فهو شعر يؤثر في النفس ويهز أعماقها ، وما الشعر سوى ما كان بهذه الصفة إذا ساغ لي أن أعرف الشعر ، متأثراً بما عرفته عنه ،

ولكني لا أرضى بالنزول بمستوى شعر حسين إلى مستوى ذلك الفهم الفج الخاطئ لشعر الخيام وأضرابه [١].

ومن شواهد غلبة العقل والفكر على العاطفة والشعور قوله :

معنى الربيع أراه أعظم موجز   من أن يشير إلى دلالة ناطق

فالربيع أعظم من بليغ ، وأبلغ في معناه من إشارة البليغ ودلالة الناطق فالشطرة الأولى يستخدم فيها الشاعر مقياس البلاغة في شعره والشطرة الثانية يستخدم قواعد المنطق ومقدماته ، ليرتب عليها النتائج والحكم ، وذلك في أسلوب يميل إلى العقل أكثر من ميله إلى العاطفة التي هي جوهر الشعر ولبه .

خامساً : جزالة الأسلوب وصدق التعبير ، على نحو ما كان عليه الشعر في العصر العباسي من القوة والجزالة والرصانة ، وهذا يجعل الشاعر من مدرسة المحافظين ، من حيث الشكل في الألفاظ والأساليب ويجعله أيضاً من مدرسة المجددين من حيث المضمون في عمق المعنى وتعليله وإقامة الأدلة على صحته فهو يجمع بين المدرستين المعاصرتين مدرسة المحافظين ومدرسة المجددين لكنه إلى الأولى ألصق ولها أقرب .

سادساً : كان الشاعر في خياله الشعري ابن الصحراء ، فقد نسج صوره الخيالية من واقع البادية ، فكان خياله مألوفاً ، ومتداولاً معروفاً يسير فيه على نهج فحول الشعراء من العصر الأموي والعباسي مثل قوله :

تجد الفضاء يدف دفة طائر   وترى السماء تخف خفة عاشق

فالنسيم في الفضاء يرفرف كجناحي الطائر ، والسماء في صفائها خفيفة مثل خفة العاشق ، وهاتان صورتان من واقع الخيال عند الشعراء القدامى .

ومثل قوله :

العرى أسبغ ثوب كأس رائع   والعطل رجع صوت حلى شائق

فالعرى في صفاته كالكأس الرائق ، والصوت في الخلاء كصوت الحلى ذلك خيال قديم اشتهر به الشعراء ، وكذلك الصور الخيالية في الأبيات الآتية لاتخرج عن النمط التقليدي القديم عند فحول الشعراء مثل قوله :

---

(١) مقدمة الديوان : حمد الجاسر ، ص ٩ .

والأرض غير الأرض فيه كأنما ... دحيت بكل جمالها المتناسق
والجو أوجع من ضمير ذائب ... وجداً وأسرع من فؤاد خافق
سكران يلتمس الوصال لهاجر ... حباً ويحتث الخطى لمساوق
ينهل المطر الهتون إلى مدى ... ويرد أي رذاذ وبل رائق

سابعاً : أما عناصر التصوير الأدبي فقد اكتملت في القصيدة ، فتجد الحركة في عودة الربيع ، وفي دفة الفضاء ، وخفة السماء ، وجمجمات العصفور ودورانه كالدوامة ، والجو أسرع من فؤاد خافق ، ويحتث الخطى إلى غير ذلك .

وتجد اللون والرائحة في الحدائق ، والأزهار والزنابق والطيب وتجد شكل الربيع في العرى ، وفي الأرض المسجورة .

وهكذا فعناصر التصوير في الربيع قد لمسها الشاعر لمساً يتناسب مع المقام ، لكنه لم يكن على صواب حينما جعل الجو يتوجع ويتألم كالضمير الذي ذاب وجداً ، فهذا لايتناسب مع جمال الربيع وبهجته وكان الأقرب أن يجعل الجو يغتلي شوقاً ، أو يذوب حباً وهكذا .

حسين سرحان بين النقاد :

كانت شاعرية سرحان مثار إعجاب لكثير من الأدباء والنقاد المعاصرين فهز شعره مشاعرهم ، وأثار انتباههم ، ودفعهم إلى دراسته وتحليله وتفسيره ونقده ليأخذ الشاعر مكانه الصحيح بين شعراء عصره وليرتبط فنه الأدبي بمدرسة أدبية ونقدية تتلاءم مع اتجاهه ، وليضعه النقاد في منزلة تليق بشاعريته .

فيرى الدكتور خفاجي : أن الغلالي يحتذي حذو علي محمود طه في موسيقاه وصوره الغنائية ، وعواد يتبع خطوات مدرسة أبولو ، وأبي شادي خاصة ، وفي شعر حسين سرحان صور من غنائية ناجي العذبة [1] .

ويقول عبد الرحيم بكر :

كنت ذات يوم أقرأ قصيدة لشاعرنا حسين سرحان يصف فيها فتاة اختطفها الموت ، وهي في تفتح شبابها ، فقال في بيت منها :

واستضحكت شفتاها ثم قلصها ... جفاف ثغر له من قبل إرواء

---

(١) من تاريخنا المعاصر : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي .

ثم لم ألبث بعد مدة قليلة أن ذكرت قول المازني من قصيدته : « فتى في سياق الموت » :

قد قلصت ثغره منيته كأنــه للحمـــام يبتســم

وحدثت نفسي بأن السرحان كان على صلة بإنتاج المازني حتى أخذ يتمثله في هذه الصورة الشعرية ... ولكن هذا لايعني أن السرحان كان فاقداً الشخصية في فنه ، وإنما يعني فقط أن السرحان انحاز ولو في بعض إنتاجه إلى التأثر بالثقافة المعاصرة ، وبإنتاج بعض أعلامها [١] .

ويقول أحمد العطار :

إن السرحان كان يحاول تقليد المازني في أسلوبه الساخر [٢] ويقول عنه الجاسر أن شعره يتميز بصدق الإحساس وعمق الشعور ويلحقه بشعر أبي العلاء المعري والخيام ، وأنه ابن الصحراء في كثير من أخيلته وتعبيراته إلا أنه واسع الإطلاع بدرجة عجيبة حقاً [٣] .

ويقول عنه عبد السلام طاهر الساسي :

إنـه شاعـر فحل مكتمل الأداة ، مجدد من المدرسة الابتداعية التي لا تتهيب الماضي ، بل تقتحمه ، يطوف بشعره آفـاق الفكر ، ولايكاد يلم بـالعاطفة إلا قليلاً ، لايعيبه شيء غير أنه يؤثر العزلة والانطواء . . والسرحان شاعر موهوب في طليعة شعرائنا المبرزين ، وهو أحد زعماء المدرسة الابتداعيـة وكاتب لبق من كتاب الطبقة الأولى ، الذين يترفعون عن البهرج والزيف والتضليل [٤] .

* * *

---

(١) الشعر الحديث في الحجاز : عبد الكريم بكر ـ المدينة المنورة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .
(٢) المقالات : أحمد عبد الغفور عطار ، ص ١٧٩ .
(٣) مقدمة الديوان : حمد الجاسر ، ص ٩ ، ١٠ .
(٤) الموسوعة الأدبية : ٢ / ٨١ .

النسيب والحب العفيف

النسيب في الأدب الإسلامي ، والحب الطاهر فيه ، يقوم على تهذيب النفس ، ورقة المشاعر ، والسمو بالأحاسيس ، وغيرها مما يدعو إليه الإسلام والإنسانية من القيم الخلقية الفاضلة ؛ لأن التعبير عن الحب العفيف ، وتصوير النسيب الطاهر ، أمر أصيل في الطباع المستقيمة ، يتفق مع : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ [١] ، وتتلاءم مع القيم الروحية الإسلامية ، مما لايخدش الحياء ويجرح المشاعر ، ويدعو إلى الحرج والضيق ، ويتنافى مع العواطف الإنسانية الراقية المهذبة ، وغير ذلك مما يشيع في الغزل الهابط والنسيب الفاضح ، والتشبيب المكشوف ، والعبث الماجن ، ومستخدما ألفاظا وصوراً تخدش الكرامة والعرض وتحط من الشرف والعفة ، مما ينهي عنه الإسلام ، وتأباه النفوس الأبية ، وتنفر منه الإنسانية المهذبة كما وضحنا ذلك من قبل .

وهذا لايتأتى إلا بالتعبير عنه في تصوير أدبي مهذب ، وأسلوب فني عفيف ، وتشكيل ذوقي طاهر ، بعيدا عن ألفاظ القبح وكشف العورات وعبارات اللهو والمجون ، وأساليب التهتك والاستهتار مما تأباه النفوس الراقية وتشمئز منه الإنسانية المتحضرة بحضارة الإسلام وقيمه السامية .

ولعل الغزل العفيف والحب العذري ، الذي شاع في الأدب العربي بعد الإسلام أقرب إلى غرض النسيب في الأدب الإسلامي ، وقد شاع الحب العذري في العصر الأموي ، حتى نسب إليه ، أما في العصر العباسي فقد طغى عليه العبث واللهو والمجون ، وقل شعراء الحب العذري والنسيب العفيف فيه ، ومنهم عروة ابن حزام ، وعلي بن أديم الكوفي ، ومحمد بن أمية ، والعباس بن الأحنف والحصري وغيرهم ، يقول العباس بن الأحنف : [٢]

الحبُّ أوَّلُ مايكون لَجاجَةً ... تأتي به وتسوقُه الأقدارُ
حتى إذا سلك الفتى لُجَجَ الهوى ... جاءت أمورٌ لا تُطاق كبارُ

---

(١) الروم : آية ٣٠ .
(٢) الأغاني : ٣٤٣ / ١٦ .

نَزَفَ البكاء دموعَ عينيك فاسْتَعِرْ عينا لغيرك دمعها مدرارُ
من ذا يُعيرك عَيْنَه تبكي بها أرأيت عينا للبكاء تُعَارُ

إلى آخرها ، ويقول في صورة أدبية أخرى يظهر فيها الروح الإسلامي من مناجاة الله عز وجل ، والطمع في الحور العين ، والجنات ، إذا لم يفز بها في الحياة الدنيا ، مادامت الأقدار لم توفق على أسس الشريعة الإسلامية ونظامها التشريعي في الزواج يقول العباس بن الأحنف : (١)

أزْينَ نساءَ العالمين أجيبي دعاءَ مشوقٍ بالعراق غريب
كتَبْتُ كتابي ما أُقيم حروفَه لشدة إعْوالي وطول نحيبي
أَخُطُّ وامحو ما اخطُّ بعبرة تسحُّ على القرطاس سحَّ ذَنوب
أيا فوزُ لو أبصرْتني ماعَرَفْتني لطول نحولي بعدكم وشحوبي
وانتِ منَ الدنيا نَصيبي فإن أمُت فليتك منْ حُور الجنان نصيبي
أرى البيْنَ يشكوه المحبون كلهم فيارب قَرِّبْ دار كلِّ حبيب

واشتهرت قصيدة أبي الحسن الحصري في النسيب الطاهر والحب العفيف الصادق ، الذي يعاني من برحه ، ويقاس من شده وجده ، ويستغيث بالله أن يتغشاه بالنوم ليخرجه من معاناته ، ويسعد في النوم بخياله وأحلامه يقول : (٢)

ياليْلُ الصَّبُّ متى غَدُهُ أقيام الساعة موعدُهُ
رقد السُّمَّار وأرَّقَهُ أسَفٌ للبَيْنِ يُرَدِّدُه
فبكاه النجم ورق له ممَّا يرْعاهُ ، ويَرصُدُهُ
كَلِفٌ بغزال ذي هَيَفٍ خَوْفُ الواشين يُشرِّده
نصَبَتْ عينايَ له شرَكاً في النَّوم فعزَّ تَصيُّدُه
وكفى عجبا أني قَنِصٌ للسِّرْب سباني أغْيدُه
صنمٌ للفتْنة مُنْتصِبٌ أهْواه ولا أتَعَبَّدُه

إلى أن قال :

إنِّي لأُعيذُك من قَتْلي وأظنك لا تتعمَّدُه

---

(١) الأغاني : ٣٤٤ / ١٦ . (٢) ديوان الحصري .

بالله هَبِ المشتاق كرى   فلعل خيالك يُسْعِدُهُ
ما ضرَّكَ لو داويتَ ضنىً   صبٍّ يُدْنيك وتبعده
لم يُبْقِ هواك له رَمَقاً   فَلْيَبْكِ عليه عُوَّدُهُ

إلى آخر القصيدة وعارضها كثير من الشعراء ، ومنهم أحمد شوقي في قصيدته منها قوله :

مُضْناك جفاه مَرْقَدُهُ   وبكاه ورحَّمَ عُوَّدُهُ
حيرانُ القَلْبِ معذَّبُهُ   مقروح الجَفْنِ مُسَهَّدُه
أودى حُرَقاً إلاَّ رمقاً   يُبْقِيه عليك وتُنْفِدُهُ
يستهوي الورق تأوُّهُهُ   ويُذيبُ الصَّخْرَ تَنَهُّدُهُ
ويناجي النجم ويتعبه   ويُقيمُ الليْلَ ويُقْعِدُهُ
ويُعلِّمُ كلَّ مُطوَّقةٍ   شجناً في الروح تُردده
كم مدَّ لطيفك من شَرَكٍ   وتأدَّبَ لا يتصيَّدُهُ
فعساك بغُمْضٍ مسعفُهُ   ولعَلَّ خيالك مسعدُهُ
الحسنُ حلفتُ « بيوسفه »   و (السورة) إنك مفرده
قَدْ وَدَّ جمالك أوْ قبساً   حوراء الخُلْد وأمرده
وتمنَّتْ كلٌّ مقطعة   يدها لو تبعث تشهده

إلى آخر القصيدة وفي قصيدة « قلب بلا حب » للشاعر صالح الشرنوبي يصور تباريح الوجد في تصوير أدبي طاهر يقول (١) :

تعالي يا ابنة الأحلام يامجهولة الذات

---

(١) تخرج من الأزهر الشريف تحدث عنه الدكتور محمد مندور في كتابه « الشعر المصري بعد شوقي » وقدم لديوانه الدكتور عبد الحي دياب ، والقصيدة من ديوانه المذكور ٣٩٦ / ٣٩٨ وهو من شعراء جماعة أبولو ، عاش مابين (٢٦ / ٥ / ١٩٢٤ - ١٧ / ٩ / ١٩٥١ م) حتى حصل على الثانوية الأزهرية ١٩٤٧ وحاول دخول دار العلوم فلم يوفق ثم التحق بكلية أصول الدين لكنه انصرف عنها واشتغل بالأدب والشعر واتصل بالنقاد والشعراء وكتب عنه العقاد ومندور وأحمد كمال زكي وصالح جودت وغيرهم ولم ينشر شعره إلا بعد وفاته .

تعالى يا ضياء لم ينور أفق حياتي
تعالى يا رحيقا لم يزل يروى خيالاتي
تعالى نجمع الماضي الذي راح إلى الآتي
تعالى ياعزًا مأناه في دنيا الصّبابات

تعالى فالدم الفوار يغلي في شراييني
تعالى فالهوس الثرثار مازال ينـاديني
جموحا ثائر النزوة مشبوب الأرانين
وهاتيك أغاريدي أغنيها فتبكيني
وأحلام الصبا المحروم أطويها وتطويني

وقد خصص الشاعر إبراهيم محمد نجا ديوانه : « أغنيات للحب » للشعر الوجداني الطاهر ، وللحب العذري العفيف يصور فيه صبابة قلبه ، ونبض مشاعره وتدفق وجدانه ، وبهجة شبابه ، فهي حياته ، ونبضها المتدفق وأزهارها التي عبقت أيامه ولياليه منها قوله (١) :

كل حرف في قصيدي مهجة تحنو عليك
كل لَحْنٍ في نشيدي لهفة تهفو إليك
كل أفراح شبابي نبعها السامي لديك
وصبابات فؤادي سرها في ناظريك
وأزاهير غرامي عطرها في وجنتيك
وحياتي يا حياتي كلها ملك يديك

ومن شعراء الحب العذري في العصر الحديث أحمد الزين . والأمير عبد الله الفيصل وإبراهيم ناجي ، ومحمد مصطفى الماحي ، وعبد اللطيف النشار الذي يقول (٢) :

إنما الحب قوة من الكون ففيها بقاؤه والخلود

---

(١) أغنيات للحب : إبراهيم نجا ص ١٦ .
(٢) ديوان النشار من قصيدة « القلب الخلي » وهو شاعر الأسكندرية .

إيه ياحب كم عرفت من الناس وكم مات من هواه شهيد
لك في الناس سطوة يخضع الملك إليها ويستذل الصيد

والشاعر محمود أبو الوفا يصور الحب في قصيدته : « ماهو الحب » : (١)

ليت شعري ماهو الحب ومن أنشأ سحرهْ ؟
من هو السحار هذا من رمى في الأرض بذرهْ ؟
إنه في كل عودٍ أخضرٍ أودع جمره
ياله من ساحر في جفنه خبّأ مكره

إلى أن قال :

زهره لما رآك هبّ يُهدي لك بِشرهْ
وأنا من أجل ما أهداك لن أغفل شكره
إنني مازلت أهواه واستروح نشره
لا تظنني أنه قد راح يُبدي منك غَيْرَهْ
فهو لا يضمر إلا الحبّ والإحسان عُمْره

إلى آخر القصيدة وهي طويلة ، وأما شاعر الإيقاع والنغم الموسيقي محمد عمر الطوانيس في « رقصة النور » فعاطفته فيها ، تقف إزاء العقل وتمتزج بألوان الفكر ، وتقوم مشاعره على تعميق الأفكار وإثرائها وإضفاء الحيوية والقوة في كل جزئياته ، لأن الشاعر لايستطيع أن يثير العاطفة في الآخرين ، أو يهز مشاعرهم ، إلا بعمل مشحون بالعاطفة والمشاعر وكل منهما في النفس وثيق الصلة بالإيقاع الذي يختلف حسب التيارات المؤثرة فيهما ؛ لذلك لايتحرك الشعور ، أو تثور العاطفة إلا مع وجود الإيقاع في العمل الأدبي ، والصوت المنغم هو العامل الأساسي في الإثارة لقدرته الساحرة في التأثير على النفس ، واستقطاب كل منافذ الإدراك ، ومعابر الوعي ، من عقل وحواس وعاطفة ووجدان ، لذلك

---

(١) مجموعة محمود أبو الوفاء : ص ٢١٤ : ٢١٧ التحق الشاعر بمعهد دمياط الأزهري عام ١٩١٤ ولكنه لم يكمل دراسته لكسر رجله ، ولد في قرية الأنشاصية مركز أجا دقهلية عام ١٩٠١ ، وكرمه الشعراء ١٩٣٢ ، وكرمته الدولة بوسام الاستحقاق من الطبقة الأولى ١٩٦٧ وله دواوين كثيرة جمعت في مجموعة ، وتوفي ٢٧ / ١ / ١٩٧٩ .

اختار الطوانسي عنوان هذه القصيدة « رقصة النور » يقول :

السعد لما ضمنا والحب جمّع شلمنا
والنور يرقص حولنا والروض ينشر فوقنا
زهرَ الأماني والهناءْ زهر المحبة والصفاء
عبث النسيم بشعرها وصحا الغرام بقربها
نشفا من الصبر الغليلْ لما التقينا في الأصيلْ
طابت لنا في حبنا نجوى المنى
قالت : أجبني قل : نعمْ هيا اسقني عذب النغمْ
فالزهر في الروض ابتسم وعلى محياكَ ارتسمْ
نورُ التمني والرجاءْ نورُ التناجي بالوفاءْ
قلت : لها أنت التي أوحيت لي في وحدتي
لحني ، فهيّا أنصتي هو قد سرى من مهجتي
لحنا يترجِمُ سرَّ حُبِّي يامنْ وهبْتُك كلَّ قلبي
طابت لنا في حبنا نجوى المنى
باحت بوجد في الضلوعْ قالت : غرامي لن يضيع
هذي أزاهيرُ الربيعْ ترنو إلى اللحن البديعْ
فحنَّتْ على الطيرِ الطروبْ ورَنَتْ إلينا في الغروبْ
طابت لنا في حبنا نجوى المنى

* * *

(١) الشاعر محمد عمر الطوانسي عضو جمعتي المؤلفين والملحنين بمصر وباريس ، له دواوين : همسات الناي ١٩٤٨ ـ على شفاه الزمن ١٩٧١ ـ لالئ بين الأمواج ١٩٧٤ ـ سر الله ١٩٧٤ ـ رنين الصمت ـ أحلام القمر ، وله مجموعة قصصية بعنوان « عواطف » . من شعراء أبولو ورابطة الأدب الحديث رحمه الله تعالى .

الحب الإلهي

وأما الحب الألهي فهو أسمى الحب اتخذه الزهاد وأهل التصوف غرضا أدبيا ؛ فهو من أهم أغراض الأدب الإسلامي عندهم ، وقد شرحت قصيدة كاملة ومقطوعات في الحب الألهي في دراسة فنية ونقدية في كتابي « الأدب الإسلامي الصوفي حتى نهاية القرن الرابع الهجري » وسنقتصر هنا على ذكر بعض الأمثلة منها قول أبي الحسن الحصري حينما سئل عن المحب هـل يحتشم أو يفزع فقال : « الحب استهلاك لايبقى معه صفة وأنشأ يقول : (٢)

قالتْ : لقد سُؤتَنا في غير منفعة ... بقرعك الباب والحُجَّابُ ماهجعوا
ماذا يُريبُكَ في الظلماء تطرقُنا ... قلت الصبابة هاجت ذاك والطمع
قالت : لعمري لقد خاطرتُ ذا جزع ... حتى وصلتُ فهلا عاقك الجزع
نقتل ماهو إلا القتل أو ظفـرٌ ... مما يزول به عن مهجتي الهلعُ

ويقول إمام المحبين وسلطان العاشقين عمر بن الفارض في الحب الإلهي في تائيته الكبرى المشهورة منها قوله : (٣)

وقُلْتُ وحَالي بالصبابة شاهدٌ ... ووَجْدِي بها ماحِيٌ والفَقْدُ مُثْبتي
هَبي قبْلَ يُفْني الحبُّ منِّي بَقيَّةً ... أراكِ بها ، لِي نَظْرَةَ المُتَلَفِّتِ
ومُنِّي على سَمْعي بِلَنْ إنْ مَنَعْتِ أنْ ... أراكِ فَمِنْ قَبْلي لغَيْري لذَّتِ
فَعِنْدي لسُكري فَاقَةٌ لإفاقة ... لها كبِدي - لولا الهوى - لمْ تُفَتَّتِ
ولو أنَّ مابي بالجبالِ ، وكان طُوُ ... رُسِينَا بها قبل التجليّ لَدُكَّتِ
هَـوىً عَبْرَةٌ نَمَّتْ به ، وجَوىً نَمَتْ ... به حُرَقٌ ، أدْوَاؤُها بي أوْدَتِ
وطوفانُ نوحٍ عند نَوْحي كأدْمُعي ... وإيقَادُ نيرانِ الخليل كلوْعَتي
فَلَوْلا زفيري أغرقْتني أدْمُعـي ... ولولا دُمُوعي أحرَقَتْني زَفْرَتي
وحُزْنيَ مايعقوبُ بَثَّ أقَلَّهُ ... وكلُّ بِـلاَ أيُّوبَ بَعْضُ بَلِيَّتي
وآخِرُ ما أَلْقَى الأُلي عَشِقُوا إلى الرّ ... دَى بعضُ مالاقَيْتُ أوَّل مِحْنَتي

---

(١) من ص ٢٧٤ : ٣٥٣ .   (٢) طبقات الصوفية : السلمي : ص ٤٩٢ .
(٣) ديوان ابن الفارض : ص ٨٤ ، ٨٥ .

وأما الحب الإلهي في العصر الحديث ؛ فنجده عند كثير من الشعراء منهم محمد مصطفى الماحي ، في « مزامير الإيمان » ومحمد عمر الطوانسي في ديوانه « سر الله » ، وسيد قطب ، وإبراهيم عزت ، ومحمود أبو الوفا ، وعامر بحيري ، وعزت شندي في ديوانه « مع الله ورسوله » ومختار الوكيل في ديوانه « على باب طه » وعمر بهاء الدين الأميري وغيرهم يقول الشاعر عبد الله شمس الدين في قصيدته « أراك يارب في قلبي » . (١)

لك ياربُّ قد سلكتُ طريقي ... يا إلهي ومؤنسي ورفيقي
وعلى بابك الكبير أزَحْتُ العبْءَ ... مستودعاً شقائي وضيقي
أنت ياخالقَ البرية أدْرَى ... أنت أدرى بها من المخلوق
لك ياربُّ ماتشاءُ وترضى ... أنت فوقَ الإدراك والتحليق
غير أني أراك يارب في قلبي ... ضياء يجلو غيومَ طريقي
ويربني مدى الحياة ومافيها ... على وجهك الجميل الشّروق
أنا من نورك القديم ومالي ... غير هذا السنا وهذا البريق
فإذا غبت عن رحابك حيناً ... سادرَ الحسِ في شرود محيق
ردَّ قلبي إليكَ صوتُك ياربي ... وظَلَّلْتَني بظلِ شَفُوق

وله في الحب الإلهي قصائد كثيرة جمعها عبد العليم المهدي في ديوانه « قيثارة التوحيد » منها قصائد : « على باب الملك » و « عز الغرام » و « مع الحقيقة سكرنا » و « الله نور » و « وحي من الوحي » و « حقيقة الشاعر » و « مدى علمي به » و « شعاع من نور » وغيرها .

وأما قصيدة على عقل التي عارض بها قصيدة أبي الحسن الحصري فكانت في الحب الإلهي ، لا في الحب العذري ، يقول فيها :(٢)

(ياليل الصب متى غده) ... لمريض ملَّتْ عُوَّدُهُ
أترى ياليلُ عليَّ تطو ... ل بشوقٍ لا أتعوَّدُهُ

---

(١) قيثارة التوحيد : عبد الله شمس الدين تحقيق عبد العليم المهدي ص ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) السمو الروحي في الأدب الصوفي : للحلواني ص ١٣٧ .

ياليل حياتي في كدر ... وحبيبي يبعدُ موعدهُ
لو طُلْتَ عليَّ بلا أملٍ ... فالموتُ جميل مشهدهُ
ما كان هواي لغانيةٍ ... أو كان لظبْيٍ أعهدهُ
حبِّي لسوى الرحمن هو الإشـ ... ـراك لِمَنْ أتعبَّدهُ
أنا لاسم الله وباسم الله ... وفي اسم الله أُوَحِّدُهُ
فيريني العفو فأعبده ... ويريني الفضلَ فأحمدهُ
شرف العظماء بأصلهمو ... شرفي حبٌّ أتقلدهُ
إن عزَّ الناسُ بما لهمو ... عزِّي دينٌ أتعهَّدُهُ
أنا مِنْ لاشيء بنفسي بلْ ... بكَ شيءٌ أشرقَ مَحتَدُهُ
أنا فانٍ منِّي عنِّيَ بلْ ... بكَ باقٍ يسلَمُ سؤدُدُهُ
ولديك هُدَايَ ، وأنت مُنَا ... يَ ، ومنك عطائي ، أشهده
فمتى ألقاك ، وبي شغفٌ ... (أقيام الساعة موعده)

* * *

الزهد

والزهد غرض من أغراض الأدب الإسلامي ، تتجلى فيه إشراقات النفس ، التي تجردت عن الاستغراق في ماديات الحياة وصخبها ، وتعرضتُ لهذا الغرض الأدبي بالتفصيل في كتابي : « الأدب الإسلامي الصوفي حتى نهاية القرن الرابع الهجري » لذلك سأكتفي به هنا لأذكر شعراً لأبي العتاهية أشهر شعراء الزهد في العصر العباسي بقوله : (١)

يارب أنت خلقتني وخلقت لي وخلقت مني
سبحانك اللهمَّ عا لمُ كلُّ غيب مستكنْ
مالي بشكرك طاقةٌ ياسيِّدي إنْ لَمْ تُعِنِّي

ويقول أبونواس بعد أن تزهَّد : (٢)

يانواسي توقَّرْ وتَعَزَّ وتصبَّرْ
ساءك الدهرُ بشيء وبما سرَّك أكثر
ياكبيرَ الذنب عفوا الله من ذنبك أكبر
أكبر الأشياء عن أصغر عفو الله أصغر
ليس للإنسان إلا ما قضى اللهُ وقدَّرْ
ليس للمخلوق تدبيرٌ بل الله المدبِّرْ

ويقول فؤاد الخطيب في قصيدته « كلمة وداع » التي يقرر فيها حقيقة الحياة ؛ فلابد فيها من النهاية ؛ فهي إلى فناء حين تصعد الروح إلى عالم الغيب في السماء ، وينحط الجسد إلى الأرض ، فيتحلل إلى تراب ، ليصير غذاء للنبات ؛ ثم يغتذي به الأحياء من بعده يقول : (٣)

مالهذا الضياء عاد ظلاما فاسألوا الدهر هل أراد انتقاما ؟
ماله يحجبُ هذه الحقائق عنِّي ؟ ماله لايُميطُ عنه لثاما ؟
إيه نفسُ هذه غشية المو تِ فقد حان أن تذوقي الحماما

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي : ص ١٠٠ . (٢) ديوان أبي نواس : ص ٦١٤ .
(٣) ديوان الخطيب : ص ٩٩ .

هذه سنة الزمان : وجودٌ فانحلال ، والظل يأبى دواما
إن جسمي في الأرض لكن روحي ضَرَبَتْ في ذُرَى السماء خياما
والسماء تجذب النفوسَ إليها مثلما الأرض تجذب الأجساما
بعد موتي عناصر الجسم تنـ ـحَلُّ فيمتصها النبات طعاما

ومن شعراء الزهد في السودان الشاعر محمد محمد علي شاعر الأشجان (١٩٢٢ - ١٩٧٠) والشاعر الناصر قريب الله (١٩١٨ - ١٩٥٣) والشاعر التيجاني بشير « الصوفي المعذب » ، والشاعر محمد المهدي المجذوب صاحب ديوان « نار المجاذيب » المنشور عام ١٩٦٩ م يقول في قصيدته : « زهد » أنشدها في بور سودان في ٢٩ / ١١ / ١٩٥٢ م : (١)

أغضيت طرفي من خزي أنوء به فخبَّل الناس إخْبَاتي وإقلاعي
وليس أعرف من نفسي بخاطرة تُغوى فؤاديَ من ختلٍ وإيداع
عريانة كمحيًّا النبع مقتنصاً عُرْيَ الأزاهير لم تحفل بقطاع
فازهد فؤادي في الدنيا وبهجتها وَأَمِّلْ خلاصَك من شوق وأوجاع
وما ألومك في خَفْقٍ شكوت به سحر العيون إلى حرصي وأطماعي
وإن خَفَقْتَ بلا جدوى ستسلمني إلى الأمان إلى أن يصْرُخَ الناعي

وشعراء الزهد في العصر الحديث في مصر كثيرون منهم حسن القاياتي وعبد الجواد رمضان والسيد أحمد خليل ، ومحمد الخضر حسين ، وعبد الله شمس الدين ، وصالح الشرنوبي ، ومحمود حسن إسماعيل ، ومحمد عبد الحافظ ريان ، وإسماعيل صبري وغيرهم (٢) ، أما محمود جبر في قصيدته « خانوا هواك » يقول فيها : (٣)

برِّي بوعدك يابثنُ وعودي أنا في هواك مقيد بوعودي
إن كان شأن الحسن ماهتفوا به من خلف ميعاد وطول صدود

---

(١) الديوان : ص ٦٨ - ولد في الجيران بالسودان ، وتعلم القرآن في الدامر ثم في مدارس الخرطوم ، ثم تخرج من كلية غودون ليعمل محاسبا في حكومة السودان ، حتى صار شاعراً مشهوراً. (٢) العامل الديني في الشعر المصري الحديث : د. سعد الجيزاوي القاهرة ١٩٦٤ .
(٣) مزامير الإيمان : ص ٥ .

فأنا ارتأيت من الوفاء تحمُّلي ... وتَوَدُّدي وتَمَسُّكي بعهودي
أنا من عهدت كرامة ومعزةً ... أنا في الهوى سأطيل فيك سجودي
أنا فيض نورك ما استضأتُ بغيره ... كلا ولايُحْنَي لغيرك عودي
ياعزُّ مَنْ عَزُّوا بِعِزَّة قربها ... وثراء مَنْ أثروا بكل فريد
يانور من عشقوا الظلام وصفَّفُوا ... أقدامهم في حضرة المعبود
هذا الجمال لمن أبحت جلاله ... لأخ تبتل أم أخ محدود
إن كان ما أشدو يردّ لعلّة ... فبحق ذاتك لاتُضعْ مجهودي
أو كان ما ألهمتنيه موفقاً ... ومباركا فسأستطيب خلودي
أترى يَصُدُّ عن الورود مريدُه ... إني ظمئتُ وطاب فيك ورودي
يابثنُ بَرْقُ سناك أحرق مهجتي ... بالرغم من حجبي وثقل قيودي
خافوا هواك ولم أخفه وإنما ... قد خفت من ولهي عليك حسودي(١)

وأما الشاعر إسماعيل صبري فيقول في قصيدته : « الله » : (٢)

يارب أين ترى تقام جهنم ... للظالمين غداً وللأشرار
لم يبق عفوك في السموات العلا ... والأرض شبراً خاليا للنار
يارب أهّلني لفضلك واكفني ... شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكي أرى ... غضب اللطيف ورحمة الجبار
ياعالم الأسرار حسبي نعمة ... علمي بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التي تسع الورى ... ألاّ تضيق بأعظم الأوزار
إني لتعجبني الغداة صحيفتي ... ملأى من الآثام والأوضار
حاشا لمثلي أن يُدلّ بطاعة ... فيها مسجلة على الغفار
أو أن يعد وثيقة ينجو بها ... يوم القيامة من يد القهار
ليس الكريم بطالب عن صُنْعه ... أجراً ، وليس العفو صفقة شار

---

(١)ولد الشاعر محمود جبر في دمياط في ٢٤ / ٩ / ١٨٩٥ وعمل بوزارة الأوقاف عام ١٩١١ م ثم تركها عام ١٩٥٥ ، حتى توفي يوم ٧ / ١١ / ١٩٧٦ ، وديوانه « مزامير الإيمان » طبع مرات ، وكتب عن شعره كثير من النقاد في حياته وبعد وفاته .

(٢) الديوان : إسماعيل صبري ص ١٩٣ لجنة التأليف والنشر ١٩١٣ .

الشكوى والاعتذار والتوبة

هذه الأغراض الأدبية تنبع من شفافية النفس ورقتها ، والاعتراف بزلاتها وأخطائها ؛ لأننا بشر نصيب ونخطئ ونحسن ونسيء ، قال الله تعالى :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ والذين يدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . . ﴾ (٣) ، لذلك فتح الله التواب الغفار ، والرحمن الرحيم باب التوبة والقبول ، وأنكر اليأس والقنوط : ﴿ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ (٤) .

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تحث على الندم والصفح والعفو والتسامح والاستغفار ، وتنكر اليأس والقنوط وتنهي عنه وعن عدم التسامح وعدم الاعتذار وعدم الاعتراف بالذنب والخطأ ، لأنه يحرم على عبده الكبر والإنكار والفرية والافتراء والبهتان وقول الزور ، ويحث على المصارحة والاعتراف بالذنب والوضوح والتواضع ؛ لذلك جاءت سورتان تحمل هذه المعاني سورة التوبة وسورة غافر ، وغيرها كما حثت السنة الشريفة على ذلك فقال النبي ﷺ ، « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » . بل إن الخطأ في حق العباد لايسقط عقابه

---

(١) آل عمران : آية ١٥٩ .
(٢) الفرقان : آيات ٦٨ : ٧٠ .
(٣) آل عمران : آيات ١٣٣ : ١٣٩ .
(٤) الزمر : آية ٥٣ ، ٥٤ .

إلا إذاء أبدى المخطئ الاعتذار لمن أخطأ في حقه ، حتى يصفح عنه ، ويعفو عن خطئه ؛ لأن ذلك لايتعلق بحق الله عز وجل وهو الكريم الغفار الرحمن الرحيم وإنما يتعلق بحقوق العباد ، ولابد من رد الحقوق إلى أصحابها في الدنيا ، وإلا عوقب عليها يوم الحساب يوم لاينفع الندم والاعتذار ولا التوبة والاستغفار والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة في ذلك كثيرة لايتسع له المقام ، وإنما نكتفي بالإشارة والإحالة إليهما وهما من اليسر بمكان كبير .

وفي كتابي : « من الأدب العباسي دراسة ونقد » قصيدة للشاعر العتابي يعتذر فيها للخليفة هارون الرشيد ، فصلت القول فيها بالتحليل والدراسة والنقد ، وحينما يئن المعتمد بن عباد بالشكوى والألم والحزن يقول :

لما تماسكت الدموع   وَتَنَهْنَهَ القلبُ الصديع
قالوا الخضوع سياسةٌ   فليبد منك لهم خضوع
وألَذُّ مِنْ طعم الخضوع   عَلَى فمي السُّمُّ النقيع الخ

ويقول أبو نواس : (١)

ماحجتي فيما أتيت ؟ وما   قولي لربي ؟ بل وما عذري
الا أكون قصدت رشدي أو   اقبلت ما استدبرت من أمري
يا سوأتا مما اكتسبت ويا   أسفي على مافات من عمري

ويقول أبو تمام : ومطلعها : (٢)

ألم يأن تركى لا عليّا ولا ليا   وعزمي على مافيه إصلاح حاليا

إلى أن قال :

أخاف إلهي ثم أرجو نواله   ولكن خوفي قاهر لرجائيا
فإني جدير أن أخاف وأتقي   وإن كنت لم أشرك بذي العرش ثانيا
وأدخر التقوى بمجهودي طاقتي   وأركب في رشدي خلاف هوائيا

وغير ذلك من الشعراء في العصر العباسي فلا تجد شاعر إلا وتناول هذه الأغراض الثلاثة في شعره مع الله عز وجل ومع نفسه ومع الناس والصحاب .

---

(١) ديوان أبي نواس : ص ٦١ .   (٢) ديوان أبي تمام ٦٠٠ / ٤ .

وتناول الشعراء هذه الأغراض الأدبية في العصر الحديث ، فلم يخل الشعر عندهم منها ، وسنقتصر على بعض الصور الأدبية يقول الشاعر البائس عبد الحميد الديب في الشكوى : (١)

عيد تطالعني والعيش منكود — لأنت يوم الأسى والحزن ياعيد
يجدد الناس من لبس ومن فرح — وعندنا للأسى والهم تجديد
لو أنصف الناس ماضحوا بشاتهمو — بل كان قربانهم للمعتفى جود

وفي الشكوى يقول الدهشان : (٢)

ويح دنيا تضيق بالحر فيها — رحبـات نيرانهـا تتضـرمُ
يزرع الحرّ في الخليقة وداً — فإذا بالجني من الود علقمُ
يحفظ العهد للجوار مُحبّاً — فإذا الجـارُ يستبدُ ويأثمُ
يُخْلِصُ الحب للعشير فيلقا — هُ على الغلِّ حانقاً يتكظّم
ينصح الناس مخلصا فيلاقي — أذن شرٍّ في غيّها تتصمم
يجعل الحلمَ خُلّةً ولزامـا — فإذا الغيُّ في المصاحب ألزم
كف دعوى الإسلام لامرئ سوء — أينما سار في القبيل مذمم
أو من كان مسلماً يبتغي — طعنة المسلمين باليد والفم
خاب من يجعل السفيه صديقـا — ومن انقاد للمذنب واثم

وللشاعر فؤاد الخطيب قصائد كثيرة في الشكوى والعتاب والاستعطاف سواء أكان من الأصحاب أو الأقارب أو الأصدقاء أو المجتمع أو الأمة فنرى في قصيدة « شكوى الأمة » يتألم بالشكوى ويصرخ بالعتاب والاستعطاف من الشرور والآثام التي أحاطت بالأمة منها قوله : (٣)

نَثَلْتُ لك الكنانة في العتاب — فخذ ما شئت من عجب عجـاب
نقد ملكتْ مذاهبنا علينا — شياطينُ اغتيال واغتياب
إذا وجدوا امرءًا حرّاً أتوْه — خفافـا كـالأفـاعي في انسيـاب

---

(١) انظر ترجمته في كتاب عبد الحميد الديب الشاعر البائس : لصديقه الدكتور عبد الرحمن عثمان .
(٢) ديوان الدهشان : ٥٤ / ٢ .

وغالوه (بتقرير) رهيب   يصير قبره جوف العُباب

إلى قوله :

ولم يك ذلك المسكين شيئا   فما في قبضتيه سوى التراب
وإن أبدى أنينا أو شكاةً   تعرض للأسنة والحراب الخ

والصور الأدبية في الشكوى كثيرة عند عزت شندي ومحمد إسماعيل فضل وحسن جاد حسن ، وغيرهم يقول الشاعر السعودي مقبل العيسى في الشكوى والعتاب : (١)

لو يعلم القاسي عذاب الهوى   ما استنكر الشكوى على حبه
ولو يعاني في الهوى مثلما   ألقاه لم يشتد في عتبه
فما هوى إلاك ياقاسيا   والحسن في غيرك لم يسبه
ففي سبيل القرب يهديك ما   ترضاه حتى الروح فارفق به

ويعاتب الشاعر محمود أبو الوفا صديقا له في قصيدته « عتاب صديق » منها : (٢)

ياصديقي ومن أحق إفاده   منك إن قيل كيف حال السياده
وحرام أُصفِي الصديق ودادي   وهو عني ينأى ويقصى وداده
وأراه من النضار المصفّى   إذ يراني من الحديد براده
ليس قابيل وهو من هو إلا   أخ هابيل لُحمةً وولاده

والشاعر محمود غنيم يستعطف سمو الأمير زايد بن سلطان حاكم إمارات الخليج بشأن قضية الأمير محمد صقر القاسمي ويعتذر عنه في قصيدته « استعطاف وتبرئة » منها قوله : (٣)

---

(١) ولد في مدينة عنيزه عام ١٣٤٩ هـ ثم انتقل إلى مكة ليتعلم فيها حتى ابتعث إلى القاهرة ؛ فحصل منها على ليسانس الحقوق ، وعمل في عدة مناصب في وزارة الخارجية وديوانه « قصائد من مقبل العيسى » انظر شعراء العصر الحديث : عبد الكريم الحقيل ص ٢٢٨ .

(٢) المجموعة الكاملة : ص ٣٢٥ : ٣٢٧ وهي قصيدة طويلة .

(٣) رجع الصدى : ص ٢٣٧ : ٢٣٩ وهي قصيدة طويلة .

لكنها فتنة هوجاء عارمةٌ ... ألقى الدخيلُ عليها النارَ والحطبا
شاه الدخيل فكم شبت لظىً يدُهُ ... وكم أخاً بأخٍ في فتنة ضربا
ما كان من همّ صقر قتل صاحبه ... لكن عليه بحد السيف قد عتبا
وكيف يفتك في وعي أخٌ بأخٍ ؟ ... لكنه قدر في اللوح قد كُتبا
شيخَ الإمارات صقر أنت تعرفه ... وأنت يوم نفوه تعرف السببا
ناشدتُكَ العدل فيه والعروبة بل ... ناشدتك الله والإسلام والحسبا
طال الزمان عليه رهن محبسه ... والصقر لايعرف الأقفاص والقضبا
لاتأخذوه بوزرٍ ليس وازره ... فتشعلوا في الصدور الحقد والغضبا
ورشحوه ليوم فيه ندفع عن ... أحسابنا أن هذا اليوم قد قربا
إن تفقدوه فقد فقدتم خير قادتكم ... والحامي المرتجي والمعقل الأشبا

ويعاتب الشاعر عامر محمد بحيري حبيبته في قصيدة « عتاب » منها قوله : (١)

وعاتَبَتْني في يوم بنظرتهـــا ... فما تحمّلتُ منها سيفَ مُقلتها
الفيتها في اقتضاء الحق صارمـةً ... وطيبة القلب تبدو طيّ غضبتها
ماقلت يا حسنها والحسن إن رضيت ... والحسن إن غضبت في نور طلعتها
إني لأحذر منها لفتة عرضـت ... فكم يذيب فؤادي سحر لفتتها

ويقول الشاعر السوري عمر أبـو ريشـه فـي قصيدة « لاعتاب » منها قوله : (٢)

عاتَبْتِه ونسيتِ طيب نجاره ... وأبيْتِ أن تصغي إلى أعذارِه
تلك التقية من سلافة حلمه ... نضبتْ ولم تنقعْ غليل أواره
فذري العتاب فلن يهزك لحنه ... مادام مغموسا بذل إساره
مهلا حماة الضيم إن لليلنا ... فجراً سيطوي الضيم في أطماره
مانام جفن الحقد عنك وإنما ... هي هدأة الرِّئبالَ قبل نفاره

---

(١) المجموعة الكاملة : ص ٢٦١ : ٢٦٢ وهي قصيدة طويلة .
(٣) الديوان : ص ٨٢ ومابعدها وهي قصيدة طويلة .

الهجـاء

سبق أن وضحنا مفهوم الهجاء في الأدب الإسلامي ؛ فلا يعتمد على ألفاظ السباب والشتم والقبح ، ويأبى كشف العورات والغوض فيها ، وغيرها من القبائح وألوان القذف والسباب مما لايقبله الأديب على نفسه ولا على أهله وذويه ، وأصدقائه وإخوانه ، ولا على مجتمعه الراقي المتحضر بحضارة الإسلام ولا على أمته الإسلامية المجيدة العزيزة ، وإنما ينكرها ويشمئز منها ، ويصور مايقابلها من القيم السامية والأخلاق الفاضلة ، ويحث المجتمع والأمة الإسلامية على تخطي الأزمات والعثرات ، واجتياز النكسات والنكبات ، والصبر على المكاره ، والتحلي بالقيم الخلقية ، حتى تحقق الغاية ، وتنتصر على المفاسد والانحرافات ،وتهزم الشيطان وهوى النفس ، وأعداء الإسلام والمسلمين ، وغير ذلك مما يعتمد عليه هذا الغرض في الأدب الإسلامي ، وهو متفق مع مايحث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة . ويتلاءم مع سلوك الصحابة والتابعين من السلف الصالح ﷺ جميعا .

بهذا يكون مضمون الهجاء هادفا وبناء ، وعناصره الفكرية سامية وشريفة ، تسمو بعاطفة الأديب ومشاعره ، وتثري تجربته الشعرية والأدبية بحقل خصيب من القيم السامية والخلق الرفيع في تصوير فني ؛ تتفتح له منافذ التلقي والإدراك المتنوعة في عقولهم وأفكارهم وعواطفهم ومشاعرهم وأحاسيسهم ووجداناتهم ، فيبنى الأدب مجتمعا قويا وصالحا ، ويهذب أخلاقهم ، ويرفق مشاعرهم ، وتلك هي رسالة الأدب الإسلامي يتخذ الكلمة الطيبة مضمونا وشكلاً ؛ ليشكل منها الصورة الفنية المؤثرة ، والتعبير القوي الساحر ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾[1] .

---

(١) سورة ربراهيم : ايات ٢٤ : ٢٧ .

يهجو الشاعر ابن الرومي التناقضات التي شاعت في مجتمعه ، واختلال الموازين المتعارف عليها ، فانعكست المقاييس ، فأصبح الجميل قبيحا والحقير عظيما ، والظالم منصفاً ، والخامل ذائع الصيت والكسول من علية القوم ، والعيّ عبقريا وفيلسوفا ، والناجح في حياته ، مكروها مبتذلا يقول في مطولة من مطولاته الكثيرة في ذلك منها قوله : (١)

طَارَ قومٌ بِخفَّةِ الوزْنِ حتى لَحِقُوا خفةً بِقَابِ العُقَابِ
وَرَسَا الراجحون مِنْ جلّةِ الناسِ رُسُوَّ الجبال ذات الهضاب
وَلَماَ ذَاك للئَام بفخـر لا ، ولا ذاك للكرام بعَاب
هكذا الصخر راجح الوزن راسٍ وكذا الذرُّ شائل الوزن هاب
فليطر معشر ويعلو فإني لا أراهم إلا بأسفل قاب
جيف أنتنت فأضْحت على اللجُّةِ والدرُّ تحتها في حجاب
وغثاءٌ عَلاَ عباباً من اليم وغاص المرجان تحت العُباب
ورجـالٌ تغلبُوا بزمـان أنَا فيه وفيهم ذُو اغْتراب
أَمِنَ العـدْل أن تَعُدَّ كثيراً لي ماتستقل للأوقاب
أتُراني دون الألى بلغوا الآمالَ مِـنْ شرطةٍ وَمِـنْ كُتّـاب
وتجار مثل البهائم فـازوا بالمنى في النفوس والأحبـاب
فيهم لُكْنَةُ النَّبْـطِ ولكـنْ تحتهـا جاهليةُ الإعْـراب
أصبحوا يلعبون في ظل دهـرٍ ظاهرُ السُّخف مثلهم تَعَّاب
خيرُ مافيهم ولاخيرَ فيهـم إنهم غيرُ آثمي المُغتـاب

وهكذا إلى نهاية القصيدة ، ويقول في تحقير البخيل والتنفير من البخل :

يُقَتِّر عيسى علي نَفْسه وليْسَ بباقٍ ولا خالـد
فلو يستطيعُ لِتقْتِيره تَنَفَّسَ من مِنْخَرٍ واحـد

وفي الشعر الأندلسي ينأى الشاعر يحيى بن الحكم الغزال بنفسه عن المفاسد ، التي سيطرت على المجتمع من وسائل اللهو والعبث والمجون ، وتصوير

---

(١) انظر كتابي عبقرية ابن الرومي شاعر العصر الحديث : الفصل الأول .

خطرها الداهم على المجتمع وأضرارها ، التي تؤدي إلى انهياره وضعفه منها قولـه : (١)

ولا أنا ممن يؤثر اللهوَ قلبُـه ... فأمسى في سكر وأصبح في سكر
ولا أقارع باب اليهودي موهنـا ... وقد رجع النوام من شهوة الخمر
كأني لم أسمعْ كتاب محمد ... وما جاء التنزيل فيه من الزجر
كفاني من كل الذي أعجبوا به ... قليلةُ ماء تُستَقَى لي منَ النهر
ففيها شرابي إن عطشت وكل ما ... يريد عيالي للعَجين وللقدْر
وبالله لو عمرتُ تسعين حجةً ... إلى مثلها ما اشتقتُ فيها إلى خمر
ولا طربَتْ نفسي إلى مزهر ولا ... تحنن قلبي نحو عود ولازمر
وقد حدثوني أن فيها مرارةً ... وما حاجة الإنسان في الشر للمرّ
أخي عَدٍّ ماقاسيته وتقلبت ... عليك به الدنيا من الخير والشر
فهل لك في الدنيا سوى الساعة التي ... تكون بها السراء أو حاضر الضر

ويقول الشاعر العراقي محمد بهجت الأثري يذم حال الأمة الإسلامية ويصور ما ألمت بها من نكبات ونكسات ، ويهجو العدو الخارجي عدو المسلمين وأعداءها في الداخل من المثبطين والجبَناء والضعفاء ، والمستسلمين لليأس والأعداء ، ويحثهم على التمسك بالقيم الإسلامية ، التي تؤدي للنصر على عدوهم ، وعلى الحفاظ على عروبتهم وأصالتها وعراقتها ، حتى تستطيع بعروبتها أن تحافظ على لغة قرآنها وتشريعها ، فتحفظ كيانها وعزتها ومجدها وحضارتها في قصيدة طويله منها قوله :

يا أبناء الضيم من مضر ... هل لكم في الأرض من خبر
أيَّةً وليّ الزمان بكمْ ... بين سمع الأرض والبصر ؟
غاب عن سمعي زئيركم ... حين ناب العزف بالوتر

---

(١) العقد الفريد : ابن عبد ربه ٣٥٢ / ٥ .

(١) شاعر عراقي مشهور له صولاته في العالم الإسلامي فهو من أعلام العصر في العراق وعضو الجامعة العربية والمجامع في مصر والشام والعراق والقصيدة من شعر الجهاد للدكتور عبد القدوس أبو صالح والدكتور محمد رجب البيومي ص ٢٧٩ : ٢٨٤ .

كيف يُدْنِي نجحَهُ وطَنٌ ماله في المجد من وطـر
وطن بانت مغارمـه نهبَ أوشاب من الزُّمر
لعبتْ أيدي الطغاةُ به لَعبَ الصبيان بالأكـر
وعشَتْ في الناس مفسدةٌ سَادتْ البادين والحضـر
كل من تلقاه مُنْتَبِذٌ عن مجال الجدِّ والخطر
يؤثر السفساف معجزةً ويُجَافيَ طيِّبَ السير
فإذا زَيَّنْتَ مكرُمةً مَالتْ الأعناقُ من ضَجرِ
وإذا جاهدت مُنكرَةً جاءك المكروه كالمطـر
عاد مذموماً بلا نظرٍ كل محمود من الفكـر

وهكذا إلى آخر القصيدة الطويلة ، واشتهر الشاعر حسن جاد بهجاء المفاسد في المجتمع ، وتصوير التناقضات فيه ، وكذلك محمود أبو الوفا ، وعزت شندي ، وكيلاني سند ، وعامر بحيري ومحمود غنيم ، وإبراهيم نجا ، وعلي شوقي ، وأحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، والرصافي ، واسماعيل صبري ونجيب الكيلاني ، والصيرفي ، ومحمود حسن إسماعيل ، وسيد قطب الذي تناول شعره هجاء الانحلال والحقد والحسد والإلحاد يقول : (١)

إني لأفتح عيني حين أفتحها فلا أرى غير آلام نعانيهـا
تعملق الغرب يملي ما ارتآه لنا وألحدَ الشرق إنكاراً وتسفيها
أمسى « الماركسَ » تنظيمٌ يمثّله عشْنَا زمانا نقاسي من مخازيها
فمن خلال حماقات توجهنا كنا ضعافا نعملق من طغى فيها
أمن خلال اجتهادات مخربة ترنو إلى صفحة بيضاء نتلوها
عوامل الهدم قد ملكتْ أعنتنا في غفلة ملكوا الحمقى نواصيها
ترقع الدين باستبداد أنظمة تناقض الدين في شتى نواحيها
فلا المُرَقَّع قد باتت له نظم ولا المرَقّع يصلح من مآسيها

ويقول خير الدين الزركلي يهجو السياسات المدمرة والمؤامرات المخربة

---

(١) أناشيد الحق والقوة والحرية : محمد عبد الحكيم خيال : ٢١ / ٣ .

وحيلها الوضيعة التي أزهت الحق ، ومكنت الباطل منه وهي طويله منها قوله : (١)

وللسياسات أحابيلها لا منصف فيها ولا مُسعف
لغاتها غير لغى ناسنا وعُرْفها غير الذي يعرف
لاتدرك العين الاعيبها ولاتُحِسُّ السمع ماتَهرِفُ
وأهلها إن واعدوا أخلفوا ميعادهم أو عاهدوا لم يفوا
الظلم فيها ، العدْل في غيرها والمقسط المؤتمن المجْحف
والمستعاد القول مَمْلوله والأحْكَمُ المُستَلهمَ الأسخف

ويهجو عبد اللطيف النشار عدو العرب والمسلمين وما ارتكبوه من موبقات ومآس ، فيصور إجرامهم وأفعالهم الشنيعة في قصيدته « الفدائي في القناة » منها قوله : (٢)

ليس في عالم الجرائم ذنب ماجنوه هنا على الأبرياء
احتلال لموطن فيه أهلوه وقتل لصبية ونساء
والمحاريبَ دَنَّسُوا وأهانوا حرمة العدل في رجال القضاء
واستباحوا الأموال نهبا وسلبا في ضياء النهار أو في المساء
هؤلاء الأنذال خانوا المواثيق فماذا نرجوه من هؤلاء

ويهجو حسن كامل الصيرفي سفاحي الشعوب ، ومفترسي الحقوق بمزاعمهم الباطلة وتراهاتهم الفاسدة في قصيدته « شريعة الغاب » منها قوله (٣)

شريعة الغاب عاد الظفرُ والنابُ وعاد للبغي سلطان وإرهاب
ونكِّسَتْ لصروح العدل ألويةٌ وحُطِّمتْ لرموز الحق أنصاب
واستشرت الطغمة الحمقاء يدفعها إلى المهالك خَطَّافٌ ونهاب
بطولة تدعيها وهي أرنبة في الحرب يفزعها هرٌّ وسنجاب
طاشت عقول وضلت أنفس وبغت شراذم من شرار الخلق أو شاب

---

(١) الديوان : خير الدين الزركلي ص ٣٣٣ .
(٢) شعر الجهاد : د . رجب البيومي و د . عبد القدوس أبو صالح ص ١٥٣ .
(٣) ديوان صدى ونور ودموع : ص ٣٠٢ .

الاناشيد

ينبغي لفن الأناشيد والأغاني أن يؤدي دوره في الأدب الإسلامي ، لما له من سحر يجذب القلوب ، ويستهوي العقول ، ويستخف اللسان والسمع معا فشكله الفني له تأثير على الملتقى ، لخفته ورشاقته ولعذوبة موسيقاه وطلاقتها وخفة إيقاعه ، وسحر أنغامه ، وغيرها من خصائص فنية ، جذبت إليها الناشئة من الجيل ؛ فأصبح يتلقاها بالقبول ، وتسكن ذاكرته بسهولة ، ويرددها لسانه حفظا عن ظهر قلب ، ويتغنى بها في بيته وعلى مكتبه ومدرسته ، وفي النوادي والساحات ، وفي الطرقات والشوارع ، وأثناء المشي والركوب بدون معاناة ، وبلا مشقة أو جهد .

لذلك أضحى لهذا الفن الأدبي خطره على هذا الجيل ، وعلى الأجيال في المستقبل كالشأن في جاذبية الرواية والقصة والمسرحية وفي برامج التلفاز والمذياع وفي المجلات الملونة والعارية ؛ مما يحدو بنا أن نتخذ منه فناً راقياً في الأدب الإسلامي ، نثري به العقول ، ونهذب به المشاعر ، ونغذي به القلوب ، ونقوم اللسان على الفصحى الدانية من العقول ، والعذبة على الألسنة والخفيفة على الأسماع بإيقاعاتها السهلة المرغوبة ، مع الحفاظ على أصالة الإيقاع ، وفصاحة الكلمة والتعبير ، وصحة البناء والتركيب ، حتى ندفع الهجوم السافر والعنيف الآن على منافذ الإدراك ومعابر التلقي من العقل والعاطفة واللسان والسمع والإحساس ، مِنَ الفكر الهابط ، والاضطراب في العاطفة ، وسريان الألفاظ العامية التي لامعنى لها ، وتعبيرات مستهجنة تمجسها الأذواق ، وكلمات أجنبية بالحروف العربية ، شكلت معجما خطيراً عند الناشئة ، اكتسبوها من الأناشيد والأغاني ، والتقطوها من عناوين المحلات والمؤسسات والمعارض ، ومن لافتات الميادين والشوارع ومن بريق الإعلانات والبيانات ، ومن جاذبية التمثيليات والبرامج ، ومن طلاقة الساحات والأندية المستغربة ، وغير ذلك مما يشكل خطراً جسيما على الملكات العربية الأصيلة ، وعلى الفطرة الإنسانية المستقيمة .

لذلك كله كان ولا بد أن يكون الاهتمام كبيرا ومضاعفا لهذا الفن الأدبي ، فن الأناشيد والأغاني ، وتشجيع المبدعين على الإكثار فيه وإخراجه في بناء فني جميل ومؤثر على النحو الذي ذكرناه آنفا في الأدب الإسلامي ، ولاتخلو

دواوين الشعراء في العصر الحديث من بعض هذه الأناشيد ، التي نعرض طرفا من شواهدها .

والشاعر حسن جاد حسن تغنى في شعره بأناشيد منها « نشيد الأم » : في ديوانه ص ١٩٧ يقول :

أنا - ماعشت - محب لك يا أمي الحبيبهْ
أنت نبع ناض عطفا وحنانا وعذوبه
أنت روض يُطَيِّبُني كُلما استروحتُ طِيَبهَ
أنت في أيام دهري بسمةٌ تَمْحُو قُطوبَه
لست أنسَى لك عمري فضلَ نُعماك الرطيبهْ
كم ترفقت بمهدي وتعشقت ربيبه
وإذا سقْمُ عراني كُنْتِ لي نِعْم الطبيبه
تسهرين الليل يقظي وتقاسميه كروبه
وإذا بتُّ كئيباً بتُّ من أجلي كئيبه
واذا مارست شيئا كنت لي نعم الحبيبه
أنا في عيدك أشدو لك يا أمي الحبيبه
وأنا طفل نجيب شبَّ عن أمّ نجيبه

وللشاعر الأديب مصطفى صادق الرافعي [1] أناشيد منها « نشيد الشباب المحمدي في « أغاريد » الرافعي ص ٧٢ ، ٧٣ ، ونشيد نور الكهرباء في ص ٩٦ ، ٢١ ، وللشاعر محمد عمر الطوانسي أناشيد وابتهالات وهي « اتحدنا » و « انتصاري » و « يامجيب السائلين » وغيرها [2] وللشاعر علي

---

(١) ولد الرافعي في بهتيم ١ من رجب ١٢٩٨ هـ/ ٣٠ / ٥ / ١٨٨١ حفظ القرآن ثم التحق بابتدائية دمنهور ثم إلى المنصورة وأصيب بالصمم بسبب مرض التيفود وعمل كاتبا بمحكمة طنطا لمدة أربعين عاما وله شعر ومؤلفات مشهورة وصاحب مدرسة في النثر الفني توفى ٢٩ من صفر ١٣٥٦ / ١٠ / ٥ / ١٩٣٧ في طنطا .

(٢) ديوان « سر الله » ص ٨٤ : ٩٠ وفي ديوان على شفاه الزمن أناشيد « ربي » ، « العمل » وابتهالات

محمود طه أناشيد منها النشيد المشهور في الأذاعة يقول فيه :

أخي جاوز الظالمون المدى نحق الجهاد وحق الفدى
أنتركهم يغصبون العروبة مجد الأبوة والسؤددا
وليسوا بغير صليل السيوف يجيبون صوتا لنا أو صدى
أخي أيها العربي الأبي أرى اليوم موعدنا لا الغدا الخ

وللشاعر محمد مصطفى حمام أناشيد منها « أغنية » في ديوانه ص ٣٠ ، وللشاعر محمود غنيم أناشيد منها ؛ « سلاح غاندي » و « النشيد الرياضي » ونشيد « المعهد العالي للتربية الرياضية » في « رجع الصدى » ص ٢٣٣ : ٢٣٦ ، وللشاعر عزت شندي أناشيد منها « تسابيح في الفجر » و « ابتهالات » في ديوان « مع الله ورسوله » ص ٢٧٩ : ٢٨٩ ، وللشاعر إبراهيم محمد نجا أناشيد وأغاني كثيرة منها « أنشودة الصباح » و « رفرف ياعلم » و « يائورة حرة » و « الوردة والشوك » وأغنية « غريب » و « لأجل السلام » و « ليه يا قلبي » و « الدنيا لنا » وأغنية « الواد الأسمراني » وغيرها ، ومن أغنية « لأجل السلام » قوله :

وحدة نضال . . وحدة أبطال وحدة شعوب حره قويه
لأجل السلام والحرية أصبحنا وحده عربيه
لأجل السلام والحريه

واشتهر الشاعر عبد الله شمس الدين بأناشيده وأغانيه التي ترددت في أصداء العالم في معارك النصر منها نشيد « الزحف المقدس » و « أنشودة المسحراتي » ومنه قوله :

لبيك يارب بالشوق والحب
يا غافر الذنب يا قابل التوب
لبيك يا ربي الخ

ونشيد « الله أكبر » الوطني في معركة النصر منه قوله :

الله أكبر فوق كيد المعتدي
والله للمظلوم خير مؤيدي
أنا باليقين وبالسلاح سأفتدي

بلدي ونور الحق يسطع في يدي
قولـوا معي قولـوا معـي
الله فـوق المعتـدي
ياهذه الدنيا أطلي واسمعي
جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي
بالحق سوف أهدُّه وبمدفعي
فاذا فنيت فسوف أفنيه معي
قولـوا معي قولـوا معـي
الله فوق المعتـدي
قولا معي الويل للمستعمر
والله فوق الغادر المتجبر
الله أكبر يابلادي كبري
وخذي بناصية المغير ودمّري
قولـوا معي قولـوا معـي
الله فـوق المعتـدي

فأجابه الأمير صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة حينما سمع هذا النشيد فنظم نشيدا وأرسله إلى عبد الله شمس الدين يقول فيه :

ياشاعـر الله أكبـر سموت لحنـاً ومخبـر
خلدت فيـه كفاحـا مـازال يعلـو ويظهـر
ألفت منـه قلوبـا كانت من الحق تنفر الخ النشيد[1]

وللشاعرمحمود أبو الوفا أناشيد وأغاني مشهورة أيضا منها « لواء العروبة » و « جميلة يابلادي » و « فلسطين » « هذا العربي » و « إلى العمل » و « كن قائداً » و « واجب الله والوطـن » و « كن مستعـدا » شعـار الكشـافـة ، و « الفتوة » و « الكشافة للوطن العربي » و « أعياد الشبـاب » و « الجيل الجديـد »

---

(١) ديوان قيثارة التوحيد : للشاعر عبد الله شمس الدين .

و « القرية » و « البيئة » و « كرة القدم » و « الشمس » و « نشيد السلام » و « نشيد جماعي للرحلات » و « ترحيب » بالمؤتمر الأسيوي الأفريقي ، « من مصر أنا » و « مصر الثورة » و « الجندية » و « البحّار » و « الطيران » و « الدفاع » و « العلم » و « الشهيد » و « الفداء » و « الانتصار » وغيرها (١) ومن نشيده « إلى العمل » يقول : (١)

إلى العمل إلى العمل :

هذا زعيمنا البطلْ يحبنا أن نشتغلْ
فلنشتغلْ ولنشتغل مهما يكنْ فلنشتغلْ
بكل عزم لاَ يَكِلْ بكل روحَ لا يَمَلْ
واللهُ من أجل الوطنْ يرعى لنا هذا البطلْ
حتى نحقق المنى حتى نحقق الأملْ

إلى العمل إلى العمل وهكذا . .

ولقد ردّدَ سيدنا رسول الله ﷺ ، وهو يحفر الخندق في غزوة الأحزاب نشيداً من شعر ينشده وهو يحمل التراب على كاهله الشريف من قول عبد الله بن رواحه رضي الله عنه (٢) :

والله لولا اللهُ ما اهتدينا ولاتصدَّقْنا ولا صلَّيْنا
فأنْزِلَنْ سكينةً عليْنا وثبتْ الأقدامَ إنْ لاقينا
إنَّ الألَى قدْ بَغَوْا عليْنا إذا أرادُ فتنةً أبَيْنا

ثم يرفع صوته ويكرر : « أبَيْنَا أبَيْنَا » .

* * *

---

(١) المجموعة الكاملة من ص ٣٨٥ : ٤٢٦ .
(٢) رواه مسلم والبخاري في صحيحه : ٧٣/ ٤ .

الملحمة والمسرحية في الشعر

قضية المطولة أو الملحمة في الشعر العربي ونقده الحديث ، لازال النقاد يتحدثون عن صحة إطلاقها على بعض المطولات في الشعر العربي ، وعلى نماذج منه ، وسيظل الحديث عنها ، حتى تستقر معالمها .

ولفظ « الملحمة » العربي ، يقابلها عند الإغريق حكاية أو قصة شعرية تحكي ، وتعد للقراءة ، لا للمشاهدة والتمثيل كالمسرحية ومعناها عندهم ـ وليس عندنا ـ حكاية أحداث وسرد وقائع لأبطال رمزيين ، لا وجود لهم في الواقع ، ولا على سبيل الحقيقة ، بل تعتمد على الخيال والخرافة والأساطير، في سرد المعجزات وخوارق العادات ، على يد أبطال خرافيين لاحقيقيين ، ولا وجود لهم في الواقع مثل « الإلياذة » و « الأوديسيا » الإغريقية للشاعر الإغريقي : « هو ميروس » .

وهذا المصطلح العربي « الملحمة » ليس بالضرورة أن يتضمن معالم مايقابلها عند الإغريق من الخرافة والأسطورة والخيال ، وخوارق العادات والمعجزات ؛ فتلك المعالم تتصل بطبيعتهم ومعارفهم وحياتهم ، ولا تتفق مع طبيعتنا ومعارفنا وحياتنا نحن المسلمين .

والملحمة وهي مصطلح عربي بحروفه ومضمونه كما في معاجم اللغة العربية : يتضمن مفهومها :

١ ـ يشتمل على معانٍ تواضع عليها علماء اللغة العربية وهي التلاحم ، والتلاصق والوحدة ، والترابط ، والقوة ، والشدّة ، والوقعة العظيمة .

٢ ـ ولاتشتمل على معاني الخيال ، ولا الأسطورة ، ولا الخرافة ، ولا المعجزة ، ولا خوارق العادات ؛ فليست هذه من معانيها في الوضع اللغوي في المعاجم العربية .

وعلى ذلك لايلزم أن نحمّل كلمة « الملحمة » ماليس داخلا في معناها اللغوي عندنا وهي معاني الفقرة الثانية ، التي تحمل عند الإغريق مضمون الحكاية الخرافية الخيالية ، فهذا المفهوم يرتبط بالحكاية الأسطورية عندهم ، لا بلفظ « الملحمة » العربي بمعناه اللغوي السابق في الفقرة الأولى عندنا نحن المسلمين والعرب .

وانطلاقا من الوضع اللغوي لكلمة « الملحمة » في العربية ، نستطيع أن نعد منها مصطلحا أدبيا ، ينطلق من معناها اللغوي الموضوع لها في اللغة العربية ؛ فتضم معالم نابعة من معاني الفقرة الأولى وهي :

١ - معنى القص والحكاية سواء اعتمد على التصوير الحقيقي ، أو التصوير الخيالي ، الذي لا يتناقض مع حقائق التاريخ ولا الواقع الاجتماعي المعاصر ، من غير كذب أو تزييف .

٢ - الوحدة والترابط بين المعاني والأفعال والأحداث والمشاهد .

٣ - الوقائع العظيمة المستمدة من الواقع في السيرة والتاريخ والمجتمع المعاصر من الأعمال الجليلة والبطولات العظيمة ، والانتصارات الرائعة .

٤ - الحقائق التاريخية ، وليست الخرافية ولا الخيالية ، ولا الكاذبة الملفقة ولا الافتراءات ، ولا الأباطيل .

٥ - الأبطال الحقيقيين من الواقع التاريخي والاجتماعي المعاصر لا الرمزيين الخرافيين .

هذه المعالم تشكل مصطلحا أدبيا للملحمة في الأدب العربي ، فيصح أن نطلقه - أي « الملحمة » - على المطولات ، التي تتناول حقائق التاريخ والأحداث الواقعة بالفعل ، وعلى الوقائع الحسية ، التي تتصل بالحياة والأحياء ، حين يصورها الأديب تصويراً شعريا في مطولة تحققت فيها المعالم السابقة ، فنطلق عليها « الملحمة » في الأدب العربي ويقابلها عند الإغريق الحكاية بمعالمها السابقة في الفقرة الثانية ولا مانع أن يتفقا معا في بعض المعالم الأخرى مثل : عناصر الحدث ، وتتابع الأحداث ، والترابط بينها ، والوحدة الفنية ، والمشاهد ، وجلائل الأعمال ، وعظائم الوقائع ، وغيرها ، مما يعد قدراً مشتركا بين الثقافات ومعارف الشعوب .

لذلك كله فلا ضير أن نطلق على المطولات في أدبنا مصطلح « الملحمة » من الأعمال الفنية في الأدب الإسلامي ، وهو كما رأينا مصطلحا نابعا من واقعنا العربي الإسلامي ، ومن حياتنا الأدبية والنقدية ، وليس مستمدا لا في حروفه ولفظه ولا في معناه ومضمونه من الآداب الأخرى كالاغريقية واليونانية والرومانية

والآداب الأوربية والغربية وغيرها ، ولا ضير أيضا أن يقارن بينها وبين ما يشبهها في الآداب الأخرى في دراسة مقارنة في « الأدب المقارن » لنقف على الخصائص الفنية والموضوعية ، وهذه الأعمال الفنية للملحمة في الأدب الاسلامي كثيرة منهـا :

١ ـ ملحمة : « دول العرب وعظماء الإسلام » لأمير الشعراء أحمد شوقي ، نشرت بعد وفاته عام [١٩٣٣ م] وله ملحمة أخرى جمعت تاريخ مصر قبـل الإسلام وبعده الذي أشرق بحضارتهاالإسلامية فعزت به إلى الأبد وهي : « كبار الحوادث في وادي النيل » ، وقـد ألقاهـا في المؤتمـر الشرقي الدولي في مدينة « جنيف » معتزا بمصر الإسلامية أثناء انعقاده فـي سبتمبـر عـام (١٨٩٤ م) مندوباً عن بلاده .

٢ ـ ملحمة « مجد الإسلام » لشاعر العروبة والإسلام أحمد محرم ، ونشـرت بعد وفاته ، وحققها الدكتور محمد إبراهيم الجيوش (١٤٠٣ / ١٩٨٣) .

٣ ـ ملحمة « من إشراقات السيرة الزكية » في السيرة النبوية للشاعر عزيز أباظة .

٤ ـ ملحمة « من وحي النبوة » للشاعر محمد عبد الغني حسن .

٥ ـ ملحمة « النبي » ﷺ للشاعر عمر أبي ريشه ، نشرها أحمد الخاني بالرياض ١٤٠٦ هـ .

٦ ـ ملحمة « النصر من وحي الجهاد المؤمن في رمضان المبارك ١٣٩٤ هـ ، وملحمة « الجهاد » نشرت في عام (١٣٨٨ هـ / ١٩٨٦ م) للشاعر عمر بهاء الدين الأميري .

٧ ـ ملاحم الشاعر عامر محمد بحيري وهي : « أمير الأنبياء » ، « هداة البشرية » ، « الطريق إلى النور » ، « الجلاء » في عام ١٩٦٣ م ، « مصر المنتصـرة » في عام ١٩٧٦ م .

٨ ـ ملحمة « السيرة النبوية الخالدة » للشاعر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي .

٩ - الملحمة الإسلامية للشاعر حسين عرب ، في ثمان وأربعين ومائتين بيت بقافية موحدة ، نشرت في مجلة « المنهل » العدد الثاني عشر عام ١٣٨٨ هـ .

١٠ - ملحمة « نور الإسلام » للشاعر محمد بن سعد الدبل عام (١٤٠٢ / ١٩٨٢) بالرياض .

١١ - ملحمة « أكرم الناس يوسف الصديق عليه السلام » للشاعر الحمزة دعبس .

١٢ - ملحمة « النور » محمد الحسناوي .

١٣ - ملاحم : « الجهاد الأفغاني » ، « الغرباء » ، « القسطنطينية » ، « فلسطين » للشاعر عدنان علي رضا النحوي .

١٤ - ملحمة « بدر » للشاعر عبد القادر حداد في (١٣٩٢ / ١٩٧٢) حماة بسوريا .

١٥ - ملحمة « الألياذة الاسلامية الجديدة » للشاعر محمد ابراهيم الجدع .

وغيرها من الملاحم الشعرية للشعراء في العصر الحديث وللمعاصرين مرّ ذكرها ، أما المسرحيات الشعرية في الأدب الإسلامي فمنها :

١ - مسرحية « في سبيل الوطن » ومسرحية « أسماء بنت الصديق » للشاعر إبراهيم محمد نجا .

٢ - مسرحية « المروءة المقنعة » في التاريخ الإسلامي ، ومسرحية « النصر لمصر » من التاريخ الأيوبي الإسلامي . للشاعر محمود غنيم .

٣ - ومسرحية « غروب الأندلس » ، « الناصر » ، « شجرة الدر » وغيرها للشاعر عزيز أباظة .

٤ - ومسرحية « نشيد الصحراء » للدكتور خفاجي ومسرحية : « ملك غسان » للدكتور محمد رجب البيومي .

٥ - ومسرحية « خالد بن الوليد » في عام ١٩٤٥ ، « الأمين والمأمون » في عام ١٩٥٧ م ، « في سبيل الوطن » في معركة رشيد للشاعر عامر محمد

بحيري ، وغيرها من الملاحم والمسرحيات ، التي جاءت على النحو السابق في تصوير البطولات في السيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامي ، وتصوير الواقع في المجتمع الإسلامي الحديث والمعاصر ، مما تحققت فيه الخصائص الفنية للأدب الإسلامي في طبيعتها ، ومضمونها ، وأهدافها وغايتها ، وبنائها الفني والأدبي في الشعر الإسلامي أما المسرحية والقصة في النثر الأدبي فسيأتي الحديث عنهما بالتفصيل في فنون الأدب الإسلامي ، وفنونه المتنوعة ، وهي الخطبة ، والمقال بأنواعه الكثيرة ، والأقصوصة ، والقصة ،والرواية ، والمسرحية ، وفن السيرة الأدبي ، وأدب الأطفال ، وأدب الرحلات ، وغيرها .

ونكتفي بعد الأغراض الشعرية أن نقف هنا مع نماذج من النثر الفني بالتحليل والنقد في المقالة والكتابة الأدبية والنقدية والأقصوصة ، ثم نعود إلى فنون النثر الفني مرة أخرى ، حينما ندرسها دراسة فنية ونقدية في الفصل الأخير .

* * *

مقال : « حد البلاغة » [١]

تسألني بعد ذلك عن البلاغة التي أعنيها وأدفع عنها : أهي بلاغة العقل العربي ، التي تجلت في نثر ابن المقفع والجاحظ وابن العميد ؟ وارتسمت في منهج أبي هلال وعبد القاهر ؟ أم هي بلاغة العقل اليوناني ، التي تمثلت في كلام الأصوليين والجدليين والمناطقة ؟ واستمرت في قواعد السكاكي والسعد ؟ أهي بلاغة المعنى ؟ أم بلاغة اللفظ ؟ أهي بلاغة الفكر ؟ أم بلاغة الأسلوب ؟

والجواب : أن البلاغة التي أعنيها وأدفع عنها هي البلاغة التي تحدى بها القرآن أمراء القول في عهد كان الأدب فيه صورة الحياة وترجمة الشعور ، وعبارة العقل ، وهي البلاغة التي لاتنفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ولا بين الموضوع والشكل ، إذ الكلام كائن حي ، روحه المعنى وجسمه اللفظ فإذا فصلت بينها ، أصبح الروح نفساً لا يتمثل ، والجسم جماد لايحس .

والناظر المتقصي في أقوال هؤلاء وأولئك يستطيع أن يستخلص من جملتها ، أن البلاغة هي بمعناها الشامل الكامل : ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو الكلام ، فالتأثير في العقول عمل الموهبة المعلمة المفسرة ، والتأثير في القلوب عمل الموهبة الجاذبية المؤثرة ، ومن هاتين الموهبتين تنشأ موهبة الإقناع على أكمل صورة .

وتحليل ذلك أن البلاغة في الكلام هي تأثير نفس في نفس ، وفكر في فكر ، والأثر الحاصل من ذلك التأثير هو التغلب على مقاومة في هوى المخاطب أو في رأيه ، وهذه المقاومة تكون فاعلة كسبق الإصرار أو الميل أو العزم ، وقد تكون منفعلة كالجهل أو الشك أو التردد أو خلو الذهن فإذا كانت منفعلة كانت ضعيفة ، لاتحتاج في قهرها إلى الوسائل البلاغية القوية ، فالمرء يجهل أو يشك أو يتردد ريثما يتهيأ له أن يعلم ، أو يستيقن أو يجزم ، وهو في مثل هذه الأحوال تكفيه الحقيقة البسيطة المستفادة من (التعليم) ، وقد يكون مع الجهل زيف العلم واعتساف الحكم ، وخطل الرأي الثابت باستمرار العادة ، وفساد الوهم القائم على

---

(١) كتاب دفاع عن البلاغة : أحمد حسن الزيات .

قوة القرينة ، وحينئذ لابد أن تتناصر قوي العقل جمعاء على كسر هذه المقاومة من طريق البرهان وذلك كله أو بدون ذلك كله ، فتور في الطبع فلا ينشط الحديث ولا يرتاح إلى رأي ، وهنا يجب على صاحب البلاغة أن يدفع السأم ، ويحرك النشاط ، فيوشي الحقيقة بخياله . ويحيي الأسلوب بروحه ، ويجذب القارئ بفنه وفي هذه الحال يظهر فضل البلاغة على الفلسفة .

وقد تكون المقاومة ضعيفة أو معدومة من جهة العقل ، ولكنها تكون قوية عارية من جهة النفس ، فأنا لا أماري في أن هذا هو الحق ، ولكني أستثقله ، أو هو الفضل ، ولكني أسترذله ، أو هو النفع ، ولكنه يجهد نفسي ويسبر قواي ، أو هو العدل ، ولكنه يعارض التأثير ، لا إلى العقل من طريق الإقناع .

فإذا اجتمع على مقاومة البلاغة العقل والهوى ، وهذا بميله أو نفوذه وذلك بإصراره أو قصوره ، كان هذا ميدانها الأول وجهادها الطيب ، لقد حشد لها العدو جميع قواه ، فيجب أن ترفع حجره ، وتستعد له ، وهي على حسب ماتقتضيه الحال ، إما أن تهاجم الرأي ، لتخضع بخضوعه الإرادة كحالها مع القاضي ، وإما أن تهاجم الإرادة ، فيخضع بخضوعها الرأي كحالها مع الجمهور .

أما الغرض من تحليل هذا التعريف فهو تجلية المراد من قوة البيانين أن البلاغة هي مطابقة الكلام النصيح لمقتضى الحال ، فليست الأحوال المعروضة أو المفروضة إلا انفعالات العواطف في النفس ، أو اتجاهات الخواطر في الذهن وليست مقتضياتها إلا الصور البلاغية المناسبة التي يهتدي إليها البليغ بطبعه أو فنه فيؤثر بها في هذه العواطف ، أو في تلك الخواطر التأثير الذي يريد .

فالبلاغة إذن توجه إلى العقل أو إلى القلب أو إليهما معاً ، تبعاً لما تقتضيه حالات المخاطبين من مقاومة الجهل والرأي والهوى منفردة أو مجتمعة ، فإذا كان غرض البليغ نفي جهالة أو توضيح فكرة ، أو تقرير رأي ، جزاه في إصابة غرضه الصحة والوضوح والمناسبة ، فإذا أراد التعليم أو الإقناع ، وكان قوام الموضوع طائفة من الفكر أو الأدلة ، وجب عليه أن ينسقها ويسلسلها على مقتضى الأصول المقررة في المنهج العلمي الحديث .

أما إذا قصد إلى التأثير والإمتاع ، لا إلى التعليم والإقناع ، كان سبيله أن

يتأنق في اختيار لفظه ، ويتفنن في تحرير أسلوبه ، ويستعين على اجتذاب الأذهان واختلاب الآذان ، بإبداع الملكة ، وإلهام وتشويق المخيلة ، وتزويق الفن .

والبلوغ إلى قرارة النفوس أخص صفات البليغ في كل مايكتب ، فلو أن كاتباً وقع على طائفة من الحقائق ، أو حصل على مجموعة من الوثائق ثم حققها ونسقها وأداها في أحسن لفظ وأجود صياغة ، ولكنه لم يبلغ بها كنة القلوب كان حرياً أن ينعت بما شاء من النعوت إلا البلاغة .

والسر في ذلك أن ضروب المعرفة إنما تقوم على الملكات المحصلة وتعتمد على العقل المجرد ، وتثبت بالدليل القاطع ، ولكن الإثبات ليس معناه الإقناع ، فإن الإقناع لا يكون بغير السيطرة على النفس ، والسيطرة على النفس لاتتم بغير البلاغة ، هي وحدها التي تعتد بالعقل في إدراك الحق وبالشعور في إدراك الخير ، وبالذوق في إدراك الجمال ، وهي وحدها التي تنفذ إلى القلب بسلطان غير ملحوظ ، وتؤثر في الذهن ببرهان غير ملفوظ ، وتذهب في تصوير الواقع وتقرير الحق مذهب الوحي الإلهي الخالد .

فالوظيفة الأولى للبلاغة هي الإقناع من طريق التأثير ، والإمتاع من طريق التشويق ، ولذلك كان اتجاهها إلى تحريك النفس أكثر ، وعنايتها بتجويد الأسلوب أشد ، وربما جعلوا سر البلاغة في جمال الصياغة .

قال أبو هلال : وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني ، يعرفها العربي والأعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ، ولايقنع من اللفظ بذلك ، حتى يكون على ماوصفناه من نعوته التي تقدمت ، ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها ويغلون في ترتيبها ، ليدلوا على براعتهم ، ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر من ذلك ، فربحوا كداً كثيراً . .

والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة ، ووثاقة السرد ، ونصاعة الإيجاز ، وبراعة الصنعة ، فإذا كان مع كل ذلك المعنى البكر والشعور الصادق ، كان الإعجاز ، وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما

هو لرونق اللفظ وبراعة التركيب من أن المعنى المبذول أو المرذول أو التافه ، قد يتسم الجمال ، ويظفر بالخلود ، إذا جاد سبكه ، وحسن معرضه » .

نشأته وحياته :

ولد أحمد حسن الزيات في (دميره) محافظة الدنهلية من أسرة ريفية صالحة ، وكان مولده عام ١٨٨٥ م ، حفظ القرآن وجوده في الثانية عشرة من عمره ، ثم التحق بالأزهر الشريف ، ودرس علومه في الدين والفقه والتفسير والحديث والتاريخ والبلاغة واللغة والأدب ، لكنه غلب عليه حبه للأدب ، فتتلمذ هو وطه حسين على الشيخ حسين المرصفي ، ولخلاف حول الحجاج بينهما وبين مشايخهما فصلا معاً من الأزهر ، وشفع لهما أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد .

ثم التحق بالجامعة الأهلية ، وحصل على ليسانس الآداب ، وقد تعلم الفرنسية ، وعمل مدرساً في الابتدائي والثانوي ، ثم مدرساً في الجامعة الأمريكيــة .

ثم سافر إلى فرنسا حيث حصل على ليسانس الحقوق فيها ، وبعد عودته رفض التدريس في الجامعة ، ثم سافر إلى العراق مدرساً ، وبعد عودته عرض على صديقه طه حسين إصدار مجلة « الرسالة » ولكن طه حسين رفض ، فأصر الزيات على إخراجها وأصدر مجلة الأدب « الرسالة » وأصبح الزيات زعيم جامعة الرسالة في الأدب العربي الحديث عام ١٩٣٣ م .

ثم توقفت الرسالة ، وأصبح مديراً لمجلة الأزهر ، وكان عضواً بالمجمع اللغوي المصري والعراقي ، وعضواً بلجنة الترجمة والتأليف والنشر .

وله مترجمات ومؤلفات ومقالات كثيرة منها : (وحي الرسالة) و (تاريخ الأدب العربي) ، « آلام فرتر) ، (روفائيل) ، (أصول الأدب) ، (من الأدب الفرنسي) ، (دفاع عن البلاغة) ومقالات كثيرة في الأدب والسياسة والاقتصاد والاجتماع .

كتاب دفاع عن البلاغة :

في أسلوب موسيقى وعبارات منتقاه حية تموج بالظلال والألوان تناول الزيات في هذا الكتاب البلاغة ومعناها وأصولها وتأثيرها ، ليرد بذلك على

كتاب الصحافة . والمتأدبين ، الذين يدعون البلاغة في أسلوبهم ومقالاتهم وهم منها براء ، لايعرفون طريقها ، ولايفهمون حدودها ، ويضلون آلانها ثم ميز بين الطبع والصنعة ، وقام بدراسة عميقة حول الذوق والأسلوب ومصادر قوته ومظاهر روعته وسحرها ، وأخيراً تناول الصحافة وعشاقها وأنكر عليهم تصورهم عن التعبير بالفصحى وإيثارهم العامية ، والمقال الذي معنا من هذا الكتاب .

الموضوع في مقال الزيات الفنية :

تناول المقال النقدي للزيات عناصر قام عليها ، وأفكاراً اشتمل عليها الموضوع ، وهذه العناصر والأفكار هي بإيجاز :

١ ـ الفرق بين بلاغة العرب المجردة من القواعد الفلسفية والمقدمات المنطقية مثل بلاغة الجاحظ وأبي هلال وعبد القاهر وغيرهم وبين بلاغة اليونان التي تقوم على الفلسفة والمنطق مثل بلاغة السكاكي والسعد .

٢ ـ خلاصة تعريف البلاغة عند القدماء هو ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم عن طريق الكتابة أو الكلام . والتأثير في العقول يتم بواسطة موهبة التعليم . والتأثير في القلوب يتم بواسطة العاطفة والشعور ، وبهما يتم الإقناع على أكمل وجه .

٣ ـ أما تعريف الزيات للبلاغة فهو قائم على التحليل العميق لخلاصة تعريف القدماء فهو :

تأثير نفس في نفس ، وفكر في فكر للتغلب على مقاومة في المخاطب . ومقاومة المخاطب أقسام كل قسم يحتاج إلى أسلوب يتناسب مع المقام وهذه الأقسام هي :

أ ـ أن تكون المقاومة خلو الذهن أو الجهل أو الشك أو التردد ، وتكفي الحقيقة البسيطة والعبارة المجردة من التوكيد للإقناع والفائدة .

ب ـ أن تكون لمقاومة الجهل لكنه مع زيف في العلم واعتساف في الحكم وخطل في الرأي ، ولايتم الإقناع في هذا المقام إلا عن طريق استجماع البراهين العقلية .

جـ - فإن اجتمع في مقاومة المخاطب الجهل المجرد أو الفاسد مع الفتور في الطبع ، فلابد في الإقناع من دفع السأم وتحريك النشاط فيعبر عن الحقيقة في بيان أخاذ وخيال رائع .

د - وقد تكون المقاومة ضعيفة في جانب العقل ولكنها قوية من جانب النفس ، لايتم الإقناع إلا بالتصوير الأدبي الذي يأخذ بالنفس كل مأخذه بالإقناع عن طريق العقل .

هـ - فإذا كانت المقاومة قوية من جهة العقل وهوى النفس معاً ، حشد لها البليغ كل وسائل الإقناع بالعقل وكل وسائل التأثير على النفس .

٤ - أن الكاتب وضح مراده من هذا التحليل في التعريف ، وهو أن يكشف به قول البلاغيين : أن البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال ولكل مقام مقال .

٥ - فالبلاغة عنده توجه إلى القلب أو إلى العقل أو إليهما معاً حسب ما تقتضيه حالات المخاطبين من مقاومة الجهل والرأي والهوى منفردة أو كلها مجتمعة .

٦ - السيطرة على النفس لا تتم بغير البلاغة ، فالعقل يدرك الحق والشعور يدرك الخير ، والذوق يدرك الجمال .

٧ - وظيفة البلاغة هي : الإقناع من طريق التأثير ، والإمتاع من طريق التشويق ، لذلك جعلوا سر البلاغة في جمال الصياغة لا المعنى .

٨ - فالبلاغة ليست في المعاني وحدها ، وإنما هي في الديباجة وبراءة الصنعة ونصاعة الإيجاز ، وإن كان المعنى مرذولاً أو تافهاً .

خصائص الموضوع :

١ - تعريف البلاغة لم يخرج عما قاله القدماء من قيم جمالية ومقاييس بلاغية لكن طريقة الزيات في تحليل معنى البلاغة أعطى له صفة العمق والتنوع والتفصيل جميعاً ، مما جعل مفهومه أكثر وضوحاً عنده من القدماء .

٢ - كما أن دفاعه عن البلاغة هنا يتسم بالحجة القوية والدليل

الواضح والبرهان الساطع ، مما يجعل القارئ يسلم له بالحكم ، ولا يختلف معه في شيء .

٣ - ومن مظاهر التجديد في معنى البلاغة أن القدماء قسموا موافقة الكلام لمقتضى الحال إلى قسمين وحالين : حال خالي الذهن والجاهل ، وحال المنكر والمتردد ، بينما الزيات قسمه إلى خمسة أقسام من أ إلى هـ وهي : جاهل مجرد وجاهل متردد ، وجاهل فاتر الشعور ، وجاهل ثائر النفس ، ومنكر ثائر النفس وهذه التقسيمات الخمسة من أبرز خصائص التجديد في موضوع مقاله النقدي هذا .

خصائص التصوير الأدبي في المقال :

١ - تمتاز الألفاظ بالقوة مع سهولتها وعذوبتها وسلامتها ووضوحها في المعنى القريب .

٢ - تلاءمت الألفاظ مع الغرض من المقال ، وهو معنى البلاغة حيث دارت الألفاظ في حقل البلاغة مثل كلمات (التأثير والإقناع والملكة والنفس والعقل والذهن والجهل والتردد والإنكار ومقتضى الحال والجمال والذوق وغيرها حتى آخر المقال) .

٣ - والأسلوب يتسم بالإشراق ووضوح المعنى ، وصحة الغرض ، وجمال التركيب ، وروعة الصياغة ، وقصر الفقرات والجمل إلا القليل من العبارات التي جنحت إلى الأغراب ، وذلك عند حديثه عن المقاومة عند المخاطب فهذه العبارات تحتاج إلى تأمل وروية .

٤ - يمتاز الأسلوب بالتفصيل والإطناب لا الإيجاز ، والاستطراد في التعبير مثل قوله : كان سبيله أن يتأنق في اختيار لفظه إلى آخر هذه الفقرة .

٥ - كانت الألفاظ والأساليب محددة المعنى ، دقيقة المغزى ، تصيب الهدف من غير زيادة ولا نقصان ، فهي أقرب إلى الأسلوب العلمي من الأسلوب الأدبي ؛ وذلك لأن المقال في النقد والبلاغة - وهما من العلوم المحددة - يحتاج إلى دقة في التعبير وإصابة في الألفاظ ؛ لتدل على معانيها صراحة من غير إيحاء أو ثوب فضفاض .

٦ ـ جاء الإقناع هنا في الأسلوب عن طريق العقل والفكر ، لا عن طريق التأثير بوسائل البيان وصور الخيال ؛ فتكاد تنعدم صور الخيال الحية في المقال ، لأن الموضوعية هنا غلبت جانب العقل على جانب الخيال ، فتقرير قواعد البلاغة وإبراز مقاييسها تحتاج إلى دقة في الأسلوب ، تقوم على العقل لا على ملكة الخيال ، التي لاتعمل إلا في المقال الذاتي بأنواعه .

٧ ـ هذا المقال نوع من الأنواع الفنية له وهو المقال الموضوعي ، وبالتحديد فهو مقال في النقد والبلاغة ، لذلك تجد معانيه وأفكاره مقررة لادخل لعاطفة الكاتب فيها ، ولا أثر لوجدانه ومشاعره في الأحكام العقلية والنتائج المترتبة على سوق المقدمات .

٨ ـ يعد الزيات من مدرسة المحافظين المجددين ، لا المجددين الثائرين فهو مجدد لكنه في هدوء يشده التراث العربي الأصيل ، فيحافظ على شكله وديباجته واتزانه ، فهو يمضي مع مصطفى صادق الرافعي في هذه المدرسة ومن مقالاته الاجتماعية مقال : « الصغيران » يصور فيه عواطف إنسانية تتمثل في خوف الطفلين المشردين من الضياع مما يثير الحب والإشفاق كما يصور غريزة الأم ماتحس به من الضياع والألم لفقدهما في أسلوب أدبي رائع منها :

« صغيران ضلا الطريق عن أهلهما في هذا الليل يمشيان على حيد الطريق في ذلة وانكسار ، وتحسب أقدامهما من البطء والتخاذل لاتمشي بل تزحزح قليلا فكأنهما واقفان أكبرهما طفلة تعد عمرها على خمس أصابعها والآخر طفل يبلغ ثلاث سنوات ، ينحدران في أمواج الليل ، وقد نزل بهما الهم في البحث عن بيتهما مما ينزل مثله بمن تطوح به الأقدار إذا ركب البحر المظلم ليكشف عن أرض جديده . . وهكذا الخ » .

وكذلك المنفلوطي والبشري ومصطفى عبد الرازق وطه حسين ، والعقاد والمازني وعبد الجواد رمضان ، ومحمد فهمي عبد اللطيف ، وتوفيق الحكيم ، وأحمد أمين ، ومحمد مندور ، ومحمد حسين هيكل ، وعبد القادر حمزه ، وحسن جاد حسن ، وأحمد الشرباصي ، والشيخ محمد الغزالي السقا ، ومحمد الصادق عرجون ، ويوسف خليف وغيرهم .

ذو الرمة شاعر الحب والصحراء

للدكتور يوسف خليف

« ومع الصحراء تقف المرأة في حياة الشاعر العربي ملهمة أخرى ، أوربة معبودة ، يقدم في هياكلها المقدسة أغلى قرابينه ، ويرتل في حبها أروع آياته ويرتد في رحابها الشموع ، ويحرق عند أقدامها البخور ، وكل من يستعرض شعرنا العربي يلاحظ أن المرأة احتلت منه مكانا مرموقا ، وأنها عاشت فيه نغما خالداً تعزفه قياثر الشعراء ، وتوقعه أوتارهم ، وأغنية حلوة تتردد في لهواتهم وفوق شفاههم ، ولحنًا ساحرا يداعب أجفانهم ، ويسامر لياليهم ، ويملؤها عليهم أحلاما سعيدة ، فمن حبها استلهموا أروع مقدماتهم ، ، وفي حبها نظموا أبدع روائعهم ، وعلى حبها عاشوا أجمل أيامهم وأحلى لياليهم ، وإلى حبها أداروا وجه أمانيهم ، ووجهوا صدور آمالهم ، ووراء حبها سكبوا دموعهم غزيرة ، وأذابوا قلوبهم حنينا وأشواقا وحسرات ، ويوشك الأدب العربي أن يكون أغنى الآداب العالمية شعر حب ، ولا يكاد يعدل الغزل العربي أي غزل آخر كثرة شعراء ، وتنوع تجارب ، وتعدد مذاهب .

فمنذ بدأ الشعر العربي رحلته الطويلة عبر التاريخ من أعماق الجزيرة العربية ، حتى تشعبت به السبل في شتى الأمصار والأقاليم ، والغزل هو اللحن الخالد الذي تهفو إليه الأفئدة وتصغى إليه الأسماع ، وما من شك في أن العصر الجاهلي كان نقطة البداية لكثير من اتجاهات الغزل العربي ؛ فقد ظهرت المقدمات الطللية والغزلية ، وأصبحت اللحن المميز عند جميع شعرائه ، وظهر الغزل الحسي بشتى درجاته عند امرئ القيس والأعشى وأضرابهما ، وظهر الغزل المعنوي بما ينطوي عليه من إرهاصات عذرية عند عنترة والمتيمين .

وتشرق الجزيرة العربية بنور ربها ، ويأخذ الدين الجديد يغمر العرب في أضوائه الدافقة ، وتمتد أشعته القوية تملأ آفاق الأرض ، وتهتز الأرض الفنية تحت أقدام الشعراء المخضرمين ، ويتدفّع تياران جاهلي وإسلامي يتجاذبانهم كل إليه ثم تأخذ هذه الرجة العنيفة في الاستقرار ، وتبدأ عملية التطور والتجديد في الشعر الأموي تأخذ طريقها في الحياة الأدبية ، ويمضي الشعراء ـ في ظل حياتهم

الجديدة - يعمقون مجرى النهر الذي راح الشعر العربي يتدفق فيه قويا صاخبا وتُبعَث اتجاهات الغزل القديمة للحياة خلقا جديدا ؛ فتظهر مدرسة الغزل الحجازية في مدن الحجاز الكبرى مكة والمدينة والطائف ويلمع في أفقها الشرقي الزاخر بالأضواء : عمر والعَرْجي والأحوص ، وأمثالهم ممن تخصصوا للغزل ، وراحوا يوسعون مجرى النهر ؛ فاندفعت تياراته الدافئة الدافقه تحكي قصة الحب التي تدور أحداثها على المسرح الجديد ناعمة مرحة مبتهجة متضائلة .

وتظهر بوادي نجد والحجاز مدرسة العذريين ، ويلمع في أفقها الغربي الشاحب العربي الذي تكاثفت فيه الغيوم : جميل والمجنون وابن ذريح ، ونظرائهم من شباب البادية اليائس المحروم الذين راحوا يطهرون مجرى النهر القديم من الأعشاب والسدود ليندفع ماؤه العذب صافيا رقراقا يحكي مأساة الحب التي تدور أحداثها الحزينة فوق الرمال يأسا وحرمانا ودموعا وحنينا إلى ماض بعيد ، ذهبت ذكرياته السعيدة أدراج الرياح ، وتظل للمقدمات الطللية والغزلية قداستها التقليدية ، وتظل في موضعها القديم لحنا مميزا للقصيدة العربية ، وبخاصة عند الشعراء الكبار : جرير والفرزدق والأخطل ، الذين شغلوا بخوض معركة النقائض المحتدمة الأوار فوق أرض العراق الثائرة ، التي راحت القبائل فوقها تعيد عصبياتها من جديد إلى الحياة .

ويظهر ذو الرمة تلميذا بارعا في مدرسة العذر يين ، ولكنه تلميذ من طراز خاص متميز لم يجعل قصائده خالصة للحب كما فعلوا ، وإنما جعلها قسمة عادلة بين الحب والصحراء ، بل لعلها قسمة تجور فيها الصحراء على الحب بعض الجور ، ولعل شيئا من ذلك هو الذي دفعه إلى أن يمد من طاقة المقدمة الطللية ، تتسع لكل تلك المشاعر والانفعالات ، التي كانت تجيش بها نفسه إزاء الحب والصحراء ، اللذين ملأ حبهما عليه أرجاءها ، كما دفعه إلى أن ينهض بتقاليدها الفنية بما كان ينفخه فيها من روحه ؛ ليعيد إليها الحياة بعد أن كانت قد تحولت منذ أواخر العصر الجاهلي إلى تقليد خالص ، وكأنما وجد فيها المجال الرحب للتعبير عن هذا الازدواج في شخصيته العاطفية بين حب الحب ، وحب الصحراء ، فالأطلال جزء لايتجزأ من الصحراء ، وهي أيضا جزء لايتجزأ من شخصية الشاعر العاطفية ، ومن هنا كانت مقدماتها تصدر

دائما عن قيثارتين تحملهما الملهمتان الأساسيتان للشاعر العربي : المرأة والصحراء .

ظهر ذو الرمة في هذا المجتمع الأدبي الصاخب شاعراً فنانا وهب حياته وفنه لشيئين : الحب من ناحية ، والصحراء من ناحية أخرى ، فالحب والصحراء هما المعبودتان اللتان شغف بهما حبا ، وعاش حياته القصيرة التي مرت كحلم ليلة من ليالي الصيف في محرابيهما ، يسبح بهما ، ويوقع في حبهما على قيثارته الحالمة أجمل وأروع ما استمعت إليه البادية العربية من أنغام وألحان ، يسكب فيها نفسه الرقيقة ، ويذوب بها روحه المرهفة »[1] .

* * *

---

(١) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء : ص ٧ : ٩ دار المعارف ١٩٦٨ ، ولد الدكتور يوسف عبد القادر خليف في حي رأس التين بالأسكندرية في ١٠/ ١٢/ ١٩٢٢ حيث يعمل والده مدرسا في معهد الاسكندرية الأزهري وكان يتردد على قريته المحبية « بردلة » قرب مدينة كفر الدوار بمحافظة البحيرة وأنجبت كثيرا من العلماء البارزين في الأزهر والطب وغيرها ولازالت . حتى الآن تنجب ، ثم انتقل معه إلى القاهرة ليعمل أستاذا في كلية أصول الدين للتفسير والحديث ليحصل على الثانوية من مدرسة فاروق بروض الفرج ويلتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة حتى حصل على الدكتوراه منها ، واشترك محررا في لجنة « المعجم الوسيط » ولجنة « معجم ألفاظ القرآن الكريم » ولجنة الأساليب ولجنة اللهجات وغيرها ، وله ديوان شعر « نداء القمم » ومؤلفات وبحوث كثيرة مشهورة منها « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي » و « الحب المثالي عند العرب » و « حياة الشعر في الكونة . . » و « ذو الرمة شاعر الحب والصحراء » وغيرها وظل يعمل أستاذا في كلية الآداب بجامعة القاهرة حتى توفي يوم ٢٢/ ١/ ١٩٩٥ م .

طابع الأسلوب لكتابة : يوسف خليف

قضية الأسلوب في النقد المعاصر هي قضية الساعة ؛ لحيويتها في حركة التجديد « للنقد الحديث ؛ لأنها استجابة للمقتضيات من ثقافات وتيارات تزامنت مع التقدم العلمي « التكنولوجي » ، حين انساقت الشعوب مضطرة إلى « الكونية » بل تجاوزت ذلك ؛ فانتقلت من الحقيقة المجردة للمقالات في « الكونية » إلى التفاعلات والتحديات بين الشعوب في قضايا الإعلام والاقتصاد ؛ فصارت تحت سيطرة : « العولمة » ، التي استجابت لها « الكونية » في مجال التحدي والسيطرة ؛ لأن الكونية والعولمة أصبحتا تكونان من العالم كله « قرية صغيرة » ، تتحكم فيها « تكنولوجيا » الإعلام والاتصالات بحيث تخضع لسيطرتها خضوعا كاملا .

وليس أمام الشعوب خيار سوى المشاركة في هذه القرية الصغيرة حتى يكتب لها البقاء ، وتنطلق بسرعة مع الاحتفاظ بأصالة كل شعب ، وهي تجوب غياهب الكون إلى عالم جديد .

كان الدكتور خليف بتكوينه المتنوع ، يدرك ذلك في مقتبل القرن العشرين ، وهو يستمتع بأساليب المدارس القديمة والحديثة ؛ فاتخذ لنفسه طريقا آخر ، جاء في أسلوب جديد ، يتميز بشخصيته الأصيلة والمعاصرة ، يشكل لوحات فنية جذابة ؛ فأصبحنا نقرأ النثر الفني كأنما تقرأ شعراً وهو ليس بشعر لأنه نثر فني حديث ، يتسابق مع قسيمه الشعر في مجال التفوق ؛ لأنه لايقل في إبداعه عن الشعر ؛ فنقف حيارى في أسلوبه ، هل هو نثر فني أم شعر حديث حينما نقرأ قوله عن حياة المرأة في الشعر :

١ ـ ملهمة أخرى	١٠ ـ وأغنية حلوة
٢ ـ يقدم في هياكلها المقدسة / أغلى قرابينه	١١ ـ تتردد في لهواتهم
٣ ـ ويرتل في حبها	١٢ ـ وفوق شفاههم
٤ ـ أروع آياته	١٣ ـ وحلما ساحرا
٥ ـ ويوقد في رحابها الشموع	١٤ ـ يداعب أجفانهم

٦ - ويحرق عند أقدامها البخور　　　١٥ - ويسامر لياليهم

٧ - عاشت فيه / نغما خالداً　　　١٦ - ويملؤها عليهم

٨ - تعزفه قيائر الشعراء　　　١٧ - أحلاما سعيدة

٩ - وتوقعه أوتارهم　　　إلى آخرها .

في هذه اللوحة الفنية مايضطرك أن تحكم عليها بأنها شعرحديث ، وليست هي بشعر ، وإنما هي نثر فني أدبي أكاديمي في بحث علمي ، يحمل طابع أسلوبه ،الذي يتميز بسمات أهمها :

أولاً : الصدق الفني في تجاربه الأدبية العميقة ؛ فاختياره لموضوعه غير عشوائي ، بل يتفاعل مع أبعاده في تجربة أدبية مريرة وعنيفة ، يتعرض فيها للمغامرة ، مثل تجربته في موضوع : « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي » يقول : « أقدمت على دراسته وأنه أعرف أنها مغامرة كتلك المغامرات ، التي كان يقدم عليها فتيان الصعاليك ، ولكني أنشد مع الشنفري : « ومن يغزُ يغنم مرة ويُشْمَتِ » ؛ فإن تكن الأولى فما توفيقي إلا بالله ، وإلا فحسبي إعذاراً لنفسي أنها مغامرةٌ أقدمتُ عليها لأنشد مع أبي الصعاليك عروة بن الورد : « ومُبلغ نفسٍ عذرها مثل مُنجح » (١) .

هذه تجربة أدبية ناضجة ، وقوية عميقة ، عاناها في مغامرة عنيفة كالصعاليك ، أقبل عليها فتيا قويا ، يقتحم المصاعب مع شعرائهم ، يستمد همته وحكمته من همتهم وحكمتهم كقولي الشنفري وابن الورد . في أسلوب متنوع يجمع بين الحداثة والجدة ، والأصالة والعراقة .

ثانياً : الطرافة والتحديث : تنوعت الأنماط في أسلوبه مابين مصطلحات وصور ورموز وصكوك ومسكوكات ، تتداولها الدول والهيئات في الشرق والغرب ، فَيَغْنَى بالعمق والحيوية والطرافة ، يقول عن حملة التشكيك في الشعر الجاهلي : « ولسنا نبرئ الشعر الجاهلي من هذا الاتهام ،ولكننا أيضا لانمضي مع

---

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : د . يوسف خليف ص ١٥ دار المعارف القاهرة ١٩٥٩ .

هذا الاتهام إلى ذلك الحد ، الذي يجعل من رواة الشعر الجاهلي « عصبة المزيفين » لاهم لهم إلا صناعة الشعر . . والذي يجعل درس الشعر الجاهلي ضربا من الأعمال « البوليسية » التي لاهم لها إلا البحث عن هؤلاء « المزيفين » ومصادرة « عملتهم » « الزائفة » . . » (١) فهذا الأسلوب الطريف ينبض بالحيوية والجدة والطرافة ، مع أصالته المتوغلة في التراثية ؛ فاستعمل في أسلوبه المصطلحات والمسبوكات الحديثة : « عصبة » و « المزيفين » و « الزائفة » و « عملتهم » و « ضربا » و « مصادرة » و « البوليسية » وغيرها من سائر الأنماط المتنوعة من العصابات في المهاجر والأسواق والبورصة والعقارات والصناعة وقطع الطريق وساحات السجون والمحاكم ، وكلها من حقل واحد .

ثالثاً : التزاوج بين البنيتين الداخلية والخارجية : تميز أسلوبه بظاهرة الاستبطان بالغوص في أعماق اللغة وما وراءها ، فتتنوع روافدها في البنيتين الداخلية والخارجية فتتكاثر الرؤى في الأسلوب ، ويختال بأزهى ألوان الأصالة والحضارة والمعاصرة ؛ فالقبائل المهاجرة بطقوسها إلى مدينة الكوفة تحت سياط « زياد بن أبيه » لم تعبأ بإرهابه وتلك هي الرؤية الداخلية ، وإنما استجابت عن طواعية للمد الحضاري في المدينة فتلاحمت خيوط القبيلة مع روافد الحضارة في نسيج واحد ، ولم يبق الا خيط غامض لايميزه إلا أهل المدينة الخلص ، وتلك هي الرؤية الخارجيه في أسلوبه حين يقول :

« الحياة القبلية الاجتماعية في الكوفة أخذت تتحول إلى صورة أخرى ذات ألوان جديدة . . . أهي صورة مدنية أم هي صورة قبلية ، ولكن لم يكن السبب في هذا التحول مافعله « زياد » وإنما كان السبب تلك الحياة الاجتماعية الجديدة ذات الأنماط والتقاليد الجديدة . . . لكن هذه المدينة لم تقض على مافيها من إحساس متأصل بالقبيلة قضاء تاما ، وإنما امتزج به امتزاجا ، قد يكون غريبا علينا نحن أبناء المدن الخلص » (٢) .

رابعاً : التخلي عن الأساليب التقليدية والمعيارية : اجتمعت في أساليبه أطر تجاوزت القيود والأثقال في التعبير ، ولم يقتصر على المعايير اللغوية التقليدية

---

(١) المرجع السابق : ص ١٦٨ . (٢) حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة : ص ٣٥ دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٣٨٨ / ١٩٦٨ .

من المبالغة في التشبيه والاستعارة وغيرها ، وإنما تجاوزت ذلك ليسلك أسلوبا خلاقا في تصوير الموضوعات التراثية ؛ فيبتكر فيه كثيرا من النماذج المعاصرة في فن القول ، يقول : « ويسدل الستار على هذا الفصل الأول عن الكوفة في الدعوة العباسية . . . ويسدل الستار على هذا الفصل الثاني . . . ليرتفع عن الفصل الثالث . . . الذي تصل فيه الأزمة إلى ذروتها على حد التعبير المسرحي . . الخ » (١) .

فالقضية هنا تمرد العباسيين على الأمويين ، ولم يكن فن المسرح قد ظهر لا مسرحية ولافصول ولا عقدة ولا أزمة ولا الذروة في الأزمة ، ولا انقلاب ولا ثورة ، وغير ذلك مما شاع في الأساليب التي تصور الواقع المعاصر .

خامساً : توظيف التراث في بنية الأسلوب المعاصر . كان الدكتور خليف على بصيرة نافذة في توظيف التراث ؛ فيعالج نصوصه بما يتلاقح مع أساليب المعاصرة ، في أسلوب يتميز بدلالات ثرية وإيحاءات غنية ، تبث في بنيته الحيوية والابتكارات ، وهو مايطلق عليه « التناص » في الأسلوبية الحديثة ويظهر ذلك في حديثه عن « التضاد الجغرافي » في العصر الجاهلي لشعر الصعاليك ، وهي ظاهرة تناولها التراث في المسرح الجغرافي تفصيلا ؛ فيقوم الدكتور خليف بتوظيفها توظيفا معاصراً ؛ ليتولد عن المسرح الجغرافي ظاهرة « التضاد الفني » (٢) مما يكسب أسلوبه دلالات ثرية تبث في الموضوع والشكل الحيوية والابتكار ، وغيرها .

سادساً : تكرار الحروف في الأسلوب : يعتمد في أسلوبه على تكرار الحروف ؛ فتجد في الصفحة كثيرا من الضمائر التي تكشف عن شخصيته وذاتيته مثل « أننا - ونحن - رأينا - ونرى - رأيت - رجعنا - قدمنا - نلاحظ - قلنا - تحدثنا - انتهيت - لسنا » مما يعبر عن ذاتيته والاعتزاز برأيه وجهه نظره - وكذلك تكرار النفي والاستفهام ؛ فتجد في الفقرة التي لاتتجاوز ثلاثة أسطر أربعة استعمالات لاستفهام واحد أداته « كيف » يقول : « ورأينا كيف يصور صيحة الفرح » وغيرها (٣) .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٠٠ ومابعدها (٢) الشعراء الصعاليك ص ٧١ ، ٧٢ .
(٣) حياة الشعر في الكوفة ص ٦٧٣ .

سابعاً : دلالات اللغة المستمدة من التاريخ والمجتمع والبيئة : يتميز أسلوبه بدلالات اللغة المكثفة من التاريخ اللغوي فيقول في براعة ذي الرمة في التشبيه : « وتتركز براعة ذي الرمة الصناعية في التشبيه ؛ فهو المقوم الأول لصناعته الفنية . . ومن بين صور التشبيه المختلفة اتجه ذو الرمة إلى التشبيه التمثيلي الذي رأى فيه المجال الفسيح لإخراج صوره في الأوضاع التي يريدها لها ؛ فأتاح له هذا الضرب من التشبيه أن يتنفس ملء صدره في عمله الفني الشافي » .

« وصندوق الأصباغ عند ذي الرمة - في مجموعه - صندوق صحراوي اشتق أكثر أصباغه من بيئة الصحراء . . » **فالجانب المستمد من مصادر التاريخ** في أسلوبه يظهر في التعبيرات الآتية : « براعته الصناعية في التشبيه » و « المقوم الأول لصناعته الفنية » و « القمة التي وصل إليها صناعة التشبيه في العصر الأموي » و « اتجه إلى التشبيه التمثيلي » و « وأتاح له هذا الضرب من التشبيه أن يتنفس ملء صدره » .

وأما الجانب الآخر في أسلوبه المستمد من واقع البيئة وحضارة المجتمع ؛ فيظهر في هذه التعبيرات المترفة الراقية المهذبة ؛ فلا تجد قلقا ولا مشقة ، ولاتحتاج إلى كبير معاناة في الوقوف على مقاصدها مثل تعبيراته : « وهي ظاهرة سجلها له القدماء » ، « صندوق الأصباغ عند ذي الرمة » ، « اشتق أكثر أصباغه من بيئة الصحراء » ، « يستخدمها أحيانا بسيطة كما يراها في الطبيعة وأحيانا أخرى كان يؤلف منها ألوانا مركبة كما يشاء له خياله وفنه » ، « ومع هذا الصندوق البدوي كأن هناك صندوق حضري » وهكذا [1] .

بهذه المعالم الفنية في بنية أسلوبه ، والنظرة الحديثة في فن القول ، استطاع الدكتور خليف بشاعريته الموهوبة وأكاديميته العلمية الماهرة ، أن يسبق تلاميذه وأتباعه في اختراق الزمن ، ليطبق علم الأسلوبية في أسلوبه الأدبي ، وتصويره الفني ، لكنه في أصالة وعراقة ؛ ليصل بين الماضي والحاضر ، وبين التراث والمعاصرة عاش مع النهضة في النثر الفني مع المدارس القديمة ، والمدارس الحديثة

---

(١) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء : ص ٤٤٠ ، ٤٤١ .

لكنه بشخصيته المتميزة، اتخذ له طريقا آخر في أسلوبه ، فجمع بين هذه المدارس كلها القديمة والحديثة والمعاصرة والمحدثة ؛ ليشكل اتجاها جديدا ، لايستجيب لكل صيحة ، بل تعامل مع ذلك وهو على بصيرة نافذة ، ونظرة أصيلة ، ومذهب طريف .

قد أجمع عشاق فنه ، وتلاميذ مدرسته على أن أسلوبه في فن الكتابة هو تصوير شاعر وقصيدة إبداع ؛ فلا تستطيع أن تميز بينه وبين الشعر الجديد ونرى ذلك حين يتحدث عن ذي الرمة ، وقد كتبته على هيئة الشعر الجديد يتخذ شكل الأسطر ، وهو نثر فني يقول :

١ - شاعراً ! !
٢ - فنانا ! !
٣ - وهب حياته . .
٤ - وفنــــه
٥ - لشيئين
٦ - الحب من ناحية
٧ - والصحراء من ناحية أخرى
٨ - هما المعبودنان
٩ - شغف بهما حبا
١٠ - وعاش حياته القصيرة
١١ - التي مرت
١٢ - كحلم ليلة
١٣ - من ليالي الصيف
١٤ - في محرابيهما
١٥ - يسبح بهمـا
١٦ - ويوقِّع في حبهما . .
١٧ - على قيثارته الحالمة
١٨ - أجمل وأروع . .
١٩ - ما استمعت إليه البادية العربية
٢٠ - من أنغام وأحلام
٢١ - يسكب فيها نفسه الرقيقة
٢٢ - وتذوب بهما روحه المرهفة

إنه أسلوب رائع وممتع ، وشاعري جذاب ، لا ، لأنه شعر جديد ، ولا قصيدة حرة ؛ ولكن لأنه قسيم الشعر ، ومنافس له ؛ لأنه « نثر فني » و « بنية أسلوبية فنية » ، يتفوق على الشعر أحياناً .

جريمة : قصة خالد خليفة

« وقفت عند باب المسجد ، حتى يخرج الصبي الذي كان يقف إلى جواري في الصلاة ، لأقف على أمره ، وأخفف عنه ماوسعني ذلك ، لأنه كان كلما سجد أخذ يردد « اللهم إليك المشتكى » وكلما استوى جالساً ، مسح دموعه بظاهر كفه .

وكان غريباً أن يكون في البشر في سنة المبكرة ـ « العاشرة » ـ ثم يحمل في الحياة هماً .

وأقبل نحوي يسير في وهن وضعف ، وتقاطيع وجهه تحمل الكآبة والحزن والألم ، والتقت عينانا ، فسرت على وجهه موجة من الخجل ، وهو يجمع بيده ثوبه البالي ، ليستر خرقاً كان يكشف جزءاً من جسده ، وأراد أن يمضي في طريقه بعد أن حياني بأدب وابتسامة لم تشارك ثغره فيها عيناه الغائرتان ، غير أنني اعترضت طريقه وقلت له :

ـ الدنيا براد ، ما عندك ثوب غير هذا ؟

فأجاب بعد أن نظر إلى ثوبه :

عندي ولكن بالبيت طال عمرك . أنت ابن من ؟

- ولد رجال ماتعرفه ؟ طال عمرك . من الشمال .

ولحق بنا ابني أحمد وهو يختال في مشيته « بشلحه » الجديد ، وشأنه في ذلك شأن كل صغير مع كل جديد ، ثم مالبث أن سلم على الصبي بطريقة تنبئ عن سابق ود . فسألته عما إذا كان يعرف الصبي ، فقال :

- نعم إنه ولد عاقل وابن حلال . . لكنه يا أبوي مايشركنا اللعب أبداً ومرات يبكي بدون سبب .

واغتصب الصبي ابتسامة باهتة لسماعه ماقاله بني عنه . وشجعت ابني على دعوته إلى البيت ، وفي البيت التف حوله بقية الأبناء ، وأخذوا يداعبونه باسمه (سطام) ، فتبسط معهم ، وإن تكن علائم الهم لم تفارق وجهه الصغير الناحل .

وقد طعم الغذاء ولكنه تردد في مشاركة الأطفال (فقالت) له :

- تغذ مع إخوتك . . كل . . اسمع الكلام - أنا مش زي أمك ؟ ؟ ؟

وانفجر الصبي باكياً بكاء مراً يقطع نياط القلوب ، وما لبث أن تبعه الأبناء والبنات ، وإن كانوا لايعلمون لما يبكي سطام ؟

وأسقط في أيدينا . إلا أننا بعد عناءً وجهد استطعنا تهدئته ، ثم إغراءه على التكلم فقال :

- لقد ماتت أمي منذ ستة أعوام ، تزوج أبي بإحدى قريباته لها ولد من زوجها الأول يكبرني بسنة ، ثم جاء بهما إلى البيت الذي كنا نقطنه ، وكنت أحسب أنني سأجد منها حناناً ينسيني فقد أمي بعض الشيئ ، غير أنها وجدت في شخصي « خادماً » لها ولإبنها . . كانت تقدم لإبنها من الطعام أطيبه ، فإذا مافرغ من تناول الطعام أمرتني أن أصب الماء على يديه ، ثم تقذف إلى بقطعة الخبز . وكانت تأمرني أن أنظف البيت وأغسل الصحون وأجيء « بالمقاضي » من السوق ، ولكم كانت تردني إلى السوق بالشيء الذي أشتريه بدعوى أنه غير جيد ، أو أن ثمنه كثير ، وكان أصحاب الحوانيت يوسعوني تقريعاً .

وطلبت إلى ذات يوم أن أجيء بالماء من البئر ، فلم أقدر أن آتيها إلا بنصف « التنكة » فأنا أكاد أسقط من ثقلها ، فثارت وصفعتني على وجهي وتبعتني وهي تركلني بقدمها ، حتى أفرغت الماد في « الزير » وجذبت التنكة من يدي وقذفتني بها على وجهي ، فتهشم جزء من أنفي .

ولم أشأ أن أخبر أبي بما حدث عند عودته بعد الغروب كعادته ، وذلك لأن أبي كان لايسمع فيها ، وكان من ذلك النوع من الرجال الذين يصدقون المرأة في كل ماتقوله .

وأخذت الحال تزداد من سيء إلى أسوأ ، حتى أنني كثيراً ما فكرت في الهروب . . وحدث ذات مساء أن أرسلتني لأجيء لها « بكبريت » من متجر القرية ، فسقط القرش من ثقب جيبي في الطريق ، فخشيت بأسها والتجأت إلى المسجد ، ونمت بعد أن غشيني هدوء غريب رغم ماكنت عليه من نصب وجوع .

ولم أستيقظ إلا على يد أبي وهو يهوي بها على صدغي في غير ما رحمـة .، فأخذت أصيح : « أنا في وجه الله يامسلين » وتراكض نحونا رجلان ممن ينامون مثلي في المساجد ، فاحتميت بأحدهما فكان نصيبه من أبي صفعة قوية غير مقصودة ، غير أن الرجل صاح قائلا :

- أنت غنام والله لقيتك يا العفن .وتجاذبا حتى خرج من المسجد في حين أنني قد التصقت بالرجل الثاني وأنا أرتعد فرقاً .

ولم أكن أعرف أن هناك ثاراً قديماً بين قبيلتنا . وبالتحديد بين أبي وبين ابن عم الرجل ، إلا بعد أن استل الرجل سكينه وذبح أبي أمامي كما تذبح الشاة وهو يصيح في جنون :

- ساقك الله وأنا أخو ردعه .

وارتميت على صدر أبي أوسعه تقبيلاً دون آبه بدمائه الحارة ، التي كانت تنفث من الجرح في قوة وحرارة لتخضب وجهي . . وتجمع عدد كبير من الناس على أثر صياحي وصياح الرجل الثاني ، وكادت تقع فتنة لو لم يسارع أمير القرية إلى مكان الحادث ، فيلقى القبض على قاتل أبي وكان قد أتى نفس ذلك اليوم إلى قريتنا ، وسيق القاتل إلى الرياض حيث لايزال ينتظر حكم الشرع بعد أن أبلغ سن الرشد ، وأمسك قليلاً ثم تابع :

- وخرجت أهيم على وجهي حتى أتيت إلى الرياض ؛ لأعيش فيها بما يجود به على المحسنون ، وهم بالرياض كثيرون ، حتى كان بالأمس فدلني أحدهم على دار الأيتام ، الذي أقامها « والد الجميع » لأمثالي ، حيث قبلت أنني سأذهب إليهم بعد غد السبت ، ويقيني أنني سأجد بها مالم أجد في كنف أبي من حنان وعطف ، إنني . . .

ومضى الصبي يسرد قصته غير أنني : كنت قد غبت عنه ، فلم أعد أفقه بقية قصته .

إنهـا جريمـة ، مـا في ذلك مـن شك ، جريمـة يرتكبهـا بعض آبـاء تسدل « المتعة » ستاراً كثيفاً بين عقولهم وبين مايجري أمام أعينهم وتحت أسماعهم من أحداث ، يكمن طياتها في الدمار لها ولأبنائهم فلذات أكبادهم وزينة حياتهم

ترى لو كان هذا التعس « صبية » فهل كان يقذف بها إلى الشارع ، الشارع الذي يسع البشر كما يسع الذئاب في سبيل أن يشبع أبوها نهمه البهيمي .

* * *

ومضت سنوات ظل خلالها يتردد علينا كل خميس ، فيبيت ليلة الجمعة بدارنا ، ثم يعود إلى الدار عصر الجمعة ، ولا أغالي إذا قلت أنه ملأ في بيتنا الفراغ الذي خلفه ابني الأكبر « فاروق » بعد استشهاده غرقاً . لقد ألفيته شاباً تقياً ومهذباً يكن لأبنائي عطفاً أكيداً . وقد أثلج صدري تبدله التام بعد التحاقه بدار اليتامى ، فلم يعد بعد ذلك الصبي الضعيف البنية ، الضعيف الجسد ، ثم إنه أتقن هندسة السيارات .

وسادنا القلق يوم خميس وصبيحة الجمعة لتخلفه عن المجيء إلى بيتنا الأمر الذي لم يحدث منه قط طيلة السنوات الخمس الماضية ، وكان لنا أن نقلق ذلك لأنه كان قد أصبح من أفراد الأسرة . وذهبت إلى المسجد الجامع ، وأنا آمل أن ألتقي به في الموضع الذي تعودنا أن نصلي فيه ، ولكنني لم أجده . فخشيت أن يكون قد ألم به مرض مفاجئ ، وخرجت من المسجد إلى موقف السيارات ، حتى أذهب إلى الدار لأستفسر عنه . وقبل أن أذهب بعيدا وجدت حشداً كبيرا يحيط برجل مكبل ، تحرسه ثلة من جنود الشرطة ، يراد إقامة الحد عليه ، ودفعني الفضول إلى الدنو من الحشد فإذا بي أجد « سطاما » وقاتل أبيه .

وأسلم الضابط بندقيته لسطام ثم قذيفة ، فوضعها في الخزانة في عناية ثم تقدم نحو القاتل في ثبات وخطى منتظمة ، وصوب فوهة البندقية نحو رأس القاتل لأبيه ، ثم وضع سبابته اليمنى على الزناد ، ثم جال يبصره في تلك الجموع الحاشدة ، وكأنه يريد أن يتذكر شيئاً . . وتنفس الصعداء وتمتم بينه وبين نفسه :

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله .

وعاد حيث كان الضابط وأسلمه البندقية وهو يقول :

ـ من أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعاً . . أرجو أن تبلغوا « أب الجميع » أنني قد عفوت عن قاتل أبي .

وأخـرج منديله ومسح العرق مـن جبينـه . . وصاح الضابط فرحاً في الناس .

- أيها الناس . . . . إن هذا الشاب يعفو عن قاتل أبيه ابتغاءً في ما عند الله . . فتاطعه سطام يقول :

- وحقناً لدماء قبيلتنا .

فدوى المكان :

- بيض الله وجهك . . بيض الله وجهك . .

وقبل أن يتفرق الجميع جيء بشاب في سن « سطام » حكم عليه الشرع بقطع يمينه في خمسين ريال بعد أن سرق أكثر من مرة .

وعرفه سطام وعرف أمه التي كانت تولول غير بعيد عن المكان : كان أخوه من أبيه . .(١) .

الخصائص الفنية وتحليل القصة :

والقصة القصيرة تختلف عن القصة ، فهل تمثل حدثاً صغيراً يدور في زمن محدد ومكان ضيق وأشخاص معدودة ، وهذا الحدث لابد أن يكون متكاملاً له بداية ووسط ونهاية ، يرتبط بعضها ببعض ، تقوم بينها علاقة عضوية ، وهي أكثر الأنواع الأدبية رواجاً وشيوعاً .

والقصة القصيرة كالقصة تماماً في اكتمال عناصرها . وقيامها على خصائص فنية لابد من وجودها على أكمل وجه ، حتى تأخذ مكانها المرموق بين أدب القصة ، وسنقف مع خالد خليفة في قصته هذه موقف النقد والتحليل لتوضيح الخصائص الفنية فيها .

---

(١) الموسوعة الأدبية : للأستاذ عبد السلام طاهر الساسي ، جـ ٢ ص ١٦٠ - ١٦٤ ، خالد محمد خليفة ولد في مطلع عام ١٣٣٠ هـ يجيد اللغة الانجليزية مع لغته العربية أصدر أول مجموعة قصصية في سنة ١٣٧٤ هـ بعنوان « وادي عبقر » وفي سنة ١٣٧٨ هـ أصدر الثانية « الاستاذ حميد » وله قصص منشور في الصحف والمجلات وشارك في المجالات الأدبية في حياته .

أولاً : الحبكة القصصية :

وتقوم الحبكة على اختيار الحكاية فلابد أن تكون مشوقة تستحق ما يبذله الكاتب من المجهود في القصة .

وأن تظهر مقدرة الكاتب في التنسيق بين أجزاء الحكاية ، فتقوم على التركيز والتسلسل والتناسب أثناء سردها .

وأن يختار الكاتب طريقة لعرض الأحداث وتطورها من هذه الطرق وهي إما طريقة السرد المباشر ، أو طريقة الترجمة الذاتية ، أو طريقة الرسائل أو طريقة تيار الوعي (المونولوج الداخلي) [1] .

وخالد خليفة في قصته هذه ، كان على مقدرة عجيبة في إبراز حبكته القصصية والسيطرة عليها حتى نهاية القصة .

فاختار حدثاً مشوقاً يثير الدهشة في الإنسان ، ويحرك كوامن العطف والشفقة فيه ، حيث اختار تجربة إنسانية من تجارب الحياة الإنسانية ، تصور انساناً ضعيفاً يتيماً وهو « سطام » في مرحلة الطفولة ، التي تحتاج إلى رعاية وحفظ وتوجيه وتعليم وبذل ، لاقسوة واضطهاد وحرمان وتشريد ، وذلك من شخص الوالد الذي ينبغي فيه أن تتجسد غرائز الحب والعطف والتضحية لأبنائه .

وكان الكاتب أيضاً موفقاً في تنسيق أحداث الحكاية ، وتسلسلها في تناسب أثناء السرد ، وبذلك تحققت الوحدة العضوية بين الأحداث ، حيث نمت الأحداث بعضها من بعض ، يترتب الحدث على الآخر ، وينمو منه وهكذا حتى نهاية الأحداث في الحكاية :

فكان الحدث الأول في المسجد حيث التقى سطام بأحد الخيرين الذي جذبه بسطام بشكواه إلى الله في الصلاة ، وبوجهه الشاحب ، وبثوبه المهلهل وعينيه الغائرتين ، حتى اتضح له أمره .

وتطورت هذه المعرفة في الحدث الثاني ، حين تعرف عليه ابن ذلك الرجل وكشف لأبيه عن أحواله الحزينة ، التي تظهر عليه أثناء اللعب معه من غير أن

---

(١) عالم تيمور القصصي : فتحي الأبياري ، ص ١٨٤ ، عام ١٩٧٦ م .

يقفهم على أسباب حزنه وكآبته . وهذا ما دفع الرجل إلى أن يصحبه من البيت ليقف على هذه الأسباب ، وفجأة يجد الطفل نفسه مدفوعاً لعرض الأسباب ليواجه موقفاً غير مقصود من ربة البيت .

وفي الحدث الثالث يعرض الطفل مأساته التي بدأت بموت أمه وزواج أبيه من امرأة قاسية تزوجته ، وصحبت معها ولداً لها من زوج سابق ، ولقي منها ومن والده أشد ألوان الأذى والتبكيت والتنكيل .

وفي الحدث الرابع يتقلب الطفل في ألوان القسوة والحرمان ، حتى ينتهي به الأمر إلى الهرب في المسجد ، فتابعه أبوه وضربه وضرب من استغاث به . . وكانت المفاجأة فيه ، فقد أخرجه من المسجد رجل قتل غناماً ثأراً لابن عمه ، وسيق القاتل إلى الرياض ، حيث يكون القصاص ، وهام سطام على وجهه حتى استقر في دار الأيتام ، وأخذ يتردد على بيت الرجل كل أسبوع .

وينمو الحدث الخامس مما سبق ؛ فينقطع الصبي عن زيارته الأسبوعية ويبحث الرجل الصالح في موضع من المسجد كانا قد تعودا أن يلتقيا فيه فلم يجده ، فعزم على أن يذهب إليه في الملجأ بعد الصلاة ، وأمام المسجد وجد حشداً من الناس ،وإذا بالصبي وقاتل أبيه يساق إلى ساحة القصاص ، والضابط يسلم سطاماً البندقية ليأخذ بقصاص أبيه .

ويتطور الحدث السادس حيث يمتنع سطام عن القصاص ابتغاء وجه الله وحقناً لدماء القبيلتين . وهنا تهتز الساحة بالثناء والتقدير لذلك الصبي ، لينتصر الخير ، بينما ينهزم الباطل ، فيرى زوجة أبيه القاسية تولول على ابنها السارق الذي ستقطع يده في نفس الساحة وقتذاك .

أحداث ستة نامية تطورت بعضها من بعض في تسلسل وترتيب وإحكام مما جعل الوحدة العضوية قوية متماسكة في سرد الأحداث للحكاية [١] .

ويلاحظ أن الكاتب بدأ القصة من الوسط حين التقى بالطفل في المسجد وثنى بالبداية حين عرض الطفل قصته على أهل البيت . ثم تحرك المؤلف بعد

---

(١) النقد الأدبي الحديث : الدكتور محمد غنيمي هلال ، ص ٤٥٦ ، ط ٣ ، عام ١٩٩٤ .

ذلك إلى النهاية ، ولايضر ذلك بترابط القصة ووحدتها ، بل يدل على مهارة مؤلف القصة .

وقد جمع الكاتب بين طريقتين من طرق العرض وهما :

١ ـ طريق السرد المباشر حين روي الكاتب الأحداث بنفسه في بداية القصة حتى روى الصبي قصته .

٢ ـ طريق الترجمة الذاتية حين ترك الكاتب الطفل يتحدث عن قصته ومأساته بنفسه في بيت الرجل الصالح وأهل بيته من حوله يسمعون حتى قرب نهاية القصة ، وقد رسم الكاتب في هذه الطريقة جواً من الصدق والسذاجة والألفة ، حتى خيل للقارئ أن هذه القصة منشورة له على الطبيعة دون تكلف أو افتعال .

ثانياً : الأشخـــاص :

والأشخاص في القصة هي المركز التي تدور حولها الأحداث ؛ فهي مدار المعاني الإنسانية والقضايا العامة ، ومصدرها الواقع ، لكنها تظهر على خلاف الواقع أثناء العرض الفني ، لأن سلوكها معلل ونوازعها مفسرة تفسيراً له معان إنسانية .

والأشخاص في التاريخ تختلف عن أشخاص القصة ، فالمؤرخ يحكم على الأشخاص من الخارج ، فينعدم عنصر المفاجأة ، بينما القاص يستبطن وعي الشخصية لأنه يصورها بعينه ، وبذلك يظهر فيها عنصر المفاجأة .

كما أن الشخصية نامية وهي التي تتطور مع الأحداث وشخصية بسيطة وهي التي تمثل صفة واحدة ، أو عاطفة واحدة حتى آخر الأحداث .

وينبغي ألا يتعدد البطل في القصة . بل يكون شخصاً واحداً رئيساً . تدور حوله شخصيات أخرى لهم أدوار ثانوية .

والشخصية تأخذ عند الفنان طريقتين :

١ ـ الطريقة الأولى : وهي الطريقة التحليلية ، وفيها : رسم الفنان الشخصية من الخارج ، ويشرح عواطفها وبواعثها وأفكارها وأحاسيسها ، ويعقب على بعض تصرفاتها ويفسر بعضها الآخر ويعطي رأيه فيها .

٢ ـ والطريقة الثانية وهي التمثيلية ، ويبتعد الفنان فيها عن الشخصية لكي تظهر بالتعبير عن نفسها . وتكشف عن حقيقتها ، وذلك عن طريق التصرفات والأحاديث .

وللقصاص أن يستعمل الطريقتين في القصة الواحدة .

وخالد خليفة قد رسم شخصيات القصة رسماً دقيقاً بلمسات الفنان الماهر ، فجسم النماذج الإنسانية الخيرة في شخص البطل والرجل الصالح الذي آواه ومنحه من عطفه وحبه وفي شخص رب العائلة الكبيرة ، الذي ضمه في بيته الكبير بيت راعي الأمة في دار الأيتام ، فكان المصير لهم جميعاً التقدير والاحترام والإجلال .

كما جسم النماذج الإنسانية الشريرة في شخص زوجة أبيه القاسية الحمقاء وفي شخص أبيه الذي اتبع هواه وسلك سبيل الشيطان ، فكان المصير لهما الشقاوة في الدنيا والآخرة حيث لقى الأب مصرعه نتيجة لحمقه وطيشه ، وتقلبت الزوجة في بحر الألم والتعذيب والوحدة والغربة ، حتى من أبنائها بقية الحياة فكان ذلك أشد على نفسها من الموت .

وركز الكاتب أضواءه على شخصية واحدة ، وهي شخصية البطل « سطام » حيث دارت حولها كل الأحداث في القصة ، بل تحركت في ظلالها كل الشخصيات الثانوية : وهي شخصية الرجل الصالح ، وزوجة ابنه الصغيروشخصية راعي الأمة ، وشخصية والده ، وزوجة والده ، وشخصية الضابط فظهرت هذه الشخصيات في أدوار ثانوية لاتطغى على الدور الرئيسي لشخصية البطل .

وكان الكاتب أيضاً موفقاً كل التوفيق حينما رسم شخصية البطل فاستخدم الطريقتين السابقتين ، ومزج بينهما ، فاتخذ الطريقة التحليلية برسم شخصية سطام من الخارج بشرح عواطفه وأحاسيسه وملامح بؤسه ، وذلك حين كان في المسجد وخارجه ، وفي داخل البيت ، حتى انفجر بالبكاء عندما ذكرته ربة البيت بأمه التي ماتت .

ثم انتقل بعد ذلك إلى الطريقة التمثيلية ، عندما شرح الطفل قصة مأساته

كاملة ، حتى دخل دار الأيتام .

ثم عاد الكاتب بعد ذلك إلى الطريقة التحليلية حتى نهاية القصة .

ثالثاً : الأسلوب في القصة :

والأسلوب في القصة هو الطريقة الفنية التي يشخص بها الكاتب الأحداث والمواقف والشخصيات ، وتنحصر في الأساليب البلاغية والنماذج الفنية التي كونتها ثقافة الفنان اللغوية ، وبذلك يكون الأسلوب هو شخصية الفنان في تناول القصة .

والأسلوب في القصة نوعان :

١ - **السرد** : وهو أن يعرض الكاتب الحكاية والشخصيات وأدوارها على لسانه بالوصف من غير أن تتدخل الشخصيات بأنفسها في إدارة الحوار فيما بينها .

٢ - **الحوار** : وفي هذا النوع من الأسلوب يختفي المؤلف وراء الشخصيات ويتركها لتتحرك وتعبر عن نفسها بالتحادث والحوار الدائر بينها ، ولا دخل للمؤلف في ذلك .

وقد تشتمل القصة الواحدة على النوعين من الأسلوب وهما السرد والحوار . واستطاع خالد خليفة بمقدرة فائقة أن تضم قصته أسلوب السرد والحوار معاً ، فقد اتخذ أسلوب السرد والوصف من بداية القصة حتى قص الطفل قصته وهنا بدأ أسلوب الحوار ، حيث اختفى المؤلف ، وظهر الطفل يتحدث بنفسه وعما حدث له ، ثم عاد الكاتب إلى طريقة السرد بعد أن انتهى الطفل من قصته ودخل دار الأيتام حتى نهاية القصة .

ومن خصائص الأسلوب في هذه القصة أنها دلت على ثقافة الكاتب اللغوية ، وتمكنه من ناحية اللغة العربية وسلاسة عباراته ، وعذوبة فقرات الأسلوب ، وسهولته الدانية من الأفهام ، وتشخيصه الحي للأحداث والأشخاص حتى ليفرح القارئ في مواقف الفرح ، ويحزن ويبكي في مواقف الحزن والبكاء . فالأسلوب قوي فصيح تتمثل فيه الواقعية مع فصاحته فيفهمه كل قارئ مهما اختلفت ثقافته عمقا وضعفا .

وبهذه الطريقة التي سار عليها الكاتب في الأسلوب الفصيح القريب نرد الدعوى المفتراه على الفصحى باسم الواقعية في القصة ، فهم يرون أن الواقعية في القصة أن تكون بلغة أشخاصها في الواقع وهم عادة يتكلمون اللغة العامية ولغة الشارع ، ولا تكون القصة عندهم واقعية إلا إذا تكلم العامي بلسانه ، أما إذا تفاصح الكاتب على لسان شخصيات القصة العامية فتنزل قصته عن الواقعية .

وهذا تصور خاطئ واتجاه غير صحيح في فهمهم للواقعية ، فليس المقصود من الواقعية في الأسلوب أن يستخدم الكاتب العامية لكون بعض الأشخاص عوام ، فهناك من اللغة الفصحى السهلة القريبة مثل لغة كاتب هذه القصة ، تتجاوب مع العامة ويفهمونها .

وإنما المقصود الحقيقي من الواقعية في الأسلوب ، لا العامية ولا الفصحى بل المقصود بها واقعية العمل الفني ، وهي لاتتصل بالشكل الخارجي للأسلوب بل تتصل بالجوهر الداخلي والباطني ، أي أن العمل الفني يكمن في المعنى وفي الفكرة وفي الروح وفي طريقة العرض ، وفي طريقة تناول الحياة ، كأن يكون المعنى بسيطاً مع العامل والفلاح ورجل الشارع ، ويكون عميقاً مع العالم والفيلسوف . ولا ضير أن يعبر عن ذلك بأسلوب سهل فصيح ، وعلى ذلك فلا مجال لتسلط العامية على الفصحى ، وارتباط الواقعية بالعامية كما يزعمون وهذا خطأ شنيع . . المقصود محاربة اللغة العربية والقضاء على فصاحتها ، وأنى لهم ذلك ، قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

والقرآن الكريم لأكبر دليل في الرد على دعاة الواقعية المزعومة ، فلغته سهلة قريبة يفهمها العالم والجاهل ، ويهتز لها العميق والداني ، وكانت هذه اللغة السهلة القريبة هي موطن الإعجاز في الأسلوب القرآني .

وعلى الرغم من التوفيق الكبير الذي وفق إليه كاتب القصة في الأسلوب الفصيح السهل القريب إلا أنه تورط في خطأ عامي في الأسلوب وقع على لسان ربة البيت وزوجة الرجل الصالح في قولها : (أنا مش زي أمك) فهذه عبارة عامية كنت أتمنى للكاتب ألا يغبر بها وجه قصته المشرق بالفصاحة والروعة ، وفي اللغة من أساليب التشبيه الكثير من السهل القريب .

وقد تورط في خطأ آخر ، يتصل بطريقة الأسلوب ، وهي تلك النبرة الخطابية التي كشفت عن شخصه ، وكان ينبغي ألا يظهر بل يختفي وراء الأحداث ، ولايصدر عنه مباشرة ، أو يبدي رأياً صريحاً في القصة ، بل يترك أحداثها وأشخاصها بحركاتهم وتصرفاتهم هي التي توحي بالحكم ، وتومئ بالرأي ، وذلك حينما نصب المؤلف نفسه قاضياً وحكماً ، ففصل القول بأنها جريمة شنعاء في قوله :

إنها جريمة مافي ذلك شك ، جريمة يرتكبها بعض الآباء تسدل المتعة ستاراً كثيفاً بين عقولهم وبين مايجري أمام أعينهم . . إلى آخر قوله : في سبيل أن يشبع أبوها نهمه البهيمي .

وتلاءم أيضاً مع هذه القصة القصيرة ما اعتمد عليه الكاتب من الإيجاز والتركيز في الأسلوب ، وفي طريقة العرض ، وهو مايتناسب فنياً مع أسلوب القصة القصيرة .

رابعاً : الزمان والمكان (البيئة) :

وهما من العناصر الرئيسية في القصة القصيرة وينبغي أن يكون الزمان هنا في هذه القصة محدوداً لايشمل العمر كله ، بل يكتفي فيه بفترة زمنية يسيرة تمثل حلقة واحدة من عمر الإنسان ، الذي هو بطل القصة ، وقد كان الأمر كذلك حيث كان عمر سطام في هذه القصة تلك المرحلة الزمنية التي نما فيها من التميز في الصلاة ، حتى بلغ سن الرشد الذي به يستطيع أن يأخذ بقصاص أبيه ، ومكث هذه الفترة يتعلم مهنة فنية في دار الأيتام .

وكذلك المكان هنا كان محدوداً لم يتجاوز مواطن محدودة مابين القرية والمسجد بالرياض وبيت الرجل الصالح ودار الأيتام وساحة القضاء وهذه ولاشك أماكن محدودة تتناسب مع القصة القصيرة .

أما القصة بصفة عامة فقد يشمل الزمن فيها عمر البطل كله مهما طال ويشمل المكان فيها جميع أنحاء العالم ، وخاصة بعد سهولة الاتصال بكل موقع في الأرض .

خامساً : الأزمة والعقدة :

موطن تشابك الأحداث وتأزمها في القصة تسمى بالعقدة والأزمة ، وعندها يكون القارئ متشوقاً لانفراج الأزمة ، وقد كانت الأزمة في قصتنا هذه حين أمسك بسمك بالبندقية ، ليأخذ بقصاص أبيه في ساحة العدل ، فالأعناق مشرئبة . والقلوب مضطربة تنتظر النهاية المؤسفة ؛ بعد تطور المشاهد وتنامي الأحداث في تأزم وتشابك حتى انتهت بالأزمة والعقدة .

سادساً : الحـــل :

ويتحقق بانفراج الأزمة وحل العقدة بما لايتوقع القارئ ، وإذا بسطام والناس ينتظرون النهاية المؤسفة ، يأتي بحل غير متوقع ، حين يعفو عن قاتل أبيه لوجه الله تعالى وحقناً لدماء القبيلتين ، فترتج الساحة فرحاً وتقديراً وثناء : بيض الله وجهك . . . . ؟ ؟

ليستنصر الحق ويمحق الله الشر ، فتعاقب زوجة أبيه وابنها .

ومثل هذه الأقصوصة لاحصر له في الأدب الإسلامي في العصر الحديث لأدباء رحلوا عن الحياة ، ولغيرهم من المعاصرين أمد الله عمرهم وفي عطائهم ومن المحدثين عبد الحميد جوده السحار في « نداء من السماء » وقصة « وادي الأرزاق » من مجموعة « الكتب المقدسة » ، وقصة « الناس » و « المغرور » من مجموعة « خفقات قلب » وقصة « بعثه » و « اللافتات في الحكومة » و « نخوة » و « لو عرف السبب » و « على كل لون » و « المرؤوسون على دين رئيسهم » من مجموعته « في الوظيفة » وقصة « مولد أديب » و « ترويض إمرأة » و « رجل وامرأة » و « قصر في الجنة » من مجموعته « صدى السنين » وقصة « على القبر » و « وسوسة شيطان » من مجموعته « همزات الشياطين » وغيرها ، وليوسف السباعي قصة « لو تعلمون » و « أبو الريش » من مجموعته « بين أبي الريش وجنة ياميش » وقصة « يا أمة ضحكت » وغيرها ، ولمحمد عبد الحليم عبد الله قصة « خيوط النور » وعلي شلش في قصة « بعنا القطن » من مجموعته « عزيزتي الحقيقة » ونجيب الكيلاني في أقصوصات كثيرات مثل « صانع الرجال » و « أبو خثيمة » و « دموع الأمير » و « على أبواب دمشق » وغيرها ، ورواياته « القصة

الطويلة » كلها من الأدب الإسلامي وقد مر ذكر بعضها في ترجمته في الهامش ، ويحيى حقي له رواية « قنديل أم هاشم » وغيرها . وعبد الحميد جوده السحار له موسوعة قصصية تضم قصصا كثيرة في السيرة وعصر الصحابة والتابعين وغيرها وعلي أحمد باكثير قصة « وإسلاماه » و « سيرة شجاع » و « الثائر الأحمر » ، وعبد الرحمن رأفت الباشا في قصة « أرض البطولات » وغيرها ، ومحمد عبد الغني حسن في قصة « بطل السند » ، ولغيرهم من المحدثين ومن المعاصرين وهم أكثر نخصهم بدراسة مستقلة لأن أدبهم الإسلامي في الأقصوصة والقصة والرواية والمسرحية النثرية جدير بالدراسة في كتاب مستقل في الأدب الإسلامي المعاصر .

قصة " المغرور " للسحار :

وفي أقصوصة « المغرور » يعالج عبد الحميد جوده السحار صفة ذميمة ينفر منها الإسلام وهي « الكبر والتعالي » ويحث على التواضع والأخوة الإسلامية قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فإن الكبر كما قال النبي ﷺ : غمط الناس وبطر الحق »؛ فالمتكبر المغرور يرى نفسه أنه فوق الناس ، وينظر إلى من حوله باحتقار ، وإذا امتدح آخر أمامه أحس بالضيق والحنق ، ورأى في ذلك انتقاصا من قدره ؛ لأنه أولى من غيره بالمدح والثناء ؛ فيقوم من بينهم غاضبا ثائرا مكشر الوجه ، وحينما سلمه البواب رسالة من صديقه وهو ينتظر منه التقدير والشكر إذا به يحتقره ويرميه بالسكر والغفلة ، حتى زوجته التي يجب أن يعاملها بالمعروف يحتقرها ويمنعها من الجلوس معه على مائدة واحدة ؛ لتقوم على خدمته حتى ينتهي من الأكل وحده ؛ فهي لايستحق عنده التقدير والاحترام ، بينما هي جديرة بذلك وفي الحديث : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » يفعل ذلك ويتظاهر أمام الناس بالصلاة ؛ فيطيل القراءة فيها والركوع والسجود والتسابيح وختم الصلاة ، فلم تترك أثرا في نفسه ولم يتخلق بأخلاقها قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ وفي الحديث الشريف (ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له) ؛ فمن أخلاق الصلاة التواضع لا الغرور ، والأخوة والمحبة لا الكبر والتعالي ، ثم يذهب بعد الصلاة للنوم فيرى . . «حلما » مزعجا يفصح عما يكمن في النفس ، ويستقر في حنايا اللاشعور من عدم الرضا بالكبر والغرور ، فهي صفات قبيحة ينفر منها الناس ولا يرضى عنها

الله عز وجل ويعذب المتكبر المغرور في النار يوم القيامة ، فيصيح المغرور في حلمه من رجل مزعج مخيف ودموعه تغسل وجهه قائلا : « دعني ، دعني ، بالله دعني ، إلى أين تذهب بي ؟ - إلى النار . . فقال البدروني متوسلا : دعني . . بالله دعني . . اصغ إلي ، لست من أهل النار أنني أصلي لله . . أعبده . . إنني من أهل الجنة ولاريب ، دعني ، دعني . . فقال الصوت الأجش : لن تدخل الجنة أبدا . . لماذا وقد أديت فرائض الله ؟ . . لايدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر . .

أتوسل إليك أن تتركني . . هيهات . . اتركني أطهر نفسي . . فوضعه الرجل الهائل على الأرض وقال له : أتريد أن تتطهر حقا ؟ . . أجل . . أتعرف كيف تنزع الكبر من قلبك ؟

فقال البدروني وفرائصه ترتعد : لا . . فقال الرجل الهائل : لن يذهب عنك الكبر إلا أذا قبلت يد أحقر مخلوق على وجه الأرض . . »

ويستيقظ البدروني ليبحث عن أحقر رجل في الأرض ؛ ليقبل يديه ويكفر عن سيئاته ، وكلما وجد حقيرا ، بحث عن أحقر منه وهكذا ، حتى انتهى إلى مايعتقد أنه أحقر رجل على وجه الأرض ، ويدور بينهما هذا الحوار :

« يامغرور إني لست أحقر مخلوقات الله ، ابحث عن غيري

فارتعد البدروني وقال وهو يجهش بالبكاء : أريد أن أتطهر . . أريد أن أتطهر . . فقال الرجل الغارق في أقذاره : ابحث ، اتعب . . إنك تعرف كل شيء ، أتوسل إليك أن ترشدني . . أريد أن أتطهر . . اذا أردت أن تتطهر فلاتذهب بعيدا في بحثك .

بالله قل لي أين أذهب ؟

فقال الرجل الغارق في أقذاره في سخرية : مازال قلبك مفعما بالكبر يامغرور . . لماذا تتعب في البحث عن أحقر مخلوق بعيدا عن ذاتك ، إذا أردت أن تتطهر من كبرك حقا فقبل يدك أنت نفسك » (١) .

---

(١) انظر قصة المغرور : عبد الحميد جوده السحار ص ١١٧ : ١٢٣ من مجموعته « خفقات قلب » .

فالقيم الفنية في قصة « المغرور » القصيرة اجتمعت فيها العناصر الفنية القوية في بيئة معينة تجري فيها أحداث محددة يؤديها البدروني البطل توضح معالمه شخصيات هي زوجته والبواب والمزعج والحقير في أسلوب يجمع بين السرد والحوار ، ليعرف أنه المغرور أحقر الناس ، أما القيم الخلقية فكثيرة منها التنفير من الكبر والنفاق ، والحث على المحبة والإخلاص وغيرها .

المسرح النثري

ومن المسرح النثري مسرحية « الشيطان يسكن في بيتنا » للدكتور مصطفى محمود كتبها عام ١٩٧٤م . ومسرحية « حبل الغسيل » ومسرحية « الدنيا فوضى » وغيرها للأديب أحمد باكثير ، وكذلك مسرحيات : « مشرق النور » و« أبو حازم » و« مؤمنة جاهدت » و« الحجاج وسعيد بن جبير » و« مروءة » و« درس في الصدق » و« عدو السلام » و« وصراع » و« بطولة » و« فارس الشهباء » و« مولد الرسول » للدكتور أحمد الشرباصي (١) - رحمه الله تعالى - الأستاذ بجامعة الأزهر والأمين العام لجمعية الشبان المسلمين ، وكذلك مسرحية « سلطان العلماء » للأديب كامل محمد عجلان (٢) بطلها الشيخ العز بن عبد السلام سلطان العلماء يجري هذا الحوار بينه وبين سلطان مصر « نجم الدين أيوب » :

العز : أهدافي في توحيد كلمة المسلمين ، وتكوين جبهة قوية من ملوك الشرق ، وطرد الصليبيين من الشام ، وردهم عن محاولاتهم في الاستيلاء على مصر ، وصد غارات التتار .

نجم الدين : تلك غايتي وما أتمنى .

العز : يعلم السلطان أن المتمني لا يدرك غايته إلا إذا قدم العمل .

الشاذلي : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم .

---

(١) ولد في البجلات مركز دكرنس بالدقهلية في ١٧ / ١١ / ١٩١٨ وتعلم متنقلا في مراحل التعليم بالأزهر ثم عمل مدرسا بمعهد القاهرة الأزهري حتى حصل على الدكتوراه من كلية اللغة العربية وعمل بها أستاذ بها وله أكثر من مائة مؤلف في الأدب والنقد والحديث والتفسير والفقه والحضارة والفكر الإسلام وتوفى رحمه الله تعالى يوم ١٤ / ٨ / ١٩٨٠ م .

(٢) كان مدرسا بالأزهر حيث تخرج منه حديثا في الثلاثينات وله مقالات كثيرة وكتب في القصة والمسرح النثري ، طبعت مسرحيته عام ١٩٥٠م بالقاهرة .

نجم الدين : سنعمل وقد عملنا .

العز : وأنا سأرقب .

نجم الدين : (بعد قليل) ونائب السلطنة ؟

العز : لا أقبل فيه رجاء ، وإني لأردّ كل شفيع فيه .

الشاذلي : لهذا وقت آخر .

نجم الدين : إن أردتم ذاك فأنا عند رأيكم .

العز : أريد أن يقوّم في سوق الرقيق كغيره من المماليك ، ويدفع من المال الذي يتصرف فيه مقدار ما يعتق به .

وهكذا تمضي أحداث المسرحية على هذا الحوار الحي المتحرك في مسرحية استقاها الأديب من التاريخ الإسلامي ، في عصر تعرضت فيه الأمة الإسلامية لمحنة قاسية من ألد أعدائها ، وهم الصليبيون والتتار في مرحلة تاريخية قاسية ، ترجع قسوتها إلى نهاية الدولة الأيوبية ، لضعف حكامها وهوانهم على الناس لانغماسهم في الشهوات والملذات وانصرافهم إلى اللهو والعبث ؛ فقد سقطت بغداد ، وتمزقت بلاد الشام ، وتهالكت سلاطين مصر على متاع الحياة الذاهب بعد صلاح الدين الأيوبي ، فقد خضع سلطان دمشق الصالح إسماعيل للفرنجة ، وباع لهم الأسلحة ليحاربوا بها المسلمين ، واستقبلت مصر حكام المماليك الذين لم يحكموا قبضتهم على الرعية والبلاد ، ولم يمكنهم العز من السلطة والحكم إلا بعد تحرير رقابهم من الرق ، حتى يباعوا في الأسواق ، ويشتروا حريتهم ؛ لتصح ولايتهم ، وهكذا يحارب سلطان العلماء الفساد في جوانب شتى وفي عواصم متعددة في مصر ودمشق وبغداد ، ويقود الأمة بالدعوة إلى الإصلاح والحث على جهاد الأعداء ، ويرفض ولاية « شجرة الدر » بعد وفاة زوجها سلطان مصر ، وتتولى السلطة بعد قتل « توران شاه » غدرا ، ويجبرها على التنازل عن السلطة لزوجها الجديد « عز الدين أيبك » أستاذ « قطز » ومؤسس دولة المماليك ، لكنها تغدر به وتقتله ، فينتقم « قطز » لأستاذه ويقتلها ، ثم يرشح الشيخ العز « قطز » لقيادة البلاد وحكمها ، كما يرشح ابن دقيق العيد « الظاهر بيبرس » ليعاونه في الحكم ويشترك معه في قيادة جيش المسلمين لمواجهة التتار ، بعد أن استغاث بهم حكام العراق والشام ، فكان النصر على أيديهم في معركة « عين جالوت » عام

٦٥٨هـ في الثلث الأخير من شهر رمضان المبارك .

عناصر المسرحية :

تتكون المسرحية من أربعة فصول ، تناولت الأحداث التاريخية في نهاية حكم الدولة الأيوبية وبداية حكم دولة المماليك ، تلاحمت فيها عناصر المسرحية على النحو التالي :

١ ـ **الأحداث** : تتعاقب في تصوير جهاد العز بن عبد السلام في دمشق لمحاربة فساد سلطانها الصالح إسماعيل ، وخضوعه للفرنجة أعداء الإسلام ، وبيع سلاح المسلمين لهم ، فعاقبه بالسجن مع صاحبه ابن الحاجب شيخ المالكية ، لكنه فر إلى الكرك بالعراق ؛ ليواصل جهاده ضد الخيانة والفساد في الشام ، ثم يفرُّ من حصار حاكم الشام في حماية أحبائه ومريديه من الدراويش بإلحاح قطز ، ورغبة شعب مصر في الرحيل إليهم واستقباله ، لأنهم يعلقون آمال الأمة الإسلامية على يديه حتى يتحقق النصر على الفرنجة والتتار .

٢ ـ **الشخصيات** : كان سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام هو بطل المسرحية ، تدور حوله شخصيات تختلف أدوارها في البطولة مثل شخصية السلطان قطز والقائد الظاهر بيبرس ، أو في الأدوار الثانوية مثل شخصيات : الصالح إسماعيل سلطان دمشق ، وشيخ المالكية ابن الحاجب ، ونجم الدين سلطان مصر ، ثم توران شاه الذي تولى السلطة بعده ، وشجرة الدر التي تولت السلطة بعد أن دبرت قتله ، ثم تزوجت عز الدين أيبك الذي انتقلت إليه السلطة وشخصية ابن دقيق العيد الذي رشح الظاهر بيبرس للقيادة ، وغيرها من الشخصيات الثانوية التي ساهمت في إبراز شخصية البطل العز بن عبد السلام ، والسلطان قطز والظاهر بيبرس وأبو الحسن الشاذلي .

٣ ـ **الزمان والمكان (البيئة)** : فأما الزمان فقد امتد من نهاية الدولة الأيوبية في الشام على عهد الصالح إسماعيل ، وفي مصر على عهد نجم الدين أيوب ، وتوران شاه ثم شجرة الدر ، ثم عز الدين أيبك ثم قطز وبيبرس ، حتى معركة عين جالوت في نهاية رمضان عام « ٦٥٨هـ » ، وأما المكان فقد تتابعت الأحداث في دمشق والكرك والقاهرة وعين جالوت .

٤ - **الأسلوب المسرحي** : اتصف بالفصاحة والسلامة ، فقد انتقى فيها الأديب الألفاظ المعبرة والأساليب الموجزة التي تقوم على الحوار السريع . وتنوعه حسب المواقف والشخصيات ، فالقاضي العز يظهر في أسلوبه الرصين وبلاغته في التعبير وعباراته من قواميس الفقه والحديث والتاريخ الإسلامي كالحكم بعدم صحة حكم الرقيق . وللشاذلي عباراته الصوفية وسبحاته الروحية ، واستشهاداته القرآنية كما في الآية السابقة ، وللسلطان قطز أسلوبه الصلب وعباراته الحاسمة ، وللظاهر بيبرس مناوراته في التعبير ، وإيحاءاته البعيدة في التصوير . ولشجرة الدر أسلوبها في الخداع والحيلة ، ولابن الحاجب عباراته الفقهية وأحكامه الشرعية ، وهكذا لكل شخصية موقف ، يختلف في أسلوبه وتصويره عن مواقف الشخصيات الأخرى حسب أدوارها في تتابع الأحداث والمشاهد .

٥ - **العقدة والحل** : فقد تنوعت مواقف الإثارة في أحداث المسرحية فتعددت الأزمات في أحداث مختلفة ، فمنها أزمة صاحبت سلطان العلماء حين سجنه حاكم دمشق ، والأزمة الثانية التي صاحبته في الكرك حين حاصره حاكم دمشق حتى فر منه قطز إلى مصر في حماية مريديه من الدراويش ، ثم صاحبته الأزمة الثالثة في إصراره على بيع المماليك في الأسواق ليصح منهم الحكم ، ثم أزمة الأزمات في معركة عين جالوت ، وما أثير حولها من مؤامرات ومخاطر ، وفي كل أزمة تنتهي بالحلول التي تبعث الارتياح ، وتطفئ لهيب الشوق والإثارة .

٦ - **الحبكة في المسرحية** : وهي التي تبعث على الإثارة وتشد القارئ والمستمع معا وسط الأحداث والمشاهد ؛ ليعيش معها بوجدانه وعاطفته ؛ فيحزن ويتألم للمواقف الشريرة ، ويفرح ويهتز طربا وفرحا لمواقف العز والانتصار ، وقد ترتبت الأحداث والمشاهد ، في نمو تاريخي وتصاعد فني في أحداثه ومشاهده فترتبت أحداثه لهذه الفترة حسب وقوعها ، ترتبط فيما بينها بالتنامي الفني والسياق القصصي ، بحيث تتصاعد المشاهد في اطراد ونمو ؛ فتتابع المشاهد والأحداث في تشابك وتأزم ، حتى تنفرج بالحل والنهاية ، وهي العنصر الحيوي الذي يجعل القارئ والمشهد مندمجا معها ومتلاحما خلال المشاهد ، وكأنه قطعة من مشاهدها ، وحدث من أحداثها ، وشخصية من شخصياتها ، فهي مقياس الموهبة المتميزة والمهارة الفنية في نجاح المسرحية وجودة العرض وبراعة الأداء .

مسرحية « الشيطان يسكن في بيتنا »

كتب هذه المسرحية الدكتور « مصطفى محمود » في عام ١٩٧٤ يعالج فيها موضوعا معاصرا في المسرح الإسلامي ، وهو الصراع بين التيارات المادية والثقافية الوافدة ، وتصدي الإسلام لها ، ومقاومة الانحراف فيها ، وانتصاره على هذا التدمير من جانب . والعزلة والانطواء ، وعدم العمل من جانب آخر ، في أسلوب أدبي فصيح ، وتجربة مسرحية فنية جيدة وناجحة في مجال المسرح الإسلامي المعاصر ، تعتمد على عناصر فنية ، حية وتجربة إنسانية عميقة ، وهذه العناصر :

أولا : الأحداث والمشاهد : تدور حول الصوفي الشيخ الطنطاوي الذي اعتزل الناس ، وترهب في الصحراء في خرفة بالية زاهداً في الدنيا بقليل من الطعام والشراب ، وفي صحبة من مريديه الدراويش ، واشتهر بين الناس بالزهد والصلاح والصدق والإخلاص ، وبينما هو كذلك إذ تقطع خلوته « سونيا » الراقصة الفاتنة الثرية ، المدعومة بالتيارات المادية الجارفة والمنحرفة ، مستخدمة أسلحتها الخبيثة من الإغراء بالجمال والمال ، وفي رداء طلب التوبة والهداية على يد الشيخ ، حتى وقع الشيخ في براثنها وشبكتها ، ليخرج من عزلته ويصاحبها في نشاطها الفني ، بل يقنع مريديه أن يتبعوه في هذه الحياة الجديدة ، وبعد أن جرفهم التيار المادي المنحرف ، استيقظ هو وثلة من أصحابه إلى أنها مؤامرة خطيرة مدبرة ، فقد نمى إلى علمه من أحد خلان « سونيا » أنها تشترك مع قوى خارجية فاسدة قد عقدوا العزم على قتله هو وأصحابه ، ما عدا واحداً منهم تواطأ مع الجبهة الأخرى ، وأعد الخطة المحكمة للتصدي لهم ، حتى انتصر عليهم وهو يقول لأصحابه : « خذوهم وقيدوهم ورحلوهم لبلادهم قبل الفجر ، اليوم تعود إلينا بلادنا وأرضنا وشخصيتنا » .

ثانيا : الشخصيات : البطل الأول فيها هو الشيخ الصوفي الطنطاوي والثاني شخصية « سونيا » ، وأما الشخصيات الثانوية تنوعت بين أصحاب الشيخ من الدراويش ، وأصحاب الفاتنة من القوى الخارجية الخبيثة ، والشخصيتان المتمردتان أحدهما درويش انضم إلى ساحة الراقصة والمادية والانحراف ، وثانيهما من أصحاب « سونيا » فرّ منها لينصح الشيخ ، ويخبره بالمؤامرة لتدبير قتلهم

وكان الكاتب عميقا ومصورا في رمزه العميق بالشيخ طنطاوي وأصحابه المسلمين وعزلتهم أمام التيارات الجارفة في المرحلة الأولى ، ويرمز بالراقصة الثرية الفاتنة المدعمة بأعداء الإسلام ، الذي لا يملون في أي عصر باتخاذ الأساليب الحديثة في حربهم للمسلمين ، ثم التحول والنمو في شخصية الشيخ وأعوانه من العزلة إلى الاندماج في المجتمع ، والتحول من التيار المادي المنحرف الجديد في حالة للدفاع عن أنفسهم ودينهم وأخلاقهم ووطنهم ، ودحر الفساد والانحراف والانتصار على عدوهم ، الذي يتربص بهم دائما في كل حين وعصر .

ثالثا : الزمان والمكان (البيئة) : فالزمان يبتلغ وقتا وجيزا وسريعا يبدأ من مرحلة بلوغ الصوفي الطنطاوي مرحلة الشيخ والقدوة لمريديه ، حتى تحول إلى الحياة الجديدة مع الفاتنة ، التي بلغت مرحلة القمة في الفتنة والإغراء ، وهي مرحلة وجيزة أيضا ليتحقق النصر على التيار المادي المنحرف ، وهي لا تتجاوز شهورا تعد على الأصابع ، وأما المكان فقد تنوع بين العزلة والاندماج في مجتمع المدينة الواحدة كالقاهرة مثلا ، فالصحراء ليست مقصودة لذاتها ، بل المراد منها التقوقع والعزلة وعدم الاندماج والعمل بين المجتمع الذي يعيش فيه داخل المدينة الواحدة .

رابعا : العقدة والأزمة والحل : ولقد كانت أيضا متنوعة ، فكانت الأزمة الأولى لمواجهة التيارين ؛ تيار العزلة ، والتيار السائد والطاغي على المجتمع وهو المدنية الحديثة وانحرافاتها وخطرها ، وانتهت بترك العزلة والنزول إلى الحياة .

والأزمة الثانية في تدبير مؤامرة القتل ، وتدمير المجتمع المسلم ، وانتهت بالانتصار على التيارات المضادة وإزهاق الباطل بالحق المبين .

خامسا : الأسلوب : قد اعتمد على الحوار القصير الحي المتحرك مع الالتزام باللغة العربية الفصيحة القريبة والسهلة ، التي يفهمها القاصي والداني والعامي والمتعلم ، واختيار الأسلوب والتصوير ، الذي يتلاءم مع الشخصيات حسب مواقفهم المتنوعة ، فموقف شيخ الطريقة يختلف عن موقف المريد وموقف الغانية الفاتنة وأسلوبها يختلف عن موقف الشيخ ، وموقف الخائن من مريدي الشيخ ، يختلف عن موقف الجاسوس من عشاق المادية والانحراف وهكذا .

سادسا : الحبكة القصصية : كانت بارعة وقوية تبعث في كل موقف الإثارة والتشويق والمتابعة لفصول المسرحية في دأب ويقظة واندماج مع الأحداث والمشاهد ، والتطلع دائما إلى النتيجة والنهاية ، وتلك هي موهبة الكاتب والأديب والمفكر الفذة الدكتور مصطفى محمود .

التعليق والنقد : تجاوزت المسرحية في عناصرها مرحلة الجودة ، بل وصلت إلى مرحلة التميز والتفوق في العمل المسرحي الإسلامي ، فهي تعد من الأعمال المسرحية الإسلامية الهادفة الممتازة على الساحة المسرحية المعاصرة لأسباب من أهمها :

١ ـ التوفيق في اختيار الموضوع وحيويته المعاصرة ، وهو التحدي الصارخ في الصراع العنيف بين تيارين عنيفين ؛ تيار أصيل وثابت قوي ، وهي الحفاظ على الهوية الشرقية والروح الإسلامية ، وتيار براق ومادي منحرف .. وهو وافد غير أصيل ومتحرك غير ثابت يحمل ألوان الانحرافات والتدمير الخبيثة ، التي تهاجم القيم الخلقية من حين لآخر ، وإن بالغ الكاتب في التيار الأول ، فليس كل المجتمع المسلم منعزلا عنه كسولاً لا يشارك في بنائه ، فهناك أفراد يواجهونه بجسارة وقوة ، وإن كان التيار الآخر أقوى منهم . وكذلك الأمر عند مريدي الشيخ في انسياقهم جميعا بلا استثناء وراء الحياة الجديدة ، فالواقع يقتضي أن يتخلف واحد منهم على الأقل .

٢ ـ كان الأديب موفقا حين صوّر التيارين لا بشخصية الصوفي المعتزلي وحده ، ولا بشخصية الفاتنة المدمرة وحدها ، وإنما دل التصوير الأدبي على تخطي الشخصية المفردة إلى شخصيتين كبيرتين في المجتمع المعاصر ، وهما الاتجاهان الواقعيان . والتياران المتصارعان في الحياة ، وهو تيار الحداثة والثقافة الوافدة والحضارة الزائفة ، وتيار الأصالة والتجديد والنهضة القوية الثائرة ، تستعين منها بما يزيد قوتها وعزتها ويدفع حضارتها الإسلامية إلى الأمام دائما في قوة وعزة ومجد وخلود ، لذلك كانت الخاتمة بانتصار حضارة الإسلام على المدينة الزائفة والانحرافات المدمرة .

٣ ـ الدفاع عن النفس والعرض والدين والوطن ، وهي مقدسات غرسها الإسلام في نفوس أصحابه ، إن غابت عنهم حينا ؛ فإنها تطل وقت الأزمة

والشدة أحيانا ، مما يدل على أن الدين عند الله الإسلام ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

٤ ـ أن الدين الإسلامي يحرم الكسل ، ويكره العزلة ، ويحث على العمل والجهاد في بناء الحياة وتقدمها ، والمشاركة الوجدانية والعملية ، والنزول إلى الحياة لمواجهة الشرور والفساد ابتغاء القضاء عليها ومحاربتها ، حتى يسود الأمن والسلام والرقي والتقدم .

٥ ـ إن أساليب العداوة للمسلمين والإسلام تتخذ أشكالا متنوعة ، من أحدثها التجارة باسم الدين أو طلب الهداية ، أو الدخول في الإسلام وإعلانه أمام المجتمع ، لينذر الأمة بالحذر الشديد من هؤلاء الذين يرفعون الشعارات ويتخفون وراء الألوان الزاهية ، فهم أخطر على المسلمين ممن يظاهر بعداوته ومن الحروب الماضية والاستعمار الذاهب ، ومن الغزو الفكري الشائع ، ومن ألوان المخترعات الهدامة ، التي أشاعت الانحلال والفتنة والكسل والعطالة في صفوف المسلمين .

٦ ـ مال الأديب إلى المبالغة في تصوير موقف البطلين ، فقد صور الصوفي الطنطاوي بسرعة الاستجابة للغانية ، وبالغ في تصوير ذكاء الغانية الماهرة حتى استجاب لها الشيخ بسرعة ، ولو طال الصراع بينهما في هذا الموقف من الإقدام والإحجام والتردد والاقبال مرة ومرة ومرات لكان ذلك أقرب إلى الواقع ، واقع الصوفي وواقع الذكاء عند الغانية التي قد يعتريها الخوف وعدم السيطرة حينا والرهبة والضياع في المؤامرة حينا آخر ، وكذلك بالنسبة للصوفي ، فدينه وزهده يجعله مترددا أحيانا لا مسرعا في قبوله واستجابته .

* * *

الفصل الخامس

الأدب الإسلامي
بين التنظير والتطبيق

تمهيد : الأدب الإسلامي بين المؤيدين والمعارضين :

الأدب الإسلامي لا يحتاج دفاعاً عنه ، لأنه حقيقة تاريخية ، لا يمكن إنكارها ، وقطعة حية وحيوية من النشاط الإنساني في الوجود ؛ لأنه فن إنساني واقع في الحياة ، وصورة تنبض بها أسمى العواطف والقيم الخلقية الإنسانية تصدر عن وجدان صادق عامر بالإيمان والحب ، منذ أنعم الله على البشرية والوجود كله بنعمة الإيمان في عصر صدر الإسلام ؛ أغنى عصور التاريخ على الإطلاق ، فقد غيّر الإسلام مسيرة الحياة والتاريخ ؛ فأقر القيم السامية السائدة وأضاف إليها قيما أخلاقية أخرى ، تنبع من خلق القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتنطلق من شريعته السمحة ، والإيمان الصادق ؛ فأثرت الحياة الثقافية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية والأدبية بالتغيرات العجيبة ، والأحداث الجديدة ؛ فيصور الأدب مشاعر الناس حولها ، واستجابتهم لها ومواقفهم منها ؛ لأن الإسلام هو الدين الخالد ، يقوم على منهج وسلوك شامل وكامل وثابت ، يتسع لكل جونب الحياة ، ما ظهر منها وما بطن ، وينظم النشاط الإنساني مع الإنسان ، ومع خالقه ، ومع الحيوان والنبات والجماد ، ويضيء لهم الطريق القويم ؛ ليحقق لهم الرضا والسعادة في الدنيا والآخرة..

والأدب شعراً ونثراً صورة صادقة للواقع والحياة ، ولون من ألوان النشاط الإنساني ، وضع له الإسلام منهجه ، ورسم له معالمه ، وحدد ضوابطه ؛ فصبغه بصبغته وطبعه بطابعه ؛ ليكون أدبا إسلاميا لا جاهليا ، ولا غريبا عن واقعه الإسلامي الخالد ، التي اقتضته متطلبات البشرية والحياة إلى قيام الساعة ؛ فيصور الأدب أحداث العصر ، وينهض بالدعوة الإسلامية ، معبراً عن أصالته وقيمه وأهدافه .

وأدى هذا التحول الخطير إلى دعوى بعض النقاد القدماء إلى فصل الأدب عن الدين ، والتعبير عن قيمه ، فردّدوا مقولة مشهورة تداولتها الكتب : إن الشعر

نكد يقوى في الشر ، ويضعف في الخير ؛ فقد كان حسان بن ثابت ﷺ في شعره فحلا من فحول الشعراء في الجاهلية ؛ فلما أسلم ضعف شعره ورق ، أو لان ،لكن النقاد المحدثين لم يردوا ادعاء الضعف إلى الدين ، وإنما إلى قضية الوضع والانتحال ، أو انصراف الهمم إلى نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال ، وإلى انبهار العقول والقلوب ببلاغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، أو إلى أن مدة الصحبة لرسول الله ﷺ في نشر الإسلام كانت وجيزة ، لم يتمكن الشعراء فيها من الغاية في الإبداع الشعري ؛ لأن ذلك يحتاج إلى وقت كاف وجيل كامل ، كالشأن في الشعر الجاهلي ، لم يصل إلى الغاية إلا قبيل الإسلام بقليل على يدي المهلهل وامرئ القيس وطفيل الغنوي وزهير والنابغة ومعاصريهم ، بعد أن مرّ بمراحل عديدة ؛ لذلك ظهر الإبداع في الشعر الإسلامي بعد ذلك في العصر الأموي والعباسي ، بينما النثر الفني من الخطب والوصايا وغيرها ؛ كان أقوى تعبيرا وإبداعا من الشعر وأسرع ؛ لطبيعة الاستجابة السريعة فيه والتحول القريب في وقت وجيز .

وليس الأمر كما صوره المعارضون أيضا من تعارض الشعر مع الدين ؛ لأن السبب الحقيقي لا يرجع إلى أن الشعر في إبداعه دون النثر الفني في سرعة الاستجابة والطواعية فحسب ، بل تواترت الأخبار على جودة الشعر في صدر الإسلام - الذي أجمع عليه الرواة - لشعرائه : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير وغيرهم ، وكان له تأثيره الشديد على الشعراء الذين لم يسلموا وعلى المشركين لجودته ، وله أثره القوي والجيد عند رسول الله ﷺ أفصح العرب قاطبة وعند أصحابه ﷺ ؛ فأخذ يحثهم على قول الشعر ، ويقرهم على ذلك ، ويستمع إليهم ، وينشئ منبرا خاصا بالشعر مع منبره في المسجد ، ودعاهم إلى معارضة الشعراء المشركين ، وأشركهم في المجالس الأدبية ؛ ليعارضوا شعراء الوفود عليه مثل وفد بني تميم وشاعرهم المشهور الزبرقان بن بدر حتى قال زعيمهم : إن هذا الرجل لمؤتى ؛ فخطيبه وشاعره أقوى من خطيبنا وشاعرنا .

وليس الأمر كذلك كما يدعيه المعارضون ظنا منهم بأن الأدب الإسلامي يخنق اتجاهات الأدب العربي ، ويضيق مجاريه بعد أن امتلأت به ساحات العصور

الأدبية في ظل الإسلام ؛ فهذه الدعوى باطلة ، والظن واه مردود لاعتبارات كثيرة من أهمها : أن الأدب الإسلامي لم يتعارض مع الأدب العربي منذ عصر صدر الإسلام إلى اليوم ، وفي المستقبل ، ما عدا الأغراض التي تعارضت مع قيمه الخلقية والفنية ، مثل الغزل الفاحش الماجن المكشوف ، والهجاء القبيح المذموم ، ووصف الخمر والترغيب فيه ، والغزل بالمذكر الشاذ الذي يتنافى مع الفطرة المستقيمة ، وأدب الزندقة ، وأدب الشعوبية في العصور الأدبية القديمة ، والأدب الوجودي ، والماركسي ، والإلحادي وما أشبه ذلك في العصر الحديث .

إن الأدب الإسلامي لم يخنق الأدب العربي ، ولم يضيق مجاريه ، بل كان أرحب أفقا ، وأوسع انتشارا ؛ لاشتماله على الأدب العربي للأمة الإسلامية العربية وعلى الأدب غير العربي للأمم الإسلامية الأخرى ؛ فالأدب الإسلامي الذي يصور القيم الخلقية في الدول الإسلامية غير العربية يعد أدبا إسلاميا مثل أدب المسلمين في تركيا لمجيب المصري ، وفي الهند للشاعر العالمي محمد إقبال ، وأبي الأعلى المودودي ، والشيخ أبو الحسن الندوي رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية وصحبه في الهند وغيرهم ، وفي أندونيسيا ، وفي أفغانستان ، وفي الباكستان وفي البلقان ، وفي بلغاريا ، وفي البوسنة والهرسك ، وفي الدول المسلمة في وسط وجنوب أفريقيا ، وأدب الأقلية المسلمة في أوربا وأمريكا واستراليا ، وفي الدول الإسلامية التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي في شمال آسيا وشرق أوربا ، كل ذلك أدب إسلامي يصور قيمه السامية بلغات هذه الشعوب ؛ فإذا ترجم إلى العربية صار أدبيا إسلاميا يجمع بين القيم الخلقية والقيم الفنية ، بعد أن كان يشتمل على القيم الخلقية فقط .

وليس صحيحا ما يدعيه بعضهم من أن هذا الاتجاه الإسلامي في الأدب يحدد إطاره ، ويقمقمه في حيز ضيق ، ويحد من انطلاقه ، لأنه ينشد القيم الخلقية فهذا تصور بعيد يتنافى مع الواقع والحقيقة في الأدب الإسلامي ، ويقرر هذه الحقيقة والواقع معا ما قدمناه في الجانب التطبيقي من هذا الكتاب في الشعر والنثر الفني والقصة والمسرحية وفن السيرة الأدبي والمقالة والأناشيد وأدب الرحلات مما كان ردا صارخا وواضحا على هذه التصورات والظنون ، بل إن الأدب الذي يصدر عن غير المسلم حين يصور القيم الخلقية السامية لا ينكره

الأدب الإسلامي ، ولا ينفر من سماعه ، ولا يرميه بالقبح والتردي والسقوط ، بل يهش له ويستقبله لما يحمل من قيم خلقية فاضلة ، ومبادئ إنسانية سامية ، ويشير إلى ذلك نبيّنا المشرع سيدنا محمد ﷺ في مواقف كثيرة صحت فيها الرواية ؛ منها :

١ - تمثله بشعر طرفة بن العبد وهو شاعر جاهلي في قوله (١) :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

٢ - وما رواه عمرو بن الشريد بن سويد الثقفي عن أبيه ﷺ قال: « ردفت رسول الله ﷺ يوما فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء . فقلت : نعم . قال : هيه . فأنشدته بيتا . فقال : هيه . ثم أنشدته بيتا . فقال : هيه . حتى أنشدته مائة بيت » ، وفي رواية : فقال رسول الله ﷺ : « إن كاد ليسلم » ، وفي رواية أخرى : « فلقد كاد يسلم في شعره » (٢) ، وأمية شاعر جاهلي .

٣ - عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ، وفي رواية أخرى : « أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » (٣) ، وقالها لبيد في الجاهلية .

وغير ذلك مما يؤكد أن النبي ﷺ يستمع إلى الفضيلة ويحبها ، وينشد القيم السامية ، ويستمع إليها ، وإن كانت في الشعر الجاهلي ، وصدرت عن غير مسلم ، وهذه القضية تقتضي أن نجلّي نشأة الأدب الإسلامي شعراً ونثراً أكثر وأكثر .

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : القرطبي ، طبعة الشعب ص ٥٤٩٥ .
(٢) صحيح مسلم جـ ٧ مجلد ٤ ص ٤٨ نشر الريان عام ١٩٨٧ القاهرة .
(٣) رواه البخاري جـ ٤ ص ٧٣ ، ومسلم في جـ ٧ مجلد ٧ ص ٤٩ نشر الريان .

نشأة الأدب الإسلامي

النثر الأدبي : لا نجد معارضة في شيوع النثر الأدبي الإسلامي وقوته وجودته وتنوعه في صدر الإسلام ؛ على خلاف معارضة بعضهم للشعر ؛ فقد أقر القرآن الكريم القصة سلاحا قويا ؛ ومؤثرا من أسلحة الدعوة إلى الإسلام وانتشاره ؛ للتنفير من الرذيلة والقبائح ، والترغيب في القيم الخلقية والفضائل وأخذت حيزاً كبيراً من القرآن الكريم في قصص الرسل مع أقوامهم في عصور كثيرة ، وقصص الأمثال ، والصالحين من عباده : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ ، و﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ ، و﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ... ﴾ (٣) وغيرها من الآيات الكثيرة .

فأثر ذلك في وجود القصة في الحديث النبوي الشريف ؛ مثل قصة الأبرص والأقرع والأعمى (٤) ، وقصة « المستلف ألف دينار » (٥) ، وقصة « الكفل » (٦) وقصة الغلام والساحر وأصحاب الأخدود (٧) ، وقصة أصحاب الغار الثلاثة (٨) وغيرها ، وأثر كذلك في وجود قصص الغزوات والفتوحات الإسلامية ومقامات الزهاد ، ومقامات الهمذاني ، ورسالة الغفران والتوابع والزوابع وغيرها .

وأصبحت الخطبة فريضة مقرونة بالصلاة عماد الدين ، لا تصح صلاة الجمعة إلا بها ، وفي صلاة العيدين ، وخطب الرسول ﷺ والصحابة ﷺ ووصاياهم ورسائلهم الأدبية في مناسبات كثيرة التي مرّ ذكرها في الجزء الأول من

---

(١) سورة يوسف : آية ٣ ، ١١١ . (٢) الأعراف آية ١٧٦ .
(٣) الكهف : آية ١٣ ، ٣٢ .
(٤) صحيح مسلم : جـ ٨ مجلد ٦ ص ٩٧ دار الريان ١٩٨٧ .
(٥) صحيح البخاري جـ ٣ ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ومسند الإمام أحمد .
(٦) رواه أحمد في كتاب « المكثرين من الصحابة » الحديث رقم ٤٥١٧ ، والترمذي في باب صفة القيامة رقم ٢٤٢٠ مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٣٧ .
(٧) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٨ ص ١٣٣ مجلد ٦ .
(٨) المرجع السابق جـ ٧ مجلد ٦ ص ٥٥ .

الكتاب عند حديثنا عن مصادر الأدب الإسلامي مما لا يحتاج إلى ذكر هنا .

موقف القرآن الكريم من الشعر : لا يدخل معنا في حديثنا عن نشأة الشعر الإسلامي نفي القرآن الكريم لقول الشعر وتعاطيه عن رسول الله ﷺ أو تعارض الشعر مع إعجاز القرآن ونظمه ؛ فهذا أمر لا خلاف فيه ، وإنما الذي نهتم به موقف القرآن من إباحة الشعر واتخاذه وسيلة وفنا من فنون الأدب الإسلامي كالقصة والخطبة وغيرها ، ويكون ذلك إيذانا بنشأة الشعر الإسلامي بعد التحول التاريخي الذي أحدثه الإسلام في كل شيء ، قال تعالى في سورة سميت باسم الشعراء كما سمي فن القصة بسورة القصص : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ۝ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ۝ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ۝ وتوكل على العزيز الرحيم ۝ الذي يراك حين تقوم ۝ وتقلبك في الساجدين ۝ إنه هو السميع العليم ۝ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ۝ تنزل على كل أفاك أثيم ۝ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ۝ والشعراء يتبعهم الغاوون ۝ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ۝ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ۝ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ (١) ، وفي إيجاز يتأكد الآتي :

١ - تسمية القرآن الكريم لسورة من سوره باسم « الشعراء » التي منها الآيات إيذانا بإجازة الشعر واستخدامه وسيلة من وسائل الدعوة كما حدث بالنسبة للقصة في القرآن الكريم فجاءت فيه سورة « القصص » ، ولدفع اعتراض يقال بأن في القرآن سورة « الكافرون » و« المنافقون » وما أشبه ذلك ، فالأمر مختلف ؛ لأن التنفير من النفاق والكفر والتحذير منهما أمر مقرر ؛ لا سبيل إلى قبوله ، بينما الشعر كان في شتى عصوره مقبولا ومرغوبا فيه ، وعليه الإجماع بأنه سجل العرب قبل الإسلام وبعده .

٢ - ذكرتُ الآيات الموصولة بآيات الشعر قبلها على غير عادة الباحثين في ذلك ، فقد أهملوها لأنها مرتبطة بما قبلها ارتباطا تفسيريا وثيقا كالشأن في القرآن الكريم ، فقد جات آيات الشعر في مقام الدعوة إلى الإسلام الموجهة إلى الكفار :

---

(١) سورة الشعراء : الايات ٢١٤ : ٢٢٧ .

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، والموجهة إلى المؤمنين : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ ، ثم إخلاص الدعوة إلى الله بالقول الطيب لا بالقول الخبيث ، مثل دعوة الأفاك الأثيم لما يدعو إليه الشياطين ، للإشارة ؛ بل والتصريح بأن الشعر الطيب الخالص وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية ، لا الشعر الخبيث الذي يجريه الشياطين على أعوانهم من الكاذبين والغاوين والمنافقين والكافرين والظالمين وهو ما صرحت به آيات الشعر في خواتيمها ، وما أكدت عليه الآيات من القول الطيب والصالح ، ومطابقة العمل لقول الشعر ، واتخاذه سلاحا لإعلاء كلمة الله تعالى والجهاد في سبيله ، وتحقيق النصر لدينه ، ورد الظلم والعدوان والتحذير من التقصير في ذلك بأشد ألوان التحذير في قوله تعالى : ﴿ وأنّهم يقولون ما لا يفعلون ﴿٢٢٦﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

٣ - نزلت آيات الشعر لا في كل الشعراء ، بل في شعراء المشركين قبل أن يسلموا حين هجوا رسول الله ﷺ وهم : عبد الله بن الزبعري ، وأبو سفيان وضرار بن الخطاب (١) ، وسواهم ممن ساروا في طريقهم وعلى نهجهم في أي عصر من العصور الأدبية في ظل الإسلام فقد صرح به الإعجاز في التصوير القرآني ، فاستخدم الفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار والتجدد والمتابعة والتواصل الدائم مع التأكيد على ذلك بمؤكدات كثيرة « إنهم ، والاستثناء ، والاسمية » وذلك في كل الأفعال « يتبعهم - يهيمون - يقولون - يفعلون » .

٤ - جاء الاستثناء واضحا وصريحا من التحديد السابق للشعراء المشركين التي نزلت في شأنهم الآية لإباحة الشعر وحث الشعراء على اتخاذه وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية ؛ ليتحقق الإيمان والعمل الصالح والنصر المبين ورد الظلم والعدوان ، والحث على ذكر الله تعالى ، والجهاد في سبيله ، والتحذير الشديد ممن يخالف ذلك كله ، فينقلب بأمر الله عز وجل إلى أسوأ منقلب : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ هل هناك أفظع من هذا التحذير والتنفير والوعيد العنيف ، الذي تتصدع به قلوب الكاذبين والمنافقين والخبثاء والمفسدين والمنحرفين بالاتجاهات الأدبية الهدامة للأمة الإسلامية والمدمرة لقيمها السامية في كل عصر

(١) جامع البيان لأحكام القرآن : الطبري ٧٢/ ١٩ .

ولنذكر الآيات التي مرت قبل ذلك من سورة الرعد في ضرب المثل بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ؛ فذلك مقت وافتراء كبير : ﴿ كبر مقتا أن تقولوا على الله ما لا تفعلون ﴾ (١) .

وغير ذلك من المواقف التفسيرية لآيات الشعراء مما حث على قول الشعر واتخاذه فنا قويا ومؤثرا من فنون القول والأدب ، فاندفع الشعراء من أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم وأتباع التابعين إلى اليوم وفي المستقبل يجاهدون بالكلمة الطيبة فيه كما يجاهد المؤمن بالنفس والمال ، لما رواه كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « اهجوا بالشعر ، إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله ، والذي نفسي بيده كأنما تنضحونهم بالنبل » (٢) ، وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم » (٣) .

موقف الرسول ﷺ من الشعر : ما سبق من الأحاديث السابقة في موقف القرآن من الشعر تحث على مدح الرسول ﷺ لقول الشعر وسماعه ، وقد أعدَّ منبراً له في المسجد يقف عليه حسان الشاعر ، روت عائشة ﷺ كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر به عن رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يقول : « إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله » (٤) ، وروح القدس هو جبريل عليه السلام أمين الوحي ، وفي ذلك من الدلالة على أن الشعر أصبح وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية كالشأن في القرآن الكريم والحديث الشريف ، وفي بيت الله ، ويكون في غيره من باب أولى ، وعنها أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « اهجوا قريشا فإنه أشد عليهم من رشق النبل ، فأرسل إلى ابن رواحه فقال : اهجهم ، فهجاهم فلم يُرْضِ ، فأرسل إلى كعب بن مالك ، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت ، فلما دخل حسان قال : قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم دلع لسانه ، فجعل يحركه ، ثم قال : والذي بعثك بالحق لأفرينهم فرى الأديم ؛ فقال

---

(١) الصف : آية ٣ . (٢) مسند أحمد بن حنبل ٤٦٠/ ٣ .

(٣) فيض القدير ٣٤٣/ ٣ ، وفي سنن أبي داود : كتاب الجهاد ص ٣٩٢/ ١ مع التقديم والتأخير .

(٤) رواه البخاري والحاكم في المستدرك ٤٨٧/ ٣ .

رسول الله ﷺ : لا تعجل ، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها ، وإن لي فيهم نسبا حتى يخلّص لك نسبي ، فأتاه حسان ، ثم رجع فقال : يا رسول الله قد خلص لي نسبك ، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ يقول : لقد هجاهم حسان فشفى وأشفى » (١) .

وكان ذلك تشجيعا معنويا للاهتمام بالشعر الإسلامي ، بل شجعه ماديا حين أهدى بردته الشريفة لكعب بن زهير بعد أن أنشده لاميته المشهورة التي أجمع عليها المحققون من الرواة : « بانت سعاد » ، وتأكدت هذه الأخبار من شيوع الأمر عند الصحابة ، ولم ينكر عليه ذلك أحد منهم ، بل انتقلت البردة التي أهديت لكعب إلى خلفاء بني أمية ثم إلى خلفاء بني العباس ، وحديث إسلام كعب بن زهير وما ورد فيه من أخبار وشعر جاء في « الشعر والشعراء » لابن قتيبة (٢) ، وفي « السيرة النبوية » لابن هشام (٣) ، وفي « الإصابة » لابن حجر العسقلاني (٤) . وحسنه وصححه الإمام الحافظ البيهقي في كتابه « دلائل النبوة » وابن كثير ، وقد ثبت صحة السند في ذلك (٥) ، وما رواه البخاري في صحيحه عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « إن من الشعر لحكمة » ، وما رواه عبد الله بن عمر أنه قال : قدم رجلان من الشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما ، فقال رسول الله ﷺ : « إن من البيان لسحرا » ، وما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله ﷺ ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه - وكان كثير الشعر - فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحه :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينـا
فأنزلـن سكينة علينـا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينـا

---

(١) رواه البخاري وصحيح مسلم بشرح النووي : ٢٠١/٥ ، وجاء بأسلوب آخر .
(٢) ص ١/١٥٤ .   (٣) ص ٤/٧٤ .
(٤) ص ٣/٢٩٥ .
(٥) الالتزام الإسلامي في الشعر : ناصر الحنين ص ١٤١ ، ١٤٢ .

قال البراء يمد صوته بآخرها (١) .

وأما ما ورد من ذم الرسول ﷺ للشعر ، فكان شعرا خبيثا في الهجاء ، روى أبو سعيد الخدري أنه قال : « بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد ، فقال رسول الله ﷺ : خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان ، لأن يمتلئ جوف الرجل قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا » (٢) .

فقد ذكر السهيلي أن عائشة ﵂ قالت : أن الشعر الوارد في هذا الحديث إنما هو الشعر الذي هجي به الرسول عليه الصلاة والسلام لا الشعر كله (٣) ، وجاء في فتح الباري ما رواه جابر : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا - أو دما - خير له من أن يمتلئ شعراً هجيت به » (٤) ، قال البخاري : « إن هذا الحديث ينصب على من غلب عليه الشعر ، وامتلأ صدره منه ، واشتغل به عن العلم ، وأعرض بسببه عن الذكر ، وخاض في الباطل » (٥) ، وذهب الكثير إلى الحكم بأن هذا الحديث ضعيف في سنده ، وعلى فرض أنه صحيح ، فقد اتضح منه أن المقصود به شعر الهجاء القبيح المذموم في الإسلام .

موقف الصحابة ﵃ من الشعر : فقد مضى حديث الصحابي عمرو بن الشريد عن أبيه حين ردف رسول الله ﷺ وروى له شعر أمية بن أبي الصلت ، والأحاديث التي جند فيها رسول الله ﷺ حسان وابن مالك وابن رواحه وأجاز شعر كعب بن زهير وغيرهم ﵃ يدل على فعل الصحابة من قول الشعر الذي قيل على مرأى ومسمع من الرسول وأصحابه ﵃ وأقرهم عليه وكان أبو بكر ﵁ يحفظ الشعر ويرويه . روي المرزباني والدينوري عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال : « كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا » ، فقال أبو بكر : إنما قال الشاعر : « كفى الشيب والإسلام ناهيا » ، فأعادها النبي ﷺ كالأول ؛ فقال أبو بكر : « أشهد أنك لرسول الله ، ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ » (٦) .

---

(١) رواه مسلم والبخاري في صحيحه : ٧٣/ ٤ .

(٢) صحيح مسلم : رقم ٢٢٥٩ في كتاب الشعر .

(٣) الروض الأنف ٧٣/ ٥ .

(٤) ص ٣٩/ ٢٢ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥١/ ١٣ .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ٩٣١/ ٢ .

وكان ﷺ يرق لقول الشعر ، ويؤثر فيه تأثيرا بالغا ، حتى يرجع عن قرار أصدره بطلاق زوجة ابنه عبد الله وأمره بمراجعتها : « كان ابنه عبد الله قد تزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو ، وكانت من المهاجرات ، وكانت حسناء جميلة ، فأحبها حتى غلبت عليه وشغلته عن مغازيه ؛ فأمره بطلاقها وعزم عليه حتى طلقها ، فسمعه أبو بكر وهو يقول :

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق ... وما ناح قمري الحمام المطوق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة ... إليك بما تخفي النفوس معلق
ولم أر مثل طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها في غير جرم تطلق
لها خلق جزل ورأي ومنصب ... وخلق سوي في الحياة مصدق

فرق له أبوه وأمره فارتجعها » [١] .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ ذا بصر بنقد الشعر ، وموقفه من شعر زهير ابن أبي سلمى في استحسانه معروف مع عبد الله بن العباس ﷺ حين وصفه بأشعر الشعراء : « لأنه لا يعاظل في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الكلام ، ولا يمدح أحدا إلا بما فيه » [٢] ، ومن أخبار روائه واستحسانه للشعر : « دخل فرات بن زيد الليثي على عمر بن الخطاب ، وكان ذا مال كثير وكان يبخل به .. فقال عمر : يا فرات ؛ أتدري من الذي يقول :

سأبذل مالي للعفاة فإنني ... رأيت الغنى والفقر سيان في الفقر
يموت أخو النقر القليل متاعه ... ولا تترك الأيام من كان ذا وفر
وليس الذي جمعت عندي بنافع ... إذا حل بي يوما جليل من الأمر

قال : لا أدري يا أمير المؤمنين ، قال : هذا شعر أخيك أسامة بن زيد قال : ما علمته ، قال : بل هو أنشدنيه ، وعنه أخذته ، وإن لك فيه لعبرة » [٣] .

ولقد نصح عمر بن الخطاب ﷺ الناس بحفظ الشعر وروايته وإنشاده ، فقال لابنه عبد الرحمن : « يا بني .. احفظ محاسن الشعر ، يحسن أدبك ؛ فإن

---

(١) أسد الغابة ٢٢٩/٥ .
(٢) انظر كتابي : في الأدب الجاهلي ، دراسة ونقد بالتفصيل ص ٥٦ .
(٣) الإصابة ٢١١/٣ .

من لم يحفظ محاسنه ، لم يؤد حقا ، ولم يحسن أدبا » ، وكتب وصيته إلى أبي موسى الأشعري : « مُرْ مَنْ قبلك بتعلم الشعر ؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب » ، وقال : « نعم الهدية للرجل الشريف الأبيات يقدمها بين يدي الحاجة يستعطف بها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم » [١].

وللإمام علي ﷺ ديوان شعر جمعه كثير من المحققين ، منهم الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا يقولونه ويحفظونه ويروونه وينقدونه .

* * *

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٣٥ ، العمدة ١/٢٨ .

التنظير في الأدب الإسلامي

قضية التنظير لتحقيق نظرية في النشاط الإنساني قضية شائكة وشاقة ؛ فلا بد أن تسبقها تجارب عديدة في مختلف الدراسات الأدبية والإنسانية بفروعها الكثيرة في التاريخ وعلم النفس والنقد ، والعقيدة والتشريع وعلم الأخلاق واللغة والأسلوب ونظرية العلاقات والنظم ، وعلم الأجناس والدراسات المقارنة في كل ذلك ، حتى تقوم النظرية على استقراء شامل ، ومقدمات شاملة وعميقة ، تؤدي إلى نتيجة ، لا أقول حتمية صادقة في الأدب ؛ فإن ذلك من المستحيل بمكان كبير ، ولكنها نتيجة واقعية ، مع العلم بأن الواقع يختلف من مدرسة إلى أخرى ومن شخص إلى آخر ، ومن عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى بيئة .. وهكذا ، كل ذلك يجب أن يكون ؛ ليدنو من الحقيقة المخلوقة المقيدة لا الخالقة المطلقة .

إنه يجب الفصل التام بين الحقيقة الخالقة ، والحقيقة المخلوقة ؛ فالأديب المسلم يسخر عبقريته في نضال مستمر لتصوير الحقيقة المخلوقة في نفسه وأعماله وفي الكون والحياة ، وفي كل طور يبتغي في قيمها المثال ، ويحلم بذلك ، وإن لم يصل إليه لعجزه البشري ، حتى لو وصل - وهذا صعب المرام - فمن المستحيل أن يصل إلى الحقيقة الخالقة المطلقة ؛ لأنه لا يمكن الخلط بين الحقيقتين البشرية والإلهية ؛ وعلى ذلك فمهما تكاملت القيم الخلقية والفنية في الأدب الإسلامي في أي عصر من عصوره التاريخية إلى يومنا هذا وغدا في المستقبل ؛ فلن يصل الأديب إلى المثال في الحقيقة البشرية ، لطبيعة العجز فيه ؛ لكنه قد يقترب من الكمال والمثال .

بهذا المنظور الكيفي والكمي يصح إطلاق « النظرية أو التنظير » بمفهومها العلمي الحديث - وهي أنها غير مستقرة بل متجددة دائما - على الأدب الإسلامي فتنبني النظرية التالية على السابقة ، وهكذا في تطور مستمر ، حسب الأطوار التاريخية في الرقي الحضاري للأدب الإسلامي ، ولا ضير في هذا الاطلاق ؛ لأن كل مرحلة من مراحل النهضة فيه تمثل تنظيرًا أو نظرية ، انتهى إليها الأدب في هذا العصر وهكذا في كل العصور .

لذلك رأينا من خلال الدراسة التطبيقية السابقة واللاحقة أن نظرية الأدب الإسلامي في العصر الحديث كانت أعمق وأشمل ، وأثرى وأخصب في قيمها

الخلقية والفنية ، وفي الأغراض الأدبية الجديدة ، وفي الفنون الأدبية الحديثة المتنوعة وغيرها ، ومع هذا النضج والسعي نحو المثال والكمال فيه ، إلا أن الأمر ما زال تنظيرا ونظرية وقتية مرهونة بعصرها ، لأن مستقبله سيكون أكثر عمقا وشمولاً وخصوبة ، ومن هنا آثرت التعبير بالتنظير والتناظر والمناظرة كلها من صيغ المفاعلة التي تدل على التجدد والاستمرار والتغيير والانتقال ، وعدم دوام الحال ، وهو ما يتفق مع طبيعة الأدب الإسلامي ؛ لأنه يتجدد دائما وهو يسمو نحو الكمال والمثال .

وبالطبع لا ينهض أن يصل إلى الحقيقة الإلهية في المثال والكمال ، التي تحققت في إعجاز القرآن الكريم ، ولا يمكن أن يخلط بين ذلك وبين الحقيقة البشرية ، فالأديب يتخذ طريقة القرآن ومنهجه في التصوير مثلا من حيث القيم الخلقية والفنية ، لكنه في محاولاته ، مهما كانت موفقة ؛ فهي دون ذلك ، بل تختلف عن ذلك ؛ لأنه القرآن الكريم وكلام الله المقدس ؟؟! ، والحقيقة الإلهية لا البشرية .

ودون ذلك الحديث الشريف ، فقد بلغ قمة البلاغة البشرية كما قال النبي ﷺ متميزا عن الأنبياء : « أوتيت جوامع الكلم » من بين الخمس التي لم يؤتهن أحد من قبله ، وأن الله سبحانه وتعالى أعده لذلك ، ولقنه أسباب الكمال ، فقال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ۝ ما ضل صاحبكم وما غوى ۝ وما ينطق عن الهوى ۝ إن هو إلا وحي يوحى ۝ علمه شديد القوى ﴾ [1] ، إلا أن تصوير الحقيقة فيه دون الحقيقة الإلهية وغيرها ، لصدورها عن بشر ، وإن كان أكمل وأفضل البشر جميعا .

لهذه الأسباب كان التعبير بـ « التنظير أو النظرية » أدق ، وأكثر طواعية ومرونة في تجدد الأدب الإسلامي ونهضته من عصر إلى عصر ، وأولى عندي من التعبير بـ « المذهب » ؛ لأن المذهب يخنق الأدب الإسلامي في خندق مذهبي معين اكتسبه هذا المصطلح من الروافد التاريخية والفلسفية والعلمية ، فأصبح محدداً محظوراً مقيداً بأطر معينة ، وأنماط وقواعد محصورة ، مثل المذاهب الفقهية ، والمذاهب الأدبية الحديثة من « كلاسيكية ورومانسية وواقعية ورمزية

---

(١) النجم : ١ - ٥ .

ووجودية وماركسية وسيريالية » وغيرها ؛ لأن الأدب الإسلامي يختلف عن الإطار المذهبي الضيق ، لما يتصف به من الشمولية والعالمية والثبات والتجدد من عصر إلى عصر ؛ لأنه تصوير للقيم الإسلامية والفنية المستمدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة ؛ فهو في كل عصر ينبض بذلك ، ويحيا متجددا في ظلاله في جميع محاولاته وأطواره التجديدية الخلاقة ؛ فاكتسب بعضا من سمات المصدرين الكبيرين سعيا نحو الشمول والثبات ؛ فهو وإن كان دونهما ، لكنه أوسع وأعمق وأخصب من « المذهب » .

لذلك عزفت عن استعمال المذهبية في الأدب الإسلامي ، حتى لا يخضع لمجال الند والشبه والمقارن والنظير ، فلا يصح أن يقال : الأدب الإسلامي يناظر الأدب الماركسي أو الأدب الرمزي أو الأدب الروماني إلى آخره ، وند لكل من هذه المذاهب الأدبية ، لأنها تتهاوى مدة بعد مدة ، وقد رأينا كيف سقط الأدب الماركسي وكاد أن يختفي من ساحة الصراع ، وستتوالى بعده المذاهب الأخرى في الغروب الواحد بعد الآخر ، لأنه أدب متمذهب بأصول فلسفية ومادية وإلحادية بينما الأدب الإسلامي يتسم بالشمول والثبات والتجدد المستمد من القرآن الكريم والسنة الشريفة ؛ لذلك سيبقى في ظلالهما قويا مستمرا ومتجددا لبقاء وتجدد قيمه الخلقية والفنية النابعة من المصدرين السابقين العظيمين مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إن نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

ولعل أقرب المصطلحات الفكرية في الأدب الإسلامي بعض المصطلحات التي عبر عنها المفكرون والنقاد منها : التوسط ، والوسطية ، والتعادلية ، والمدخل إلى النظرية ، ونحو النظرية ، والإسلامية والمذاهب ، ومنهج الفن ، والتصور الإسلامي ، وغيرها .

أما صاحب كتاب : « منهج الفن الإسلامي » (١) ؛ فقد تحدث عن منهجه الذي يقوم على أساس فكري ، يختار منه المسلم الوسط والميسور في الدين ليوضح حقيقته وصلته بالمصدرين القرآن والسنة في إطار يغلب عليه الجانب الفكري المجرد من غير استقصاء لواقع الأدب الإسلامي منذ نشأته حتى العصر الحديث ، وكان منهجه امتدادا لما بذله صاحب كتاب « خصائص التصور

---

(١) الأستاذ محمد قطب .

الإسلامي ومقوماته » [(١)] ؛ فقد تحدث عنها حديثا فكريا وحضاريا أفاد من أتى بعده في تطبيق هذه الخصائص على الأدب وفنونه المختلفة .

وأما صاحب « مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي » [(٢)] ، فقد تحفظ كثيرا عن وصفه بالنظرية ؛ فجعل الحديث عنه « مدخلا » إلى تحقيق النظرية ، بينما هناك نظريات ومذاهب قامت واندثرت ، ولم يخشوا في ذلك شيئا ، ولم يتحفظوا مثل تحفظه ، وإن كنت أرى أن كل نظرية نادى بها أصحابها إنما هي مدخل لنظرية ستقوم على أنقاضها نظرية أخرى .. وهكذا ؛ لكن الأمر يختلف في الأدب الإسلامي ؛ لأن التنظير والنظرية له ، لا تنهدم أو تسقط ، وإنما تزداد عمقا وجدة وخصوبة ، فالقيم الخلقية والفنية لا تندثر ، لكنها تقوى وتتجدد وكذلك الأمر بالنسبة لصاحب كتاب « مدخل إلى الأدب الإسلامي » ، وكتاب « الإسلامية والمذاهب الأدبية » [(٣)] ؛ فهما سواء في هذا الاتجاه .

وأما صاحب كتاب « مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي » [(٤)] ، فقد دعا إلى وحدة فكرية ، تنطلق من الإسلام ليكون مصدراً للأدب الإسلامي ، لذلك نادى بتكوين « كومنولث إسلامي » ، وأما صاحب كتب : « الشرق الفنان » و« تجديد الفكر العربي » ، و« المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري » ، و« ثقافتنا في مواجهة العصر » ، وغيرها [(٥)] ، فقد نادى بامتزاج الثقافتين العربية الإسلامية والغربية الوافدة ؛ فينصهر الواقع المحسوس والمحدود بما وراء الواقع في بناء حياة جديدة سوية ومتزنة ، واتجاه الأخيرين معا اتجاه فكري وفلسفي تجريدي ، لا ينبع من واقع الأدب الإسلامي في عصوره المختلفة .

وأما صاحب كتاب « التعادلية » [(٦)] ، فيرى أنها « مجموعة قوى تتقابل وتتوازن مناهضة بعضها بعضا في الكون والمجتمع ، وأن العدم يبدأ بابتلاع جميع القوى في واحد صحيح ، الواحد الصحيح هو السكون ، والأعداد المختلفة المقابلة هي الحركة المعادلة ، هي الحياة ، تلك هي التعادلية ، هي فلسفة الحركة القابلة المعادلة ، أي الحياة ، احتفظ بقوتك الخاصة مستقلة حرة ، لتعادل بها وتقابل القوى

---

(١) المرحوم سيد قطب .
(٢) الدكتور عماد الدين خليل .
(٣) الدكتور نجيب الكيلاني .
(٤) المرحوم مالك بن نبي .
(٥) الدكتور زكي نجيب محمود .
(٦) المرحوم توفيق الحكيم ص ١١٧ .

الأخرى ، التي تريد أن تبتلعك ، بذلك تقاوم وتتحرك وتحيا » ، وهي فلسفة شخصية خاصة ، وليست بناء فنيا عاما ، يعتمد على أصول وقواعد ، تشكل منهجا يسير عليه الأدب الإسلامي ، وإن اقترب قليلا إلى ذلك في كتابه : « الإسلام والتعادلية » المنشور عام ١٩٨٢م ، فقال : « في عام ١٩٥٥ كتبت عن التعادلية ، لأوضح أن كل شيء في الكون يقوم على التعادلية (أي في الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وهو ما سماه الإسلام بفطرة الله ، فهي فكرة تجريدية) ثم وصلت إلى عام ١٩٨٢ ؛ فوجدت أن ديني وهو الإسلام ، هو جزء من النظام الكوني قائم على التعادلية ، لذلك أضفت هذا القسم الأخير الخاص بالإسلام من وجهة نظر التعادلية ، ورأيت أنه يمكن جعله أساساً لفلسفة عربية إسلامية ، هو ما نشأ من عقيدتنا ، التي تقول للإنسان أن عليه أن يعيش عالمين ، أي أن يعيش الدنيا كأنه يعيش أبداً ، ويعيش الآخرة كأنه يموت غداً » .

وأما موقف أرسطو فيعتمد على فلسفة العقل ومنطق الفكر الإنساني في فلسفة تجريدية أيضا ، تقوم على الاستنباط والتوليد بين شيئين ؛ ليتولد عنها شيء آخر ، له كيانه المستقل ، فالمادة والصورة حين تمتزجان تعطي شكلاً جديداً آخر .

وأما موقف أبي حامد الغزالي ؛ فتقوم فلسفته على وحدة المشاهدة لا وحدة الوجود ، التي ينكرها ؛ لأنها تقوم على إلغاء الثنائية ؛ ليصير العبد جزءا من الحقيقة المطلقة ، ويؤيد وحدة المشاهدة التي تفصل بين الشيئين بصلة رقيقة تمنع من الاندماج في حقيقة واحدة ؛ فالصورة داخل المرآة تختلف عن المرآة [1] .

وأما صاحب كتاب : « الوسطية العربية مذهب وتطبيق » ؛ فقد عبر عن الأدب الإسلامي بالوسطية ، التي تقوم على مذهب أدبي عربي في الأدب ، يعتمد على أساس عام ؛ فيقول : « فنحن نستطيع أن نقول بلغة الوسطية : أن الوسطية العربية تبدأ حينما كان هناك شنع يؤدي إلى المجاورة بين الشيئين ثم الموازنة بينهما دون أن ندمجها في وحدة لا تقبل الانقسام » ، ويقول في موطن آخر : « إن هناك صيغة تقدمها الحضارة العربية وهي صيغة ينبغي أن نقف عندها ، وأن تدور حولها الدراسات ، وهي الصيغة التي عبرت عنها بتجاور الشيئين والمتضادين مع تمايزهما ، وهذا التعريف يكشف عن حركة من نوع خاص ومميز يوضح طبيعة

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/١١٥٩ .

الحضارة الإسلامية ؛ فهي ليست انزعاجا أو تمرداً أو قلقا مرضيا ، إذ هي تدور تحت عناية الله في جو من التوكل والرضا بالقضاء والقدر ، مما جعلها تتسم بما أسميناه « السكينة » ، وهي حالة وسطى بين السكون والانزعاج ، يتحقق فيها وفي معترك الحياة برد القلب وإحساسه بالرضا ، الذي لا يصل إلى حد جمود الحركة » (١) .

فالمذهب عنده في الوسطية ، يختلف عن وسطية أرسطو الفلسفية التجريدية ، التي لا تتصل بالواقع ، ولا ترتبط بالقلب ، فهي بينية تفصل بين الشيئين (لا التجاور) ، مما ينتج عنه السكون لا السكينة ولا الحركة ؛ فكأنه يمسك العصا من النصف ؛ فإن امتزجا الشيئان تولد منهما شيء جديد آخر .

وتختلف أيضا عن تعادلية توفيق الحكيم وهي التمايز ، لا « التجاور » بين الشيئين ، فلا يمتزجان ، لأنها نابعة عند الحكيم من الطابع الشخصي التجريدي الذي ينطلق من فطرة الله ، ولا تنبع من مذهب له أبعاده التاريخية والأدبية والتطبيقات العملية ، كما تختلف عن وسطية العصور الوسطى ، التي توفق بين الشيئين في إطار ثابت وساكن ، وتختلف عن وسطية علماء الدين محمد قطب ، وسيد قطب ، ومحمد المدني ، وغيرهم ، التي تعتمد على حالة من التوازن أو التعادل ، أو التوسط في الفكر والسلوك .

وإنما هي وسطية من نوع يعتمد على الحركة النابعة من أبعاد متعددة تاريخية ودينية وفنية وأدبية ونقدية ، الحركة فيها هي شعرة رقيقة تؤلف بين المتضادين أو الشيئين ، وتمثل التحدي ، الذي ينقل الإنسان إلى المستوى المطلوب في المثالية التي تنشدها الحضارة الإسلامية ، فالمتضادان مثلا كالخير والشر أو الحق والباطل ، لا بد منهما في الواقع الإنساني ، لأنه حينما يفعل الخير والحق ، يخشى الشر والباطل ؛ فإحدى عينيه تحذر الشر والباطل ، والأخرى تندفع إلى الخير والحق بعد صراع بين النفس والشيطان ، وهو المراد بالشعرة الرقيقة بين المتجاورين ، وتلك هي الواقعية في الحضارة الإسلامية ، لا الفلسفية ، ولا التجريدية ، ولا الشخصية الفردية ؛ لأن الشيطان لا يفارق الإنسان ما دام حيا ،

---

(١) الدكتور عبد الحميد إبراهيم : الطبعة الثانية ١٩٨٥ دار المعارف ص ٤٥ ، ٤ ، ٥٢/ ١ على الترتيب ، والطبعة الأولى في صنعاء عام ١٩٧٩ .

يقول الله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسرا ﴾ ، وفي الحديث القدسي : « إن رحمتي سبقت غضبي » ، وفي الحديث الشريف : « إن الشيطان يجري من الإنسان كمجرى الدم » ، فنجد المتقابلان في الطبيعة : الليل والنهار ، والظل والحرور ، وفي أسماء الله الحسنى : « المعز المذل ، والضار النافع ، والخافض الرافع » وغيرها .

واستمد الدكتور عبد الحميد إبراهيم وسطيته من آيات تحويل القبلة المشرفة ، فيدل ذلك التحول على طبيعة الإسلام التامة الكاملة ، التي اكتملت فيه الشريعة والخلق عما كان منقوصا في اليهودية والنصرانية ، لذلك تحققت وسطية الإسلام ، لقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ ، ولقول النبي ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

فالوسطية عنده هي الإقامة والصراط المستقيم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ ، و﴿ والذين إذا انفقوا ولم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ ، و﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ، وكما في إجابة المصطفى ﷺ على سؤال الصحابي الذي قال له : قل لي في الإسلام قولا لا أسأل أحدا بعدك ، فأجاب : « قل آمنت بالله ثم استقم » ؛ فالوسطية عنده تنتمي إلى حركة « التوكل » لا « التواكل » في الحضارة الإسلامية ، فهي تقوم على التوازن والإقامة وتجمع بين الحركة والسكون في توازن ؛ فلا تلغي إحداهما الأخرى ، وهو نفسه معنى السكينة ، ثم ينتهي إلى التفسير الكامل لمذهبه الوسطية فيقول هي :

« أنظومة كاملة خلقتها روح الجماعة ، وشكلتها مردودات الطبيعة ومنجزات التاريخ ، إن لها شخصيتها التي تضم في تضاعيفها الطرفين ، إنها ليست واقعية فقط ، ولا مثالية فقط ، ولا شيئا ملفقا من الواقعية والمثالية ، لأنها فوق ذلك كله ، هي أنظومة جديدة يسميها ابن الجوزية مقام الكمال ، وهو المقام الذي يجري وراء الحقيقة أو الحق على حد تعبيره ، حتى لو كانت عند المخالفين والأعداء ؛ فيأخذ الحق من هنا وهناك ، ويضمه إلى تضاعيفه ، ويتحول ذلك إلى نموذج يجذب الناس إليه ، ويقيسون عليه مصالحهم ، ويمتحنون به مواقفهم » .

وأما صاحب كتاب : « نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد » (١) فيقول : « لا ريب في أنك حين تسمعنا ندعو مع الداعين إلى إقامة مذهب إسلامي في الأدب ونقده ، يحسن بكم قبل الكلام على هذا المذهب وأسسه وتطبيقاته أن نقفونا على موقف الإسلام من الأدب ونظرته » ، ثم يقول تحت عنوان « المذهب الأدبي الذي نسعى إليه » : « ١ - حاجتنا إلى مذهب أدبي في العالم الذي يحيا فيه اليوم تياران كبيران هما تيار الاشتراكية الذي يرفع لواءه الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية ، وتيار الرأسمالية التي تقوده الولايات المتحدة ودول غرب أوربا الغربية ، ثم يأتي بعد هذين التيارين الاجتماعيين الكبيرين طائفة من الاتجاهات الفكرية والفلسفية والأدبية .. وأبرز هذه الاتجاهات الفكرية هي الوجودية والطبيعية والواقعية .. والفنية .. والرمزية .. قد انبثقت عن نظرة أصحابها إلى الإنسان والحياة .. ثم يقول : ولكننا نريد أن نتساءل عن الملايين الذين ينتشرون على أوسع رقعة من المعمورة ، تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى الهند شرقا ، ويدينون بالإسلام ويؤمنون بنظرته الربانية إلى الإنسان والكون والحياة ، ما شأنهم في هذا المضمار ؟ ، وما المذهب الأدبي الذي ينتمون إليه ؟ أليس من حقهم أن يكون لهم مذهب أدبي متميز القسمات ؟ واضح الغايات ؟ ليعبر عن نظراتهم إلى الإنسان والكون ، ويوضح عقيدتهم في خالقها ، ويحدد موقفهم من الدنيا والآخرة ، وليتخذوا منه وسيلة لنشر دعوتهم في الآفاق وليقدموا من خلاله للإنسانية بعامة ، ولأجيالهم المؤمنة بخاصة أدبا نافعا ممتعا فتشغل نفوسهم بما فيه من حرارة الإيمان ، وتغذي عقولهم بما حفل به من فكر نيّر وتوجيه خيّر ، وينصرفون بروعته وجماله ونقائه وسامي توجيهه عن ذلك إلى الأدب التافه ، الذي تقذف به المطابع في كل اتجاه » .

وأما صاحب كتاب : « نحو نظرية للأدب الإسلامي » (٢) ؛ فهو أيضا يتحفظ في اطلاق النظرية على الأدب الإسلامي ، واتخذ لها سلما ومدخلا إليها هو الآخر بإضافة « نحو » ، فهو يعترف : « بأن هذه الدراسة لا تعدو أن تكون مثل سابقاتها محاولة لا تدعي لنفسها الوصول إلى النظرية المنشودة لأسباب عديدة

---

(١) الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا : الرياض ١٤٠٥/ ١٩٨٥ ص ٣ ، ٨٢ ، ٨٤ .
(٢) الدكتور محمد أحمد حمدون : جدة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م .

منها عدم استكمال التعريف بهذا الاتجاه في دراسة أدبنا الحديث والقديم على السواء ، وغياب الاستقصاء الدقيق للملاحظات والمعطيات التاريخية للصلة بين الإسلام وبين الأدب العربي والفنون المختلفة ، ناهيك عن المنهج « المتداخل » الذي يدرس الأدب متصلا بتلك المجالات الأخرى دينية وفنية دون خلط أو تشويه لطبيعته الأساسية » .

ويرى أن هذه الدراسة سبق نشرها في بحوث مستقلة خلال السنوات الثلاثة الأخيرة ، غير أن رابطة واحدة تجمعها وتنظمها معا ، وهي توجهها - منهجا وتطبيقا - نحو نظرية الأدب الإسلامي إبداعا ونقدا .

وإن كنت اختلف معه في تحفظه ، لكنه يتناسب مع طريقة تناوله وعرض منهجه ، وخاصة في الجانب التطبيقي ، حيث اقتصر على التفسير الأدبي والتفسير البياني ، وعن اتجاه الشاعر السعودي المعاصر فقط ، دون أن يقف موقفا شاملا للأدب الإسلامي منذ نشأته حتى اليوم ، من حيث القيم الخلقية والفنية والأغراض والفنون الأدبية ، وهو ما وقفنا عنده طويلا في أطواره وخصائصه وفنونه حتى يصح إطلاق البينية في التنظير والتطبيق في الأدب الإسلامي ، وهو ما اتخذته موضوعا لهذا الكتاب منهجا وتنظيرا وتطبيقا وواقعية .

وليس معنى ذلك أنني قمت باستقراء كامل وشامل لجميع الظروف والأحوال والعصور ، حتى لا تبقى بقية لباحث آخر في هذا الشأن - معاذ الله إن ادعيت ذلك - ولكنني عانيت كثيرا في السياحات والغوص في جوانب الاستقراء والتقصي بأقصى طاقاتي حتى ظهر العمل في ذلك الإطار من التنظير والتطبيق على جميع العصور الأدبية ، ولم يبق منها أمامي إلا الجانب التطبيقي في الأدب المعاصر للمبدعين الأحياء غالبا ، فقد أخصهم بدراسة مستقلة متميزة ، لعلها تضيف جديداً في التنظير والتطبيق إن شاء الله تعالى .

* * *

مفهوم الأدب الإسلامي

لا تقل قضية المفهوم والتعريف في التحديد عن قضية التنظير من حيث الاستقصاء والاستقراء الدقيق لعناصر الأدب الإسلامي وخصائصه الخلقية والفنية وأغراضه وفنونه ومنهجه ، وربما يمنع الإيجاز والتركيز فيه من الإصابة الدقيقة ليكون التعريف جامعا مانعا ؛ فيلقي ظلالا من التعتيم على بعض الخيوط الدقيقة التي تتصل ببعض جوانبه ، لكن ما يختفي من هذه الخيوط في التعريف عند أحد النقاد ، قد يظهر واضحا عند آخر ، وهكذا في بقية الخيوط ، بينما نجد خيوطا جديدة في كل تعريف ، ومن خلال وجهات النظر المختلفة في التعريفات مجتمعة تشكل إطاراً لمفهومه ، يكاد يكون متكاملا وناضجا أكثر من التعريف الواحد لأحدهم ؛ لذلك آثرت أن أعرض بعض التعريفات ، منها تعريف أحدهم قال عن الفن الإسلامي : « إنه التعبير الجميل عن الكون والحياة والناس من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والناس » (١) .

ويقول ناقد آخر في تعريفه : « إنه التعبير الفني الهادف عن وقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب تعبيرا ينبع من التصور الإسلامي للخالق عز وجل ومخلوقاته » (٢) .

ومن خلال هذه التجربة الطويلة في كتابي تعرضت بالتفصيل والتطبيق لمفهوم الأدب الإسلامي في الفصول السابقة عن طريق الشرح والتحليل والنقد والموازنة لكثير من النصوص والفنون والأغراض الأدبية شعرا ونثرا ومقالة وقصة ومسرحية وغير ذلك مما كان له أثر كبير في التعريف وتحديد مفهومه في نهاية هذه التجارب ، ليكون مفهومه هو :

« التصوير الفني الجميل للكائنات حية كانت أو جامدة ، التي سخرها الله تعالى للإنسان في الحياة والكون ، يستمد الأديب قيمه الخلقية والفنية من حضارة الإسلام المتجددة قديما وحديثا وفي المستقبل ، تصويرا حيا قويا نابضا بالصدق الفني ، يثير العواطف والانفعالات ، ويحرك المشاعر والأحاسيس ، ويثري

---

(١) منهج الفن الإسلامي ، محمد قطب ص ٦ الطبعة السادسة .

(٢) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ، الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ص ٩٢ .

الوجدان والخواطر سواء باللغة العربية أو بلغات الشعوب الإسلامية غير العربية ».

والتعريفات السابقة تكاد تكمل بعضها بعضاً ، فالثاني يكمل الأول والثالث يضيف خيوطا جديدة ، تلتقي جميعا في هذه العناصر التالية :

أولا : أن الأدب الإسلامي ليس علما ولا تأريخا ، ولا منطقا ولا فلسفة ولا فقها ولا توحيدا ، ولا تفسيرا أو حديثا ، ولا رياضة أو أحياء ، ولا بلاغة أو نحوا وصرفا ، ولا ما أشبه ذلك ؛ ولكنه تعبير جميل أو فني ، وتصوير فني جميل ؛ فهو أدب وفن ، يستمد روافد الجمال والبلاغة من مصادر الحضارة الإسلامية القرآن الكريم والسنة الشريفة ثم أدب الصحابة والتابعين ﷺ .

ثانيا : أنه أدب يسمو بأهداف شريفة ، تغرس قيم الحق والخير والجمال بالإيمان والسلوك مصداقا لقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ﴾ (٢) ، وقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » ، وغير ذلك .

ثالثا : الحقل الخصيب للأدب الإسلامي يشمل علاقة الإنسان بخالق الكون والحياة والإنسان ، فيصور الأديب أثر هذه كلها في وجدانه وعاطفته ومشاعره وخواطره في شكل فني يبدع فيه - شعراً ونثراً - تصويرا يؤثر في النفس تأثيرا قويا وحيا ، فيصور إبداع الله تعالى في خلقه ، ويصور علاقته بأخيه الإنسان ، ويصور مظاهر الطبيعة ودلالتها على إبداع الخالق ، فهي آية من آياته ودلائل قدرته ، ويصور أسرار الكون التي تزيده إيمانا بخالق الأسرار ، على النحو الذي تعرضنا له في أغراض الأدب الإسلامي .

ويضيف التعريف الأخير إضافات من خصائص التصوير الأدبي ، منها :

١ - حيوية التصوير الفني وقوته وتجدده .

٢ - إيثار « التصوير » لا « التعبير » ؛ لأن الأول أشمل لروافد الأدب

---

(١) النحل : آية ٩٧ . (٢) الأحزاب : ٧٠ .

ولغيرها من عناصر التصوير كاللون والحركة والصوت والحجم والشكل والطعم والرائحة وغيرها .

٣ - إبراز أثر التصوير في عواطف الآخرين ومشاعرهم وخواطرهم ولقيمه الخلقية والفنية .

٤ - التصريح بمصطلح « الصدق الفني » لأنه هو المخرج الدقيق والمقياس المميز ، الذي يخرج أدب غير المسلم حين يحمل سمات الأدب الإسلامي خلقيا وفنيا ؛ فهو ليس أدبا إسلاميا ، وإن كان مقبولا عنده غير مرفوض ؛ لأنه لم يصدر عن فطرة مستقيمة ، ووجدان عامر بالإيمان الخالص والعاطفة الصادقة في التصوير الذي لا يتناقض مع سلوكه وعمله ؛ فالإنسان مهما تظاهر بالإسلام إلا أن الفطرة الصادقة تتعارض مع الزيف ، وهو ما يتنافى مع قيم الحضارة الإسلامية وعلى ذلك لا يدخل مثل شعر خليل مطران الإسلامي في الأدب الإسلامي .

٥ - يصرح التعريف الأخير بتوسيع إطار وحقل الأدب الإسلامي ، فيضم إلى أدب اللغة العربية آداب لغات الشعوب الإسلامية غير العربية مثل الأدب الإسلامي في الهند وتركيا والباكستان وأندونيسيا وأفغانستان والبوسنة والهرسك وغيرها ، أو المترجم عن هذه الشعوب بلغة أخرى عربية أو غيرها .

الذوق الأدبي

الذوق الأدبي هو مقياس دقيق يميز الأدب الجيد من الرديء ، وهو الميزان القويم للحكم على النص بالجمال أو القبح ، وهو يختلف عن قوانين العلوم ويغاير موازين التجارب العلمية والفلسفية البحتة .

والذوق الأدبي تناوله النقاد قديما كابن سلام وابن قتيبة والجاحظ والقاضي الجرجاني والآمدي وابن طباطبا وابن رشيق وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وغيرهم ، كما تناوله النقاد المحدثون متأثرين بالنقد العربي القديم وبالنقد العربي الحديث والغربي معا مما لا ينبغي هنا أن نعيد ما أفاضوا فيه ، لكن نتذكّرها بإيجاز :

١ - معناه اللغوي والاصطلاحي والنقدي حتى تحول من التذوق الحسي باللسان إلى التذوق المعنوي والخلقي لأسرار الجمال في النص الأدبي .

٢ - ينبني الذوق الأدبي على ملكتين ؛ إحداهما : ملكة فطرية في النفس

وثانيهما : موهبة مكتسبة تكونت من خلال المعارف والتجارب الفكرية والأدبية والتاريخية مع الإنسان والكون والحياة وفنون الأدب المختلفة .

٣ ـ عوامل تكوين الذوق من الحفظ والرواية والدربة والتجارب الأدبية وأثر البيئة والطبيعة والمجتمع والزمان والجنس والتربية والتعليم والمهارات الشخصية والمزاجية وغيرها .

٤ ـ تقسيم الذوق الأدبي إلى ذوق عام يشترك فيه أبناء الجيل الواحد وذوق خاص يعبر عن مذهب معين كالتأثريين مثلا ، وذوق أعم يرجع إلى الطبيعة الإنسانية لكل الشعوب على وجه الأرض .

٥ ـ تقسيم الذوق من حيث مناهجه النقدية المختلفة التي يستمد منها مقاييس الحكم بالجودة أو الرداءة ، وبالجمال أو القبح ، وهي المناهج التاريخية والنفسية والسياسية والفلسفية وفقه اللغة والتراكيب والأسلوبية والبنيوية والتفكيكية إلى آخرها .

وغير ذلك من عناصر الذوق الأدبي وخصائصه ومقاييسه التي وضحها النقاد قديما وحديثا ، وأصبح من اليسير أن نرجع إليها من حين إلى آخر ونستعين بها على تشكيل وبناء الذوق الأدبي الناضج والكامل لتحديد كيفية الجمال وأسراره ، وحدود القبح ومعالمه في ميزان النص الأدبي .

ولا يختلف الذوق في الأدب الإسلامي عما انتهى إليه النقد قديما وحديثا ؛ لأنه في معظم أبعاده وتركيبه وطبيعته وعوامله وعناصره لا يختلف كثيرا في ذلك ، إلا أن الذوق الأدبي في تحديد الجمال أو القبح للنص في الأدب الإسلامي يعتمد على أسس يتميز بها في الحكم على غيره من الأدب العام وأهم هذه الأسس :

١ ـ الانتماء إلى بيئة الحضارة الإسلامية التي يستجيب لها كل جديد يتلاءم مع أهدافها السامية ، ويحتفظ بأصالتها المتميزة .

٢ ـ ألا تخرج ملكة الذوق الأصلية عن فطرتها المستقيمة بلا تبديل أو تغيير أو تشويه ، وأن تغتذي الملكة المكتسبة بروافد الحضارة الإسلامية المتجددة قديما وحديثا ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ ، وكما قال النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه » .

٣ ـ ترويض الملكة المكتسبة على التأمل لأسرار الجمال في الإنسان والكون والحياة ومظاهر الطبيعة ؛ لأن ذلك يثري الذوق الأدبي بمصادر الجمال المحسة وروافده الواقعية مما يعين الناقد على شحذ قدراته المختلفة وأدواته في الحكم لتحريك ملكته الفطرية وتسديد ملكته المكتسبة ، لمنحهما القدرة على تشخيص المعاني المعقولة وتجسيم المجرّدات غير المنظورة للوقوف على أسرار الجمال فيها ، كما في قوله تعالى [1] : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ .

٤ ـ إثراء الملكة المكتسبة بما انتهت إليه الدراسات الأدبية والنقدية الجديدة من الخصائص الفنية والسمات العامة للأدب الإسلامي في قيمه الخلقية والفنية للمعاني والألفاظ والأساليب والصور المستمدة من الحقيقة ، والصور المستمدة من الخيال ، والموسيقى والإيقاع والعاطفة والمشاعر والوحي ، وخصائص الأغراض في الأدب وفنونه وأجناسه القديمة والجديدة ، والسمات والمعالم ، وغير ذلك مما انتهى إليه الأدباء والنقاد في مجال الأدب الإسلامي .

٥ ـ قد يقف الناقد في الأدب الإسلامي على أسباب الجمال وأدواته التي أبدعت تنسيقه ؛ فكلما اكتشف سببا أو أداة في بنائه ازدادت متعته ، وتضاعف انبهاره ، وفي هذا يلتقي الناقد مع المبدع حين يضع نفسه موضعه ، ليتعرف على أدوات التهذيب والتصوير وأسباب الجمال فيه عند المبدع في نصه ، وذلك في معظم الشعر الذي ذكرناه ، وقد لا يقف الناقد على أسباب الجمال وأدوات المتعة الفنية ، مهما تمثل الناقد شخصية المبدع ، ومهما بالغ في ذلك فلن يظهر ذلك إلا بتأثيره في نفسه والانبهار به ، ويمتلأ قلبه بالحسن ، وتتغشاه السكينة ، وتهتز عاطفته وتتحرك مشاعره ، وهو ما انتهى إليه النقاد من الفرق بين الجمال والمتعة وبين الحلاوة والجلال ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ۝ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن

---

(١) النحل : آيات من ٧ إلى ١٨ .

يضلل الله فما له من هاد ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما ﴾ (٢) .

٦ ـ ينبني ذوق الناقد للأدب الإسلامي على المردود الإيجابي ، الذي يعطي ولا يمنع ، ويصلح ولا يفسد ، ويبني ولا يهدم ، ويسمو ولا يسفل ويهبط ، فكل عمل أدبي أو فني يضع لبنة جديدة في بناء الحضارة الإسلامية ، ويشكل فيها بعدا ؛ ليزداد المسلمون قوة ويتميزوا عن غيرهم عزة ومجداً ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ ، وقول النبي ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

٧ ـ الذوق في الأدب الإسلامي يفرق بين اللذة والمتعة ، وبين الفن الذي يصور الجمال والجلال والحلاوة النابعة منه ؛ فتظل آثاره ومعالمه وأسبابه عالقة بالنفس ، بينما المتعة واللذة لا تبقى طويلا ، لأنها عارضة ووقتية وتأثرية كرد الفعل ، لا يبقى منها أثر ولا قيمة بعد الغروب عن النص الأدبي أو مفارقته مثل الشجرة الخبيثة ، تمتع بمنظرها العائم بلا جذور ، وتلذ بشكلها الظاهر بلا ثمار أو ظل ؛ فلا تلبث سريعا أن تجتث وتسقط ، بينما الجمال والجلال والحلاوة كالشجرة الطيبة الثابتة الظليلة المثمرة مصداقا لقوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ۝ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ ، ثم يظهر الفرق بينهما في نهاية الآيات : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (٣) .

معالم النقد في الأدب الإسلامي

من خلال الحديث عن التنظير في الأدب الإسلامي والتطبيق على معالمه تكاملت له السمات والمعالم ؛ فأصبحت له شخصيته المتميزة في مفهومه

---

(١) الزمر : ٣٢ ، ٣٣ . (٢) الفتح : ٤ .

(٣) إبراهيم : ٢٤ - ٢٧ .

وحقيقته ، واتضحت عناصر النص الأدبي ومعالمه الخلقية والفنية ، وخصائص موضوعاته وأغراضه وفنونه وأجناسه الأدبية ودور الناقد في اختيار النصوص وتحليلها ونقدها ؛ لتحديد مواطن الجمال في تصويرها الأدبي والفني .

لذلك كان من الضروري أن نخص الحديث هنا عن معالم النقد الذي يتخذها الناقد في نقد الأدب الإسلامي ، بعد إجراء التجارب الأدبية والنقدية على نصوصه في الشعر والنثر الفني ؛ ليكون من اليسير عليه عملية التنظير في النقد تبعا للتنظير في الأدب الإسلامي .

وعلى ذلك ينبغي على الناقد الأدبي رعاية المعالم النقدية ، التي ظهرت من خلال التحليل والدراسة والنقد في التجارب التطبيقية السابقة في الأدب الإسلامي ، وأهم هذه المعالم :

أولا : رعاية حقيقة الأدب الإسلامي ومفهومه ، التي اصطلح عليه النقاد في ذلك ، فقد اجتمعت له من السمات الفنية في قيمة ما يحيا بها التصوير الأدبي القوي والمؤثر ؛ لثرائه بأسمى عناصر الفن الأدبي .

ثانيا : لتحديد أسرار الجمال في الأدب الإسلامي لا بد من استخدام مقاييس الذوق الأدبي بمعالمه وسماته وعناصره في التركيب وروافده المتنوعة على النحو الذي وضحناه .

ثالثا : أن يعقد الصلة بين النص الأدبي ومصادره الأولى ، وأثرها في بنيته الخلقية والفنية ، ومواطن تأثره والتأثير فيه ودرجته ومواطن التقليد والتجديد والأصالة والعراقة والمعاصرة ، ومظاهر الابداع ، وما أضافه النص في بناء الحضارة الإسلامية على النحو الذي وضحناه .

رابعا : يوضح الناقد أسرار الجمال في السمات الفنية للقيم الخلقية في المضمون والمعاني والأفكار والموضوعات والعاطفة والتجربة والوحدة ، وأسرار الجمال في الخصائص للقيم الفنية في الألفاظ والأساليب والصورة المستمدة من الخيال والموسيقى الخارجية والداخلية والإيقاع والموسيقى الخفية والوحي وغيرها من روافد التصوير الأدبي ، وكذلك أسرار الجمال في عناصر التصوير الأدبي من اللون والحركة والصوت والحجم والشكل والطعم والرائحة وبيان درجة الجودة والتقصير في أدائها .

خامسا : توضيح الخصائص الفنية للأغراض في الأدب الإسلامي القديمة ، والتي اتخذت شكلا جديدا ، والأغراض الجديدة ، والمبتكرة والأغراض المستقبلية التي ينشدها الناقد كالأناشيد وأدب الأطفال وغيرها ومقدرة الشاعر في الإبداع فيها وإجادتها أو بيان التقصير في ذلك .

سادسا : توضيح فنون الأدب الإسلامي وأنواعه وأقسامه وخصائصه الفنية والتمييز بين الفنون القديمة والمستجدة والجديدة والمبتكرة ومفهومها وتركيبها وبنائها الفني وعناصرها وشروطها ومواطن الجودة والتقصير .

سابعا : أن يوضح الناقد أهداف الأدب الإسلامي ، وقدرة الشاعر على التوفيق في تحقيقها أو التقصير في أدائها ، وأهم هذه الأهداف :

١ - تبصير المتلقي بالهداية والرشاد والحق والصراط المستقيم وتحذيره من الزيغ والضلال وطريق الغواية والفساد والانحراف على نحو ما جاء في المصادر الأولى للأدب كما في قوله تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ، وكما في الحديث : « قل آمنت بالله ثم استقم » ، وغير ذلك .

٢ - يهدف الأدب الإسلامي إلى فعل الخير ، ومحبة أدائه والتنافس فيه وأثره في بناء المجتمع واستقراره ، وشيوع الأمن والرخاء ، كما أنه ينفر من الشر والقبيح لما له من أثر سيء ، وما يتركه من عواقب وخيمة على المجتمع .

٣ - يرغب في التخلق بمكارم الأخلاق والتحلي بالفضائل والمحاسن وينفر من الرذيلة والصفات الذميمة وأثر ذلك في تقدم المجتمع أو تخلفه .

٤ - تربية الشعور بالمشاركة الوجدانية والعاطفية وتنمية الذوق الجمالي في النفس والحس الراقي المتحضر في القول والسلوك والتعامل مع الإنسان وما في الكون والحياة .

ثامنا : أن يوضح الناقد السمات العامة في الأدب الإسلامي ، ودرجة التوفيق أو الإخفاق والتقصير في أدائها ، وأهم هذه السمات [1] :

---

(١) انظر خصائص التصور الإسلامي : سيد قطب .

١ - **الربانية** : وهي تصور اعتقادي عن طريق الوحي ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ (١) ، ولا يستمد من الفكر البشري أو من خياله أو من الأساطير أو من الفلسفة ، بل يقتصر الفكر البشري على مجرد التلقي والإدراك والتصديق والسلوك والتطبيق ، قال تعالى : ﴿ وإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول ﴾ ، ولا يقتصر التصور الإسلامي على الفكر البشري وحده ؛ بل يشمل كيان الإنسان بما يحمل من عاطفة ومشاعر وحس وتذوق وغيرها مما يشكل كينونته البشرية ، وبالتصور الإسلامي لأدبه يلبي الفطرة الإنسانية بطاقاتها التي أبدعها الله فيه ، وقدراتها الخلقية التي شكلت بشريته ؛ ليدرك بها قوانين المادة ، ونواميس الكون ؛ فيحسن خلافته فيما هيأه الله له من مخلوقات سخرها لبقائه واستمرار حياته وعمارة الكون ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، حتى تكون له زادا ووقاية له في الآخرة ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ ، وغير ذلك من أهداف التصور الرباني وقيمه لتحقيق الغاية الكبرى مصداقا لقوله تعالى : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ ، والربانية والوحدانية هما الخاصتان الأساسيتان اللتان تنبثق منها الخصائص الأخرى في الأدب الإسلامي .

والتزام الأدب الإسلامي بالربوبية يمنحه السمو والخلود ، ويرفع عنه صفات الوثنية وغيرها من صفات النقص .

٢ - **الثبات** : في الفطرة الإنسانية ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ ، فالإنسانية ثابتة في العبد ؛ فمهما تحركت أو تطورت يكون ذلك داخل إطار مقومات الإنسانية وقيمها ؛ فتظل ثابتة في الدائرة المأمونة لصيانة النفس من الزيغ والفساد والضلال : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ ، وعلى ذلك فمقومات الثبات للنفس في التصور الإسلامي مطلقا ، لا تخرج عن أمرين الحق والباطل ، أو النور والظلام ، أو الهدى والضلال ، قال تعالى : ﴿ فماذا بعد الحق

---

(١) الشورى : ٥٢ .

إلا الضلال ﴾ ، و﴿ هل يستوي الظلمات والنور ﴾ .

وعلى ذلك فمسيرة الأدب الإسلامي على هذا النهج يمنحه صفة الثبات والاستقرار ؛ فلا يخضع للصراعات والتيارات والمذاهب التي تغيره وتخرجه عن الثبات إلى الزوال كما حدث في المذهب الشيوعي الماركسي من التردي والانهيار ، قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

٣ ـ **الشمول** : ويرجع إلى إحاطة الله بكل شيء ، فكل ما في الكون والحياة والأحياء يرجع إلى إرادة واحدة شاملة ، قال تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ فحينما يسير الأدب على هذا النهج من الشمول والعالمية ، يحمل صفة العموم والعالمية ؛ فيتصف بصفة تميزه عن الإقليمية والمحدودية ، وضيق الأفق من رحابة الاتساع والشمول والعالمية .

٤ ـ **التوازن** : بين مصادر المعرفة ؛ فالتصور الإسلامي لأدبه يقوم على التوازن بين الوحي ونصوصه من القرآن والسنة ، وبين الكون والحياة ؛ فلا يهمل مصدرا من مصادر المعرفة ، بل يضع كلا في مكانه الذي يستحقه ، فالوحي هو المصدر الأعلى ، لأنه هو المصدر الصادق ، لا يلغي دور العقل حين يأخذ مجاله في الكون والحياة على أساس الفطرة المستقيمة ؛ فبينهما من التوازن والتناسق ما يعطي لكل منهما دوره في حياة الآخر ؛ فيجعل له السلطان على المادة يسخرها ويبدع فيها ، فإذا صورها الأدب الإسلامي على هذا النحو ، منحته صفة الخلود والسمو ، قال تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السموات والأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ ؛ لذلك فشلت الآداب الأخرى حين اعتمدت على مصدر واحد فقط وأهملت الآخر بلا توازن أو تنسيق ، فحينما ألّهت الوحي وحده سقطت ، ثم العقل سقطت ، ثم الطبيعة سقطت .. وهكذا .

٥ ـ **الإيجابية** : والتصور الإسلامي في أدبه لاستخلاف الإنسان على الأرض ، يقتضي منه حركة وعملا ، وبناء للحياة ، وتقدما للوجود من حوله ، مما يعد شكرا لله على نعمة وجوده ، ونعمة استخلافه ؛ لذلك يكون دوره إيجابيا في خلافة الأرض ، فيدفع الفساد في تطبيق منهج الله ، قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا إن الله مع المحسنين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا

فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ ، وهذا يضفي على الأدب الإسلامي الخلود والسمو ، بينما المذاهب الأدبية الأخرى اتخذت الجانب السلبي دون الإيجابي ، لذلك سقطت الكلاسيكية لأنها أهملت العامة ، وسقطت الرومانتيكية لأنها أهملت الواقع والجماعة وألهت الذات ، وهكذا .

٦ - **الواقعية** : فالإسلام دين العمل والإنتاج ، ودين الواقع والحياة ودين الحركة والنماء ، تطابقت تكاليفه للإنسان مع فطرته التي تسخر طاقاته لما خلقت من أجله ، حتى يتمكن من السيطرة على الأرض المستخلف عليها ليرتقي بالحياة عن طريق العمل والحركة والبناء ؛ فيصورها ، ويبدع فيها ، ويعمر مجاليها ، فهذه هي الغاية من الأدب الإسلامي ؛ فهو يحث الإنسان على أن يعيش واقعه ، ويرقى بأمته الإسلامية ؛ لتكون أقوى الأمم ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ، وأعز الشعوب ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ، وذلك بمواصلة العمل والانتاج ، ومواجهة المشاكل وتذليل الصعاب ، قال تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ وقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ .

٧ - **التوحيد** : هو أساس التصور الإسلامي لأدبه ؛ لأنه هو الحقيقة المطلقة ، وإسلام الوجه لله وحده ، واتباع منهجه في كل شئون الحياة ، لأنه سبحانه منفرد بالألوهية ، وما عداه يتصف بالعبودية ، والناس كلهم في العبودية سواء والعلاقة بينهما هي علاقة الخالق بالمخلوق ؛ فالبون بينهما شاسع والفرق كبير يحدث حالة من الانضباط لا تهتز معها القيم الخلقية ، ولا تختلط فيها الصور الأدبية ، فتصوير الأدب الإسلامي للحقيقة الخالقة لا تختلط أو تتساوى مع تصويره للحقيقة البشرية المخلوقة ، قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل الله ﴾ بينما المذاهب الأخرى غير الأدب الإسلامي حينما خلطت بين حقيقة الخالق والمخلوق صار أدبها اتحاد وحلولا أو وجودية ، أو الحادية ، أو علمانية ، أو بهيمية جنسية ، وما أشبه ذلك .

الأدب الإسلامي والمذاهب الأدبية

مرّ الأدب العربي حتى العصر الحديث قبل الإسلام وبعده باتجاهات ومذاهب سواء انطلقت من واقعه الخالص ، أو كان متأثرا بالوافد عليه ؛ لكنه لم يقطع صلته بواقعيته وأصالته ، وبيئته ومجتمعه ؛ فاتخذ الأدب في العصر الجاهلي اتجاهات ومذاهب ؛ فكانت مدرسة الطبع في شعر امرئ القيس وأضرابه ومذهب الصنعة والتهذيب في حوليات زهير بن أبي سلمى ونظائره ، ومدرسة الشعراء الصعاليك ، ومدرسة الشعراء الفرسان ، وغيرها .

ولما غيّر الإسلام وجه التاريخ ، وحوله تحولا جوهريا كبيرا ، وبعد انفتاحه على الثقافات الأخرى كالفارسية والإغريقية والرومية ، نشأت مدارس جديدة في ظلال الأدب الإسلامي مثل مدرسة العذريين ، ومدرسة المحافظين أو اللغويين ، ومدرسة المحدثين المولدين ، وغيرها ، حتى كان العصر الحديث فاتسع الأدب للتيارات والمذاهب الأدبية الغربية ، فتأثر الأدباء والنقاد بها فاتخذت الحياة الأدبية عندهم اتجاهات ، استجابت للجوانب الإنسانية في المذاهب الوافدة مما يتفق مع أصالة الأدب العربي ونقده ، معرضا عن المصطلحات الغربي من « كلاسيكية ورومانسية وسيريالية » وغيرها غالبا ، فشكلت مدارس من واقعه العربي الإسلامي منها مدرسة التقليد ، ومدرسة المحافظين ، ومدرسة التجديد المحافظ ، ومدرسة الديوان ، ومدرسة المهجر ، ومدرسة أبولو ، وشعر التفعيلة ، والشعر الحر وغيرها ، ومنهم من ردد مصطلحات الغرب في مدارسهم فأطلقوا على الأدب العربي المعاصر « الكلاسيكية » و« الرومانسية » وغيرها .

وموقف الأدب الإسلامي في كل العصور الأدبية منذ أنعم الله عز وجل على البشرية بنعمة الإسلام استقبل كل هذه التيارات والاتجاهات والمدارس في كل عصر محافظا على منهجه وجوهره وحقيقته ؛ فينفي خبثها ، ويتجاوب مع ما يتفق وطبعته ؛ ويتسع له الأدب الإسلامي ، ويتخذ منه موقعا ، لا تتعارض مع أصالته وطبيعته وما تقتضيه الظروف والأحوال المعاصرة ، ليزداد شمولا وثباتا ويكون أكثر واقعية وإيجابية ، وأسرع طواعية في التوازن بين المذاهب المختلفة ليظل هو الأدب الإسلامي الذي يحتفظ بشخصيته ويتميز عن غيره في كل عصر فقد وجدناه عند كل الأدباء والشعراء منذ صدر الإسلام إلى اليوم ، وغدا في

المستقبل إن شاء الله تعالى ، لأنه يأخذ من الوافد عليه ما يحتاجه العصر ، وما تقتضيه الأمة الإسلامية في ظلال منهجه وطبيعته وسماته الخلقية والفنية ، ويرد ما عداه مما يتنافى مع ذلك ؛ فيتسع للطيب ، وينفي الخبيث ويستجيب لما فيه الخير والحق ، ويتصدى للشر والباطل ، ويعشق الجمال والحسن ، وينفر من القبيح السيء ، لأن الله جميل يحب الجمال ، وطيب لا يقبل إلا الطيب ، ونذكّر بالآيات في سورة الرعد التي جعلت الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة .

لذلك اتسع الأدب الإسلامي لكل المذاهب الأدبية في القديم والحديث على أساس المنهج السابق ، فأقرّ معظم الأغراض الأدبية ، وألقى بسماته على بعضها فهذبها ، وقبل الجديد والمبتكر منها بما يتفق مع منهجه ، وأعرض عما لا يتفق معه في قيمه الخلقية والفنية كما اتضح من خلال عرض النماذج الأدبية في الجانب التطبيقي ، وما سيتضح أكثر في مناقشة موقف الأدب الإسلامي من المذاهب الأدبية الحديثة .

بين الأدب الإسلامي والمذهب " الكلاسيكي " :

وأقرب تفسير للمذهب « الكلاسيكي » عند الغرب هو محاكاة الأقدمين وتقليدهم في آثارهم الإغريقية والرومانية واحتذائها ، والسير على نهجها ومنوالها في شغف شديد وتمجيد وتقديس كامل ، مع أنه يبالغ في تصوير الحقيقة والواقع إلى درجة الكمال المجرد لا الواقعي ، حتى صار أدبه هو أدب الخاصة ومذهبها « الارستقراطية » ، لا العامة والواقع ، لأنه يقدس القواعد والعادات والتقاليد ويمجد العقل المقيد بها ، لهذه الثوابت سقط هذا المذهب عندهم (١) ، لأن الأدب الإسلامي يحاول في كل عصر تصوير الحقيقة البشرية لا الحقيقة الإلهية من غير مبالغة ، وهي تختلف في صورها من عصر إلى عصر حسب المتغيرات المختلفة ويصور الواقع كما هو ، ينشد منه الكمال بلا غلو أو إغراق منطلقا من قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق

---

(١) انظر النقد الأدبي الحديث والأدب المقارن ، والرومانتيكية : د. محمد غنيمي هلال ، وغيرها .

السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ ، وموقف الرسول من لحن المتقاضى إليه ومبالغته للحصول على غير حقه ، كان الحكم والجزاء جهنم ، لأنه لم يكشف عن الحقيقة والواقع ، بل بالغ فيهما ، فوصفه بقوله : لعل أحدكم يكون ألحن من أخيه فأقضي له فإنما اقتطع له قطعة من جهنم .

وسقطت « الكلاسيكية » لأنها كانت أدب الخاصة « الطبقة الارستقراطية » بينما الأدب الإسلامي أدب الإنسانية كلها ، لا يتحيز لطبقة دون أخرى ، لقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقول الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم .. إلخ » وقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، وفي حديث سفينة المجمع يقول ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر ، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ؛ فقال الذين في أعلاها لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا ، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ؛ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » رواه أحمد والبخاري والترمذي والبيهقي .

وسقطت « الكلاسيكية » لأنها التقليد الأعمى ، وحصار العقل بالتقاليد والعادات القديمة ، وتقديسها وتمجيدها ، فقال « برويير » : « كل شيء قد قيل وقد أتينا بعد فوات الأوان منذ ما يزيد عن سبعة آلاف سنة » [1] ، وهو متفق مع المقولة العربية الشائعة غير الصحيحة أيضا : لم يدع الأول للآخر شيئا ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ؛ لأن التقليد الأعمى في الإسلام مذموم وفي أدبه مرفوض فقد حذر منه القرآن في آيات كثيرة : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴿١٦٦﴾ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من

---

(١) الأدب المقارن : د. هلال ص ٣٤ .

النار ﴾ (١) ، وفي غيرها من الآيات في سورة غافر (٤٧ ، ٤٨) ، والمائدة (١٠٤) ، وسبأ (٣١ - ٣٣) ، والنحل (٢٣ - ٢٥) وغيرها ، وحذر منه الحديث الشريف : « لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » (٢) ، وقوله ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » (٣) ، وغيره .

وأما دور العقل في الإسلام وأدبه ليس مقدسا كما في مذهبهم ، لأنه مخلوق له قدراته المحدودة ؛ فهو يميز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، في ظلال شريعة خالق العقل ومبدعه ، وآيات النظر والتأمل والتفكير والتعقل كثيرة في القرآن الكريم : « لآيات لأولي الألباب - أفلا تعقلون - لقوم يعقلون - لعلكم تعقلون - لقوم يتفكرون » ، وفي الآثار الشريفة : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الخالق ، فإنكم لن تقدروه قدره » ، وحديث معاذ بن جبل حين ارسله الرسول ﷺ واليا على اليمن مشهور ، فحمد الله تعالى وأثنى على معاذ حين حكّم العقل فيما لم يرد فيه نص من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، هذا هو دور الأدب الإسلامي يسير على منهج الإسلام في التعامل مع الواقع والناس جميعا ، ويرفض الجمود والتقليد والأعمى ، ويحيا مع العقل المتقدم والمتجدد في كل عصر في إطاره البشري والواقعي تسدد خطاه سنن التشريع والكون والحياة .

موقف الأدب الإسلامي من المذهب " الرومنتيكي " :

لهذا ثار المذهب « الرومانسي » على « الكلاسيكية » وأسقطها ؛ ليقيم مذهبه على أنقاضها فكانت له مبادئه ، اتخذ الأدب الإسلامي منه موقفا كذلك لكنه بشكل آخر ؛ فأهم مبادئها هدم ما استقر في المجتمع من تقاليد وعادات والطبقية ، ثم انتصر للفردية والذاتية المظلومة ولمصالحها لإنصاف الطبقة الوسطى ثائرا على الطبقات العليا والمجتمع كله ، ثم بالغ في الاهتمام بالقلب والعاطفة

---

(١) البقرة : ١٦٦ - ١٦٧ . (٢) صحيح الترمذي ٦/١٢٣ .

(٣) صحيح مسلم ٤/٥٩ .

والخيال ، وثار جاحداً للعقل والحقيقة ، ثم جعل الغاية من الأدب الجمال حتى في تصوير الشر والقبيح .

وترتبت على هذه المبادئ سمات أدبية كالتحرر والثورة المطلقة وتمجيد الذات ، والتغني بالحزن والألم والتشاؤم ، والسلبية والعزلة والانطوائية لا الإيجابية ولا النزول إلى الحياة والواقع ، ثم الاعتداد بالعاطفة وحدها وبالخيال وحده وإهمال العقل والحقيقة والاعتداد بالذاتية الفردية والأنانية وحدها محطما علاقته بالمجتمع وقضاياه .

لذلك كان للأدب الإسلامي موقفه المعارض لكثير من هذه المبادئ ، فقد عارض التحرر المطلق ، بل يجب أن يسير في سياج العقل المستنير بنور القرآن والسنة كما اتضح من خلال الآيات والأحاديث السابقة ، لذلك حبس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ الحطيئة ؛ لأنه بالغ في هجاء الزبرقان بن بدر ، وتحرر من قيمه الخلقية ، حتى قال حسان بن ثابت ﷺ : « إنه بالغ حتى سلح عليه » واشترى الخليفة منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم [١] .

ورفض الأدب الإسلامي المبالغة في التغني بالألم والحزن والتشاؤم ، فقد حذر القرآن الكريم من اليأس والقنوط : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [٢] بل يحث على الرجاء : ﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجعون ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [٤] ، بل يجمع بين العسر واليسر وينتهي الأمر باليسر والفرج : ﴿ فإن بعد العسر يسرا ۝ إن بعد العسر يسرا ﴾ [٥] وغيرها من الآيات ، ويحد الحديث من المبالغة في الحزن مقتصرا على مواجهته أثناء الموقف بالدمعة أو الكلمة التي ترضي الله تعالى ، فيقول ﷺ في فراق ابنه إبراهيم : « إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا » ، وقال للمرأة حين أسرفت في الجزع

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣٢٨ . (٢) يوسف : ٨٧ .
(٣) النساء : ١٠٤ . (٤) آل عمران : ١٣٩ .
(٥) الانشراح : ٥، ٦ .

والحزن وبالغت : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » ، فهو يحذر من المبالغة في الحزن لا من وجوده ، وكذلك ينفر الإسلام من الطيرة والتشاؤم ويرغب في الفأل الحسن وغير ذلك والأدلة كثيرة .

ويرفض الأدب الإسلامي العزلة والسلبية والانطوائية وينفر منها ، ويحث على التآخي والتعاون والمشاركة الإيجابية بالنفس والمال والوجدان والعاطفة فالأديب يعبر عن ذلك في أدبه الإسلامي كما سبق في الجانب التطبيقي من النماذج الأدبية ، وهو ما حث عليه الإسلام في فنونه الأدبية في الآيات والأحاديث التي سبقت ، وهي كثيرة نذكر منها : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ... ﴾ ، وفي الحديث : « خير الناس أنفعهم للناس » ، ومن تعلقت به حوائج الناس وغير ذلك كثير .

ورفض الإسلام في أدبه الاعتداد بالعاطفة وحدها ؛ فالمبالغة فيها والجمود مرفوض ، بل نظمها الإسلام في فنونه الأدبية ؛ فهي سامية إذا كانت ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، ولم تصل المبالغة إلى حد الهلاك ، قال تعالى : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ (١) ، والمراد المبالغة في بذل النفس وما حوت من المبالغة في العقل والعاطفة والقلب ، والمبالغة في المال بأنواعه بالإسراف فيه والتقتير وغيرها ، وقال تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (٢) ، وقول النبي ﷺ : « ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه » ، وأن القلب غير العاطفة في الأدب الإسلامي ، فهي تنطلق من القلب ومن غيره في النفس ، لكن القلب ينظمها مصداقا لقول النبي ﷺ : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » وغيره من الأحاديث الكثيرة .

ورفض الأدب الإسلامي الاعتداد بالخيال وحده وإسراف المبالغة فيه ، فلا يستغني به عن العقل كما عند « الرومانسية » ، لأن لكل من العاطفة والعقل والخيال دوره في الأدب لا يستغني أحدها عن الآخر ، كما وضحناه قبل ذلك بالتفصيل في مكانه ؛ فقد حذر القرآن منه في آيات الشعراء ، ووصفه بالغواية

---

(١) البقرة : ١٩٥ . (٢) القصص : ٥٠ .

والتطرف والهيمان والهلاك : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ ، فحذر من المستثنى منه ، ورغب بعد ذلك في نقيضه وهو المستثنى ، لأنه لا يحمل معنى المبالغة والغلو في الخيال ، فقال تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ﴾ وغيرها .

ورفض الأدب الإسلامي الاعتداد بالفردية وحدها وكذلك المبالغة في الذاتية والانطواء والسلبية والأنانية ، فلم يهمل الفردية والذاتية قاطبة ، بل اعتد بها ونظمها في إطار مستنير بما يجب عليها ، وما يلزم لها من حقوق ، وما يجب للمجتمع حولها ، بل وصفها بالطغيان والجبروت ، فقال تعالى : ﴿ الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥) كلا إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧) ﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى (٤٣) فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٤) قالوا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [2] ، والآيات : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ [3] ، وآيات حاطب بن ثعلبة في طغيانه وأنانيته في سورة التوبة ، فهي تنفر من الأنانية والذاتية المطلقة لا المقيدة بإخراج الصدقات والزكوات من آية (٧٥ - ٨٠) ، وأحاديث الطغيان والذاتية مثل حديث : « الملك والغلام والساحر وأصحاب الأخدود » وغيرها .

موقف الأدب الإسلامي من المذهب الواقعي :

وهو مذهب جديد قام على أنقاض « الرومانسية » الحالمة ، يستمد موضوعاته من الواقع ، يكشف عن مظاهر الشر والقبح فيه ، وهي دون الخير يحاربها ويناضل في التنفير منها ، ومن أهم مبادئها الدعوة إلى تصوير الواقع كما هو لا كما ينبغي أن يكون ، والاهتمام بالموضوعية لا الذاتية الانطوائية والأنانية ثم تصوير الجزئيات التي تؤدي إلى الكليات الشريرة والقبيحة فهي الجوهر ويقتصر الخير عندهم على قشرة زائفة ، ثم عدم الاهتمام بالأسلوب والشكل

---

(١) العلق : ٤ - ٧ . (٢) طه : ٤٣ - ٤٦ .
(٣) القصص : ٧٦ - ٨٦ .

الفني اعتمادا على النقل الأمين للواقع كما هو ، لا كما ينبغي أن يكون .

وتنوعت الواقعية إلى « العلمية » ورائدها « هيبوليت تين » ، وتقوم على التحليل العلمي للنفس القائم على الملاحظة ، وإلى « الطبيعية » ورائدها « أميل زولا » وتقوم على التجريب العلمي ، الذي لا يكتفي بالملاحظة ، بل لا بد من التجريب للوصول إلى غاية نؤيدها بالنظريات العلمية ، فالقصة عندهم كالبحث العلمي لها نتائجها العلمية ، دون تصريح بالغاية والنفع ، حتى لا يتحول الفن إلى وعظ وبرهان علمي ، والواقعية « الاجتماعية » ورائدها « بلزاك » وتقوم على تصوير الوسط الاجتماعي المعقد بمشاكله المتناقضة ، وأطلق النقاد على الثلاثة السابقة الواقعية « النقدية » لتقابل الواقعية الاشتراكية الماركسية : فهي تلزم الكاتب بتصوير الشرور والقبائح للتخلص منها ، فالأدب عندهم جندي مسخر لخدمة طبقة حزبية في المجتمع وهي : « البروليتاريا » ، وتمثل منبرا لإذاعة الأفكار الشيوعية للحزب الشيوعي اللينيني معارضا « البرجوازية » ، ويعد « كوفسكي » شاعر ثورتها وصاحب دعوة الالتزام في الأدب الماركسي الشيوعي [1] .

ويرفض الأدب الإسلامي بعض مبادئها وسماتها ، فإن اتفق معها بضرورة الغاية والهدف من الأدب في تصوير الحياة كما هي ، لكن يجب أن يكون كما ينبغي ، فلا يقتصر الأدب على نقل القبيح والشر فحسب كما عندهم حينما يعتمدون على النظرة التشاؤمية القائمة التي لا تبعث على الأمل ولا تبشر بالخير والتفاؤل ، لكن الإسلام يحث في أدبه على تصوير الخير والشر معا : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [2] ، لأن الشيطان أعلن عجزه عن غواية الصالحين ، فقال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [3] وقوله تعالى : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [4] فالصراع بين الشر والخير والحق والباطل قائم ، يرد دعوى التفاؤل التام والتشاؤم المطبق .

والواقعية الاشتراكية تنكر وجود الله والدين والرسل ، ويعارض الأدب

---

(١) انظر الأدب المقارن : د. غنيمي ، الواقعية واتجاهاتها : د. رشيدة مهران ، وغيره .
(٢) الأنبياء : ٣٥ .   (٣) الحجر : ٤٢ .
(٤) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ .

الإسلامي ذلك كله ، بل ينكر اتجاههم الإلحادي والعلماني ، كما ينكر الأدب الإسلامي الإلزام الشيوعي في تحقيق المبادئ الاشتراكية لمصلحة الطبقة الحاكمة وهو مختلف عن الالتزام الإسلامي ، الذي يمنح الأديب الحرية في إطار قيمه الخلقية والفنية .

موقف الأدب الإسلامي من المذهب الرمزي :

وهو مذهب يقوم على مجموعة طلاسم وألغاز للإفصاح عن العواطف المكبوتة بالإيحاء والرمز والتلميح ، لا بالكشف والتصريح ، فالرمز عندهم يصور الغيبيات الباطنية للنفس وعالم اللاوعي ؛ لذلك اهتموا بالصورة الأدبية ، التي تسبح في جو من الغموض إلى حد الإلغاز ، واستعانوا في ذلك بجرس الألفاظ وإيقاع الموسيقى وأنغامها متحررين من الأوزان التقليدية المتوارثة ، غير ملتزمين بها ؛ فدعوا إلى الشعر الحر والمرسل ، وتنوع الموسيقى ، واعتمدوا على الألفاظ الموحية بالجو النفسي ، وتقريب الصفات ، وتراسل الحواس ، وتبادلها ، وغير ذلك مما يعجز عن تصويره المعنى الوضعي للفظ (١) .

وموقف الإسلام في أدبه من الرمزية ، يقوم على أسس محددة لا تجعل منه ألغازا وطلاسما معقودة ، فقد استخدم الرمز الذي يوحي بالمعنى بلا زيف أو تضليل ، فقال تعالى : ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون بالمساجد ﴾ ، و﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ ، و﴿ أو لامستم النساء ﴾ ، وغيرها من ألوان الكناية والتورية كما فعل الرسول ﷺ بقوله : « ما بال أقوال يفعلون كذا وكذا » .

والقرآن الكريم مدح البيان لا التعتيم ولا الطلاسم : ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ ، والبيان يختلف عن التفاهة والتدني في التعبير ، ويتفق مع الدقة والعمق واللطف ، وكلها تحتاج إلى تأمل ينتهي بالسمو والوضوح لا بالغموض والتيه والألغاز والطلاسم .

أما الاهتمام بتجارب العقل الباطن والغوص في غيبيات أعماق النفس التي تعجز الألفاظ عن كشفها ، فهي دعوة باطلة ، لأنها تتصل بعلم الغيب

---

(١) الأدب المقارن : د. غنيمي هلال ، وغيره .

ويختص به الله تعالى : ﴿ فلا يعلم الغيب إلا الله ﴾ ، و﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ (١) ، فكيف تكشف الألغاز تجارب العقل الباطن ، وهو أمر غيبي عما تضمره النفس ، بينما يعجز البيان باللغة عن كشفها ، فهذا تناقض واضح فالأنبياء يعجزون عنه مع أنهم ملهمون ، قال تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ (٢) ، بل نهى الإسلام عن الرجم بالغيب قولا وفعلا : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ (٣) .

موقف الأدب الإسلامي من المذهب الوجودي :

وهو مذهب فلسفي ظهر في القرن العشرين ، يقوم على أساس فلسفي موضوعه وجود الإنسان في الواقع الاجتماعي المحسوس نتيجة لطغيان المادية والقلق النفسي والصراعات ، لغياب العقيدة ، وانهيار القيم ، وأشهر روادها « جان بول سارتر » المولود ١٩٠٥ (٤) ، الذي نادى بالوجودية الإلحادية ، وتقوم على أن الوجود يسبق الماهية : أي أن الفكر يسبق الوجود الحقيقي للإنسان ، متمثلا في تفكيره ، فالفكر أسبق في الوجود من الذات ، وعلى ذلك فهو ينكر ماهية الإنسان ، لأنه لا وجود له خارج التفكير ، ويترتب على ذلك إنكار أبي البشر آدم عليه السلام ، وينكر أسبقية النطفة على الفكر ، وهي أصل الإنسان والفكر معا ، وهذا يؤدي عندهم إلى إنكار وجود الله تعالى عما يصفون إن يقولون إلا كذبا ، وتبعا لذلك ينكرون الدين والرسل والقيم الخلقية ، فحرية الإنسان مطلقة في تفكيره وعمله ، لا تخضع لقانون ، ومن أهم سماتها التزام الأديب في عمله الأدبي بالواقع الاجتماعي بالضرورة ؛ فهو مسئول عن كل شيء يقع في مجتمعه انتصارا أو هزيمة ، ربحا أو خسارة ؛ فتخضع هذه المسئولية لحريته الشخصية المطلقة غير المقيدة بمبدأ أو قانون أو لغة أو أسلوب ؛ فهو متحرر من قيود الفن والنقد والقيم .

وهذا يتعارض مع الأدب الإسلامي الذي لا ينكر وجود الله ولا الإيمان به ولا برسله ، فلا يخضع لهوى الفرد وميوله عندهم حين يرى الحق والخير باطلا

---

(١) الجن : ٢٦ ، ٢٧ . (٢) الأعراف : ١٨٨ .
(٣) الكهف : ٢٢ . (٤) ما الأدب : سارتر .

وشرا ، ولا تتناقض الحرية مع المسئولية والالتزام في الأدب الإسلامي ، فكيف يكون الإنسان مسئولا وملتزما وهو حر مطلق غير مقيد بشيء في الوجودية ، بينما حرية الإنسان في الأدب الإسلامي مقيدة بقيم الدين التي لا تلغيها ، وإنما تسدد خطاها وتنظمها لأجل صاحبها وللمجتمع من حوله ، مصداقا لقول الرسول ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

والالتزام في الوجودية يتعارض مع الشعر ، ولا يكون إلا في النثر الأدبي في القصة والمسرحية ، بينما يكون موجودا في شعر الأدب الإسلامي مع النثر في جميع فنونه سواء بسواء .

وهذه المذاهب الأدبية كما رأينا كانت حصاد بيئة غير بيئتنا ، وعقائد فاسدة غير عقيدتنا الصحيحة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ولكل الأجيال لها عاداتها وثقافاتها المختلفة ، فلم يغلق الأدب الإسلامي أبوابه أمام مدها الزاحف فاستقبلها وتجاوب معها في بعض القيم الخلقية والفنية ، التي تناثرت هنا وهناك مما يتفق مع قيمها الخلقية والفنية ، وردَّ محذرا ومنفراً مما لا يتلاءم معها ولا زالت أبوابه مفتوحة لكل المذاهب والتيارات ليميز الطيب منها عن الخبيث فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، لأنه دين خالد يحمل في مقدساته ما يتصدى به متحديا كل تيار منحرف بالفطرة الإنسانية والقيم الخلقية والروحية ، فينتصر على المذاهب التي أزهقتها المادية أو الفلسفات الإلحادية والعلمانية ؛ فالأدب الإسلامي ليس ندا لمذهب من المذاهب السابقة ، ولا قائما على أنقاضها كالشأن فيها ، ولا يختص بمجتمع دون آخر ، أو بتيار سياسي أو اقتصادي ، وإنما هو أسمى من ذلك ، وأرحب أفقا ، وأكثر شمولا وعالمية ، وأخصب قيما وأهدافا وإيجابية ، وأرسخ ثباتا واستقراراً ، وأكثر طواعية لمقتضيات كل جيل وعصر ، لأنه سيظل يقوى ويسمو متدرجا سعيا وراء خلود القرآن والإسلام : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (١) .

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٥٣ .

فنون الأدب الإسلامي

فن القصيدة الشعرية :

اختص العرب من بين شعوب العالم بأكمل رسالة سماوية ، وبأفضل الرسل جميعا سيدنا محمد ﷺ ؛ لذلك أعدّ الله عز وجل هذه الأمة المختارة للتشريع الخالد ، وهيأها لتكون أهلا لهذا التميز ، ثم تكاملت الظروف والأحوال تمهيدا لنزول الوحي ، وتشريفها بالإسلام ، ومن بين هذه الإرهاصات أن العرب قد اجتمع لهم من الفضائل والأخلاق الحميدة ما أقره الإسلام ، وأضاف إليها قيما وأخلاقا وتشريعا وضحناها من قبل ، وكذلك التقارب بين لهجات القبائل في لهجة مهذبة وصلت إلى قمة الفصاحة والبلاغة ، أطلقوا عليها لهجة قريش أو لغة قريش ، كانوا يتعاملون بها في معاملاتهم المختلفة وفي أسواقهم الأدبية .

وبلاغة اللغة العربية تفاخرت العرب بفنونها بين الشعوب ، وبلغ فن الشعر منزلة عالية ، فكانت القبائل تحتفي إذا نبغ فيها شاعر ؛ لأن الشعر بمقاييسه الفنية ، التي بلغت القمة في البلاغة عندهم ، جعلته ديوان العرب ، وسجل حياتهم ؛ فاستحقت العربية أن تكون لغة المعجزة في كتاب الله المقدس ، بما تفوقوا فيها من البلاغة ، وأقر القرآن الكريم هذه اللغة بالمعارضة والتحدي ؛ فسمت بالشرف والعزة والمجد والخلود ، بما لم تحظ به لغة أخرى في العالم ؛ فكان إسلامهم وإيمانهم بمعجزة القرآن الكريم إقراراً منهم ومن أتباعهم بالفصل بين بلاغته وبلاغة القمة الفنية في شعرهم ، حين تحداهم فعجزوا عن الإتيان بآية منه ، لذلك أصبح البناء الفني للقصيدة أمراً مقرراً أجمع عليه المبدعون في لغة العرب وهم أصحابها ، وأقره القرآن والإسلام بالتحدي والمعارضة .

ولا يتعارض البناء الفني في القصيدة بالقرار السابق مع حضارة الإسلام في التجديد المستمر محتفظا بأصالة القصيدة وقيمها الفنية في الأدب الإسلامي كما سبق أن وضحنا على النحو التالي :

١ - القصيدة هي التي التزمت بالبحور والقافية على ما تواضع عليه علماء العروض والقافية في الشعر العربي لستة عشر بحرا ، وهي : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، والوافر ، والكامل ، والهزج ، والرمل ، والرجز ، والسريع ، والخفيف ، والمنسرح ، والمقتضب ، والمضارع ، والمجتث ، والمتقارب ، والمتدارك الذي أضافه

الأخفش إلى أوزان الخليل بن أحمد ، وأطلق النقاد والأدباء على القصيدة التي اتخذت بحرا من هذه البحور الشعر العمودي ، لاعتماده على البحور التي اعتمد عليها الشعر القديم .

٢ ـ التوليد في الأوزان العمودية السابقة وهي ستة ، وتكون في : المستطيل مقلوب البحر الطويل ، والممتد مقلوب بحر المديد ، والمتوافر مقلوب بحر الرمل والمتئد مقلوب بحر المجتث ، والمنسرد مقلوب بحر المضارع ، والمطرد مقلوب بحر المضارع في صورة أخرى غير السابقة ، وقد تولدت في العصر العباسي وأقرها النقاد لأصالتها في الاعتماد على الأوزان التي انتهى إليها الشعر العربي في أزهى عصوره .

٣ ـ أوزان أخرى للمولدين اشتهرت في العصر العباسي والأندلسي وهي سبعة : الزجل ، والسلسلة ، والدوبيت ، والقوما ، وكان كان ، والمواليا والموشحات .

٤ ـ المقطعات ، تعتمد القصيدة على عدة مقطعات في بحر واحد مع الاختلاف في قوافيها ، فلا تجتمع على روي واحد ، وقد تختلف كل مقطوعة في البحر العروضي مع اختلاف القافية حسب اختلاف الدفقات الشعورية والمعاني ، مثل القصيدة التي تجمع بين أوزان لأكثر من بحر واحد حديثا وتسمى « مجمع البحور » .

٥ ـ الشعر المرسل : يعتمد على بحر واحد في القصيدة مع التنوع في القافية والروي ، وهو من أشكال الموسيقى في الشعر الإسلامي الحديث .

وهذه الأشكال الخمسة الجديدة قامت على البحور العمودية في بنائها الموسيقي طرأت على البحور الخليلية مع الاحتفاظ بأصالتها العربية والإسلامية في التزامها بالموسيقى الشعرية والتجديد في أنماطها المختلفة ، واتضح ذلك من خلال النماذج التطبيقية .

٦ ـ شعر التفعيلة يعتمد على تفعيلة ووزن واحد تتكرر من غير انتظام في السطور مع القافية الموحدة غالبا ، وقد يتحرر من القافية كالشعر المرسل ، مثل « فاعلاتن » يأتي مرة في سطر ، ويتكرر في غيره مرتين أو ثلاث أو أكثر بغير انتظام حسب الدفقات الشعورية واختلاف المعاني ، وهذا الشكل أضعف أشكال

الموسيقى الشعرية في العصر الحديث وأدناها ، لا يمت إلى الموسيقى الأصيلة والقوية إلا بسبب واحد وهو اعتماده على وزن « التفعيلة » من البحور الموسيقة لكنها غير منتظمة في البحور الجديدة ، لا في أبيات القصيدة وما عدا ذلك من أشكال الشعر الحر ، لا يتناسب مع الأدب الإسلامي لتمرده الكامل على أصالة الموسيقى العربية الشعرية ، فلا يقبل منه ما ليس له وزن ولا قافية ، ولا ما يدعى بقصيدة النثر الأدبي ، فلا يضيره أن نطلق عليه نثرا فنيا أدبيا ، يتنافس فيه مع قسيمه الشعر في ساحة الفن الأدبي كما وضحنا ذلك من قبل ، ومن شعراء التفعيلة قول صلاح عبد الصبور في قصيدته « هجم التتار » الوطنية يصور فيها وحشية العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، انجلترا وفرنسا وإسرائيل يقول [١] :

هجم التتار
ورموا مدينتنا بالدمار
رجعت كتائبنا ممزقة وقد حمى النهار
الراية السوداء ، والجرحى ، وقافلة موات
والطبلة الجوفاء ، والخطو الذليل بلا التفات
وأكف جندي تدق على الخشب
لحن السغب
والبوق ينسل في النهار
والأرض حارقة كأن النار في قرص يدار
وهناك مركبة محطمة تدار على الطريق
والخيل تنظر في انكسار
العين تدمع في انكسار
والأذن يلسعها الغبار إلخ [٢] .

ويقول الشاعر نجيب الكيلاني في قصيدة « القدس » من أوزان البحر المتدارك [٣] :

---

(١) ولد في سنة ١٩٣١ ، وتخرج من آداب القاهرة ، وله « أقول لكم » و« أحلام الفارس القديم » و« الناس في بلادي » و« مأساة الحلاج » و« مسافر ليل » .
(٢) ديوان صلاح عبد الصبور : ص ١٤ . (٣) ديوان عصر الشهداء : ص ٧١ .

أشواق الروح قد اعتصرتْ
بأياد « حمر » همجية
وعروس في ليلة موعد
ذبحت في هودجها الأخضر
أفعى ذهبت خيفة
نامت في قلب الهودج
غرست ناب « الحقد الأسود »
في قلب « أميرة » موكبنا الأمجد .. إلى آخر ذلك .

فن الرسالة :

وهي لون من فنون النثر الأدبي يصور فيها الأديب غرضا من الأغراض الإنسانية ينشئها لآخر ، أو تكون إجابة عن رسالة أخرى ، وتشمل التوقيعات والرسائل الإنشائية ، والمناظرات الأدبية بين أديبين كالهمذاني والخوارزمي ، أو الرسائل الإخوانية التي تعبر عن تهنئة أو تعزية أو عتاب أو شفاعة ، أو وصية ، أو شوق ، أو شكر ، أو ملاطفة ، أو استعطاف ، أو نصيحة ، أو مدح ، أو فكاهة أو مشاعر المودة ، أو الخوالج والنزعات ، أو غير ذلك في أسلوب أدبي أخاذ وتعبير رصين ، مثل رسائل إبراهيم بن المهدي ، وأحمد بن يوسف ، والجاحظ والحسن بن وهب ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وابن حيان التوحيدي والقاضي الفاضل ، وما أشبه ذلك مما كتب عنه القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ، وجمعه أحمد زكي صفوت في كتابه « جمهرة رسائل العرب » في مختلف العصور القديمة ، ومن كتاب الرسائل في العصر الحديث حمزة فتح الله ، والإمام محمد عبده ، وعبد الخالق باشا ثروت ، وعبد الله النديم ، ومصطفى صادق الرافعي ، وحفني ناصف ، والشيخ علي الليثي ، وعائشة التيمورية ، وغيرهم .

ومن الرسائل في العصر العباسي رسالة ابن العميد إلى بلكا بن نداد بن خورشد في النصح والمصالحة بينه وبين ركن الدولة البويهي ، وقد درستها في كتابي « من الأدب العباسي .. دراسة ونقد » دراسة أدبية ونقدية ، ومنها رسالة

أحمد بن سليمان بن وهب إلى أحد أصدقائه يقول فيها [١] :

« ... وأنت الأخ الأوثق ، والولي المشفق ، والصديق الوصول والمشارك في المكروه والمحبوب ، قد عرّفني الله من صدق صفائك ، وكرم وفائك على الأحوال المتصرفة ، والأزمنة المتقلبة ما يستغرق الشكر ويستعبد الحر ... إلخ » .

وتقوم الرسائل في بنائها على مقدمة وموضوع وخاتمة .

ومن الرسائل في العصر الحديث رسالة الإمام محمد عبده إلى أحمد الهاشمي صاحب كتاب « جواهر الأدب » في الشكوى من معاملة الانجليز وهو في السجن بسبب الثورة العرابية عام ١٨٨١ يقول فيها [٢] :

« تقلدتني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم

عزيزي هذه حالتي ، اشتد ظلام الفتن حتى تجسم ، بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين ؛ فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس ، إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين ، انتثرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشموس والأقمار ، وتغيبت الثوابت المتغيرة ، وفر كل مضيء منهزما من عالم الظلام ودارت الأفلاك دورة العكس ذاهبة بنبراتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معه آلهة الخير أجمعين ، وتمخضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله ، وطافوا على ذلك قادرين .. » .

فن الخطابة :

وهي من فنون النثر الأدبي ، تعتمد على التصوير الأدبي يتوجه به الخطيب البليغ لإقناع المتلقي بغايته الدينية أو الاجتماعية أو السياسية أو العلمية أو القضائية أو الرثائية أو غيرها بوسائل التأثير المتنوعة التي تتفتح لها منافذ الإدراك العاطفية والشعورية والعقلية والحسية ، وقد اشتمل التعريف على أركانها من الاقناع والتأثير ، وأنواعها من الدينية والاجتماعية والقضائية والعلمية والسياسية

---

(١) معجم الأدباء : ياقوت الحموي ٣/٦٢ .

(٢) جواهر الأدب : أحمد الهاشمي : ١/١١١ .

والتأبينية وغيرها ، وعلى خصائصها الفنية التي يتصف بها النص الأدبي ، وتعرضنا لكثير من نماذجها قبل ذلك ، ومنها في العصر العباسي خطبة للخليفة هارون الرشيد (١) :

« عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولن تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ، ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال : لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، لا صلاة لمن لا زكاة له إنكم سفر مجتازون ، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالإنابة ، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمنيبين » .

وأعلام الخطابة في العصر العباسي كثيرون ، منهم الخليفة أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، والمأمون ، وغيرهم ، وعمرو بن عبيد ، وصالح بن عبد الجليل ، وابن السماك ، وسواهم .

ومن أشهر الخطباء في العصر الحديث الشيخ محمد مصطفى المراغي والزعيم سعد زغلول ، والزعيم مصطفى كامل ، والزعيم أحمد عرابي ، والشيخ محمود أبو العيون ، والشيخ مصطفى القاياتي ، والشيخ إبراهيم الهلباوي والشيخ عبد الحميد كشك ، والإمام الداعية الشيخ محمد الغزالي السقا والدكتور أحمد الشرباصي ، والشيخ إسماعيل العدوي ، وغيرهم ؛ ومن خطب الوزير الشيخ أحمد حسن الباقوري لتكريم شيخ الأزهر الشيخ المراغي حين تولى مشيخة الأزهر للمرة الثانية في حفل التكريم له (٢) :

« أعرف أن الناس حين يحتشدون لتكريم عظيم راعه منهم ما دفعه إلى تكريمه وتمجيده ، إنما يحاولون أن ينتزعوا ما يجيش في صدورهم ، وتنطوي عليه نفوسهم من حب له ، وإعجاب به ، واطمئنان إليه ، وأن يصوروا ذلك كله صورة صادقة كلها اطراء وثناء ، ولكنه شباب بحكم خضوعهم لميزات الشباب ، لا تعرف عواطفهم حداً تقف عنده ، ولا مشاعرهم غاية تنتهي إليها ؛ فهم لذلك عاجزون عن تجلية ما يغمر نفوسهم من غبطة بما نال الأزهر ، ويعمر قلوبهم من

---

(١) العقد الفريد : ابن عبد ربه ١/١٠٢ .

(٢) مجلة الأزهر ، ربيع الثاني عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م .

حب الأستاذ الأكبر ، بل إنهم لأغنياء عن تجلية عاطفة إظهار غبطة بعد أن أرسلوه هتافا مدويا ملأ سمع الدهر ، وشمل جوانب الدنيا ، فاهتزت له حتى جدران الحصون ، لا نقول إذن في هذا الحفل الحاشد ، ليطلع الناس منا على حب صادق ، وسرور شامل ، وولاء عظيم ، فذلك ما تشهد له الحوادث ، وتنطلق به الوقائع ، وذلك ما سيرويه الزمن ، ويتحدث عنه التاريخ ، ولكننا ننتهز فرصة طالما تمنياها فتأبت ، لنشهد الأمة ممثلة في عظمائها وزعمائها ، وذوي الرأي فيها إن شباب الأزهر لم يضطرب اضطرابة البريء ، تهافتا على مستقبل ناعم ، ولا إيثاراً لعرض زائل ، ولكنه الوفاء لله ولدينه وللإنسانية ، دفعهم إلى تقدير مهمتهم وتعرف واجبهم ، والاتصال بأمتهم ، وقد كانوا اقتطعوا من هذه الأمة ، وهم قطعة منها ، وأبعدوا أو كادوا يبعدون عن نصرة دين الله ، وهم حماة هذا الدين الكريم ؛ فهبوا يهيمن عليهم جلال غرسته العزة الإسلامية ، ونشأتهم عليه التربية الأزهرية ، ثم هتفوا بالأستاذ المراغي رمزا للأزهر ، لا شيخا للأزهر فحسب فالأستاذ المراغي - في رأينا نحن شباب الأزهر - مبدأ ترسله الحياة في منطقها عزيزا ، وتردده الدنيا في حديثها شامخا ، وتستشرف له النفوس البارة المخلصة ، لأنه نشدة العقل ؛ بل غاية الإنسانية ، بل أمل الشريعة ، وهتاف الدين ... ، لقد شاء الله أن يدفع بالأمل الباسم في أعقاب اليأس الحاطم ، وأن يرفه عن نفوس كان قد لجّ بها الحزن الباكي ، وحطمها الأمل العنيف ، فاستيقظت فيها الثقة وعاودها الإيمان ، بأن الأزهر سوف يتصل بالحياة أنبل الاتصال وأكمله ، يقاوم المجتمع الإنساني في الشر ، ويصطدم منه الفساد ، ثم يشعره بما في الإسلام من سمو وطهر وعدالة وإقناع ، ومن ذلك يهديه إلى حيث يستروح من دستور الله عزيزا ، وشرعته منيعة ، كل ما يستشرف له من مجد وسؤدد وكمال .. يا صاحب الفضيلة : هذه قلوبنا ، بل هذه أرواحنا تستبق عهدك عهدا قويا بريئا لا يحفزنا إليه إلا إخلاص لله ، وإنصاف للأزهر ، ووفاء للإنسانية ، وإنا لنشهد الله ورسوله والمؤمنين ، على أن شباب الأزهر أول من يسلمك قياده راضيا ، لتوجهه وجهة الخير والصلاح ، وأول من يلبي دعوتك ؛ فينصر الخُلُق ، ويسوس الروح سياسة حكيمة حازمة ، وأول من سيخلص للعلم ، ليبقى العلم عزيزا ، ويحيي الأزهر ليستقبل الأزهر ألف عام أخرى ، يفخر به الوطن العزيز ، ويفزع إليه الشرق المهيض ، ويعتز به الإسلام المفدى » .

فن المقال :

وهو فن جديد من فنون النثر الأدبي في العصر الحديث ، وإن كان له جذور في التراث القديم وهي الرسالة ، مثل رسائل الجاحظ ، وعبد الحميد الكاتب ، وإخوان الصفا ، وابن العميد ، والخوارزمي ، وغيرهم ، ولم يكتمل عناصره الفنية ، ومقوماته الناضجة وأنواعه إلا في ظلال الصحافة في العصر الحديث . فهو فن أدبي يصور فيه الأديب النشاط الإنساني المتنوع من الفكر أو العاطفة والوجدان ، أو التأمل ، أو الثقافة ، أو شئون المجتمع ، أو الدين ، أو السياسة ، أو الأدب ونقده ، أو الفلسفة في بنية أدبية تعتمد على الإيجاز والتركيز والتنسيق في المعاني والألفاظ والصور والإيقاع ، وغيرها من وسائل التصوير الأدبي لتحقيق الغاية بالتأثير والإقناع .

وللمقال عناصره من المقدمة والعرض والخاتمة ، وخصائصه الفنية حسب أنواعه المختلفة من مقال ذاتي ، ومقال وصفي ، ومقال موضوعي ، ولكل منها أقسامه ؛ فأقسام المقال الذاتي : مقال اجتماعي ، وسياسي ، وديني ، وعاطفي ووجداني ، وتأملي ، وتأبيني ، وأقسام المقال الوصفي هي : المقالة الوصفية الذاتية والطبيعية ، والخارجية ، وأقسام المقال الموضوعي هي : المقال الفكري ، والتاريخي والنقدي ، والاجتماعي ، والوطني (١) .

وأكثر الكتاب والأدباء والنقاد المحدثين تألقوا في فن المقال ، منهم : محمد حسين هيكل ، والعقاد ، وطه حسين ، وأحمد حسن الزيات عميد مجلة « الرسالة » ، والمازني ، ومصطفى لطفي المنفلوطي في مؤلفاته الكثيرة ، ومصطفى صادق الرافعي ، وعبد العزيز البشري ، ومحمد فهمي عبد اللطيف ، والقاياتي والشيخ محمد الخضر حسين ، والشيخ محمد مصطفى المراغي ، وخالد محمد خالد ، والشيخ محمود شلتوت ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد الصادق إبراهيم عرجون ، والداعية الشيخ محمد الغزالي ، والشيخ محمود أبو العيون ومحمد الغمراوي ، وعبد الجواد رمضان ، ومحمد لطفي جمعه ، وعبد الرحمن الكواكبي ، والإمام محمد عبده ، وكامل عجلان ، والداعية أحمد الشرباصي

---

(١) انظر : فن المقالة : د. محمد يوسف نجم ، نشأة النثر الحديث وتطوره . عمر الدسوقي ، والفنون الأدبية وأعلامها : أنيس المقدسي ، وغيرها .

الذي يقول في مقاله : « قانون المعدة » ؛ منها [1] :

« عن المقدام بن معد يكرب قال : " سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه " رواه أحمد والترمذي والنسائي ... وهذا الحديث في الحقيقة والواقع قانون محمدي إسلامي طبي رائع لو اهتدى المسلم بنوره لسلم من كثير من الأمراض والأسقام ، وكأنما قد شرحه الحسن بأقصر عبارة حين قال : " يا ابن آدم ، كل في ثلث بطنك ، واشرب في ثلثه ، ودع ثلث بطنك يتنفس ويتفكر " ... وإذا ملأ الإنسان معدته بالطعام والشراب ، فإن أمعاءه والمعدة تضغط على الصدر فيضيق ، فلا تتم عملية التنفس بسهولة ، ولعلنا نذكر أن المتخم يقول في العادة بعد امتلاء جوفه بالطعام والشراب : إني لا أستطيع التنفس ، ولقد كان المسلمون الأوائل يعتدلون في طعامهم وشرابهم ويبتعدون عن الإسراف في هذا المجال قدر استطاعتهم ، وروي عن عبد الله بن عمر في أكثر من رواية أنه كان في طعامه لا يبلغ حد الشبع وكأنه يهتدي بالقول المنسوب إلى رسول الله ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » ، وإنما كانوا يفعلون ذلك ، لإنهم لا يريدون أن يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، وهم يحرصون على سلامة حواسهم كما يحرصون على طهارة نفوسهم ، والاعتدال في الطعام والشراب هو الطريق القويم لصيانة الصحة وتحقيق السلامة .. ولنلاحظ أن الإنسان إذا تعود الامتلاء من الحلال أغرته نفسه بتناول الحرام ، وبذلك يقع في الإثم المحظور ، ومن عود نفسه كثرة الطعام وتناول ألوانه المختلفة لا يسهل عليه بعد ذلك أن يقتصر على القليل .. والشاعر يقول :

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى القليل تقنع

والبوصيري يقول :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يُصْمِ أو يَصِمِ

(١) توجيه الرسول للحياة والأحياء . دار الجيل ٢٣٤ : ٢٤٠ .

ومن المؤكد أن التخمة تؤدي إلى أمراض كثيرة .. قال الطبيب العربي المشهور الحارث بن كلدة : « الحمية رأس الدواء والبطنة رأس الداء » .. ومن أسباب العلة في هذا المجال إدخال الطعام على الطعام ، قبل أن تهضم المعدة الطعام الأول .. وقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » ، أي أن المؤمن يأكل باعتدال واقتصاد فكأنه يأكل في معي واحد ، لكن الكافر المتمرد على آداب الدين يأكل بنهم وشراهة فكأنه يأكل في سبعة أمعاء .. ولا شك أن هناك كثيرين من المرضى والضعفاء والمهزولين ينبغي لنا أن نحثهم على الطعام ، حتى يستردوا صحتهم وقوتهم ، وإن هناك كثيرين من أهل الشره والإسراف من واجبنا أن نقول لهم : « حسبكم ، أربعوا على أنفسكم » .

وسبق أن قدمنا دراسة أدبية ونقدية عن مقال أحمد حسن الزيات بالتفصيل مما يسهل علينا دراسة مقال الشرباصي على النحو السابق في مقال الزيات في الوقوف على القيم الخلقية والفنية للمقال الإسلامي في العصر الحديث ، كما وضحنا أن القيم الخلقية والفنية للأدب الإسلامي تتفق مع جميع أنواع المقال وتتفق مع بنائها الفني ، وخصائص كل نوع منها ، ويعد المقال كالقصة من أخطر أنواع النثر الفني في التأثير على المتلقي ؛ لسهولتها ويسرها وقربها وذيوعها وسرعة انتشارها ، وتناسبها مع ظروف العصر وضغوط الحياة المختلفة ، مما لا يسمح بقراءة الكتاب والموسوعات ، فيكتفى بتتبع المقالات وقراءتها أولى من الحرمان ؛ فما لا يدرك كله لا يترك كله كما يقولون .

فن القصة والمسرحية :

من أخطر ألوان النثر الفني ، لدورها الكبير في التأثير على المجتمع وتغييره وخاصة بعد أن دخلت كل بيت عن طريق التمثيلية ، والبرامج المختلفة ، التي لا تأخذ جهدا في سماعها أو رؤيتها ، ولما تتمتع به من عناصر التشويق والصراع والإثارة والتيسير ، وكم دمرت القصة المنحرفة مجتمعات كثيرة ؟ فالقصة التي تصور القيم الخلقية والفنية السامية هي التي تسهم في رقي الشعوب وتقدمها ولها دور كبير في بناء الحضارة الإسلامية .

وترجع أهمية القصة والأقصوصة والقصة القصيرة والمسرحية إلى بنائها

الفني ، الذي وضحه النقد الحديث ، ونشير إليه هنا بإيجاز :

١ - الأحداث والمشاهد التي تقوم بها الشخصيات ، وتصويرها في الواقع من رؤية الكاتب تصويرا تلتقي فيه الأحداث الكبيرة والمشاهد الصغيرة في تطور ونمو سواء كانت مستمدة من التاريخ ، أو من واقع الحياة ، أو من الاتجاهات المعاصرة .

٢ - الشخصيات الرئيسة التي تمثل شخصية البطولة والثانوية التي تدور حول تنمية دور البطل وأدائه ، سواء كانت مستمدة من التاريخ ، أو نابعة من الواقع ، أو يقوم الخيال بتشكيلها حسبما يراها الكاتب في تحقيق الغاية من القصة ، وقد تكون شخصية مركبة ونامية ، وقد تكون شخصية ثابتة وقريبة إلى المتلقي ، وكلاهما لا بد أن يتصف بالوضوح والكمال والنضج ، والتطور والنمو وغيرها من الصفات والصور التي تبعث فيها الحيوية والواقعية .

٣ - الحبكة القصصية تعتمد على تنامي الأحداث والشخصيات في تلاحق وترابط يقوم على الصراع والإثارة والتشويق ، وهي نوعان : حبكة مفككة دانية وحبكة متماسكة عضوية ، وكلاهما لا يستغني عن عناصر الإثارة والتشويق والصراع النفسي الداخلي والخارجي والتيارات المضادة ، التي تنتهي إلى العقدة والأزمة لتنفرج بالحل ورفع الستار عن الغاية والهدف .

٤ - البيئة وتشمل الزمان والمكان ، سواء استمدها الكاتب من التاريخ أو من الواقع ، أو من عالم الخيال ، ويتسع المكان والزمان ويضيق حسب القصة أو الرواية أو الأقصوصة أو القصة القصيرة أو المسرحية .

٥ - الأسلوب وهي الطريقة التي يتبعها الأديب في تصوير الأحداث والشخصيات والبيئة ، وهي متنوعة :

أ - الحوار الذي يتميز بالإيجاز والحيوية والسهولة ، والفصحى الدانية القريبة أو الخاصة المتميزة حسب المواقف والشخصيات في القصة ، وحسب المتلقي والمخاطب بها ، ولا بد منه في المسرحية فلا يصلح السرد فيها .

ب - السرد الذي يجري على لسان القاص فتختفي الشخصيات وراء تصويره بالفصحى الدانية القريبة أو باللغة المتميزة الخاصة حسب المواقف والشخصيات ، وأسلوب السرد لا يتلاءم مع الحركة في المسرحية .

ج - لغة الوصف ؛ وهو أن يتدخل الكاتب بين الأحداث فيقطعها ليصف مشهدا من مشاهد القصة ، أو يصف شخصية وصفا خارجيا أو يسبر أغـوار النفس وهي ما يسمى بتيار الوعي .

د - الترجمة الذاتية ، يصور الكاتب حياته ويتحدث فيها عن نفسه ونشأته ومراحل حياته المختلفة وآثاره العلمية والأدبية والفكرية .

هـ - طريقة الرسائل والوثائق التي تعتمد عليها الأحداث والمشاهد .

وقد ذكرنا بعض القصص في الأدب الإسلامي ، وقمنا بتحليل بعضها ونقدها ، وغيرها كثير في العصر الحديث مثل بعض القصص للأديب عبد الرحمن الشرقاوي في قصة « الفلاح » و« رسول الحرية » و« الأرض » وغيرها ، وعند محمد عبد الحليم عبد الله في قصة « حافة الجريمة » و« بعد الغروب » و« شجرة اللبلاب » وغيرها ، وبعض القصص عند نجيب محفوظ وتيمور ، ولطفي جمعة ، ويوسف السباعي ، والطيب الصالح ، ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم والقصة عند نجيب الكيلاني ، وعند عبد الحميد جـودة السحار وطه حسين ، والعقاد ، وعلي أحمد باكثير ، والمازني ، وعلي الجارم ، وغيرهم كثيرون .

ولا يخلو الشعر من العنصر القصصي والتمثيلي عند بعض الشعراء ، مثل الشاعر إسماعيل صبري في قصيدته « آية العفاف » (١) ، والشاعر أحمد محرم في قصيدته « شهيدة العفاف » (٢) ، والشاعر أحمد نسيم في قصيدته « الفقيه الأعمى » (٣) ، والشاعر حافظ إبراهيم في قصيدته « رعاية الأطفال » (٤) ، والشاعر عبد العزيز عتيق في قصيدته « غرفة الأحزان » (٥) ، وغيرهم من الشعراء القدماء والمحدثين في قصصهم الشعري لتكون قسيما للشعر الغنائي والموضوعي في الشعر العربي .

وأما فن المسرحية الشعرية فقد تحدثنا عنه عند حديثنا عن الشعر ، وأما مسرحية النثر فهي تلتقي في بنائها الفني مع القصة ، إلا أنها تختلف عنها في

---

(١) النسائيات : ملك حفني ناصف ٤٥/٢ .

(٢) ديوان أحمد محرم ، الجزء الأول . (٣) الديوان : ٩٧/١ .

(٤) الديوان : ٢٧٥/١ . (٥) ديوان أحلام النخيل : ٢٢١ - ٢٤٥ .

الأسلوب ، فتقتصر على الحوار ، وفي الشخصيات المحدودة لا الكثيرة كما في القصة والرواية ، وفي الزمان والمكان فلا بد أن يكون محصوراً محدوداً . وغيرها من الخصائص والسمات التي تتميز بها المسرحية النثرية [1] ، والمسرحيات الشعرية والنثرية في الأدب الإسلامي كثيرة ، منها : « غروب الأندلس » و« قافلة النور » للشاعر عزيز أباظة ، ومسرحية « محمد رسول الله ﷺ » و« الصفقة » للأديب توفيق الحكيم ، ومسرحيات « من فوق سبع سماوات » و« ملحمة عمر » و« الشيماء شادية الإسلام » و« دار ابن لقمان » و« حرب البسوس » للأديب أحمد باكثير ، ومسرحيات « عدو السلام » و« صراع » و« الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز » للدكتور أحمد الشرباصي ، ومسرحيات « السابقون إلى الإسلام » و« رفيدة ممرضة الإسلام الأولى » و« شروق السلام على مصر » و« الصحابية الفارسة خولة بنت الأزور » و« الصحابي المتوج سراقة بن مالك » للكاتب أحمد شوقي الفنجري ، ومسرحيات « العبور » و« الشمس والدنس » و« المغول » و« المأسورون » و« معجزة في الضفة الغربية » و« رقص في ليل الطغيان » للدكتور عماد الدين خليل ، ومسرحيات « جهنم الصغرى » و« الزعيم » للدكتور مصطفى محمود ، ومسرحيتي « يوسف الصديق » و« عالم وطاغية » للشيخ يوسف القرضاوي ، ومسرحية « من أجل الإسلام وحواريات أخرى » للمفكر محمد المجذوب ، ومسرحية « حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ » للأديب إبراهيم سعادة ، ومسرحية « غرباء والشيخ والزنديق » للأديب أحمد بسام الساعي ، ومسرحية « في سبيل الإسلام » للأديب أحمد أبو عقيل ومسرحية « عمر بن الخطاب » للأديب محمد محمد خليفة ، ومسرحية « خديجة » للأديب عبد الحكيم سرور ، ومسرحية « تحت الأسوار » للأديب محمد علي ضناوي ، ومسرحية « تضحية وفداء » للأديب الحسيني شعبان المهدي ومسرحية « المتنبي شاعر العرب » للأديب عبد الله بوقس ، ومسرحية « صمود في معركة اليرموك » للأديب يحيى بسيوني مصطفى ، ومسرحية « البعد الخامس » للأديب أحمد رائف ، وغيرها .

---

(١) انظر المراجع التي وضحت معالم القصة والمسرحية ، وهي كثيرة ؛ منها : دراسات في القصة العربية الحديثة : د. محمد زغلول سلام ، ودراسات في القصة : محمود تيمور ، وفن القصة : د. يوسف نجم ، وغيرها .

فن السيرة الأدبي :

هي فن أدبي يقوم على التجربة الأدبية للكاتب ليعبر عن غيره أو عن نفسه ؛ فيتفاعل مع الحقائق التاريخية أو مع سيرة الحياة الواقعية في تجربة شعورية يتلاقى فيها العقل مع الخيال لتحرك المشاعر العقل ؛ لتوثيق الحقائق التاريخية والوقائع في السيرة الذاتية ، كما تثير المشاعر الخيال ، لينتقي من وسائل التعبير والتصوير الأدبي ما يبعث الحيوية والقوة في الحقائق التاريخية ، وأنماط السيرة الذاتية ، مما يثير مشاعر الآخرين وينمي خواطرهم .

لأن فن السيرة ليس تاريخا بحتا ، يعتمد على الحقائق في أسلوب علمي دقيق ، وليس أدبا خياليا صرفا ، لا يهتم بتوثيق الحقائق التاريخية ولا بالسير الواقعية ، وإنما هي فن يجمع بين الأمرين : الحقائق التاريخية والسير الذاتية ، وبين روعة التصوير الأدبي لها ، الذي يعتمد على الشعور والخيال معا .

وظهرت جذور هذا الفن الأدبي قديما في كتب السيرة النبوية وسيرة الصحابة والتابعين وسيرة البارزين من الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة والأبطال في العصور المختلفة مثل سيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبري ، وابن كثير وغيرهم .

وفن السيرة الأدبي نوعان : السيرة الغيرية ، وهي ما يصوره الأديب عن حياة الغير ، وسيرة الآخرين مثل « حياة محمد ﷺ » لمحمد حسين هيكل وكتاب « على هامش السيرة » لطه حسين ، وكتاب « السيرة النبوية » لمحمد عبد المنعم خفاجي ، وكتاب « بين يدي عمر » لخالد محمد خالد ، وكتاب « صور من حياة التابعين » لعبد الرحمن الباشا ، وكتب « العبقريات » للعقاد ، و« الفداء في الإسلام » لأحمد الشرباصي ، وغيرها . والسيرة الذاتية ، وتقوم على التصوير الأدبي لنفسه وذاته وحياته ونشأته وآثاره ومنزلته العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، مثل كتاب « الأيام » لطه حسين ، وكتاب « مواكب الحياة » لمحمد عبد المنعم خفاجي ، وكتابي « إبراهيم الأول » و« إبراهيم الثاني » للمازني وكتاب « حياتي » لأحمد أمين ، وغيرها (١) .

---

(١) انظر كتب : الترجمة الشخصية : د. شوقي ضيف ، فن السيرة : د. إحسان عباس ، الفنون الأدبية : د. أنيس المقدسي ، وغيرها .

أدب الرحلات :

وهو فن أدبي يصور فيه الأديب تجاربه في الحياة التي عاشها مع شعوب الأمة الإسلامية ، ومع غيرها في ضوء عقيدته الإسلامية ، ليعطي للقارئ صورة أمينة عن سماحة الإسلام وحضارته في التعامل مع الإنسان في أي موقع من الدنيا كما يصور في رحلاته جهاده في سبيل الله ، وفي تحصيل العلم ، ونشر الدعوة الإسلامية ، وكانت له جذور قديمة يغلب عليها التأريخ .

أما في العصر الحديث فقد ظهر في فن أدبي ، وتصوير فني أحيانا على سبيل الوصف والسرد ، وحينا في الإطار القصصي وفن الرواية والحكاية ، ومن أدب الرحلات كتاب « رحلاتي إلى البلاد الإسلامية » لمحمد محمود الصواف وكتاب « صور من الشرق في أندونيسيا » للشيخ علي الطنطاوي ، وكتاب « ذكريات لا تنسى » لمحمد المجذوب ، وكتاب « الرحلة إلى المدينة المنورة » للشيخ محمود ياسين ، وكتاب « الرحلة الحجازية » لمحمد بن عثمان السنوسي وكتب « في أفريقيا الخضراء مشاهدات وانطباعات » ، و« إطلالة على نهاية العالم الجنوبي » و« مشاهداتي في بلاد العنصريين » لمحمد بن ناصر العبودي وكتابي « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » و« مذكرات سائح في الشرق العربي » لأبي الحسن علي الحسني الندوي ، وغيرها .

فن الكتابة والتأليف :

أدب الكتابة وفن التأليف مجاله واسع يشمل كل ما كتب في الفكر الإسلامي من تفسير ، وحديث وعلم الأخلاق ، وتشريع ، ووعظ ، واقتصاد إسلامي ، ونظم إسلامية وغيرها مما يتصل بالفكر الإسلامي وتشريعه الحنيف وكل ما كتب في ذلك بأسلوب أدبي ، وتصوير فني يحتوي على عناصر الإثارة والتشويق ، وكذلك ما كتب في اللغة العربية وعلومها وبلاغتها ، أو في علم التاريخ والاجتماع بأسلوب أدبي وتصوير فني ، يعد هذا من فن الكتابة والتأليف ، لأن الكاتب والمؤلف يعرض علومه المختلفة بأسلوب أدبي جميل لا علمي ، تجلوها الصور الخيالية والبيان الجميل ، وبلاغة التعبير ، فتنفذ الأفكار العلمية والقضايا الفقهية ، أو علوم الأخلاق إلى المتلقي والمخاطب ، لا عن طريق العقل وحده ، لكن تتفتح له قبل العقل منافذ الإدراك والتوصيل الأخرى ، بل هي

التي تحرك العقل وتثيره ، وهي العاطفة والشعور ، والوجدان والإحساس ، والذوق الأدبي .

وهذا الفن ليس جديدا ، بل نجده في تراثنا العربي والإسلامي ، كما في كتاب « دلائل الإعجاز » و« أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني ، وكتاب « إعجاز القرآن » للباقلاني ، وعند كثير من المفسرين في تفسيرهم ، وكثير من المؤرخين في كتبهم ، وكذلك ظهر هذا الفن واضحا وكثيرا في المؤلفات الحديثة في شتى المجالات الإسلامية والبلاغية والأدبية واللغوية والأخلاقية والتفسيرية والتاريخية والعلمية ، وكذلك في البحوث الأكاديمية الجامعية في الأدب والنقد .

وهذا الفن في البحوث الأكاديمية تجده في بحوث الأدب والنقد غالبا وأدب التاريخ في مؤلفات الدكتور محمد الطيب النجار ، والدكتور إبراهيم شعوط ، والدكتور محمد شتا زيتون ، وغيرهم ، وأما التفسير فنجده في مؤلفات الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه « النبأ العظيم » و« مدخل إلى القرآن » وسيد قطب في تفسيره « في ظلال القرآن » ، وفي كتابيه « مشاهد القيامة » و« التصوير الفني في القرآن الكريم » وغيرها ، والدكتور عبد الغني الراجحي في مؤلفاته في التفسير وهي كثيرة ، وأما الدراسات في القرآن وفي الحديث وفي الأخلاق والنظم والفقه الإسلامي ، فنجد مؤلفات كثيرة من العسير إحصاؤها وسنكتفي بذكر بعضها للكثير من الكتاب والمؤلفين ، منهم الشيخ عبد الكريم الخطيب في كتابيه « القصص القرآني في منطوقه ومفهومه » و« القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور » ، وللأستاذ مصطفى صادق الرافعي « تحت راية القرآن » و« إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » ، وللدكتور أحمد الشرباصي في كتبه « من أدب القرآن » و« مع كتاب الله » و« توجيه الرسول للحياة والأحياء » و« يسألونك » و« أسماء الله الحسنى » و« الفداء في الإسلام » وغيرها ، وللأستاذ خالد محمد خالد « الوصايا العشر » و« الدين للشعب » و« إنسانيات محمد » و« معجزة الإسلام » و« كما تحدث القرآن » و« الموعد لله » و« لله الحرية » و« كما تحدث الرسول » وغيرها ، وللأستاذ عبد الرازق نوفل في كتبه الإسلامية « بين الدين والعلم » و« الله أعلم » و« الإعجاز العددي للقرآن الكريم » وغيرها ، وللأستاذ عباس محمود العقاد في كتبه الإسلامية والأدبية والنقدية ، وللإمام

الشيخ محمد بن عبد الوهاب في « كتاب التوحيد » و« كشف الشبهات » و« تفسير سورة الفاتحة » و« كتاب الأسماء والصفات » ، وللإمام محمد عبده في كتبه ، وللشيخ علي طنطاوي في مؤلفاته ، وللشيخ محمد بشير في كتبه وللشيخ محمد رشيد رضا ، وللدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، وللإمام الداعية الشيخ محمد الغزالي في جميع مؤلفاته ، وهي تزيد عن ثلاثين كتابا ، منها : « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » و« الإسلام والمناهج الاشتراكية » و« الإسلام والاستبداد السياسي » و« الإسلام المفترى عليه » و« عقيدة المسلم » و« خلق المسلم » و« ليس من الإسلام » و« كيف نفهم الرسلام » و« من معالم الحق » و« الطريق من هنا » وغيرها ، وسنضرب شاهدا على أدب الكتابة وفن التأليف من كتابة الشيخ الغزالي في كتابه « كيف نفهم الإسلام » ص ٧ - ١١ :

« وبلاء هذه الأمة جاءها من داخلها قبل أن يجيئها من الخارج ، وقد عرف الأئمة الأيقاظ هذه الحقيقة وعالجوا المشكلات الكثيرة على ضوئها ، نحن - مع غيرنا من المعنيين بهذا الأمر - نعرف أن مصادر التوجيه العام ومنابت الأجيال الناشئة كانت تعاني فسادا عريضا وانحرافاً شاملاً ، فكيف ينتظر الثمر الجيد من هذه الغراس ؟ : " والذي خبث لا يخرج إلا نكدا !! " .. إن تعاليم الإسلام والدعوة إليه اتخذ طريقا شاردا انتهت بالأمة الإسلامية إلى هذه الوحشة الهائلة وجعلت ألوفا مؤلفة من الناس تحيا باسم الإسلام ، وهي أقصى ما تكون عن فقهه وأدبه ، وأنأى ما تكون عن روحه ونصه !! ونحن نلتفت يمنة ويسرة في طول العالم الإسلامي وعرضه ، فترى شعوبا بينها وبين « محمد » العظيم و« تراثه » الضخم مثل ما بين عابد العجل وعالم الذرة . ومع هذا البون البعيد فإن هذه الشعوب تزعم أنها مسلمة ، وتعرف في أنحاء العالمين بهذه الشارة ، وإن كانت تجر وراءها أثقالا من الجهالة والخرافة والتخلف تزري بكل نسب .. !! .. إن غذاءنا العقلي والعاطفي بحاجة إلى تنقية مستمرة ، وإن سياسة تسميم الآبار التي رسمتها الشياطين لإغواء العباد قد آتت أكلها المرّ ، فأثمرت هذه الجماهير الغفيرة التي تعيش دون وعي صحيح ، ودون يقين ناضج ، ودون سيرة راشدة ، ودون حكم معقول !! وأين يوجد الإسلام بعدئذ أو ماذا يبقى منه ؟! ليس هناك أخطر من فساد التوجيه ، سواء حسنت النيات أم ساءت ! والهزائم الكاسحة التي أصابت الإسلام وأهله من قرن ونصف ، والتي ما نزال نلعق مرارتها ، تعود قبل

كل شيء إلى الداخل الذي غلب في أنحاء حياتنا كلها ، ولم يبق معه مجال لسنة صحيحة أو هدي نقي ، وضعف المناعة ـ أمام عربدة الإلحاد الذي يسود العالم ـ يرجع إلى فوضى التربية والتوجيه بيننا ، إن الإسلام الحق لا يكاد يبين في زحمة الموروثات التافهة والعوج المطرد ، وفي زحمة الرجس الجديد الذي وفد مع الاستعمار الغربي .. » .

ويقول الدكتور محمد عبد الله دراز في موسيقى القرآن الكريم في كتابه « النبأ العظيم » ص ١٠١ - ١٠٤ :

« أول ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره :

١ ـ دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن ، وليس نازلا بالقرآن على هوى نفسه .. ستجد اتساقا وائتلافا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر ، وستجد شيئا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر .. هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن ، لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب أنفسهم .. إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع ، الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا بالقسط ، يساعد على ترجيع الصوت به ، وتهادي النفس فيه آنا بعد آن إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى ، فيجد عندها راحته العظمى ، وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء ، ثم إلى حد الإملال في التكرير ، فإنها ما كانت تعهده قط ، ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع ، بل يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلامة تركيبه ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه .

٢ ـ فإذا ما اقتربت بأذنك قليلا قليلا ، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة ، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها ، وترتيب أوضاعها فيما بينها ، هذا ينقر ، وذاك يصفر ، وثالث يهمس

ورابع يجهر ، وآخر ينزلق عليه النفس ، وآخر يحتبس عنده النفس ، وهلم جرّا فترى الجمال اللغوي ماثلا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة ، لا كركرة ولا ثرثرة ، ولا رخاوة ولا معاظلة ، ولا تناكر ولا تنافر ، وهكذا ترى كلاما ليس بالحضري الفاتر ، ولا بالبدوي الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية برقة الحاضرة وسلاستها ، وقدر فيه الأمران تقديرا لا يبغي بعضهما على بعض فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلاستها ، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندما تلتقي أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم .

من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة ، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشى جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال ؛ ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها ، يتنافس المتنافسون فيها وحرصهم عليها .. من أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدا في أفواه الناس وآذانهم ، ما دامت فيهم حاسة تتذوق وحاسة تسمع ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره ، وينفذون بها إلى بعيد غوره ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

القيم الخلقية والفنية في أدب التأليف وفن الكتابة :

١ ـ فأما القيم الخلقية عند الإمام الشيخ الغزالي في نصه السابق من كتابه « كيف نفهم الإسلام » تظهر في حديثه عن قيم الإسلام وأخلاقه وتعاليمه السامية ، التي قامت عليها حضارة الإسلام ، فهي تتعرض في هذا العصر لغزو مدمر من كل صوب وحدب ، يأتي لها من داخل الأمة الإسلاميةعلى يد أبنائها من المستغربين ، ومن خارجها على يد أعداء الدين ، يلتقي هذا وذاك في مصادر التوجيه التي تعاني فسادا وانحرافا ، حتى أصبحت تعاليم الإسلام وقيمه في غربة لأن المسلمين بعيدون عن فقهه وآدابه ، وأصوله من القرآن الكريم والسنة الشريفة فتباعد الفرق بين السلف الصالح وبين الخلف الفاسد كالبون الشاسع بين عالم الذرة وعابد العجل ، واستغنى بالشكل لا بالجواهر مكتفياً بتعليق شارة الإسلام على جبينه ، وهو يئن بأثقال الجهالة والخرافة والتخلف ، وترجع الأسباب إلى ما بثه الشياطين في الداخل والخارج من السموم والإلحاد والانحراف مغلفا في ثياب

التوجيه والإرشاد والتعليم وتزيين المدينة الزائفة ، وإلى تلك الهزائم المتلاحقة في قرن ونصف ، ولا زال المسلمون يعانون من مرارتها ونزيفها ، حتى تخثرت على السنة الصحيحة ، وتعتمت على هدي القرآن .

وأما القيم الخلقية فيما كتبه الدكتور محمد عبد الله دراز تظهر في تصويره لمظاهر الإعجاز في النسق القرآني ، وموسيقاه الخارقة ؛ فلن يعرفها البشر ، ولا يقدر عليها أرباب الفصاحة والبلاغة ، فلا هي موسيقى الشعر ، ولا هي موسيقى النثر الفني ، وإنما هي شيء غير ذلك ، بل أسمى من ذلك كله ؛ إنها موسيقى القرآن الكريم ، كتاب الله المقدس ، لأنها لا تتعلق بالشكل والصوت المثير فقط وإنما الإعجاز في سمو الغرض ، وجلال القيم تهذب المخاطب ، وتحضر المتلقي تتجدد في كل مرة ، ولا تخلق مع الرد والمعاودة ؛ بل تغذي النفس في كل مرة بالمتعة واللذة ، التي يطيب لها الجسد وبالجمال والجلال تقوى بها الروح وتحيا ، مما لا يقل شأنا عن ضرورات الحياة ومقومات الوجود ؛ فالموسيقى القرآنية في نسقها الخارق ليست إلا مظهرا خارجياً وقشرة فوقية من ناحية يستكن وراءها الأصداف والجواهر الغالية ، وتكمن خلفها اللآلئ النفيسة من ناحية أخرى ، وهذا السياج المتين المتجدد يعمل على حفظ القرآن الكريم ، يتنافس فيه المتنافسون .

٢ ـ وأما القيم الفنية عند الإمام الشيخ الغزالي ، تظهر في بلاغة الأسلوب وقوة تأثيره ؛ لما يتمتع به من عاطفة دينية صادقة ، ومشاعر روحية دفاقة ، شكلت تصويراً أدبيا رائعا ، يعتمد على انتقاء الألفاظ الموحية ، وبنية الأساليب الحية النابضة ، وثراء التصوير الفني بروافده البليغة وعناصره الحية ، يغلب عليها التجسيم والتشخيص للقيم الخلقية ؛ فانظر كيف صور « البلاء » شخصا يأتي من الداخل قبل الخارج « وبلاء هذه الأمة جاءها من داخلها قبل أن يجيئها مـن الخارج » ، وكذلك التوجيه والمنابت أشخاص تعاني الفساد والانحراف ، وكلها معاني ، لكنها كالشجرة ، تثمر جني مراً خبيثا لا ثمرا طيبا جيدا ، ثم التوازن الرائع بين المتناقضين : السلف الصالح و الخلف المنحرف الفاسد ، كالفرق بين عالم الذرة ، وعابد العجل ، والجهالة والخرافة والتخلف تتجسد أثقالا وأحمالا يئن لها المسلم فتهلكه ، ثم انظر روعة التصوير لعربدة الإلحاد وخطر الغزو الفكري المدمر في صور تسميم الآبار على يد شياطين ؛ لتثمر علقما يتغذى به

الجماهير ، فتعيش بلا وعي ، يغشيها الشك ، وتغرق في الطيش والحيرة ، وفي تشخيص الهزائم الكاسحة لشخصية الإسلام ، حتى اهتزت القيم الصحيحة ونعتمت بضباب كثيف ، يطغى على الجوهر ، ويكدر النقى ويعكّر الصفاء .

وأما روعة التصوير الأدبي عند الدكتور محمد عبد الله دراز ، فالقرآن شخص قوي ذو إرادة حاسمة ، ينزل القارئ على هواه ، ويثير في الأذن إحساسا كالإنسان ، ينظم القرآن موسيقاه في تقسيم متنوع بين السكون والحركة تجدد نشاط السامع . كما أن تضاعيف المدّ والغنة تساعد على ترجيع الصوت ، فتتهادى النفس في شدو أوتاره ، حتى إذا ما انتهت شخصية الأذن والنفس إلى الفاصلة وجدت عندها الراحة العظمى .. إنه تشخيص حي ، ينبض بالحركة والحياة وينطق بالمحسات من الألوان والأصوات ، ويفوح بالروائح والطعوم ، ثم ذلك التشخيص الحي المثير ، حينما تقترب الأذن لتستقبل شخصية أخرى تحمل جواهر القرآن متجسدة في مخارج الحروف ، لتحدث المفاجأة الثالثة ، وهي تمتع الجميع بلذة النظم ومتعة التنغيم في الحروف والكلمات ليتعاون الجميع في عطائه الثر وتتنافس شخصياته ؛ فهذا حرف ينفر ، وثان يصفر ، وثالث يهمس في الأذن ورابع يجهر بصوت عال ، وخامس ينزلق على النفس ، وسادس محبوس يختفي وراء الستار ؛ ليتآلف الجميع في تشخيص الجمال في سحر وانسياب ، بلا كركرة ولا ثرثرة ، ولا رخاوة ، ولا معاظلة ، ولا تناكر ، ولا تنافر ، فبلغت الموسيقى القمة في الجمال والجلال إلى حد الإعجاز ، فلا هي جمال بدوي ، ولا هي جمال حضري ، بل هي أسمى من كل ذلك ؛ لأنها الموسيقى القرآنية الخارقة في إعجاز إلهي .

هذا ما قصدته من « أدب التأليف وفن الكتابة » ؛ فليس هذان الكتابان للإمام الشيخ الغزالي وللدكتور دراز شعرا في قصيدة أو ملحمة ، ولا نثرا فنيا في مقالة أو قصة أو خطبة ، إنما هما كتابان في العلم لا في الفن ، أحدهما يصور حقيقة الإسلام وجوهره وتعاليمه عند الإمام الشيخ الغزالي في كتابه « كيف نفهم الإسلام » ، وثانيهما كتاب يصور فيه الدكتور دراز إعجاز القرآن وعلومه الخارقة حين وضح بلاغة الموسيقى وعلم النسق القرآني .

لذلك أطلقت على مثل هذا الاتجاه « فن الكتابة وأدب التأليف » أو

العكس سواء ، لأن مثل هذه المؤلفات تحمل صفات الفن الممتع ، وتعتمد الكتابة العلمية فيها على سمات الأدب وروعته الفنية ؛ ليصير هذا الاتجاه فنا من فنون الأدب الإسلامي في العصر الحديث .

* * *

محتوى الجزء الثالث

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٥	تقديم	٢٦	**المـــدح**
	الفصل الثالث	٢٨	بشار يمدح عقبة بن سلم .
٧	التصوير الفني في الأدب الإسلامي .	٢٩	القيم الخلقية والفنية .
	خصائـــص الكلمـــة - والأسلوب .	٣١	ابن سلامة الإدكاوي يمدح الشافعي .
٨	خصائص الخيال .	٣٢	**المديح النبوي**
٩	عناصر التصوير الأدبي .	٣٤	بردة البوصيري .
١١	خصائص البناء الفني .	٣٧	كشف الغمة في مدح سيد الأمة للبارودي .
	الفصل الرابع	٣٩	نهج البردة لأحمد شوقي .
١٥	الأغراض الأدبية في الأدب الإسلامي .	٤٠	نهج البردة لعامر بحيري .
١٩	موضوعات الأغراض .	٤٤	مديح إبراهيم بدبوي .
	القيم التشريعية والأخلاق .	٤٨	مديح علي الجارم .
٢٠	الحضارة الإسلامية .	٥١	القيم الخلقية في القصيدة .
	التكافل الاجتماعي .	٥٤	الصورة الشعرية عند الجارم .
٢١	التضامن الإسلامي .		بين الشاعر وغادة رشيد .
	البناء النفسـي للمسلم .	٥٦	التصوير الأدبي في شعره .
٢٢	البناء الاجتماعي للأسرة .	٥٨	منابع التصوير عنده .
	الدعوة الإسلامية .	٦٢	عناصر التصوير عنده .
	شعر الجهاد .	٦٩	مديح عبد الله شمس الدين .
٢٣	الشعر الوطني .		**الفخـــر**
	التأمل في الطبيعة .	٧١	قصيدة المعري في الفخر .
٢٤	رثاء الزعماء .	٧٣	فؤاد الخطيب يفخر بالأمة الإسلامية .
	الأناشيد .		القيم الخلقية في القصيدة

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٧٦	فارس وفارس لمحمود الخفيف .	١٢٢	التربية الأخلاقية والتعليم .
	الرثاء	١٢٣	شعراء مدرسة الديوان .
٧٨	أنواع الرثاء .	١٢٤	كيلاني سند .
٧٩	رثاء حسن جاد لابنه .	١٢٥	عزت شندي .
٨١	رثاء محمد حمام لسلمان الفارسي .	١٢٧	شعر الحجاب للقاياتي وأحمد محرم والزين والأسمر وملك حفني .
٨٣	رثاء الخلفاء والزعماء .	١٢٩	هاشم الرفاعي وشباب الإسلام .
٨٥	رثاء الممالك والحضارات .	١٣٠	اللغة العربية لعلال الفاسي .
	الحضارة الإسلامية	١٣١	اللغة العربية والشيخ محمد الخضر حسين .
٨٩	مع الله عز وجل .	١٣٢	اللغة العربية وعلي الجارم .
٩١	محمود حسن إسماعيل والتأمل الإسلامي .	١٣٣	اللغة العربية ومحمود غنيم .
٩٦	مع الله والذرة لإبراهيم بديوي .	١٣٤	اللغة العربية وحافظ إبراهيم.
٩٨	الرصافي والحضارة الإسلامية.	١٣٧	عوامل شاعرية حافظ إبراهيم .
٩٩	عوامل شاعرية الرصافي .	١٤٠	الغرض من القصيدة .
١٠٠	قصيدته « يقولون » .	١٤٣	الخصائص الفنية في القصيدة .
١٠٤	الغرض من القصيدة .	١٥٠	**التضامن الإسلامي**
١٠٦	الخصائص الفنية .	١٥١	حب الوطن عند الخزاعي والرندي .
١١٣	الأزهر الشريف لحسن جاد .	١٥٢	عند مبارك المغربي والشابي .
١١٧	القيم الخلقية في التصوير الشعري .	١٥٣	فدوى طوقان والوطن .
١٢١	ملحمة الأزهر لعبد السلام سرحان .		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٥٤	خير الدين الزركلي والوطن .	١٨٦	المتنبي وأحمد محرم .
١٥٥	الدكتور خفاجي مع سيناء والعبور .	١٨٨	حافظ إبراهيم .
١٥٨	الله أكبر لعبد الحميد فارس .	١٩٠	أحمد شوقي ومحمود أبو الوفا .
١٥٩	مكة قدس الأقداس لمحمد حسن فقي .	١٩١	العقاد والدهشان .
١٦٠	الغرض من القصيدة .	١٩٣	إبراهيم نجا والهمشري .
١٦٣	التصوير الشعري في القصيدة.	١٩٤	حسن جاد وأمل الفلاح .
١٦٦	الدفاع عن الأمة الإسلامية .	١٩٥	**الطبيعة**
١٦٧	شعراء الدفاع عن الأمة الإسلامية .	١٩٨	أبو تمام وابن الرومي وشعراء الشام .
١٦٩	علي محمود طه .	١٩٩	إبراهيم الأسطى عمر الليبي.
١٧٠	أحمد محرم .	٢٠٠	سعيد أبو بكر التونسي .
١٧١	أحمد الشامي ويوسف العظم .	٢٠١	نجيب الكيلاني .
١٧٢	الصيرفي والأميري .	٢٠٢	محمد محمود الزبيري اليمني .
١٧٣	محمود عماد والطوانسي وعزت شندي .	٢٠٣	أبو ريشة وإبراهيم عزت .
١٧٤	علي شوقي وعلي الجارم .	٢٠٤	عامر بحيري وإبراهيم ناجي.
١٧٥	محمود غنيم .	٢٠٦	معنى الربيع لحسين سرحان .
١٧٦	نشأته وحياته .	٢٠٨	نشأته وحياته .
١٧٧	أغراض شعره الإسلامي .	٢٠٩	عوامل شاعريته .
١٨٤	**التكافل الاجتماعي**	٢١١	الخصائص الفنية في القصيدة.
١٨٥	الشريف المرتضي والعباس بن الأحنف .	٢١٦	**النسيب والحب العفيف**
		٢١٧	العباس بن الأحنف والحصري .
		٢١٨	أحمد شوقي والشرنوبي .

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢١٩	إبراهيم نجا .	٢٤٢	محمود أبو الوفا .
٢٢٠	محمود أبو الوفا .	٢٤٣	الملحمة والمسرحية في الشعر.
٢٢١	محمد عمر الطوانسي .		حقيقة الملحمة .
	الحب الإلهي	٢٤٥	الملاحم في الشعر الإسلامي .
٢٢٢	عمر بن الفارض .	٢٤٦	المسرح في الشعر الإسلامي .
٢٢٣	عبد الله شمس الدين .	٢٤٨	حد البلاغة للزيات .
	الزهد	٢٥١	نشأة الزيات وحياته .
	أبو العتاهية وأبو نواس والخطيب .	٢٥٢	الموضوع في مقال الزيات .
٢٢٦	محمد المهدي المجذوب السوداني .	٢٥٤	خصائص التصوير الأدبي .
٢٢٧	محمود جبر وإسماعيل صبري .	٢٥٦	ذو الرمة للدكتور يوسف خليف .
	الشكوى والاعتذار والتوبة	٢٥٩	طابع الأسلوب عنده .
٢٢٩	ابن عباد وأبو نواس وأبو تمام.	٢٦٥	جريمة : قصة خالد خليفة .
٢٣٠	الديب والدهشان والخطيب .	٢٦٩	الخصائص الفنية وتحليل القصة .
٢٣٣	**الهجاء**	٢٧٨	قصة المغرور للسحار .
٢٣٤	ابن الرومي .	٢٨٠	المسرح النثري - مسرحية سلطان العلماء لكامل محمد عجلان .
٢٣٥	يحيى بن الحكم الغزال والأثري .	٢٨٢	عناصر المسرحية .. التحليل والنقد .
٢٣٧	النشار والصيرفي .	٢٨٤	مسرحية الشيطان يسكن بيتنا للدكتور مصطفى محمود - التحليل والنقد .
٢٣٨	**الأناشيد**		
٢٤٠	علي محمود ونجا وعبد الله شمس الدين .		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٨٩	**الفصل الخامس الأدب الإسلامي بين التنظير والتطبيق**	٣٢٩	الأدب الإسلامي والرمزية .
		٣٣٠	الأدب الإسلامي والوجودية .
		٣٣٢	فنون الأدب الإسلامي
٢٨٩	الأدب الإسلامي بين المؤيدين والمعارضين .	٣٣٢	فن القصيدة الشعرية .
		٣٣٥	فن الرسالة .
٢٩٣	نشأة الأدب الإسلامي : النثر الأدبي .	٣٣٦	رسالة للإمام الشيخ محمد عبده .
٢٩٤	موقف القرآن الكريم من الشعر .		فن الخطابة .
		٣٣٧	خطبة الشيخ أحمد حسن الباقوري .
٢٩٦	موقف الرسول ﷺ من الشعر .	٣٣٩	فن المقال .
٢٩٨	موقف الصحابة ﷺ من الشعر .	٣٤٠	قانون المعدة للدكتور أحمد الشرباصي .
٣٠١	التنظير في الأدب الإسلامي .	٣٤١	فن القصة والمسرحية .
٣١٠	مفهوم الأدب الإسلامي .	٣٤٥	فن السيرة الأدبي .
٣١٢	الذوق الأدبي .	٣٤٦	أدب الرحلات .
٣١٥	معالم النقد في الأدب الإسلامي .	٣٤٦	فن الكتاب وأدب التأليف .
		٣٤٨	كتاب كيف نفهم الإسلام للإمام الغزالي .
٣١٨	السمات العامة في الأدب الإسلامي .	٣٤٩	كتاب النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز .
٣٢١	الأدب الإسلامي والمذاهب الأدبية .	٣٥٠	القيم الخلقية والفنية في أدب التأليف وفن الكتابة .
٣٢٢	الأدب الإسلامي والكلاسيكية.		
٣٢٤	الأدب الإسلامي والرومنتيكية.	٣٥٥	محتوى الجزء الثالث .
٣٢٧	الأدب الإسلامي والواقعية .		

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٨/٥٣٥٦

I.S.B.N
977 - 19 - 5934 - 4



للكمبيوتر . الطباعة . التصوير
ت : ٥٢٣٧٢٤٩ / ٥٢٣٧٢٥٠ / ٥٩٠٩٠٥٠ القاهرة